التدبر والبيان

في

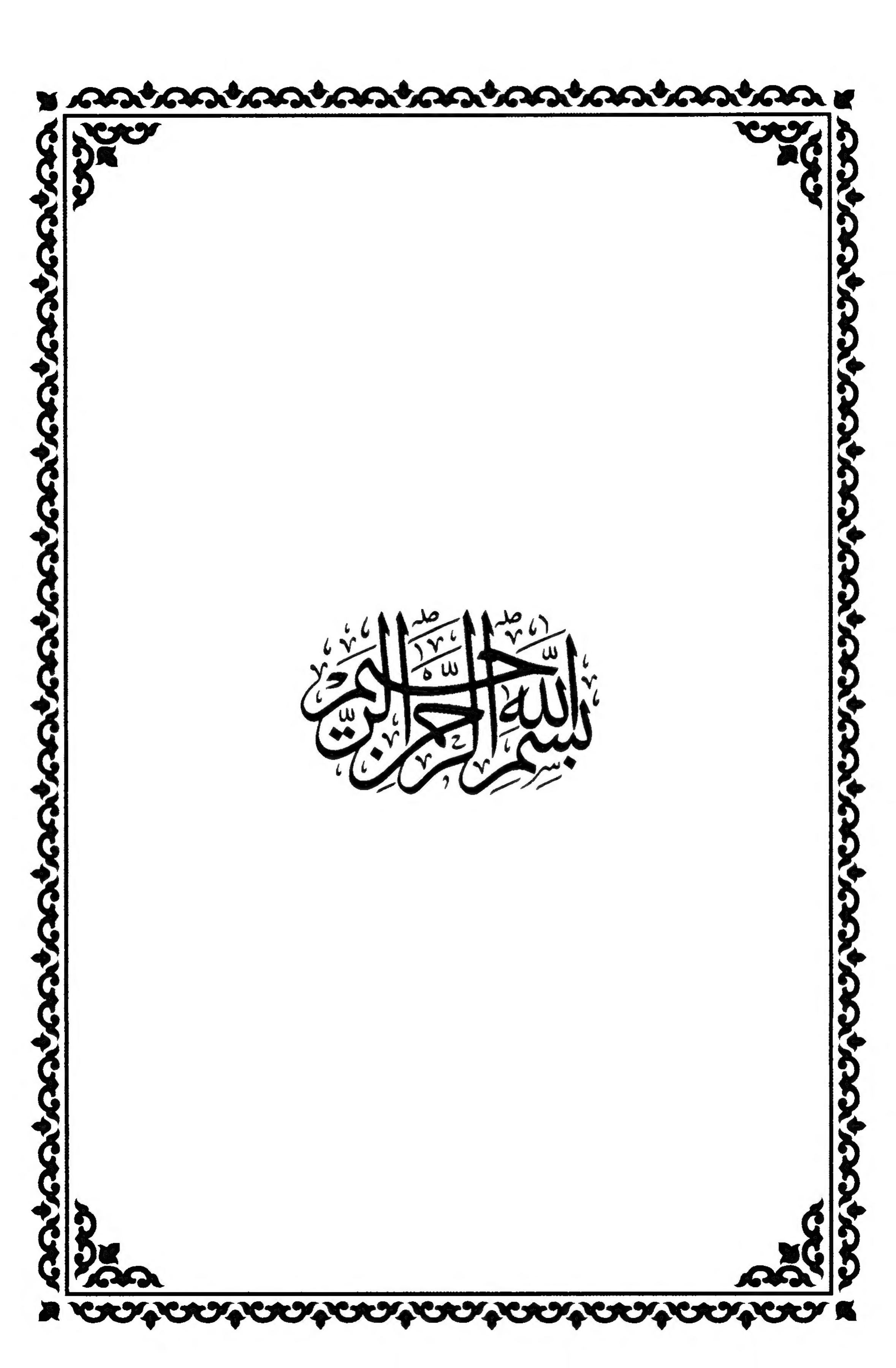
تفسير القرآن بصحيح السنن

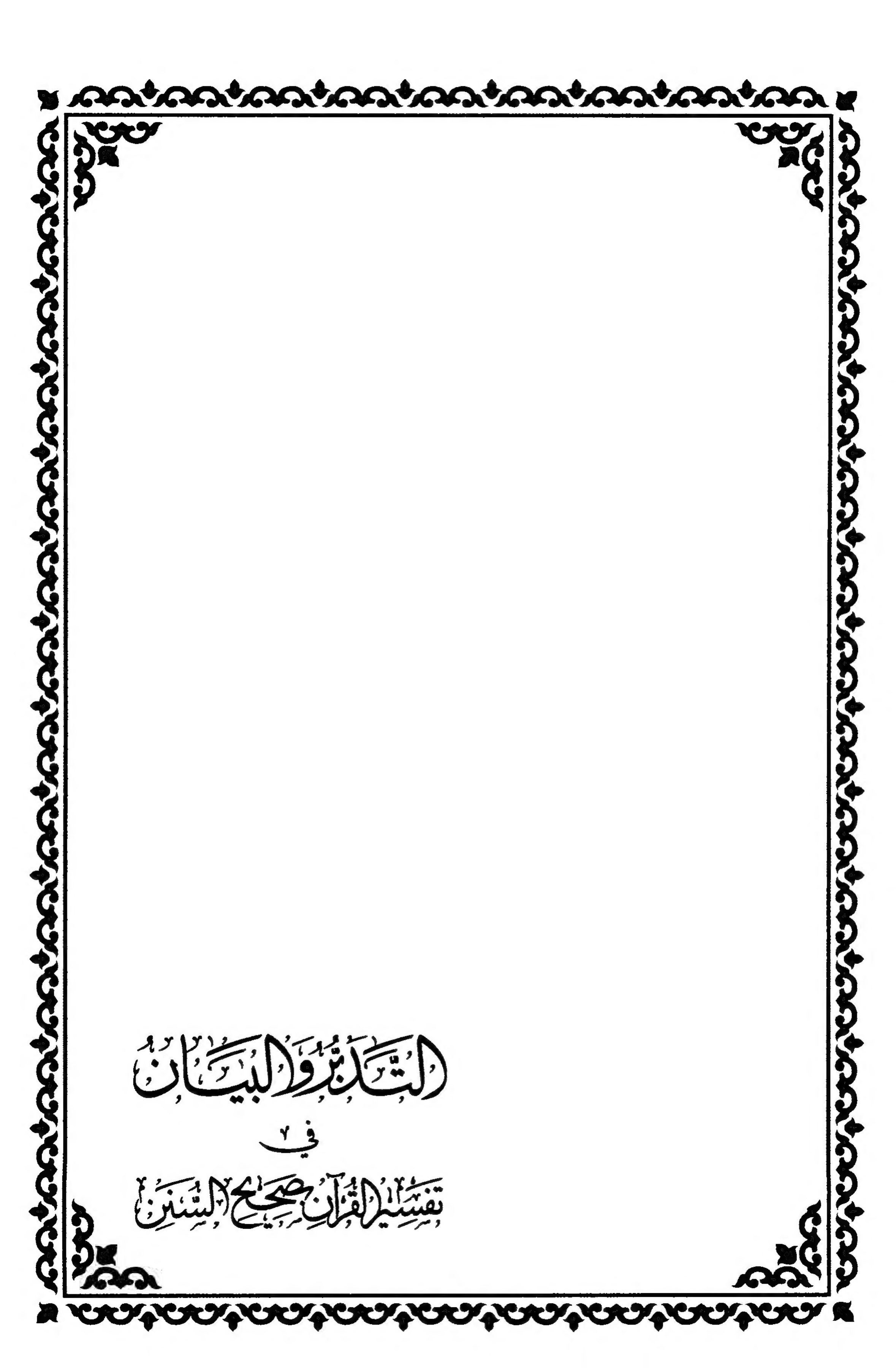
تأليف الأستاذ الدكتور

أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

المجلد السابع عشر

الرعد - الحجر


بسم الله الرحمن الرحيم

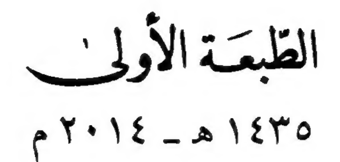


التدبر والبيان

في

تفسير القرآن بصحيح السنن





١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYĀN
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis — التصنيف : تفسير

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 عدد الصفحات (40 مجلداً)

Size 17x24 cm قياس الصفحات

Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة

Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنــان

Edition : 1st الطبعة : الأولى

جَميعُ الحُقوق محفوظةٌ للمؤلِّف

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

ردمك : ٧ـ ١٤٧ ـ ٣٣ ـ ٩٩٥٤ ـ ٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الرعد

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

تقدم الكلام على الحروف المقطعة وبيان القول الأقرب إلى الصواب في تفسير سورة (البقرة).

قال ابن كثير: «﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، وقيل: التوراة والإنجيل. قاله مجاهد وقتادة، وفيه نظر بل هو بعيد. ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: يا محمد، ﴿مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ خبر تقدم مبتدؤه، وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة. واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدة، أو عاطفة صفة على صفة كما قدمنا، واستشهد بقول الشاعر:

إلى المَلك القَرْم وابن الهُمَام ... ولَيث الكتيبة في المُزْدَحَمْ

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[1] أي: مع هذا البيان والجلاء والوضوح؛ لا يؤمن أكثرهم لما

(١) يوسف: الآية (١٠٣).

فيهم من الشقاق والعناد والنفاق»[١].

وبين خاتمة سورة (يوسف) وافتتاح هذه السورة تناسب في تقرير أن هذا القرآن حق من رب العالمين، ونفي الريب والافتراء عنه.

قال الخطيب: «وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ قصر للحق المطلق على آيات هذا الكتاب، فآيات هذا الكتاب هي الحق ولا حق وراءها؛ لأنها كلمات اللَّه.. وكلام اللَّه صفة من صفاته..

وقد جاء القصر هنا بتعريف الخبر ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ ولو جاء منكرا -كما هو مألوف لما وقع القصر-: فإنه شتان بين قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ وبين أن يقال: «والذي أنزل إليك من ربك حق»»[٢].

وقال أبو السعود: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: الكتابَ المذكور بكماله لا هذه السورةُ وحدها ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ الثابتُ المطابق للواقع في كل ما نطق به، الحقيقُ بأن يُخَصّ به الحقّيةُ لعراقته فيها، وليس فيه ما يدل على أن ما عداه ليس بحق أصلًا على أن حقّيتَه مستتبِعةٌ لحقية سائرِ الكتبِ السماوية؛ لكونه مصدّقًا لما بين يديه ومهيمِنًا عليه، وفي التعبير عنه بالموصول وإسنادِ الإنزال إليه بصيغة المبنيِّ للمفعول والتعرّضِ لوصف الربوبية مضافًا إلى ضميره ﷺ؛ من الدلالة على فخامة المنزَّل التابعةِ لجلالة شأنِ المنزِّل وتشريفِ المنزَّل إليه، والإيماءِ إلى وجه بناءِ الخبر ما لا يخفى»[٣].

قال المراغي: «﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: ولكن الناس لا يصدقون بما أنزل عليك من ربك، ولا يقرون بهذا القرآن وما فيه من بديع الأمثال والحكم والأحكام، التي تناسب مختلف العصور والأزمان، والتي لو صار الناس على سننها لسعدوا في الدنيا والآخرة، وقد سلك المسلمون سبيلها في عصورهم الأولى فكانوا خير أمة أخرجت للناس، وامتلكوا أكثر المعمور في ذلك الحين، وثلوا عروش كسرى والروم ودانت لهم الرقاب، وساسوا الملك سياسة شهد لهم أعداؤهم بأنها كانت سياسة عدل ورفق، وأخذ على يد الظالم لإنصاف المظلوم،

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦٤).

(٢) التفسير القرآني (٧/ ٦٥).

(٣) تفسير أبي السعود (٥/ ٢).

فلله دين رفع من قدر أهله حتى أوصلهم إلى السماكين[١]، ولكن خلف بعدهم خلف أضاعوا معالمه وألقوها وراءهم ظهريًّا فحاق بهم ما كانوا يكسبون، وصاروا أذلة بعد أن كانوا أعزة، ومستعبدين بعد أن كانوا سادة، تابعين بعد أن كانوا متبوعين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٢] والآية بمعنى قوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[٣]»[٤].

قلت: رحم اللّٰه الشيخ المراغي على هذا الفهم الطيب والتوجيه الحسن، فكتاب اللّٰه سبب للرفعة؛ فهو نور يزيل الظلمة، وهو عدل يزيل الظلم، وهو توحيد يزيل الشرك، وهو علم يزيل الجهل، فمن أخذه أخذ بحظ وافر من الخير والفضل، ومن نقص منه نقصه الخير والفضل، وأمة لا تعنى به لا خير فيها، وهي إلى الضلال والبوار والزوال أقرب. إن كتاب اللّٰه هو الحصن الحصين للأمة، به تهتدي، وبنبيها تقتدي، والمحروم من حُرِمه، وما ذكره من قيادة السلف وسياستهم للأمم الكبيرة؛ هو أمر مسطور في التاريخ لا ينكره إلا مكابر. وأشار رَحِمَهُ اللّٰهُ إلى حال الأمم المعاصرة حيث تخلّت عن كتاب اللّٰه، وتخلفت وصارت ذيلًا لأمم الضلال؛ من يهود ونصارى ومجوس وزنادقة وملاحدة وشيوعيين وعلمانيين، وأصبحت تعيش حالة لا تحسد عليها، فالفقر غالب على أهلها، والتخلف السياسي والفكري متضح في واقعها، وذلك لبعدها عن كتاب ربها وسنة نبيها، فيا ليت الأمم تستيقظ وتنتبه وتعترف بما أصابها، وتتعرف على أمراضها التي إن لم تتداركها كانت سبب فنائها وانهيارها، واللّٰه المستعان.

* * *

(١) السماكان: نجمان نيران أحدهما بالشمال والآخر بالجنوب.

(٢) الرعد: الآية (١١).

(٣) يوسف: الآية (١٠٣).

(٤) تفسير المراغي (١٣/ ٦١-٦٢).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

عمد: العمد: الدعائم. يقال: العَمَدُ والعُمُدُ بمعنى واحد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر اللَّه تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه: أنه الذي بإذنه وأمره رَفَع السماوات بغير عمَد، بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بُعدًا لا تنال ولا يدرك مداها، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام. ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت، وبينهما من البعد المسير خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، وهكذا الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾(١) . . .

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ﴾(٢) وقيل: المراد إلى مستقرهما، وهو تحت العرش مما يلي بطن الأرض من الجانب الآخر، فإنهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك، يكونون أبعد ما يكون عن العرش؛ لأنه على الصحيح الذي تقومُ عليه الأدلة، قبة مما يلي العالم من هذا

(١) الطلاق: الآية (١٢).

(٢) يس: الآية (٣٨).

الوجه، وليس بمحيط كسائر الأفلاك؛ لأنه له قوائم وحملة يحملونه. ولا يتصوّر هذا في الفلك المستدير، وهذا واضح لمن تَدَبَّر ما وَرَدَتْ به الآيات والأحاديث الصحيحة، ولله الحمد والمنة. وذكر الشمس والقمر؛ لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة، التي هي أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سخر هذه، فَلأن يدخل في التسخير سائرُ الكواكب بطريق الأولى والأحرى، كما نبه بقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[١] مع أنه قد صرح بذلك بقوله: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[٢].

وقوله: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي: يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه»[٣].

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

ظاهر هذه الآية الكريمة قد يفهم منه أن السماء مرفوعة على عمد، ولكننا لا نراها، ونظير هذه الآية قوله أيضًا في أول سورة (لقمان): ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[٤].

واختلف العلماء في قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ على قولين: أحدهما أن لها عمدًا ولكننا لا نراها، كما يشير إليه ظاهر الآية، وممن روى عنه هذا القول ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وغير واحد، كما قاله ابن كثير.

وروي عن قتادة أيضًا أن المعنى أنها مرفوعة بلا عمد أصلًا، وهو قول إياس بن معاوية، وهذا القول يدل عليه تصريحه تعالى في سورة (الحج) أنه هو الذي يمسكها أن تقع على الأرض في قوله: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[٥].

قال ابن كثير: فعلى هذا يكون قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تأكيدًا لنفي ذلك؛ أي: هي

---

(١) فصلت: الآية (٣٧). (٢) الأعراف: الآية (٥٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦٥-٦٦).

(٤) الآية (١٠).

(٥) الحج: الآية (٦٥).

مرفوعة بغير عمد كما ترونها كذلك، وهذا هو الأكمل في القدرة، اهـ.

قال مقيده -عفا الله عنه-: الظاهر أن هذا القول من قبيل السالبة لا تقتضي وجود الموضوع، والمراد أن المقصود نفي اتصاف المحكوم عليه بالمحكوم به، وذلك صادق بصورتين:

الأولى: أن يكون المحكوم عليه موجودًا، ولكن المحكوم به منتف عنه، كقولك ليس الإنسان بحجر، فالإنسان موجود والحجرية منتفية عنه.

الثانية: أن يكون المحكوم عليه غير موجود فيعلم منه انتفاء الحكم عليه بذلك الأمر الموجودي، وهذا النوع من أساليب اللغة العربية، كما أوضحناه في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب»، ومثاله في اللغة قول امرئ القيس:

على لاحب لا يهتدى بمناره إذا سافه العود النباطي جرجرا

أي: لا منار له أصلًا حتى يهتدي له، وقوله:

لا تفزع الأرنب أهوالها ولا ترى الضب بها ينجحر

يعني لا أرانب فيها ولا ضباب.

وعلى هذا فقوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي: لا عمد لها حتى تروها»[(١)].

وقال القاسمي: «﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾: أي: أمر العالم العلوي والسفلي ويصرفه ويقضيه بمشيئته وحكمته على أكمل الأحوال. لا يشغله شأن عن شأن. وقوله تعالى ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ يعني: الآيات الدالة على وحدته وقدرته ونعوته الجليلة؛ أي: يبينها في كتبه المنزلة. وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي: لعلكم توقنون وتصدقون بأن هذا المدبر والمفصل، لا بد لكم من المصير إليه، بالبعث بعد الموت للجزاء، فإن من تدبر حق التدبر، أيقن أن من قدر على إبداع ما ذكر من الآيات العلوية، قدر على الإعادة والجزاء»[(٢)].

قال المراغي: «وخلاصة هذه العبرة: إنه تعالى كما قدر على إبقاء الأجرام الفلكية العظيمة من الشمس والقمر وسائر الكواكب في الجو بلا عمد، ودبر الأمور بغاية الإحكام والدقة ولم يشغله شأن عن شأن؛ ليس بالبعيد عليه أن يرد الأرواح

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٧٧-٧٨).

(٢) محاسن التأويل (٩/ ٣٢٤).

إلى الأجساد ويعيد العالم إلى حياة أخرى: حياة استقرار وفناء وبقاء لا فناء بعدها، وإذا أيقنتم بذلك وليتم معرضين عن عبادة الأصنام والأوثان، وأخلصتم العبادة للواحد الديان، وائتمرتم بوعده ووعيده وصدقتم برسله، وبادرتم إلى اتباع أوامره وتركتم ما نهى عنه؛ ففزتم بسعادة الدارين»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الاستواء

*** عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: «ما بين السماء الدنيا والتي تليها مسيرة خمسمائة عام، وبين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام، وبين السماء السابعة وبين الكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي إلى الماء خمسمائة عام، والعرش على الماء، والله تعالى فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه»[٢].**

★ فوائد الحديث:

قال الدارمي في «باب استواء الرب -تبارك وتعالى- على العرش وارتفاعه إلى السماء وبينونته من الخلق»: «وهو أيضًا مما أنكروه، وقد قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[٣] وقال: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٤] وقد قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٥] وقوله:

(١) تفسير المراغي (١٣/ ٦٥)

(٢) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٢٩٠-٢٩٢/ ٨٥١-٨٥٢)، وابن خزيمة في «كتاب التوحيد» (١/ ٢٤٢-٢٤٣/ ١٤٩)، والطبراني في الكبير (٩/ ٢٠٢/ ٨٩٨٦-٨٩٨٧)، والدارمي في «الرد على الجهمية (ص: ٢٦-٢٧) واللفظ له، واللالكائي في «شرح اعتقاد أهل السنة (٣/ ٤٣٨-٤٣٩/ ٦٥٩)، وابن عبدالبر في «التمهيد» (٢/ ١٦ فتح البر). قال الذهبي: إسناده صحيح (مختصر العلو، ص: ١٠٣).

(٣) الأعراف: الآية (٥٤)، يونس: الآية (٣). (٤) طه: الآيات (٤-٨).

(٥) السجدة: الآيات (٤-٦).

﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[١] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[٢] وقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٣] وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ﴾[٤] وقوله: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[٥] وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾[٦] ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[٧].

قال أبو سعيد: أقرت هذه العصابة بهذه الآيات بألسنتها، وادّعوا الإيمان بها، ثم نقضوا دعواهم بدعوى غيرها، فقالوا: اللَّه في كل مكان، لا يخلو منه مكان. قلنا: قد نقضتم دعواكم بالإيمان باستواء الرب على عرشه، إذ ادعيتم أنه في كل مكان، فقالوا: تفسيره عندنا أنه استولى عليه وعلاه، قلنا: فهل من مكان لم يستول عليه ولم يعله، حتى خص العرش من بين الأمكنة بالاستواء عليه، وكرر ذكره في مواضع كثيرة من كتابه؟ فأي معنى إذًا لخصوص العرش إذ كان عندكم مستويًا على جميع الأشياء، كاستوائه على العرش -تبارك وتعالى-؟

هذا محال من الحجج، وباطل من الكلام... لما سمعنا قول اللَّه ﷻ في كتابه: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[٨] و﴿ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾[٩] وقوله: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾[١٠] وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾[١١] و﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ﴾[١٢] ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ

(١) آل عمران: الآية (٥٥).
(٢) الأنعام: الآية (١٨).
(٣) النحل: الآية (٥٠).
(٤) فاطر: الآية (١٠).
(٥) المعارج: الآيتان (٣و٤).
(٦) الملك: الآيتان (١٦و١٧).
(٧) فصلت: الآيات (٩-١٢).
(٨) الأعراف: الآية (٥٤).
(٩) البقرة: الآية (٢٩)، فصلت: الآية (١١).
(١٠) المعارج: الآيتان (٣و٤).
(١١) السجدة: الآية (٥).
(١٢) فاطر: الآية (١٠).

عِبَادِهِۦ﴾[١] و﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[٢] وما أشبهها من القرآن، آمنا به، وعلمنا يقينًا بلا شك أن اللَّه فوق عرشه فوق سماواته، كما وصف، بائن من خلقه، فحين قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾[٣] قلنا: هو معهم بالعلم الذي افتتح به الآية وختمها، لأنه قال في آي كثيرة ما حقق أنه فوق عرشه فوق سماواته، فهو كذلك لا شك فيه، فلما أخبر أنه مع كل ذي نجوى، قلنا: علمه وبصره معهم، وهو بنفسه على العرش بكماله، كما وصف، لأنه لا يتوارى منه شيء، ولا يفوت علمه وبصره شيء في السماء السابعة العليا، ولا تحت الأرض السابعة السفلى، وهذا كقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[٤] من فوق العرش.

فهل من حجة أشفى وأبلغ مما احتججنا به عليك من كتاب اللَّه تعالى. ثم الراويات لتحقيق ما قلنا متظاهرة عن رسول اللَّه ﷺ وأصحابه والتابعين، سنأتي منها ببعض ما حضر إن شاء اللَّه تعالى. ثم إجماع من الأولين والآخرين العالمين منهم والجاهلين، أن كل واحد ممن مضى وممن غبر، إذا استغاث باللَّه تعالى، أو دعاه، أو سأله، يمد يديه وبصره إلى السماء يدعوه منها، ولم يكونوا يدعوه من أسفل منهم من تحت الأرض، ولا من أمامهم، ولا من خلفهم، ولا عن أيمانهم، ولا عن شمائلهم، إلا من فوق السماء، لمعرفتهم باللَّه أنه فوقهم، حتى اجتمعت الكلمة من المصلين في سجودهم: سبحان ربي الأعلى، لا ترى أحدًا يقول: ربي الأسفل، حتى لقد علم فرعون في كفره وعتوه على اللَّه أن اللَّه ﷻ فوق السماء فقال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾[٥].

ففي هذه الآية بيان بين، ودلالة ظاهرة أن موسى كان يدعو فرعون إلى معرفة اللَّه بأنه فوق السماء، فمن أجل ذلك أمر ببناء الصرح ورام الاطلاع إليه»[٦].

وقد تقدم الكلام على صفة الاستواء في سورة (الأعراف) الآية (٥٤) بمزيد من التفصيل.

---

(١) الأنعام: الآية (١٨).
(٢) آل عمران: الآية (٥٥).
(٣) المجادلة: الآية (٧).
(٤) طه: الآية (٤٦).
(٥) غافر: الآية (٣٦-٣٧).
(٦) الرد على الجهمية (ص: ١٧-٢١).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾

★ غريب الآية:

رواسي: أي: جبال ثوابت، من الرَّسْو: وهو الثبوت. يقال: رسا يرسو رُسُوًّا إذا ثبت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى العالم العلوي، شرع في ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلي، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون ليسقي ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح، من كل زوجين اثنين؛ أي: من كل شكل صنفان.

﴿يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: جعل كلًّا منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا، فإذا ذهب هذا غَشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضًا في الزمان كما يتصرف في المكان والسكان.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: في آلاء اللَّه وحكمه ودلائله»[1].

وقال الخطيب: «ففي كل هذا، آيات ودلائل، على وجود الخالق، وعلى قدرته، وعلمه: ولكن هذه الآيات لا تنكشف إلا لمن وجه إليها بصره، وأعمل فيها فكره.. أما من أعرض عنها، وأغلق عقله وقلبه دونها، فإنه لا يرى من هذه الآيات إلا عوالم جامدة صماء، لا تنطق بشيء ولا تحدث عن شيء»[2].

وقال ابن عاشور: «وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ﴾ إشارة إلى ما تقدم من قوله:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦٦-٦٧).

(٢) التفسير القرآني (٧/ ٦٧).

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[١] إلى هنا بتأويل المذكور.

وجَعل الأشياء المذكورات ظروفًا لآيات؛ لأن كل واحدة من الأمور المذكورة تتضمن آيات عظيمة يجلوها النظر الصحيح والتفكير المجرد عن الأوهام. ولذلك أجرى صفة التفكير على لفظ قَوم إشارة إلى أن التفكير المتكرر المتجدد هو صفة راسخة فيهم بحيث جعلت من مقومات قوميتهم؛ أي: جبلتهم.. وفي هذا إيماء إلى أن الذين نسبوا أنفسهم إلى التفكير من الطبائعيين فعللوا صدور الموجودات عن المادة، ونفوا الفاعل المختار، ما فكروا إلا تفكيرًا قاصرًا مخلوطًا بالأوهام، ليس ما تقتضيه جبلة العقل إذ اشتبهت عليهم العلل والمواليد، بأصل الخلق والإيجاد. وجيء في التفكير بالصيغة الدالة على التكلف وبصيغة المضارع للإشارة إلى تفكير شديد ومُكرر»[٢].

* * *

(١) الرعد: الآية (٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٨٥).

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

قطع: جمع قطعة، وهي الجزء من الشيء تشبيها لها بما يقتطع.

صنوان: جمع صنو، بكسر الصاد، وقد تضم. والصنو: الفسيلة المتفرعة مع غيرها من أصل شجرة واحدة. وتثنيته: صنوانِ من غير تنوين بخلاف جمعه، ونظير هذه الكلمة: قنو وقنوان ولا ثالث لهما في القرآن. وفي الحديث: «**أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه**»[1].

الأُكل: بضم الهمزة: الثمر وما يؤكل، وبفتحها: تناول المطعم، والكاف فيهما: تسكن وتضم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ أي: أراضٍ يجاور بعضها بعضا، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينفع به الناس، وهذه سَبخة مالحة لا تنبت شيئًا. هكذا روي عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَيْر، والضحاك، وغير واحد.

ويدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة وهذه سهلة، وهذه مرملة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات. فهذه بصفتها، وهذه بصفتها الأخرى، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

---

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة: أحمد (٢/ ٣٢٢) والبخاري (٣/ ٤٢٢/ ١٤٦٨)، ومسلم (٢/ ٦٧٦-٦٧٧/ ٩٨٣) واللفظ له، وأبو داود (٢/ ٢٧٣-٢٧٥/ ١٦٢٣)، والترمذي (٥/ ٦١١/ ٣٧٦١) مختصرا، والنسائي (٥/ ٣٤/ ٢٤٦٣) وليس موضع الشاهد عند البخاري والنسائي.

وقوله: ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ يحتمل أن تكون عاطفة على ﴿جَنَّاتٌ﴾ فيكون ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ مرفوعين. ويحتمل أن يكون معطوفًا على أعناب، فيكون مجرورا؛ ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة. وقوله: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ . . . وقال سفيان الثوري، وشعبة، عن أبي إسحق، عن البراء، ﷺ: الصنوان: هي النخلات في أصل واحد، وغير الصنوان: المتفرقات. وقاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد. وقوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ قال الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ: ﴿بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ قال: «الدَّقَل والفارسي، والحُلْو والحامض»[1].

أي: هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع، في أشكالها وألوانها، وطعومها وروائحها، وأوراقها وأزهارها. فهذا في غاية الحلاوة وذا في غاية الحموضة، وذا في غاية المرارة وذا عَفِص، وهذا عذب وهذا جمع هذا وهذا، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن اللَّه تعالى. وهذا أصفر وهذا أحمر، وهذا أبيض وهذا أسود وهذا أزرق. وكذلك الزهورات مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة، وهو الماء، مع هذا الاختلاف الكبير الذي لا ينحصر ولا ينضبط، ففي ذلك آيات لمن كان واعيا، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار، الذي بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾»[2].

وقال أبو حيان: «ومعنى بماء واحد: ماء مطر، أو ماء بحر، أو ماء نهر، أو ماء عين، أو ماء نبع لا يسيل على وجه الأرض. وخص التفضيل في الأكل وإن كانت متفاضلة في غيره، لأنه غالب وجوه الانتفاع من الثمرات. ألا ترى إلى تقاربها في الأشكال، والألوان، والروائح، والمنافع، وما يجري مجرى ذلك؟ قيل: نبه اللَّه تعالى في هذه الآية على قدرته وحكمته، وأنه المدبر للأشياء كلها، وذلك أن الشجرة تخرج أغصانها وثمراتها في وقت معلوم لا تتأخر عنه ولا تتقدم، ثم يتصعد

(١) رواه الترمذي (٥/ ٢٧٥/ ٣١١٨) وقال: «حسن غريب»، وحسنه الشيخ الألباني.
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦٧-٦٨).

الماء في ذلك الوقت علوًّا علوًّا وليس من طبعه إلا التسفل، يتفرق ذلك الماء في الورق والأغصان والثمر كل بقسطه وبقدر ما فيه صلاحه، ثم تختلف طعوم الثمار والماء واحد، والشجر جنس واحد. وكل ذلك دليل على مدبر دبره وأحكمه، لا يشبه المخلوقات»[(١)].

ولقد أعجبتني أبيات نقلها الألوسي عن بعض الرجاز قال:

«والأرض فيها عبرة للمعتبر ... تخبر عن صنع مليك مقتدر
تسقى بماء واحد أشجارها ... وبقعة واحدة قرارها
والشمس والهواء ليس يختلف ... وأكلها مختلف لا يأتلف
لو أن ذا من عمل الطبائع ... أو أنه من صنعة غير صانع
لم يختلف وكان شيئًا واحدا ... هل يشبه الأولاد إلا الوالدا
الشمس والهواء يا معاند ... والماء والتراب شيء واحد
فما الذي أوجب ذا التفاضلا ... إلا حكيم لم يرده باطلا»[(٢)].

قلت: والذي ينبغي أن يفهم من الآية -إضافة إلى ما ذكره المفسرون من دلالتها على قدرة اللَّه تعالى- ما ذكره **البغوي** عن الحسن قال: «هذا مثل ضربه اللَّه تعالى لقلوب بني آدم، يقول: كانت الأرض طينة واحدة في يد الرحمن ﷻ، فسطحها، فصارت قطعًا متجاورةً، فينزل عليها المطر من السماء، فتخرج هذه زهرتها، وشجرها وثمرها ونباتها، وتخرج هذه سَبَخَها وملحها وخبيثها، وكل يُسقَى بماء واحد، كذلك الناس خلقوا من آدم عليه السلام، فينزل من السماء تذكرة فترق قلوب فتخشع، وتقسو قلوب فتلهو.

قال الحسن: واللَّه ما جالس القرآن أحد إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان، قال اللَّه تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[(٣)]»[(٤)].

(١) البحر المحيط (٥/ ٣٥٧).
(٢) روح المعاني (١٣/ ١٠٣).
(٣) الإسراء: الآية (٨٢).
(٤) معالم التنزيل (٤/ ٢٩٥).

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥﴾

★ غريب الآية:

الأغلال: جمع غلّ، وهو طوق تقيد به اليد إلى العنق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد مع ما يشاهدونه من آيات اللّه سبحانه ودلائله في خلقه على أنه القادر على ما يشاء، ومع ما يعترفون به من أنه ابتدأ خلق الأشياء، فكونها بعد أن لم تكن شيئًا مذكورا، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره في أنه سيعيد العالم خلقًا جديدًا، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به، فالعجب من قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] ثم نعت المكذبين بهذا فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ أي: يسحبون بها في النار، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: ماكثون فيها أبدًا، لا يحولون عنها ولا يزولون»[2].

قال ابن عطية: «هذه آية توبيخ للكفرة؛ أي: ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ يا محمد من جهالتهم وإعراضهم عن الحق؛ فهم أهل لذلك، وعجب وغريب ومزر بهم ﴿قَوْلُهُمْ﴾: أنعود بعد كوننا ﴿تُرَٰبًا﴾ خلقًا جديدًا. ويحتمل اللفظ منزعًا آخر؛ أي:

---

(١) الأحقاف: الآية (٣٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦٨).

وإن كنت تريد عجبًا فلهم؛ فإن من أعجب العجب ﴿قَوْلُهُمْ﴾»[١].

وقال ابن عاشور: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ عطف على جملة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[٢] فلما قُضِي حق الاستدلال على الوحدانية نقل الكلام إلى الردّ على منكري البعث، وهو غرض مستقل مقصود من هذه السورة. وقد أدمج ابتداءً خلال الاستدلال على الوحدانية بقوله: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[٣] تمهيدًا لما هنا، ثم نقل الكلام إليه باستقلاله بمناسبة التدليل على عظيم القدرة مستخرجًا من الأدلة السابقة عليه أيضًا كقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[٤] وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾[٥] فصيغ بصيغة التعجيب من إنكار منكري البعث؛ لأن الأدلة السالفة لم تبق عذرًا لهم في ذلك فصار في إنكارهم محل عجب المتعجب. فليس المقصود من الشرط في مثل هذا تعليق حصول مضمون جواب الشرط على حصول فعل الشرط كما هو شأن الشروط؛ لأن كون قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ عجبًا أمر ثابت سواء عجب منه المتعجب أم لم يعجب، ولكن المقصود أنه إن كان اتصاف بتعجب فقولهم ذلك هو أسبق من كل عجب لكل متعجب، ولذلك فالخطاب يجوز أن يكون موجهًا إلى النبي ﷺ، وهو المناسب بما وقع بعده من قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾[٦] وما بعده من الخطاب الذي لا يصلُحُ لغير النبي ﷺ. ويجوز أن يكون الخطاب هنا لغير معين مثل ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾[٧]. والفعل الواقع في سياق الشرط لا يقصد تعلقه بمعمول معين فلا يقدر: إن تعجب من قول أو إن تعجب من إنكار، بل ينزل الفعل منزلة اللازم ولا يقدر له مفعول. والتقدير: إن يكن منك تعجب فاعجب من قولهم، إلخ... على أن وقوع الفعل في سياق الشرط يشبه وقوعه في سياق النفي فيكون لعموم المفاعيل في المقام الخَطابي؛ أي: إن تعجب من شيء فعجب قولهم. ويجوز أن تكون جملة: ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ الخ

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٢٩٥).
(٢) الرعد: الآية (٥).
(٣) الرعد: الآية (٢).
(٤) ق: الآية (١٥).
(٥) الطارق: الآية (٨).
(٦) الرعد: الآية (٦).
(٧) السجدة: الآية (١٢).

عطفًا على جملة: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]. فالتقدير: إن تعجب من عدم إيمانهم بأن القرآن منزل من الله، فعجب إنكارهم البعث.

وفائدة هذا هو التشويق لمعرفة المتعجب منه تهويلًا له أو نحوه، ولذلك فالتنكير في قوله: فعجب للتنويع لأن المقصود أن قولهم ذلك صالح للتعجيب منه، ثم هو يفيد معنى التعظيم في بابه تبعًا لما أفاده التعليق بالشرط من التشويق.

والاستفهام في ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ إنكاري، لأنهم موقنون بأنهم لا يكونون في خلق جديد بعد أن يكونوا ترابًا. والقول المحكي عنهم فهو في معنى الاستفهام عن مجموع أمرين وهما كونهم: ترابًا، وتجديد خلقهم ثانية. والمقصود من ذلك العجب والإحالة»[2].

وقال ابن القيم: «وفي الآية قولان:

أحدهما: إن تعجب من قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فعجب قولهم كيف ينكرون هذا وقد خلقوا من تراب ولم يكونوا شيئًا.

والثاني: إن تعجب من شركهم مع الله غيره، وعدم انقيادهم لتوحيده وعبادته وحده لا شريك له؛ فإنكارهم للبعث وقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أعجب.

وعلى التقديرين فإنكار المعاد عجب من الإنسان، وهو محض إنكار الرب والكفر به، والجحد لإلهيته وقدرته، وحكمته وعدله وسلطانه»[3].

وقال الألوسي: «وذهب بعض إلى أن الخطاب في ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ عام، والمعنى: إن تعجب يا من نظر ما في هذه الآيات، وعلم قدرة من هذه أفعاله؛ فازدد تعجبًا ممن ينكر مع هذا قدرته على البعث وهو أهون شيء عليه»[4].

* * *

(١) الرعد: الآية (١).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٨٩-٩٠).

(٣) مدارج السالكين (١/ ١٢٦).

(٤) روح المعاني (١٣/ ١٠٥).

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾

★ غريب الآية:

يستعجلونك: الاستعجال: طلب التعجيل بالأمر، وهو الإسراع به قبل أوانه.

المثلات: بفتح الميم وضم الثاء جمع مَثُلة كسَمُرة: وهي العقوبة التي تبقي في المعاقب شيئًا، وتأتي أيضًا كغُرفة وغُرُفات، ومثلات كسجدات، ومُثْلات ومَثْلات بضم الميم وفتحها وسكون الثاء فيهما.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ أي: هؤلاء المكذبون ﴿بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: بالعقوبة، كما أخبر عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾[2] وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾[3] وقال: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾[4] ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾[5] أي: حسابنا وعقابنا، كما قال مخبرا عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾[6] فكانوا من شدة تكذيبهم وعنادهم وكفرهم يطلبون أن يأتيهم بعذاب اللَّه، قال اللَّه تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ أي: قد أوقعنا نقمنا بالأمم الخالية وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم.

---

(١) الحجر: الآيات (٦-٨).
(٢) العنكبوت: الآية (٥٣).
(٣) المعارج: الآية (١).
(٤) الشورى: الآية (١٨).
(٥) ص: الآية (١٦).
(٦) الأنفال: الآية (٣٢).

ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾[1]. وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي: إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار. ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب، ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[2] وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3] وقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾[4] إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الرجاء والخوف»[5].

وقال ابن عاشور: «وجملة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ عطف على قوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾. وهذا كشف لغرورهم بتأخير العذاب عنهم؛ لأنهم لمّا استهزؤوا بالنبي ﷺ وتعرضوا لسؤال حلول العذاب بهم ورأوا أنه لم يعجل لهم حلوله اعترتهم ضراوة بالتكذيب، وحسبوا تأخير العذاب عَجْزًا من المتوعد، وكذبوا النبي ﷺ وهم يجهلون أن اللّه حليم يُمهل عباده لعلهم يرجعون، فالمغفرة هنا مستعملة في المغفرة الموقتة، وهي التجاوز عن ضراوة تكذيبهم وتأخير العذاب إلى أجل، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[6].

وقرينة ذلك أن الكلام جار على عذاب الدنيا وهو الذي يقبل التأخير كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾[7]؛ أي: عذاب الدنيا، وهو الجوع الذي أصيب به قريش بعد أن كان يطعمهم من جوع. و(على) في قوله: ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ بمعنى (مع).

وسياق الآية يدل على أن المراد بالمغفرة هنا التجاوز عن المشركين في الدنيا بتأخير العقاب لهم إلى أجل أراده اللّه أو إلى يوم الحساب، وأن المراد بالعقاب في

(١) فاطر: الآية (٤٥).
(٢) الأنعام: الآية (١٤٧).
(٣) الأعراف: الآية (١٦٧).
(٤) الحجر: الآيتان (٤٩و٥٠).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦٨-٦٩).
(٦) هود: الآية (٨).
(٧) الدخان: الآية (١٥).

قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ضد تلك المغفرة وهو العقاب المؤجل في الدنيا أو عقاب يوم الحساب، فمحمل الظلم على ما هو المشهور في اصطلاح القرآن من إطلاقه على الشرك.

ويجوز أن يحمل الظلم على ارتكاب الذنوب بقرينة السياق كإطلاقه في قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ﴾[1] فلا تعارض أصلًا بين هذا المحمل وبين قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[2] كما هو ظاهر.

وفائدة هذه العلاوة إظهار شدة رحمة اللّه بعباده في الدنيا كما قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[3].

وجملة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ احتراس لئلا يحسبوا أن المغفرة المذكورة مغفرة دائمة تعريضًا بأن العقاب حال بهم من بعد»[4].

وقال القاسمي: «وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ من الناس من حمل المغفرة على المتعارف منها، وهو مغفرة الذنوب مطلقًا إلا حيث دل الدليل على التقييد في غير الموحد فإن ظلمه - أعني شركه - لا يغفر.. وما عدا الشرك فغفرانه في المشيئة. ومنهم من ذهب إلى أن المغفرة مراد بها معناها اللغوي. وهو الستر والصفح، بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة؛ أي: إنه ذو صفح عظيم لا يعاجل بالعقوبة. مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ وهذا التأويل أنسب بالسياق الرهيب»[5].

وقال القنوجي: «وفي الآية: بشارة عظيمة ورجاء كبير؛ لأن من المعلوم أن الإنسان حال اشتغاله بالظلم لا يكون تائبا، فيجوز العفو قبل التوبة، ولهذا قيل: إنها في عصاة الموحدين خاصة. وقيل: المراد بالمغفرة هنا تأخير العقاب إلى

---

(١) النساء: الآية (١٦٠). (٢) النساء: الآية (٤٨).

(٣) فاطر: الآية (٤٥).

(٤) التحرير والتنوير (١٣/ ٩١-٩٤).

(٥) محاسن التأويل (٩/ ٣٠-٣٣١).

الآخرة كما تقدم، ليطابق ما حكاه اللَّه من استعجال الكفار للعقوبة، وكما يفيده قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فيعاقب من يشاء من العصاة المكذبين من الكافرين عقابا شديدا، على ما تقتضيه مشيئته في الدار الآخرة، فتأخير ما استعجلوه ليس للإهمال»[١].

* * *

(١) فتح البيان (٧/ ٢١).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يا محمد، من قومك ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ هلا أنزل على محمد آية من ربه؟ يعنون علامةً وحجةً له على نبوّته، وذلك قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾[1] يقول اللَّه له: يا محمد ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ لهم، تنذرهم بأسَ اللَّه أن يحلّ بهم على شركهم. ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾. يقول ولكل قوم إمام يأتمُّون به وهادٍ يتقدمهم، فيهديهم إما إلى خيرٍ وإما إلى شرٍّ.

وقد بينت معنى «الهداية»، وأنه الإمام المتبع الذي يقدُم القوم. فإذ كان ذلك كذلك، فجائز أن يكون ذلك هو اللَّه الذي يهدي خلَقه ويتَّبع خلقُه هداه ويأتمون بأمره ونهيه.

وجائز أن يكون نَبِيَّ اللَّه الذي تأتمُّ به أمته. وجائز أن يكون إمامًا من الأئمة يُؤْتَم به، ويتّبع منهاجَه وطريقته أصحابُه. وجائزٌ أن يكون داعيًا من الدعاة إلى خيرٍ أو شرٍّ.

وإذ كان ذلك كذلك، فلا قول أولى في ذلك بالصواب من أن يقال كما قال-جل ثناؤه-: إن محمدًا هو المنذر من أرسل إليه بالإنذار، وإن لكل قوم هاديًا يهديهم فيتّبعونه ويأتمُّون به»[2].

قال الزجاج: «معناه هلا أنزل عليه، وإنما طلبوا غير الآيات التي أتى بها النبي ﷺ نحو انشقاق القمر، والقرآن الذي دعوا أن يأتوا بسورة من مثله، وما أشبه هذا النحو فالتمسوا مثل آيات عيسى وموسى، فأعلم اللَّه ﷻ أن لكل قوم هاديا فقال جل وعز: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: نبي وداع إلى اللَّه يدعوهم بما يعطى

(١) هود: الآية (١٢).

(٢) جامع البيان (١٦/ ٣٥٣-٣٥٨).

من الآيات، لا بما يريدون ويتحكمون فيه»[١].

قال ابن كثير: «يقول تعالى إخبارًا عن المشركين أنهم يقولون كفرًا وعنادًا: لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون، كما تعنتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن يزيح عنهم الجبال، ويجعل مكانها مروجًا وأنهارًا، قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾[٢].

قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ﴾ أي: إنما عليك أن تبلغ رسالة اللَّه التي أمرك بها، ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾[٣]»[٤].

قال ابن عاشور: «وقد رد اللَّه اقتراحهم من أصله بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ﴾، فقصر النبي ﷺ على صفة الإنذار وهو قصر إضافي؛ أي: أنت منذر لا مُوجد خوارق عادة. وبهذا يظهر وجه قصره على الإنذار دون البشارة لأنه قصر إضافي بالنسبة لأحواله نحو المشركين.

وجملة: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ تذييل بالأعم؛ أي: إنما أنت منذر لهؤلاء لهدايتهم، ولكل قوم هاد أرسله اللَّه ينذرهم لعلهم يهتدون، فما كنت بِدعًا من الرسل وما كان للرسل من قبلك آيات على مقترح أقوامهم بل كانت آياتهم بحسب ما أراد اللَّه أن يظهر على أيديهم. على أن معجزات الرسل تأتي على حسب ما يلائم حال المرسل إليهم.

ولما كان الذين ظهرت بينهم دعوة محمد ﷺ عربًا أهل فصاحة وبلاغة؛ جعل اللَّه معجزته العظمى القرآن بلسان عربي مبين. وإلى هذا المعنى يشير قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ما من الأنبياء نبي إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيتُ وحَيًا أوحاه اللَّه إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[٥].

وبهذا العموم الحاصل بالتذييل والشامل للرسول عليه الصلاة والسلام صار

---

(١) معاني القرآن (٣/ ١٤٠).
(٢) الإسراء: الآية (٥٩).
(٣) البقرة: الآية (٢٧٢).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦٩-٧٠).
(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٣٤١)، والبخاري (٩/ ٣/ ٤٩٨١)، ومسلم (١/ ١٣٤/ ١٥٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٣٠/ ١١١٢٩) من حديث أبي هريرة.

المعنى إنما أنت منذر لقومك هادٍ إياهم إلى الحق، فإن الإنذار والهدي متلازمان فما من إنذار إلاّ وهو هداية وما من هداية إلا وفيها إنذار، والهداية أعمّ من الإنذار ففي هذا احتباك بديع»(١).

وقال **شيخ الإسلام**: «والهداية هي الدلالة والإرشاد بكلامه وبعلمه، وأمره ونهيه وترغيبه وترهيبه، وأما حصول الهدى في القلب؛ فهذا لا يقدر عليه إلا اللّه باتفاق المسلمين سنيهم وقدريهم. أما أهل السنة فيقولون: إن الاهتداء الذي في القلب لا يقدر عليه إلا اللّه، ولكن العبد يقدر على أسبابه، وهو المطلوب منه بقوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(٢) وهو المنفي عن الرسول ﷺ بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾(٣) وقوله: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾(٤) وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾(٥). وأما القدرية فيقولون: إن ذلك مقدور للعبد»(٦).

وقال **الشنقيطي**: «قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ أي: إنما عليك البلاغ والإنذار، أما هداهم وتوفيقهم فهو بيد اللّه تعالى، كما أن حسابهم عليه -جل وعلا-.

وقد بين هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾(٧) ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أظهر الأقوال في هذه الآية الكريمة أن المراد بالقوم الأمة، والمراد بالهادي الرسول، كما يدل قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾(٨) الآية. وقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(٩)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾(١٠) الآية»(١١).

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٩٥).
(٢) الفاتحة: الآية (٦).
(٣) القصص: الآية (٥٦).
(٤) النحل: الآية (٣٧).
(٥) البقرة: الآية (٢٧٢).
(٦) الاستغاثة (١/ ٣١٩-٣٢٠).
(٧) الرعد: الآية (٤٠).
(٨) يونس: الآية (٤٧).
(٩) فاطر: الآية (٢٤).
(١٠) النحل: الآية (٣٦).
(١١) أضواء البيان (٣/ ٨٠).

وقال عبد الكريم الخطيب: «ومن منكرات هؤلاء الكافرين، أنهم يغمضون أعينهم ويصممون آذانهم عن آيات اللّٰه وكلماته، فلا يرون فيها شواهد صدقها، وصدق الرسول الذي جاءهم بها، بل يتصايحون بهذا القول المنكر: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾.. والآية التي يريدونها هي آية مادية من تلك الآيات التي كانوا يقترحونها على النبي ﷺ، كما يقول اللّٰه ﷻ عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾[1] وقد تلقى الرسول من ربه هذا الرد المفحم لهم.. ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[2] فهذه الآية التي يقترحونها هنا هي واحدة من تلك الآيات، وهي قولة من أقوالهم التي كانوا يرددونها فيما بينهم.. وقد رد اللّٰه عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ وفي هذا التفات للنبي الكريم، وخطاب كريم له من ربه، يواسيه ويخفف ما به من ضيق لهذا العنت الذي يلقاه من قومه»[3].

* * *

(١) الإسراء: الآيات (٩٠-٩٣).

(٢) الإسراء: الآية (٩٣).

(٣) التفسير القرآني (٧/ ٧٥-٧٦).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾

★ غريب الآية:

تغيض: من غاض الشيء وغاضه غيره، مثل نقص ونقصه غيره، وقيل: أي تفسده الأرحام فتجعله كالماء الذي تبتلعه الأرض.

المتعال: من تعالى علوًّا؛ أي ارتفع وترفع، فالمتعالي من أسمائه سبحانه وتعالى.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ منكرين قدرة اللَّه على إعادتهم خلقًا جديدًا بعد فنائهم وبلائهم، ولا ينكرون قدرته على ابتدائهم وتصويرهم في الأرحام، وتدبيرهم وتصريفهم فيها حالا بعد حال فابتدأ الخبر عن ذلك ابتداءً، والمعنى فيه ما وصفت، فقال-جل ثناؤه-: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾، يقول: وما تنقص الأرحام من حملها في الأشهر التسعة بإرسالها دم الحيض ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ في حملها على الأشهر التسعة لتمام ما نقص من الحمل في الأشهر التسعة بإرسالها دم الحيض ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ لا يجاوز شيء من قَدَره عن تقديره، ولا يقصر أمر أراده فَدَبره عن تدبيره، كما لا يزداد حمل أنثى على ما قُدِّرَ له من الحمل، ولا يُقصِّر عما حُدّ له من القدر»[1].

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه

(١) جامع البيان (١٦/ ٣٥٨-٣٥٩).

محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾[1] أي: ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره، كقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾[3] أي: خلقكم طورا من بعد طور، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[4].

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ يعني: السقْط ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ يقول: ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماما. وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومن تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل، ومنهن من تنقص، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر اللّٰه تعالى، وكل ذلك بعلمه تعالى.

وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: ما نقصت من تسعة وما زاد عليها.

وقال الضحاك: وضعتني أمي وقد حملتني في بطنها سنتين، وولدتني وقد نبتت ثنيَّتي.

وقال ابن جُرَيْج، عن جميلة بنت سعد، عن عائشة قالت: لا يكون الحمل أكثر من سنتين، قدر ما يتحرك ظِل مغْزَل. وقال مجاهد: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: ما ترى من الدم في حملها، وما تزداد على تسعة أشهر. وبه قال عطية العوفي والحسن البصري، وقتادة، والضحاك.

وقال مجاهد أيضًا: إذا رأت المرأة الدم دون التسعة زاد على التسعة، مثل أيام الحيض. وقاله عِكْرِمة، وسعيد بن جبير، وابن زيد. وقال مجاهد أيضًا: ﴿وَمَا

(١) لقمان: الآية (٣٤). (٢) النجم: الآية (٣٢).
(٣) الزمر: الآية (٦). (٤) المؤمنون: الآيات (١٢-١٤).

﴿تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾ إراقة الدم حتى يخس الولد ﴿وَمَا تَزۡدَادُۚ﴾ إن لم تهرق الدم تم الولد وعظم. وقال مكحول: الجنين في بطن أمه لا يطلب، ولا يحزن ولا يغتم، وإنما يأتيه رزقه في بطن أمه من دم حيضتها فمن ثم لا تحيض الحامل. فإذا وقع إلى الأرض استهل، واستهلاله استنكار لمكانه، فإذا قطعت سرته حول اللَّه رزقه إلى ثديي أمه حتى لا يحزن ولا يطلب ولا يغتم، ثم يصير طفلا يتناول الشيء بكفه فيأكله، فإذا هو بلغ قال: هو الموت أو القتل، أنَّى لي بالرزق؟ فيقول مكحول: يا ويحك! غَذاك وأنت في بطن أمك، وأنت طفل صغير، حتى إذا اشتددت وعقلت قلت: هو الموت أو القتل، أنى لي بالرزق؟ ثم قرأ مكحول: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ الآية. وقال قتادة: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ أي: بأجل، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلًا معلومًا»[(١)].

وقال القرطبي: «في هذه الآية دليل على أن الحامل تحيض، وهو مذهب مالك والشافعي في أحد قوليه. وقال عطاء والشعبي وغيرهما: لا تحيض، وبه قال أبو حنيفة، ودليله الآية. قال ابن عباس في تأويلها: إنه حيض الحبالى، وكذلك روي عن عكرمة ومجاهد، وهو قول عائشة، وأنها كانت تفتي النساء الحوامل إذا حضن أن يتركن الصلاة، والصحابة إذ ذاك متوافرون، ولم ينكر منهم أحد عليها، فصار كالإجماع، قاله ابن القصار...

(وفيها) دليل على أن الحامل قد تضع حملها لأقل من تسعة أشهر وأكثر، وأجمع العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر»[(٢)].

وقال: «﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: هو عالم بما غاب عن الخلق، وبما شهدوه. فالغيب مصدر بمعنى الغائب. والشهادة مصدر بمعنى الشاهد، فنبه سبحانه على انفراده بعلم الغيب، والإحاطة بالباطن الذي يخفى على الخلق، فلا يجوز أن يشاركه في ذلك أحد، فأما أهل الطب الذين يستدلون بالأمارات والعلامات فإن قطعوا بذلك فهو كفر، وإن قالوا إنها تجربة تركوا وما هم عليه، ولم يقدح ذلك في الممدوح، فإن العادة يجوز انكسارها، والعلم لا يجوز تبدله»[(٣)].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٧٠-٧١).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٨٦).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٨٩).

قال ابن القيم: «والتحقيق في معنى الآية أنه يعلم مدة الحمل، وما يعرض فيها من الزيادة والنقصان: فهو العالم بذلك دونكم، كما هو العالم بما تحمل كل أنثى هل هو ذكر أو أنثى، وهذا أحد أنواع الغيب التي لا يعلمها إلا اللَّه كما في الصحيح عنه ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم متى تجيء الساعة إلا اللَّه، ولا يعلم ما في غد إلا اللَّه، ولا يعلم متى يجيء الغيث إلا اللَّه، ولا يعلم ما في الأرحام إلا اللَّه، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله»[1]. فهو سبحانه المنفرد بعلم ما في الرحم، وعلم وقت إقامته فيه، وما يزيد من بدنه وما ينقص، وما عدا هذا القول فهو من توابعه ولوازمه كالسقط التام ورؤية الدم وانقطاعه»[2].

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾. لفظة ما في هذه الآية يحتمل أن تكون موصولة والعائد محذوف؛ أي: يعلم الذي تحمله كل أنثى، وعلى هذا فالمعنى: يعلم ما تحمله من الولد على أي حال هو من ذكورة وأنوثة، وخداج، وحسن، وقبح، وطول وقصر، وسعادة وشقاوة إلى غير ذلك من الأحوال.

وقد دلت على هذا المعنى آيات من كتاب اللَّه، كقوله: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾[3]. لأن ما فيه موصولة بلا نزاع، وكقوله: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ﴾[4]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾[5] الآية.

ويحتمل أيضًا أن تكون لفظة ما في هذه الآية الكريمة مصدرية؛ أي: يعلم حمل كل أنثى بالمعنى المصدري، وقد جاءت آيات تدل أيضًا على هذا المعنى، كقوله: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ﴾[6]، وقوله: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ﴾[7] الآية.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية قد يكون لها وجهان كلاهما حق، وكلاهما يشهد له قرآن، فنذكر الجميع. وأما احتمال كون لفظة ما في هذه

---

(١) سيأتي تخريجه في أحاديث الباب.
(٢) تحفة المودود (ص: ٤٨٧-٤٨٨).
(٣) لقمان: الآية (٣٤).
(٤) النجم: الآية (٣٢).
(٥) آل عمران: الآية (٦).
(٦) فاطر: الآية (١١).
(٧) فصلت: الآية (٤٧).

الآية استفهامية، فهو بعيد فيما يظهر لي، وإن قال به بعض أهل العلم، وقد دلت السنة الصحيحة على أن علم ما في الأرحام المنصوص عليه في الآيات المذكورة مما استأثر اللَّه به دون خلقه، وذلك هو ما ثبت في صحيح البخاري من أن المراد بمفاتح الغيب في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[1] الخمس المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[2]، والاحتمالان المذكوران في لفظة ما من قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ﴾ الآية، جاريان أيضًا في قوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾، فعلى كونها موصولة فيهما، فالمعنى: يعلم الذي تنقصه وتزيده، وعلى كونها مصدرية، فالمعنى: يعلم نقصها وزيادتها . . .

وقيل: الغيض والزيادة يرجعان إلى الولد كنقصان إصبع وغيرها وزيادة إصبع وغيرها. وقيل الغيض: انقطاع دم الحيض وما تزداد بدم النفاس بعد الوضع. ذكر هذين القولين القرطبي: وقيل تغيض تشتمل على واحد وتزداد تشتمل على توأمين فأكثر.

قال مقيده -عفا اللَّه عنه-: مرجع هذه الأقوال كلها إلى شيء واحد وهو أنه تعالى عالم بما تنقصه الأرحام وما تزيده؛ لأن معنى تغيض تنقص، وتزداد أي تأخذه زائدًا، فيشمل النقص المذكور نقص العدد، ونقص العضو من الجنين، ونقص جسمه إذا حاضت عليه فتقلص ونقص مدة الحمل بأن تسقطه قبل أمد حمله المعتاد، كما أن الازدياد يشمل زيادة العضو وزيادة العدد وزيادة جسم الجنين إن لم تحض وهي حامل وزيادة أمد الحمل عن القدر المعتاد، واللَّه -جل وعلا- يعلم ذلك كله والآية تشمله كله»[3].

وأورد تنبيهًا قال: «أخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة أن أقل أمد الحمل وأكثره، وأقل أمد الحيض وأكثره، مأخوذ من طريق الاجتهاد؛ لأن اللَّه استأثر بعلم ذلك لقوله: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ الآية.

ولا يجوز أن يحكم في شيء من ذلك إلا بقدر ما أظهره اللَّه لنا، ووجد ظاهرًا

---

(١) الأنعام: الآية (٥٩). (٢) لقمان: الآية (٣٤).

(٣) أضواء البيان (٣/ ٨٤-٨٦).

في النساء نادرًا أو معتادًا»[١].

ويذكر بعض المفسرين هنا مسألة (أقل الحمل وأكثره). وحاصل الأمر في ذلك أن التحديد بوقت معين لا أصل له في الكتاب والسنة، ولم يقم عليه دليل، فيظهر أن الصواب ما قال الشنقيطي آنفًا أن ذلك مأخوذ من طريق الاجتهاد وإلى ما عرف من أمر النساء، والله أعلم.

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في كمال علم الله ﷻ

* عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله وهو الصادق المصدوق قال: **«إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكًا يؤمر بأربع كلمات ويقال له: اكتب عمله ورزقه وشقي أو سعيد. ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع، فيسبق عليه كتابه يعمل بعمل أهل النار. ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة»**[٢].

* عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«وكل الله بالرحم ملكًا فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: أي رب ذكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟ فما الرزق فما الأجل فيكتب كذلك في بطن أمه»**[٣].

⋆ فوائد الحديثين:

قال الحافظ: «وفيه أن من كتب شقيًا لا يعلم حاله في الدنيا، وكذا عكسه، واحتج من أثبت ذلك بما سيأتي قريبًا من حديث علي: **«أما من كان من أهل السعادة، فإنه ييسر لعمل أهل السعادة»** الحديث[٤]. والتحقيق أن يقال: إن أريد أنه لا يعلم أصلًا ورأسًا فمردود، وإن أريد أنه يعلم بطريق العلامة المثبتة للظن الغالب

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٨٦).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٢)، والبخاري (٦/ ٣٧٣/ ٣٢٠٨) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٠٣٦/ ٢٦٤٣)، وأبو داود (٥/ ٨٢-٨٣/ ٤٧٠٨)، والترمذي (٤/ ٣٨٨-٣٨٩/ ٢١٣٧)، وابن ماجه (١/ ٢٩/ ٧٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٦، ١١٧)، والبخاري (١١/ ٥٨٣/ ٦٥٩٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٨/ ٢٦٤٦).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ١٢٩)، والبخاري (٣/ ٢٨٩/ ١٣٦٢)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٩-٢٠٤٠/ ٢٦٤٧)، وأبو داود (٥/ ٦٨-٦٩/ ٤٦٩٤)، والترمذي (٥/ ٤١٠-٤١١/ ٣٣٤٤)، وابن ماجه (١/ ٣٠-٣١/ ٧٨) من حديث علي رضي الله عنه.

فنعم، ويقوى ذلك في حق من اشتهر له لسان صدق بالخير والصلاح ومات على ذلك، لقوله في الحديث الصحيح الماضي في الجنائز: «**أنتم شهداء اللَّه في الأرض**»[(١)] وإن أريد أنه يعلم قطعًا لمن شاء اللَّه أن يطلعه على ذلك؛ فهو من جملة الغيب الذي استأثر اللَّه بعلمه، وأطلع من شاء ممن ارتضى من رسله عليه»[(٢)].

وقال: «والحق أن العمل علامة وأمارة، فيحكم بظاهر الأمر، وأمر الباطن إلى اللَّه تعالى»[(٣)].

قلت: هذه الكلمة من الحافظ ابن حجر هي كلمة الحق التي لا يجوز اعتقاد غيرها؛ فهذا مما استأثر اللَّه بعلمه وجعله من خصوصياته، فالأشقياء والسعداء علمهم عند اللَّه، والنصوص القرآنية والأحاديث النبوية تؤيد ذلك، فلا يقطع لأحد بسعادة ولا لأحد بشقاء إلا من شهد اللَّه له أو رسوله ﷺ، أو بالوصف كأن نقول: من مات على التوحيد والسنة فهو من أهل الجنة، ومن مات على الكفر والزندقة فهو من أهل النار. أما ما يقوم به بعض الناس بالحكم على بعض الأموات بالجنة أو بالنار؛ فهو افتراء على اللَّه، ولكن من كانت سيرته التوحيد والاستقامة على السنة؛ فنتمنى له الجنة ونرجوها له، ومن كانت سيرته الانحراف والمعاصي؛ فنخاف عليه، واللَّه أعلم.

وقال شيخ الإسلام: «وهذا عام في كل نفس منفوسة قد علم اللَّه سبحانه -بعلمه الذي هو صفة له- الشقي من عباده والسعيد، وكتب سبحانه ذلك في اللوح المحفوظ، ويأمر الملك أن يكتب حال كل مولود ما بين خلق جسده ونفخ الروح فيه... ومن أنكر العلم القديم في ذلك فهو كافر»[(٤)].

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمها إلا اللَّه. لا يعلم ما في غد إلا اللَّه، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا اللَّه، ولا يعلم**

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٨٦)، والبخاري (٣/ ٢٩٣/ ١٣٦٧)، ومسلم (٢/ ٦٥٥/ ٩٤٩)، والترمذي (٣/ ٣٧٣/ ١٠٥٨) والنسائي (٤/ ٣٥١-٣٥٢/ ١٩٣١)، وابن ماجه (١/ ٤٧٨/ ١٤٩١) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) فتح الباري (١١/ ٥٩٨).

(٣) فتح الباري (١١/ ٦٠٨-٦٠٩).

(٤) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٤٨).

متى يأتي المطر أحد إلا اللَّه، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «وقوله في أول حديث ابن عمر «مفاتيح الغيب -إلى أن قال- لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله» فوقع في معظم الروايات «لا يعلم ما في الأرحام إلا الله» واختلف في معنى الزيادة والنقصان على أقوال: فقيل: ما ينقص من الخلقة وما يزداد فيها، وقيل: ما ينقص من التسعة الأشهر في الحمل وما يزداد في النفاس إلى الستين. وقيل: ما ينقص بظهور الحيض في الحبل بنقص الولد وما يزداد على التسعة الأشهر بقدر ما حاضت. وقيل: ما ينقص في الحمل بانقطاع الحيض وما يزداد بدم النفاس من بعد الوضع. وقيل: ما ينقص من الأولاد قبل وما يزداد من الأولاد بعد.. ففِي قوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ إشارة إلى ما يزيد في النفس وينقص، وخص الرحم بالذكر لكون الأكثر يعرفونها بالعادة، ومع ذلك فنفى أن يعرف أحد حقيقتها، فغيرها بطريق الأولى»[٢].

* عن أسامة بن زيد ﷺ قال: «أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه: أن ابنًا لي قبض فأتنا. فأرسل يقرئ السلام ويقول: **إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى. فلتصبر ولتحتسب**. فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها. فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ورجال. فرفع إلى رسول اللَّه ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع -قال: حسبته أنه قال: كأنها شن- ففاضت عيناه. فقال سعد: يا رسول اللَّه ما هذا؟ فقال: **«هذه رحمة جعلها اللَّه في قلوب عباده. وإنما يرحم اللَّه من عباده الرحماء»**[٣].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «قوله: «وكل شيء عنده بأجل مسمى» معناه: اصبروا ولا تجزعوا

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤)، البخاري (٨/ ٤٧٧/ ٤٦٩٧) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١١/ ٧٧٢٨).
(٢) فتح الباري (١٣/ ٤٥١-٤٥٢).
(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٠٤)، والبخاري (٣/ ١٩٤/ ١٢٨٤)، ومسلم (٢/ ٦٣٥-٦٣٦/ ٩٢٣)، وأبو داود (٣/ ٤٩٢/ ٣١٢٥)، والنسائي (٤/ ٣٢١-٣٢٢/ ١٨٦٧)، وابن ماجه (١/ ٥٠٦/ ١٥٨٨).

فإن كل من يأتي قد انقضى أجله المسمى، فمحال تقدمه أو تأخره عنه، فإذا علمتم هذا كله فاصبروا واحتسبوا ما نزل بكم»[١].

وقال: «واعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر، ومعناه: أن اللَّه -تبارك وتعالى- قدر الأشياء في القدم، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها ﷻ»[٢].

قال القرطبي: «الذي عليه أهل السنة أن اللَّه سبحانه قدر الأشياء؛ أي: علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجده على نحو ما سبق في علمه، فلا يحدث حدث في العالم العلوي والسفلي إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه، وأن الخلق ليس لهم فيها إلا نوع اكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة، وأن ذلك كله إنما حصل لهم بتيسير اللَّه تعالى وبقدرته وتوفيقه وإلهامه، سبحانه لا إله إلا هو، ولا خالق غيره؛ كما نص عليه القرآن والسنة»[٣].

أورد الشنقيطي رحمه الله هنا مسألتين هما:

مسألة: هل تحيض الحامل أم لا؟

قال الشنقيطي: «اختلف العلماء في الدم الذي تراه الحامل هل هو حيض أو دم فساد؟ فذهب مالك والشافعي في أصح قوليه إلى أنه حيض، وبه قال قتادة والليث. وروي عن الزهري وإسحق وهو الصحيح عن عائشة. وذهب الإمام أبو حنيفة والإمام أحمد إلى أنه دم فساد وعلة، وأن الحامل لا تحيض، وبه قال جمهور التابعين؛ منهم سعيد بن المسيب، وعطاء، والحسن، وجابر بن زيد وعكرمة ومحمد بن المنكدر، والشعبي ومكحول، وحماد والثوري والأوزاعي وابن المنذر وأبو عبيد وأبو ثور، واحتج من قال إن الدم الذي تراه الحامل حيض بأنه دم بصفات الحيض في زمن إمكانه، وبأنه متردد بين كونه فسادًا لعلة أو حيضا، والأصل السلامة من العلة، فيجب استصحاب الأصل.

واحتج من قال بأنه دم فساد بأدلة منها: ما جاء في بعض روايات حديث ابن عمر

---

(١) شرح مسلم (٦/ ١٩٩). (٢) شرح مسلم (١/ ١٣٨).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ١٤٨).

في طلاقه امرأته في الحيض: أن النَّبي ﷺ قال لعمر: «مره فليراجعها ثم ليطلقها طاهرًا أو حاملا»[١] وهذه الرواية أخرجها أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة. قالوا: قد جعل ﷺ الحمل علامة على عدم الحيض، كما جعل الطهر علامة لذلك.

ومنها: حديث «لا توطأ حامل حتى تضع، ولا حائل حتى تستبرأ بحيضة»[٢] رواه أحمد وأبو داود والحاكم من حديث أبي سعيد ﷺ وصححه الحاكم وله شواهد، قالوا: فجعل ﷺ الحيض علامة على براءة الرحم، فدل ذلك على أنه لا يجتمع مع الحمل.

ومنها: أنه دم في زمن لا يعتاد فيه الحيض غالبا، فكان غير حيض قياسًا على ما تراه اليائسة بجامع غلبة عدم الحيض في كل منهما.

وقد قال الإمام أحمد رحمه الله: (إنما يعرف النساء الحمل بانقطاع الدم).

ومنها: أنه لو كان دم حيض ما انتفت عنه لوازم الحيض. فلما انتفت عنه دل ذلك على أنه غير حيض، لأن انتفاء اللازم يوجب انتفاء الملزوم، فمن لازم الحيض حرمة الطلاق، ودم الحامل لا يمنع طلاقها، للحديث المذكور آنفًا الدال على إباحة طلاق الحامل والطاهر، ومن لازم الحيض أيضًا انقضاء العدة به، ودم الحامل لا أثر له في انقضاء عدتها؛ لأنها تعتد بوضع حملها لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[٣] وفي هذه الأدلة مناقشات ذكر بعضها النووي في شرح المهذب.

واعلم أن مذهب مالك التفصيل في أكثر حيض الحامل، فإن رأته في شهرها الثالث إلى انتهاء الخامس؛ تركت الصلاة نصف شهر ونحوه، وفسروا نحوه بزيادة خمسة أيام فتجلس عشرين يومًا، فإن حاضت في شهرها السادس فما بعده تركت الصلاة عشرين يومًا ونحوها، وفسروا نحوها بزيادة خمسة أيام فتجلس خمسًا وعشرين. وفسره بعضهم بزيادة عشرة، فتجلس شهرًا، فإن حاضت الحامل قبل الدخول في الشهر الثالث. فقيل حكمه حكم الحيض في الثالث وقد تقدم. وقيل

(١) سيأتي تخريجه.
(٢) سيأتي تخريجه.
(٣) الطلاق: الآية (٤).

حكمه حكم حيض غير الحامل، فتجلس قدر عادتها وثلاثة أيام استظهارًا. وإلى هذه المسألة أشار خليل بن إسحق المالكي في مختصره بقوله: والحامل بعد ثلاثة أشهر النصف ونحوه، وفي ستة فأكثر عشرون يومًا ونحوها وهل ما قبل الثلاثة كما بعدها أو كالمعتادة: قولان.

هذا هو حاصل كلام العلماء في أقل الحيض وأكثره وأقل الطهر وأكثره، وأدلتهم في ذلك ومسائل الحيض كثيرة، وقد بسط العلماء الكلام عليها في كتب الفروع»[(١)].

وقال الجصاص: «فالحجة لقولنا -أي: في أن الحامل لا تحيض- ما روي عن النبي ﷺ في سبايا أوطاس: «**لا توطأ حامل حتى تضع، ولا حائل حتى تستبرئ بحيضة**»[(٢)] والاستبراء هو معرفة براءة الرحم. فلما جعل الشارع وجود الحيض علمًا لبراءة الرحم؛ لم يجز وجوده مع الحبل، لأنه لو جاز وجوده معه لم يكن وجود الحيض علمًا لبراءة الرحم، ويدل عليه قوله ﷺ في طلاق السنة: «فليطلقها طاهرًا من غير جماع، أو حاملًا قد استبان حملها»[(٣)] فلو كانت الحامل تحيض لفصل بين جماعها وطلاقها بحيضة كغير الحامل. وفي إباحته ﷺ إيقاع الطلاق على الحامل بعد الجماع من غير فصل بينه وبين الطلاق بحيضة؛ دلالة على أنها لا تحيض»[(٤)].

وقال ابن قدامة: «مذهب أبي عبدالله رَحِمَهُ اللَّهُ أن الحامل لا تحيض، وما تراه من الدم فهو دم فساد. هو قول جمهور التابعين؛ منهم: سعيد بن المسيب، وعطاء، والحسن، وجابر بن زيد، وعكرمة، ومحمد بن المنكدر، والشعبي، ومكحول، وحماد، والثوري، والأوزاعي، وأبو حنيفة، وابن المنذر، وأبو عبيد، وأبو ثور. ورُوي عن عائشة رضي الله عنها، والصحيح عنها أنها إذا رأت الدم لا تصلي، وقال مالك

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٨١-٨٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٨)، وأبو داود (٢/ ٦١٤/ ٢١٥٧)، وصححه الحاكم (٢/ ١٩٥)، والشيخ الألباني في صحيح أبي داود (٦/ ٣٧١) وفي الإرواء (١٨٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦)، ومسلم (٢/ ١٠٩٥/ ١٤٧١(٥)، وأبو داود (٢/ ٦٣٤/ ٢١٨١)، والترمذي (٣/ ٤٧٩/ ١١٧٦)، والنسائي (٦/ ٤٥١/ ٣٣٩٧)، وابن ماجه (١/ ٦٥٢/ ٢٠٢٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٣/ ١٨١-١٨٢).

والشافعي والليث: ما تراه من الدم حيض إذا أمكن، وروي ذلك عن الزهري وقتادة وإسحق؛ لأنه دم صادف عادة فكان حيضًا كغير الحامل، ولنا قول النبي ﷺ: «**لا توطأ حامل حتى تضع، ولا حائل حتى تُستبرأ بحيضة**». فجعل وجود الحيض عَلَمًا على براءة الرحم، فدلّ ذلك على أنه لا يجتمع معه. واحتج إمامنا بحديث سالم، عن أبيه، أنه طلّق امرأته وهي حائض، فسأل عمر النبي ﷺ فقال: «**مُره فليراجعها، ثم يطلقها طاهرًا أو حاملًا**». فجعل الحمل عَلَمًا على الحيض، كما جعل الطّهر علمًا عليه، ولأنه زمن لا يعتادها الحيض فيه غالبًا، فلم يكن ما تراه فيه حيضًا، كالآيسة. قال أحمد: إنما يعرف النساء الحمل بانقطاع الدم، وقول عائشة يُحمل على الحبلى التي قاربت الوضع، جمعًا بين قوليها»[(١)].

قال الخطابي: «وقال الشافعي: الحامل تحيض، وإذا رأت الدم المعتاد أمسكت عن الصلاة، وإنما جعل الحيض في الحامل علمًا لبراءة الرحم من طريق الظاهر، فإذا جاء ما هو أظهر منه وأقوى في الدلالة سقط اعتباره، ويأمرها بأن تمسك عن الصلاة ولا تنقضي عدتها إلا بوضع الحمل، وذهب إلى أن وجود الدم لا يمنع من وجود الاعتداد بالحمل؛ كما لم يمنع وجوده في المتوفى عنها زوجها من الاعتداد بالأربعة الأشهر والعشر»[(٢)].

قلت: ومسألة حيض المرأة وهي حامل؛ الغالب عليها أنها لا تحيض في الحمل، وإن نزل منها دم فيرجع في ذلك إلى خبرة الأطباء الذين لهم اختصاص في معرفة الأرحام في الحمل والحيض وغيرها من العوارض والأمراض التي أصبح الطب على اطلاع واسع فيها في الوقت الحاضر. فالأصل في الحامل أنها لا تحيض، ومن حيث نصوص الشرع فليس هناك نص صحيح صريح واضح في حيض الحامل، والنصوص التي وردت في الحيض؛ كلها في غير الحامل، فتبني المرأة على أصلها، وأنها لا تحيض في الحمل. هذا ما عندي، والله أعلم.

مسألة في أقل مدة النفاس وأكثره:

قال الشنقيطي: «اختلف العلماء في أقل النفاس وأكثره أيضًا فذهب مالك

---

(١) المغني (١/ ٤٤٣-٤٤٤).

(٢) معالم السنن (٣/ ١٩٤).

والشافعي إلى أن أكثره ستون يومًا، وبه قال عطاء والأوزاعي والشعبي وعبيد اللَّه ابن الحسن العنبري والحجاج بن أرطاة وأبو ثور وداود، وعن ربيعة بن أبي عبد الرحمن أنه قال: أدركت الناس يقولون: أكثر النفاس ستون يومًا، وذهب الإمام أبو حنيفة وأحمد إلى أن أكثره أربعون يوما، وعليه أكثر العلماء. قال أبو عيسى الترمذي: أجمع أهل العلم من أصحاب النَّبي ﷺ ومن بعدهم؛ على أن النفساء تدع الصلاة أربعين يومًا إلا أن ترى الطهر قبل ذلك، فتغتسل وتصلي اهـ.

قال الخطابي: وقال أبو عبيد: وعلى هذا جماعة الناس، وحكاه ابن المنذر عن عمر بن الخطاب وابن عباس وأنس وعثمان بن أبي العاص وعائذ بن عمرو وأم سلمة وابن المبارك وإسحق وأبي عبيد اهـ.

وحكى الترمذي وابن المنذر وابن جرير وغيرهم عن الحسن البصري: أنه خمسون. وروي عن الليث أنه قال: قال بعض الناس: إنه سبعون يومًا. وذكر ابن المنذر عن الأوزاعي عن أهل دمشق: أن أكثر النفاس من الغلام ثلاثون يومًا، ومن الجارية أربعون. وعن الضحاك: أكثره أربعة عشر يوما. قاله النووي. وأما أقل النفاس فهو عند مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة في أصح الروايات عنه؛ لا حد له، وهو قول جمهور العلماء. وعن أبي حنيفة: أقله أحد عشر يومًا. وعنه أيضًا: خمسة وعشرون. وحكى الماوردي عن الثوري أقله ثلاثة أيام. وقال المزني: أقله أربعة أيام، وأما أدلة العلماء في أكثر النفاس وأقله؛ فإن حجة كل من حدد أكثره بغير الأربعين هي الاعتماد على المشاهد في الخارج، وأكثر ما شاهدوه في الخارج ستون يومًا، وكذلك حججهم في أقله فهي أيضًا الاعتماد على المشاهد في الخارج، وقد يشاهد الولد يخرج ولا دم معه، ولذا كان جمهور العلماء على أن أقله لا حد له، وأما حجة من حدده بأربعين، فهي ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والدارقطني والحاكم عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «كانت النفساء على عهد رسول اللَّه ﷺ تجلس أربعين يومًا» الحديث[1] . . . .

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٣٠٠)، وأبو داود (١/ ٢١٩/ ٣١٢)، والترمذي (١/ ٢٥٦/ ١٣٩)، وابن ماجه (١/ ٢١٣/ ٦٤٨)، وصححه الحاكم (١/ ١٧٥) ووافقه الذهبي، وحسنه أحمد شاكر في تعليقه على الترمذي، وقال فيه الشيخ الألباني في صحيح أبي داود (٢/ ١١٧): «إسناده حسن صحيح»، ونقل تقوية البيهقي له وتجويد النووي له أيضا.

وأجاب القائلون بأن أكثر النفاس ستون عن هذا الحديث الدال على أنه أربعون بأجوبة، أوجهها عندي أن الحديث إنما يدل على أنها تجلس أربعين، ولا دلالة فيه على أن الدم إن تمادى بها لم تجلس أكثر من الأربعين، فمن الممكن أن تكون النساء المذكورة في الحديث لم يتماد الحيض بها إلا أربعين، فنص الحديث على أنها تجلس الأربعين، ولا ينافي أن الدم لو تمادى عليها أكثر من الأربعين لجلست أكثر من الأربعين، ويؤيده أن الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «عندنا امرأة ترى النفاس شهرين» وذلك مشاهد كثيرًا في النساء. والعلم عند اللَّه تعالى»[1].

قال ابن حزم: «وكل دم رأته الحامل ما لم تضع آخر ولد في بطنها فليس حيضًا ولا نفاسًا ولا يمنع من شيء، وقد ذكرنا أنه ليس حيضًا قبل وبرهانه، وليس أيضًا نفاسًا؛ لأنها لم تنفس ولا وضعت حملها بعد ولا حائض، ولا إجماع بأنه حيض أو نفاس، وباللَّه تعالى التوفيق. فلا يسقط عنها ما قد صح وجوبه من الصلاة والصوم وإباحة الجماع إلا بنص ثابت، لا بالدعوى الكاذبة»[2].

قلت: وبالنسبة لدم النفاس؛ فما حدده الفقهاء بأكثره وأقله مبني على التجربة والمشاهدة، فأكثر النساء تتراوح مدتها في هذا المقدار الذي حدده الفقهاء، وقد تنفرد بعض النساء فتطهر قبل هذه المدة ويجف رحمها من الدم، ففي هذه الحالة فهي طاهر. ومن خرجت على العادة فطال بها الدم؛ فتراجع الطبيب المختص حتى يقرر هل هذا الدم له صلة بنفاس الولادة أو هو دم مرض وفساد فتكون المرأة طاهرًا، واللَّه أعلم.

* * *

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٨٣-٨٥).

(٢) المحلى (٢/ ١٩٠).

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[١]

★ **غريب الآية:**

مستخف: أي: متوار، من خفي الشيء واستخفى: أي استتر وتوارى.

سارب: السارب: الذاهب في سرَبه أيَّ طريق كان. والسرَب: الذهاب في حدور، والمكان المنحدر.

معقبات: أي: ملائكة يتعاقبون عليه حافظون له. والتعقيب: أن يكون شيء بعد آخر، والتعاقب: التناوب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «ولما ذكر أنه تعالى عالم الغيب والشهادة على العموم، ذكر تعالى تعلق علمه بشيء خاص من أحوال المكلفين، فقال: سواء منكم الآية. والمعنى: سواء في علمه المسر القول، والجاهر به لا يخفى عليه شيء من أقواله»[٢].

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، وأنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به، فإنه يسمعه لا يخفى عليه شيء كقوله: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[٣] وقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾[٤] وقالت عائشة رضي الله عنها: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وأنا في جنب البيت، وإنه ليخفى عليَّ بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ

---

(١) الرعد: الآيتان (١٠و١١).
(٢) البحر المحيط (٥/ ٣٦٢).
(٣) طه: الآية (٧).
(٤) النمل: الآية (٢٥).

بَصِيرٌ﴾(١)(٢).

وقوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِالَّيْلِ﴾ أي: مختف في قعر بيته في ظلام الليل، ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي: ظاهر ماش في بياض النهار وضيائه، فإن كليهما في علم الله على السواء، كقوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(٤).

وقوله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حَرَس بالليل وحَرَس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحدا من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلا حافظان وكاتبان»(٥).

وقال الشوكاني: «وقال الزجاج: معنى الآية: الجاهر بنطقه، والمضمر في نفسه، والظاهر في الطرقات والمستخفي في الظلمات؛ علم الله فيهم جميعًا سوّى، وهذا ألصق بمعنى الآية كما تفيده المقابلة بين المستخفي والسارب، فالمستخفي: المستتر، والسارب البارز الظاهر»(٦).

وقال الخطيب: «فمن أسر القول كمن جهر به.. الله يعلم سره، علمه لجهره: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(٧)

ومن تدثر بالليل واستتر به عن العيون، كمن هو سارب: أي متحرك، بالنهار..

---

(١) المجادلة: الآية (١).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤٦)، والنسائي (٦/ ٤٨٠/ ٣٤٦٠)، وابن ماجه (١/ ٦٦٦/ ٢٠٦٣)، وعلقه البخاري (١٣/ ٤٦٠)، وصححه الحاكم (٢/ ٤٨١)، ووافقه الذهبي.

(٣) هود: الآية (٥). (٤) يونس: الآية (٦١).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٧٢/ ٧٣).

(٦) فتح القدير (٣/ ٩٧).

(٧) الملك: الآيتان (١٣و١٤).

اللَّه يراه في ظلمة الليل، كما يراه في ضوء النهار.. ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(١)»(٢).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكر اللَّه الحفظة الموكلين ببني آدم، الذين يحفظونهم ويكتبون أعمالهم في مواضع من كتابه قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾(٣) وقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾(٤) وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾(٥) وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾(٦) وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾(٧) وقال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٨) وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾(٩) وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾(١٠)»(١١).

---

(١) الأنعام: الآية (١٠٣).

(٢) التفسير القرآني (٧/ ٧٩-٨٠).

(٣) الأنعام: الآيتان (٦٠و٦١).

(٤) الانفطار: الآيات (٩-١٢).

(٥) الطارق: الآيات (١-٤).

(٦) ق: الآيات (١٦-١٨).

(٧) الإسراء: الآيات (١٣-١٤).

(٨) الجاثية: الآيتان (٢٨و٢٩).

(٩) الكهف: الآية (٤٩).

(١٠) القمر: الآيتان (٥٢ و ٥٣).

(١١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٥٠-٢٥١).

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في مراقبة الملائكة لأفعال العباد

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر. ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم -وهو أعلم بهم- كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون»[1].

★ غريب الحديث:

يتعاقبون: أي: تأتي طائفة بإثر طائفة، وبعدها طائفة؛ وإنما يكون التعاقب بين طائفتين أو بين رجلين مرة هذا، ومرة هذا؛ ومنه قولهم: الأمير يعقب البعوث.

يعرج الذين باتوا فيكم: أي: يصعدون، وكل من صعد في شيء فقد عرج ولذلك قيل للدرج معارج.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «وأما اجتماعهم في الفجر والعصر فهو من لطف الله تعالى بعباده المؤمنين، وتكرمة لهم أن جعل اجتماع الملائكة عندهم ومفارقتهم لهم في أوقات عباداتهم، واجتماعهم على طاعة ربهم، فيكون شهادتهم لهم بما شاهدوه من الخير»[2].

قال القاضي عياض: «ويحتمل أن يكون هؤلاء هم الحفظة الكتاب، وأن ذلك مما يخص به كل إنسان، وعليه حمله الأكثرون، وهو الأظهر»[3].

قال ابن حجر: «وفيه شيء لأنه رجح أنهم الحفظة، ولا شك أن الذين يصعدون كانوا مقيمين عندهم مشاهدين لأعمالهم في جميع الأوقات، فالأولى أن يقال: الحكمة في كونه تعالى لا يسألهم إلا عن الحالة التي تركوهم عليها ما ذكر، ويحتمل أن يقال: إن الله تعالى يستر عنهم ما يعملونه فيما بين الوقتين لكنه بناء على أنهم غير الحفظة»[4].

---

(١) أحمد (٢/ ٤٨٦)، والبخاري (٢/ ٤٢/ ٥٥٥)، ومسلم (١/ ٤٣٩/ ٦٣٢)، والنسائي (١/ ٢٦٠-٢٦١/ ٤٨٤).

(٢) شرح مسلم(٥/ ١١٤).

(٣) إكمال المعلم (٢/ ٥٩٨).

(٤) فتح الباري (٢/ ٤٤).

وقال: «قال القرطبي: الأظهر عندي أنهم غيرهم، ويقويه أنه لم ينقل أن الحفظة يفارقون العبد، ولا أن حفظة الليل غير حفظة النهار، وبأنه لو كانوا هم الحفظة لم يقع الاكتفاء في السؤال عن حالة الترك دون غيرها في قوله: «**كيف تركتم عبادي؟**»»[١].

وقال: «وفيه الإخبار بما نحن فيه من ضبط أحوالنا حتى نتيقظ ونتحفظ في الأوامر والنواهي، ونفرح في هذه الأوقات بقدوم رسل ربنا، وسؤال ربنا عنّا»[٢].

وقد سئل شيخ الإسلام عن الملائكة الموكلين بالعبد: أهم الموكلون دائمًا، أم كل يوم ينزل اللَّه إليه ملكين غير أولئك؟ فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ: «الملائكة أصناف منهم من هو موكل بالعبد دائمًا، ومنهم ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، فيسألهم -وهو أعلم بهم- كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون. ومنهم ملائكة فضل عن كتاب الناس يتبعون مجالس الذكر.

وأعمال العباد تجمع جملة وتفصيلًا، فترفع أعمال الليل قبل أعمال النهار، وأعمال النهار قبل أعمال الليل، تعرض الأعمال على اللَّه في كل يوم اثنين وخميس، فهذا كله مما جاءت به الأحاديث الصحيحة، وأما أنه كل يوم تبدل عليه الملكان، فهذا لم يبلغنا فيه شيء واللَّه أعلم»[٣].

* عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن**» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «**وإياي إلا أن اللَّه أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير**». وفي رواية: «**وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة**»[٤].

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «في هذا الحديث إشارة إلى التحذير من فتنة القرين ووسوسته

---

(١) فتح الباري (٢/ ٤٤).
(٢) الفتح (٢/ ٤٧).
(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٥٢).
(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٥)، ومسلم (٤/ ٢١٦٧-٢١٦٨/ ٢٨١٤).

وإغوائه، فأعلمنا بأنه معنا لنحترز منه بحسب الإمكان»[١].

وقال ابن العربي: «إن اللَّه خلق من كل زوجين اثنين، فخلق الآدمي والملك والشيطان، وخلق العقل والشهوة، وأمر الآدمي ونهاه، وركب فيه ما ركب من هواه، وحبالة الشيطان الهوى، ومنجاة الإنسان الإيثار للعقل، وهو جند الملك، والشهوة جند الشيطان، ولا يزالان يتنازعان ويتباريان، والقدر من فوق، فإذا نزلت العصمة غلب جند الملك وهو العقل، وتبصر العبد فامتثل وازدجر. وإذا نزل الخذلان غلب جند الشيطان باستيلاء الشهوة وارتكاب المخالفة، فهلك العبد. فأمر اللَّه على لسان رسوله العبد إذا وجد لمة الملك أن يحمد اللَّه على ما وهبه من العصمة، وإذا وجد الحالة الأخرى أن يستعيذ باللَّه من الشيطان الرجيم، فإنه يجادله. واللَّه يعيذنا منه برحمته»[٢].

وقال ابن القيم: «والفرق بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان من وجوه: منها أن ما كان لله موافقًا لمرضاته وما جاء به رسوله؛ فهو من الملك، وما كان لغيره غير موافق لمرضاته؛ فهو من إلقاء الشيطان. ومنها: أن ما أثمر إقبالًا على اللَّه وإنابة إليه وذكرًا له وهمة صاعدة إليه؛ فهو من إلقاء الملك، وما أثمر ضد ذلك فهو من إلقاء الشيطان. ومنها: أن ما أورث أنسًا ونورًا في القلب وانشراحًا في الصدر؛ فهو من الملك، وما أورث ضد ذلك فهو من الشيطان. ومنها: أن ما أورث سكينة وطمأنينة فهو من الملك، وما أورث قلقًا وانزعاجًا واضطرابًا فهو من الشيطان. فالإلهام الملكي يكثر في القلوب الطاهرة النقية التي قد استنارت بنور اللَّه، فللملك بها اتصال، وبينه وبينها مناسبة، فإنه طيب طاهر لا يجاور إلا قلبًا يناسبه، فتكون لمة الملك بهذا القلب أكثر من لمة الشيطان. وأما القلب المظلم الذي قد اسود بدخان الشهوات والشبهات، فإلقاء الشيطان ولمته به أكثر من لمة الملك»[٣].

قوله ﷺ: «إلا أن اللَّه أعانني عليه فأسلم».

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأسلم برفع الميم وفتحها وهما روايتان مشهورتان، فمن

---

(١) شرح مسلم (١٧/ ١٣٠).

(٢) عارضة الأحوذي (١١/ ١٠٩-١١٠).

(٣) الروح (ص: ٢٥٦-٢٥٧).

رفع قال: معناه أسلمُ أنا من شره وفتنته، ومن فتح قال: إن القرين أسلم من الإسلام وصار مؤمنا لا يأمرني إلا بخير. واختلفوا في الأرجح منهما فقال الخطابي: الصحيح المختار الرفع، ورجح القاضي عياض الفتح، وهو المختار؛ لقوله ﷺ: «فلا يأمرني إلا بخير» واختلفوا على رواية الفتح قيل: أسلم بمعنى استسلم وانقاد، وقد جاء هكذا في غير صحيح مسلم فاستسلم. وقيل: معناه صار مسلما مؤمنا، وهذا هو الظاهر. قال القاضي: واعلم أن الأمة مجتمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان في جسمه وخاطره ولسانه»[(١)].

وإليه ذهب أبو حاتم بن حبان قال: «في هذا الخبر دليل على أن شيطان المصطفى ﷺ أسلم حتى لم يأمره إلا بخير، لا أنه كان يسلم منه وإن كان كافرًا»[(٢)].

وقال أبو جعفر الطحاوي: «فوقفنا على أن رسول اللَّه ﷺ قد كان في هذا المعنى كسائر الناس سواء، وأن اللَّه أعانه عليه فأسلم بإسلامه الذي هداه له، حتى صار من السلامة منه بخلاف غيره من الناس فيمن هو معه من جنسه»[(٣)].

وذهب شيخ الإسلام إلى أن معنى إسلامه استسلامُه وعجزُه وخضوعُه، قال: «وكان ابن عيينة يرويه فأسلم بالضم، ويقول: إن الشيطان لا يسلم، لكن قوله في الرواية الأخرى: فلا يأمرني إلا بخير، دل على أنه لم يبق يأمره بالشر، وهذا إسلامه، وإن كان ذلك كناية عن خضوعه وذلته لا عن إيمانه باللَّه، كما يقهر الرجل عدوه الظاهر ويأسره، وقد عرف العدو المقهور أن ذلك القاهر يعرف ما يشير به عليه من الشر فلا يقبله، بل يعاقبه على ذلك فيحتاج لانقهاره معه إلى أنه لا يشير عليه إلا بخير؛ لذلته وعجزه لا لصلاحه ودينه»[(٤)].

وقال: «والمراد في أصح القولين: استسلم وانقاد لي. ومن قال: حتى أسلم أنا، فقد حرف معناه، ومن قال: الشيطان صار مؤمنا، فقد حرف لفظه»[(٥)].

وتبعه ابن أبي العز في شرح الطحاوية، وتعقبهما الشيخ أحمد شاكر بقوله: «وادعاء الشارح أن هذا تحريف للمعنى. «فإن الشيطان لا يكون مؤمنا» - انتقال

(١) شرح النووي (١٧/ ١٣٠).
(٢) الإحسان (١٤/ ٣٢٨).
(٣) شرح مشكل الآثار (١/ ١٠٤).
(٤) مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٢٣).
(٥) منهاج السنة (٨/ ٢٧١).

نظر. فأولا: أن اللفظ في الحديث «قرينه من الجن»، لم يقل «شيطانه». وثانيا: أن الجن فيهم المؤمن والكافر. والشياطين هم كفارهم، فمن آمن منهم لم يسم شيطانا»[١].

وقال ابن الجوزي: «وجمهور الرواة يروون هذا الحديث «أعانني عليه فأسلم» على مذهب الفعل الماضي، يريدون أن الشيطان قد أسلم، إلا سفيان ابن عيينة فإنه يقول: فأسلم أنا من شره. وكان يقول: الشيطان لا يسلم. وهذا الذي ذهب إليه سفيان مذهب حسن يظهر أثر المجاهدة، إلا أن مسلما قد روى في صحيحه من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة. قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي ولكن الله ﷻ أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير» وهذا يدل على أن الشيطان أسلم؛ لأنه لو لم يسلم لما كان يأمر بالخير، وكفى بهذا ردا لقول ابن عيينة»[٢].

ولابن القيم كلام جيد في تبيين طرق الشيطان لإغواء الإنسان، قال: «كل ذي لب يعلم أنه لا طريق للشيطان عليه إلا من ثلاث جهات:

أحدها: التزيّد والإسراف، فيزيد على قدر الحاجة فتصير فضلة، وهي حظ الشيطان ومدخله إلى القلب، وطريق الخلاص منه الاحتراز من إعطاء النفس تمام مطلوبها؛ من غذاء أو نوم أو لذة أو راحة. فمتى أغلقت هذا الباب حصل الأمان من دخول العدو منه.

الثانية: الغفلة، فإن الذاكر في حصن الذكر، فمتى غفل فتح باب الحصن فولجه العدو، فيعسر عليه أو يصعب إخراجه.

الثالثة: تكلف ما لا يعنيه من جميع الأشياء»[٣].

* * *

(١) شرح الطحاوية (ص ٣٩٠).
(٢) ذم الهوى (ص: ١٧٤-١٧٥).
(٣) الفوائد (ص: ٢٤٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾[(١)]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «لما ذكر تعالى إحاطة علمه بخفايا الأشياء وجلاياها، وأن الملائكة تعقب على المكلفين لضبط ما يصدر منهم، وإن كان الصادر منهم خيرًا وشرا؛ ذكر تعالى أن ما خولهم فيه من النعم وأسبغ عليهم من الإحسان لا يزيله عنهم إلى الانتقام منهم إلا بكفر تلك النعم، وإهمال أمره بالطاعة، واستبدالها بالمعصية. فكان في ذكر ذلك تنبيه على لزوم الطاعة، وتحذير لوبال المعصية. والظاهر أنْ لا يقع تغير النعم بقوم حتى يقع تغيير منهم بالمعاصي. قال ابن عطية: وهذا الموضع مؤول، لأنه صح الخبر بما قدرت الشريعة من أخذ العامة بذنوب الخاصة وبالعكس، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةًۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[(٢)]. وسؤالهم للرسول ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كثر الخبث**»[(٣)] في أشياء كثيرة، فمعنى الآية: حتى يقع تغيير إما منهم، وإما من الناظر لهم، أو ممن هو منهم تسبب، كما غير اللَّه تعالى المنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرماة ما بأنفسهم، إلى غير هذا في أمثلة الشريعة.

فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير. وثم أيضًا مصائب يزيد اللَّه بها أجر المصاب، فتلك ليست تغييرا انتهى. وفي الحديث: «**إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم اللَّه بعقاب**»[(٤)] وقيل: هذا يرجع إلى قوله: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ فبين تعالى أنه لا ينزل بهم عذاب الاستئصال إلا والمعلوم منهم الإصرار على الكفر

---

(١) الرعد: الآية (١١). (٢) الأنفال: الآية (٢٥).

(٣) سيأتي تخريجه في الباب.

(٤) أخرجه أحمد (١/ ١و٧)، وأبو داود (٤/ ٥٠٩-٥١٠/ ٤٣٣٨)، والترمذي (٤/ ٤٠٦/ ٢١٦٨)، وقال: «حديث صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٣٢٧/ ٤٠٠٥)، وصححه ابن حبان (١/ ٥٣٩/ ٣٠٤)، من حديث أبي بكر الصديق ﷺ.

والمعاصي، إلا إن علم اللَّه تعالى أنّ فيهم، أو في عقبهم من يؤمن، فإنه تعالى لا ينزل بهم عذاب الاستئصال. وما موصولة صلتها بقوم، وكذا ما بأنفسهم. وفي ما إبهام لا يتغير المراد منها: إلا بسياق الكلام، واعتقاد محذوف يتبين به المعنى، والتقدير: لا يغير ما بقوم من نعمة وخير إلى ضد ذلك حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعته إلى توالي معصيته»[١].

وقال ابن عاشور: «﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ جملة معترضة بين الجمل المتقدمة المسوقة للاستدلال على عظيم قدرة اللَّه تعالى وعلمه بمصنوعاته، وبين التذكير بقوة قدرته وبين جملة: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾[٢]. والمقصود تحذيرهم من الإصرار على الشّرك بتحذيرهم من حلول العقاب في الدنيا، في مقابلة استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة، ذلك أنهم كانوا في نعمة من العيش فبطروا النعمة، وقابلوا دعوة الرسول ﷺ بالهزء، وعاملوا المؤمنين بالتّحقير ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾[٣] و﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾[٤].

فذكرهم اللَّه بنعمته عليهم ونبههم إلى أنّ زوالها لا يكون إلاّ بسبب أعمالهم السيّئة بعد ما أنذرهم ودعاهم»[٥].

وقال الخطيب: «وفي تعليق تغيير أحوال الناس بتغيير ما بأنفسهم، إشارة إلى أن النفس الإنسانية هي جهاز التفكير، والتقدير، ومركز الإرادة والتوجيه، وأنها هي السلطان الآمر للإنسان، والموجه لكل أعماله وأقواله فإذا غيرت النفس اتجاه مسيرها، تغير تبعا لذلك سير الإنسان في الحياة»[٦].

وقال القاسمي: «في هذه الآية وعيد شديد وإنذار رهيب قاطع، بأنه إذا انحرف الآخذون بالدين والمنتمون إليه عن جادته المستقيمة، ومالوا مع الأهواء، وتركوا التمسك بآدابه وسننه القويمة، حل بهم ما ينقلهم إلى المحن والبلايا، ويفرق

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٣٦٥).
(٢) الرعد: الآية (١٢).
(٣) الزخرف: الآية (٣١).
(٤) المزمل: الآية (١١).
(٥) التحرير والتنوير (١٣/ ١٠١-١٠٢).
(٦) التفسير القرآني (٧/ ٨١-٨٢).

كلمتهم، ويوهي قوتهم، ويسلط عدوهم! . .

وقال القاشانيّ: لا بد في تغيير النعم إلى النقم، من استحقاق جلي أو خفي.

وعن بعض السلف: إن الفأرة مزقت خُفِّي. وما أعلم ذلك إلا بذنب أحدثه، وإلا ما سلطها اللّه علي! وتمثل بقول الشاعر:

لو كنتُ من مَازِنٍ لم تَسْتَبِحْ إِبِلي

أقول: المنقول عن بعض السلف محمول على شدة الخوف منه تعالى، وإلا فالتحقيق الفرق بين ما ينال الشخص والقوم، كما أشارت له الآية. وقد جود الكلام في ذلك، الإمام مفتي مصر في (رسالة التوحيد) في بحث الدين الإسلامي فقال: كشف الإسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير (العالم) والكون الصغير (الإنسان). فقرر أن آيات اللّه الكبرى في صنع العالم إنما يجري أمرها على السنن الإلهية التي قدرها اللّه في علمه الأزلي. لا يغيرها شيء من الطوارئ الجزئية. غير أنه لا يجوز أن يغفل شأن اللّه فيها. بل ينبغي أن يحي ذكره عند رؤيتها. فقد جاء على لسان النبي ﷺ: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات اللّه لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا اللّه**»[1] وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجري على نظام واحد لا يقضي فيه إلا العناية الأزلية على السنن التي أقامته عليها. ثم أماط اللثام عن حال الإنسان في النعم التي يتمتع بها الأشخاص أو الأمم، والمصائب التي يرزؤون بها. ففصل بين الأمرين (الأشخاص والأمم) فصلا لا مجال معه للخلط بينهما.

فأما النعم التي يمتع اللّه بها بعض الأشخاص في هذه الحياة، والرزايا التي يرزأ بها في نفسه، فكثير منها كالثروة والجاه والقوة والبنين، أو الفقر والضمة والضعف والفقد، وقد لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص في سيرته من استقامة وعوج أو طاعة وعصيان! وكثيرًا ما أمهل اللّه بعض الطغاة البغاة، أو الفجرة الفسقة، وترك لهم متاع الحياة الدنيا، إنظارًا لهم، حتى يتلقاهم ما أعد لهم من

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٨)، والبخاري (٢/ ٦٨٦/ ١٠٥٢)، ومسلم (٢/ ٦٢٦/ ٩٠٧)، وأبو داود (١/ ٧٠٢/ ١١٨٩)، والنسائي (٣/ ١٦٢-١٦٣/ ١٤٩٢)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وفي الباب عن أبي بردة وابن مسعود.

العذاب المقيم في الحياة الأخرى! وكثيرا ما امتحن اللّه الصالحين من عباده، وأثنى عليهم في الاستسلام لحكمه، وهم الذين إذا أصابتهم مصيبة، عبروا عن إخلاصهم في التسليم بقوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[1]! فلا غضب زيدٍ، ولا رضا عمرٍو، ولا إخلاص سريرة، ولا فساد عمل مما يكون له دخل في هذه الرزايا، ولا في تلك النعم الخاصة، اللهم إلا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جاري العادة. كارتباط الفقر بالإسراف، والذل بالجبن، وضياع السلطان بالظلم. وكارتباط الثروة بحسن التدبير في الأغلب. والمكانة عند الناس بالسعي في مصالحهم على الأكثر. وما يشبهه ذلك مما هو مبين في علم آخر. . . !

أما شأن الأمم فليس على ذلك، فإن الروح الذي أودعه اللّه جميع شرائعه الإلهية: من تصحيح الفكر، وتسديد النظر، وتأديب الأهواء، وتحديد مطامح الشهوات، والدخول إلى كل أمر من بابه، وطلب كل رغيبة من أسبابها، وحفظ الأمانة، واستشعار الأخوة، والتعاون على البر، والتناصح في الخير والشر، وغير ذلك من أصول الفضائل: ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم، ومشرق سعادتها في هذه الدنيا قبل الآخرة ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾[2] ولن يسلب اللّه عنها نعمته مادام هذا الروح فيها. يزيد اللّه النعم بقوته وينقصها بضعفه حتى إذا فارقها ذهبت السعادة على أثره، وتبعته الراحة إلى مقره! واستبدل اللّه عزة القوم بالذل، وكُثرهم بالقل، ونعيمهم بالشقاء، وراحتهم بالعناء، وسلط عليهم الظالمين أو العادلين فأخذهم بهم وهم في غفلة ساهون: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[3]! أمرناهم بالحق ففسقوا عنه إلى الباطل، ثم لا ينفعهم الأنين، ولا يجديهم البكاء، ولا يفيدهم ما بقي من صور الأعمال، ولا يستجاب منهم الدعاء، ولا كاشف لما نزل بهم إلا أن يلجئوا إلى ذلك الروح الأكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر والصبر والشكر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[4] ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ

(١) البقرة: الآية (١٥٦).
(٢) آل عمران: الآية (١٤٥).
(٣) الإسراء: الآية (١٦).
(٤) الرعد: الآية (١١).

﴿لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾[١]! وما أجل ما قاله العباس بن عبد المطلب في استسقائه. «اللهم! إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يرفع إلا بتوبة»!

على هذه السنن، جرى سلف الأمة! فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية، ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة، كان غيره يظن أنه يزلزل الأرض بدعائه، ويشق الفلك ببكائه، وهو ولع بأهوائه، ماض في غلوائه، وما كان يغني عنه ظنه من الحق شيئًا.. !»[٢].

وقال الشنقيطي: «بين تعالى في هذه الآية الكريمة: أنه لا يغير ما بقوم من النعمة والعافية حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعة اللَّه -جل وعلا-.

والمعنى: أنه لا يسلب قومًا نعمة أنعمها عليهم حتى يغيروا ما كانوا عليه من الطاعة والعمل الصالح، وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[٣]. وقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾[٤].

وقد بين في هذه الآية أيضًا: أنه إذا أراد قومًا بسوء فلا مرد له، وبين ذلك أيضًا في مواضع أخر كقوله: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[٥] ونحوها من الآيات. وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ يصدق بأن يكون التغيير من بعضهم كما وقع يوم أحد بتغيير الرماة ما بأنفسهم فعّمت البلية الجميع»[٦].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في هلاك العامة بذنوب الخاصة

* عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها فزعا يقول: «**لا إله إلا اللَّه، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**»، وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش فقلت: يا رسول

---

(١) الأحزاب: الآية (٦٢).
(٢) محاسن التأويل (٩/ ٣٣٩-٣٤٣).
(٣) الأنفال: الآية (٥٣).
(٤) الشورى: الآية (٣٠).
(٥) الأنعام: الآية (١٤٧).
(٦) أضواء البيان (٣/ ٩٧-٩٨).

الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثر الخبث»[١].

★ **غريب الحديث:**

الخبث: بفتحتين: الفسوق والفجور. وقيل: الزنا.

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «ومعنى الحديث: أن الخبث إذا كثر فقد يحصل الهلاك العام، وإن كان هناك صالحون»[٢].

وقال أبو عمر: «وأما قوله فيه: «إذا كثر الخبث» فمعناه عند أكثرهم: الزنا وأولاد الزنا. وجملة القول عندي في معناه: أنه اسم جامع يجمع الزنا وغيره؛ من الشر والفساد والمنكر في الدين. والله أعلم»[٣].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٢٨)، والبخاري (٦/ ٤٧٠/ ٣٣٤٦)، ومسلم (٤/ ٢٢٠٧/ ٢٨٨٠)، والترمذي: (٤/ ٤١٦-٤١٧/ ٢١٨٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٩١-٣٩٢/ ١١٣١١)، وابن ماجه (٢/ ١٣٠٥/ ٣٩٥٣).

(٢) شرح النووي (١٨/ ٤).

(٣) التمهيد (فتح البر: ٢/ ٤٠٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾

★ غريب الآية:

وال: أي: ولي وناصر يقوم بأمورهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «أخبر تعالى أنه ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ ولا حفظ منه، وهذا جرى في طريقة التنبيه على قدرة اللَّه تعالى وإحاطته، والسوء والخير بمنزلة واحدة في أنهما إذا أرادهما اللَّه بعبد لم يردّا، لكنه خصّ السوء بالذكر ليكون في الآية تخويف»[١].

وقال أبو حيان: «والسوء يجمع على كل ما يسوء من مرض وخير وعذاب، وغير ذلك من البلاء. ولما كان سياق الكلام في الانتقام من العصاة اقتصر على قوله: سوء، وإلا فالسوء والخير إذا أراد اللَّه تعالى شيئًا منها فلا مرد له، فذكر السوء مبالغة في التخويف. وقال السدي: من وال من ملجأ. وقال الزمخشري: ممن يلي أمرهم، ويدفع عنهم. وقيل: من ناصر يمنع من عذابه»[٢].

وقال الشوكاني: «﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾ أي: هلاكًا وعذابًا ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ أي: فلا ردّ له. وقيل: المعنى إذا أراد اللَّه بقوم سوءًا أعمى قلوبهم، حتى يختاروا ما فيه البلاء ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ يلي أمرهم ويلتجئون إليه، فيدفع عنهم ما ينزل بهم من اللَّه سبحانه من العقاب، أو من ناصر ينصرهم ويمنعهم من عذاب اللَّه. والمعنى: أنه لا رادّ لعذاب اللَّه ولا ناقض لحكمه»[٣].

وقال أبو السعود: «﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ فيه دلالةٌ على أن تخلّف

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٣٠٣).
(٢) البحر المحيط (٥/ ٣٦٥).
(٣) فتح القدير (٣/ ٩٨).

مرادِه تعالى محال، وإيذانٌ بأنهم بما باشروه من إنكار البعثِ واستعجال السيئة واقتراحِ الآية قد غيَّروا ما بأنفسهم من الفطرة واستحقوا لذلك حلولَ غضبِ اللَّه تعالى وعذابِه»[1].

وقال المراغي: «﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ أي: وإذا أراد اللَّه بقوم سوءًا من مرض وفقر ونحوهما من أنواع البلاء بما كسبت أيديهم حين أخذوا في الأسباب التي تصل بهم إلى هذه الغاية، فلا يستطيع أحد أن يدفع ذلك عنهم ولا يرد ما قدره لهم.

وفي هذا إيماء إلى أنه لا ينبغي الاستعجال بطلب السيئة قبل الحسنة، وطلب العقاب قبل الثواب، فإنه متى أراد اللَّه ذلك وأوقعه بهم فلا دافع له.

والخلاصة: إنه ليس من الحكمة في شيء أن يستعجلوا ذلك.

﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ أي: وما لهم من دون اللَّه سبحانه من يلي أمورهم، فيجلب لهم النفع ويدفع عنهم الضر، فالآلهة التي اتخذوها لا تستطيع أن تفعل شيئًا من ذلك، ولا تقدر على دفع الأذى عن نفسها فضلا عن دفعه عن غيرها.

ولله در الأعرابي الذي رأى صنما يبول عليه الثعلب فثارت به حميته فأمسكه وكسره إربا إربا وقال:

أرب يبول الثعلبان برأسه   فقد ذل من بالت عليه الثعالب

وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾[2]»[3].

قال الشنقيطي: «وقد بين في هذه الآية أيضًا: أنه إذا أراد قومًا بسوء فلا مرد له، وبين ذلك أيضًا في مواضع أخر كقوله: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[4] ونحوها من الآيات. وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ يصدق بأن يكون التغيير من بعضهم كما وقع يوم أحد بتغيير الرماة ما بأنفسهم فعمّت البلية الجميع، وقد سئل ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث». واللَّه تعالى أعلم»[5].

---

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ٩).
(٢) الحج: الآية (٧٣).
(٣) تفسير المراغي (١٣/ ٧٩).
(٤) الأنعام: الآية (١٤٧).
(٥) أضواء البيان (٣/ ٩٨).

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الأخذ الأسباب الشرعية لا ينافي القدر

* عن أبي خزامة عن أبيه قال: «سألت رسول اللَّه ﷺ فقلت: يا رسول اللَّه أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر اللَّه شيئًا؟ قال: **هي من قدر الله**»(١).

★ غريب الحديث:

تقاة نتقيها: أي: نلتجئ بها أو نحذر بسببها. وأصل تقاة وقاة من وقى، وهي اسم ما يلتجئ به الناس من خوف الأعداء كالترس، وهو ما يقي العدو.

★ فوائد الحديث:

قال القاري: «كما أن اللَّه قدر الداء قدر زواله بالدواء، ومن استعمله ولم ينفعه فليعلم أن اللَّه تعالى ما قدره»(٢).

قال شيخ الإسلام: «ولهذا أمر الناس بالدعاء والاستعانة باللَّه وغير ذلك من الأسباب، ومن قال: أنا لا أدعو ولا أسأل اتكالا على القدر كان مخطئًا أيضًا؛ لأن اللَّه جعل الدعاء والسؤال من الأسباب التي ينال بها مغفرته ورحمته وهداه ونصره ورزقه، وإذا قدر للعبد خيرًا يناله بالدعاء لم يحصل بدون الدعاء. وما قدره اللَّه وعلمه من أحوال العباد وعواقبهم؛ فإنما قدره اللَّه بأسباب يسوق المقادير إلى المواقيت، فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب، واللَّه خالق الأسباب والمسببات.

ولهذا قال بعضهم الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٢١)، والترمذي (٤/ ٣٤٩/ ٢٠٦٥) وقال: «حسن صحيح»، ابن ماجه (٢/ ١١٣٧/ ٣٤٣٧)، والحاكم (٤/ ١٩٩). قال الشيخ الألباني: «وأبو خزامة مجهول كما قال الحافظ في «التقريب» فلا وجه لقول الترمذي «حسن صحيح» وللحديث شاهد عند الطبراني (٣/ ١٧٧/ ١) عن صالح المري عن قتادة عن زرارة بن أبي أوفى عن ابن عباس... وبالجملة أرجو أن يصل الحديث إلى مرتبة الحسن بالشاهد الأول عن ابن عباس لاختلاف طريقه عن طريق أبي خزامة». (تخريج أحاديث «مشكلة الفقر»، ص: ١٣إلى١٥).

(٢) المرقاة (١/ ٢٩٨).

تكون أسبابا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع. ومجرد الأسباب لا يوجب حصول المسبب؛ فإن المطر إذا نزل وبذر الحب لم يكن ذلك كافيًا في حصول النبات، بل لا بد من ريح مربية بإذن اللَّه، ولا بد من صرف الانتفاء عنه؛ فلا بد من تمام الشروط، وزوال الموانع، وكل ذلك بقضاء اللَّه وقدره، وكذلك الولد لا يولد بمجرد إنزال الماء في الفرج، بل كم من أنزل ولم يولد له، بل لا بد من أن اللَّه شاء خلقه، فتحبل المرأة وتربيه في الرحم، وسائر ما يتم به خلقه من الشروط وزوال الموانع.

وكذلك أمر الآخرة، ليس بمجرد العمل ينال الإنسان السعادة، بل هي سبب؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**إنه لن يدخل أحدكم الجنة بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله! قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني اللَّه برحمة منه وفضل**»[(١)]. وقد قال: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[(٢)] فهذه باء السبب؛ أي: بسبب أعمالكم، والذي نفاه النبي ﷺ باء المقابلة كما يقال: اشتريت هذا بهذا؛ أي: ليس العمل عوضًا وثمنًا كافيًا في دخول الجنة، بل لا بد من عفو اللَّه وفضله ورحمته، فبعفوه يمحو السيئات، وبرحمته يأتي بالخيرات، وبفضله يضاعف البركات.

وفي هذا الموضع ضل طائفتان من الناس: فريق آمنوا بالقدر، وظنوا أن ذلك كافٍ في حصول المقصود، فأعرضوا عن الأسباب الشرعية، والأعمال الصالحة، وهؤلاء يؤول بهم الأمر إلى أن يكفروا بكتب اللَّه ورسله ودينه. وفريق أخذوا يطلبون الجزاء من اللَّه كما يطلبه الأجير من المستأجر، متكلين على حولهم وقوتهم وعملهم، وكما يطلبه المماليك. وهؤلاء جهال ضلال، فإن اللَّه لم يأمر العباد بما أمرهم به حاجة إليه، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلًا له، ولكن أمرهم بما فيه صلاحهم، ونهاهم عما فيه فسادهم»[(٣)].

وقال: «وقول القائل (إن اللَّه يفعل بسبب وبغير سبب، فمن أين يلزمنا طلب السبب) جوابه أن يقال له: ليس الأمر كذلك، بل جميع ما يخلقه اللَّه ويقدره إنما

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٤)، والبخاري (١٠/ ١٥٧/ ٥٦٧٣)، ومسلم (٤/ ٢١٧٠/ ٢٨١٦/ ٧٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) النحل: الآية (٣٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٦٩-٧١).

يخلقه ويقدره بأسباب؛ لكن من الأسباب ما يخرج عن قدرة العبد؛ ومنها ما يكون مقدورًا له، ومن الأسباب ما يفعله العبد؛ ومنها ما لا يفعله.

والأسباب منها معتاد ومنها نادر، فإنه في بعض الأعوام قد يمسك المطر، ويغذي الزرع بريح يرسلها، وكما يكثر الطعام والشراب بدعاء النبي ﷺ، والرجل الصالح فهو أيضًا سبب من الأسباب. ولا ريب أن الرزق قد يأتي على أيدي الخلق؛ فمن الناس من يأتيه برزقه جني أو ملك أو بعض الطير والبهائم؛ وهذا نادر، والجمهور إنما يرزقون بواسطة بني آدم؛ مثل أكثر الذين يعجزون عن الأسباب، يرزقون على أيدي من يعطيهم: إما صدقة، وإما هدية، أو نذرًا، وإما غير ذلك، مما يؤتيه الله على أيدي من ييسره لهم..»[(١)].

وقال: «وقول القائل: (إن الله ضمن ضمانًا مطلقًا) فيقال له: هذا لا يمنع وجوب الأسباب على ما يجب، فإن فيما ضمنه رزق الأطفال والبهائم والزوجات، ومع هذا فيجب على الرجل أن ينفق على ولده وبهائمه وزوجته، بإجماع المسلمين، ونفقته على نفسه أوجب عليه.

وقول القائل: (كيف يطلب ما لا يعرف مكانه؟) جوابه: أنه يفعل السبب المأمور به، ويتوكل على الله فيما يخرج من قدرته، مثل الذي يشق الأرض ويلقي الحب، ويتوكل على الله في إنزال المطر وإنبات الزرع ودفع المؤذيات، وكذلك التاجر غاية قدرته تحصيل السلعة ونقلها، وأما إلقاء الرغبة في قلب من يطلبها، وبذل الثمن الذي يربح به؛ فهذا ليس مقدورًا للعبد، ومن فعل ما قدر عليه لم يعاقبه الله بما عجز عنه، والطلب لا يتوجه إلى شيء معين، بل إلى ما يكفيه من الرزق، كالداعي الذي يطلب من الله رزقه وكفايته من غير تعيين»[(٢)].

وقال: «عامة الأنبياء كانوا يفعلون أسبابًا يحصل بها الرزق... وخيار الأولياء المتوكلين: المهاجرون والأنصار، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه أفضل الأولياء المتوكلين بعد الأنبياء، وكان عامتهم يرزقهم الله بأسباب يفعلونها، كان الصديق تاجرًا؛ وكان يأخذ ما يحصل له من المغنم؛ ولما ولي الخلافة جعل له من بيت المال كل يوم

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٥٣٤).
(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٥٣٥-٥٣٦).

درهمان، وقد أخرج ماله كله. . . ومع هذا فما كان يأخذ من أحد شيئًا لا صدقة ولا فتوحًا ولا نذرًا بل إنما كان يعيش من كسبه»[١].

وقال: «ومن هنا يعرف أن السبب المأمور به المباح؛ لا ينافي وجوب التوكل على اللَّه في وجود السبب؛ بل الحاجة والفقر إلى اللَّه ثابتة مع فعل السبب؛ إذ ليس في المخلوقات ما هو وحده سبب تام لحصول المطلوب، ولهذا لا يجب أن تقترن الحوادث بما قد يجعل سببًا إلا بمشيئة اللَّه تعالى؛ فإنه ما شاء اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن. فمن ظن الاستغناء بالسبب عن التوكل فقد ترك ما أوجب اللَّه عليه من التوكل؛ وأخل بواجب التوحيد، ولهذا يخذل أمثال هؤلاء إذا اعتمدوا على الأسباب. فمن رجا نصرًا أو رزقًا من غير اللَّه خذله اللَّه، كما قال علي ﷺ: لا يَرْجُوَنَّ عبد إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه. وقد قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[٣]. وقال: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[٤].

وهذا كما أن من أخذ يدخل في التوكل تاركًا لما أمر به من الأسباب؛ فهو أيضًا جاهل ظالم، عاص لله بترك ما أمره؛ فإن فعل المأمور به عبادة لله. وقد قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[٥]. . . فليس من فعل شيئًا أمر به وترك ما أمر به من التوكل؛ بأعظم ذنبًا ممن فعل توكلًا أمر به وترك فعل ما أمر به من السبب؛ إذ كلاهما مخل ببعض ما وجب عليه، وهما مع اشتراكهما في جنس الذنب فقد يكون هذا ألوم، وقد يكون الآخر، مع أن التوكل في الحقيقة من جملة الأسباب. . . ومن ذلك ما روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس[٦] قال: «كان أهل اليمن يحجون

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٥٣٧-٥٣٨).
(٢) فاطر: الآية (٢).
(٣) يونس: الآية (١٠٧).
(٤) الزمر: الآية (٣٨).
(٥) هود: الآية (١٢٣).
(٦) أخرجه: البخاري (٣/ ٤٨٩/ ١٥٢٣)، وأبو داود (٢/ ٣٤٩/ ١٧٣٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٠٠/ ١١٠٣٣).

ولا يتزودون، يقولون: نحن المتوكلون! فإذا قدموا سألوا الناس! فقال اللَّه تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[1] فمن فعل ما أمر به من التزود فاستعان به على طاعة اللَّه وأحسن منه إلى من يكون محتاجًا؛ كان مطيعًا لله في هذين الأمرين، بخلاف من ترك ذلك ملتفتًا إلى أزواد الحجيج، كلاًّ على الناس، وإن كان مع هذا قلبه غير ملتفت إلى معين فهو ملتفت إلى الجملة، لكن إن كان المتزود غير قائم بما يجب عليه من التوكل على اللَّه ومواساة المحتاج؛ فقد يكون في تركه لما أمر به من جنس هذا التارك للتزود المأمور به.

وفي هذه النصوص بيان غلط طوائف: طائفة تضعف أمر السبب المأمور به فتعده نقصًا، أو قدحًا في التوحيد والتوكل، وأن تركه من كمال التوكل والتوحيد! وهم في ذلك ملبوس عليهم، وقد يقترن بالغلط اتباع الهوى في إخلاد النفس إلى البطالة، ولهذا تجد عامة هذا الضرب التاركين لما أمروا به من الأسباب يتعلقون بأسباب دون ذلك، فإما أن يعلقوا قلوبهم بالخلق رغبة ورهبة، وإما أن يتركوا لأجل ما تبتلوا له من الغلو في التوكل واجبات أو مستحبات أنفع لهم من ذلك، كمن يصرف همته في توكله إلى شفاء مرضه بلا دواء، أو نيل رزقه بلا سعي، فقد يحصل ذلك، لكن كان مباشرة الدواء الخفيف والسعي اليسير وصرف تلك الهمة والتوجه في عمل صالح أنفع له، بل قد يكون أوجب عليه من تبتله لهذا الأمر اليسير الذي قدره درهم أو نحوه.

وفوق هؤلاء من يجعل التوكل والدعاء أيضًا نقصًا وانقطاعًا عن الخاصة، ظنًّا أن ملاحظة ما فرغ منه في القدر هو حال الخاصة!... وقولهم يوجب دفع المأمور به مطلقًا؛ بل دفع المخلوق والمأمور، وإنما غلطوا من حيث ظنوا أن سبق التقدير يمنع أن يكون بالسبب المأمور به، كمن يتزندق فيترك الأعمال الواجبة؛ بناء على أن القدر قد سبق بأهل السعادة وأهل الشقاوة، ولم يعلم أن القدر سبق بالأمور على ما هي عليه، فمن قدره اللَّه من أهل السعادة كان مما قدره اللَّه تيسيره لعمل أهل السعادة، ومن قدره من أهل الشقاء كان مما قدره أنه ييسره لعمل أهل الشقاء، كما قد أجاب النبي ﷺ عن هذا السؤال في حديث علي بن أبي طالب، وعمران بن

---

(١) البقرة: الآية (١٩٧).

حصين، وسراقة بن جعشم، وغيرهم.

ومنه حديث الترمذي: حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن الزهري، عن أبي خزامة، عن أبيه. قال: «سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله! أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقي بها، وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر اللّٰه شيئًا؟ فقال: هي من قدر الله».

وطائفة تظن أن التوكل إنما هو من مقامات الخاصة المتقربين إلى اللّٰه بالنوافل، وكذلك قولهم في أعمال القلوب وتوابعها، كالحب والرجاء والخوف والشكر، ونحو ذلك. وهذا ضلال مبين، بل جميع هذه الأمور فروض على الأعيان باتفاق أهل الإيمان، ومن تركها بالكلية؛ فهو إما كافر، وإما منافق، لكن الناس هم فيها كما هم في الأعمال الظاهرة، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات.

ونصوص الكتاب والسنة طافحة بذلك، وليس هؤلاء المعرضون عن هذه الأمور علمًا وعملًا؛ بأقل لومًا من التاركين لما أمروا به من أعمال ظاهرة، مع تلبسهم ببعض هذه الأعمال، بل استحقاق الذم والعقاب يتوجه إلى من ترك المأمور من الأمور الباطنة والظاهرة، وإن كانت الأمور الباطنة مبتدأ الأمور الظاهرة وأصولها، والأمور الظاهرة كمالها وفروعها التي لا تتم إلا بها»[1].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٧٩-١٨٥) بتصرف.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾[1]

★ غريب الآية:

السحاب: جمع سحابة. وهي الغيمة، سواء كان فيها ماء أم لم يكن.

الصواعق: جمع صاعقة. وهي صوت الرعد الشديد، تكون منه نار تقتل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «استئناف ابتدائي على أسلوب تعداد الحجج الواحدة تلو الأخرى، فلأجل أسلوب التعداد إذ كان كالتكرير لم يعطف على جملة: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾[2].

وقد أعرب هذا عن مظهر من مظاهر قدرة اللَّه وعجيب صنعه. وفيه من المناسبة للإنذار بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[3] الخ أنه مثال لتصرف اللَّه بالإنعام والانتقام في تصرف واحد مع تذكيرهم بالنعمة التي هم فيها. وكل ذلك مناسب لمقاصد الآيات الماضية في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾[4] وقوله: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[5]، فكانت هذه الجملة جديرة بالاستقلال، وأن يجاء بها مستأنفة لتكون مستقلة في عداد الجمل المستقلة الواردة في غرض السورة.

وجاء هنا بطريق الخطاب على أسلوب قوله: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ لأن الخوف والطمع يصدران من المؤمنين ويهدد بهما الكفرة.

وافتتحت الجملة بضمير الجلالة دون اسم الجلالة المفتتح به في الجمل

---

(١) الرعد: الآيتان (١٢و١٣).
(٢) الرعد: الآية (١٠).
(٣) الرعد: الآية (١١).
(٤) الرعد: الآية (٨).
(٥) الرعد: الآية (٨).

السابقة، فجاءت على أسلوب مختلف. وأحسب أن ذلك مراعاة لكون هاته الجملة مفرعة عن أغراض الجمل السابقة فإن جُمل فواتح الأغراض افتتحت بالاسم العلم كقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾[١] وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، وجمل التفاريع افتتحت بالضمائر كقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾[٢] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾[٣] وقوله: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾[٤] و﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[٥] مصدران بمعنى التخويف والإطماع، فهما في محل المفعول لأجله لظهور المراد.

وجعل البرق آية نذارة وبشارة معا؛ لأنهم كانوا يَسِمون البرق فيتوسمون الغيث وكانوا يخشون صواعقه.

وإنشاء السحاب: تكوينه من عدم بإثارة الأبْخرة التي تتجمع سحابًا.

والسحاب: اسم جمع لسحابة. والثقال: جمع ثقيلة. والثقل كون الجسم أكثر كمية أجزاء من أمثاله، فالثقل أمر نسبي يختلف باختلاف أنواع الأجسام، فرب شيء يعد ثقيلًا في نوعه وهو خفيف بالنسبة لنوع آخر. والسحاب يكون ثقيلًا بمقدار ما في خلاله من البخار. وعلامة ثقله قربه من الأرض وبطء تنقله بالرياح. والخفيف منه يُسمى جهامًا.

وعطف الرعد على ذكر البرق والسحاب لأنه مقارنهما في كثير من الأحوال.

ولما كان الرعد صوتًا عظيمًا جعل ذكره عبرة للسامعين؛ لدلالة الرعد بلوازم عقلية على أن اللَّه منزه عما يقوله المشركون من ادعاء الشركاء، وكان شأن تلك الدلالة أن تبعث الناظر فيها على تنزيه اللَّه عن الشريك جعل صوت الرعد دليلًا على تنزيه اللَّه تعالى... وهذا اعتراض بين تعداد المواعظ لمناسبة التعريض بالمشركين؛ أي: أن التنزيه الذي دلت عليه آيات الجو يقوم به الملائكة، فاللَّه غني عن تنزيههم إياه، كقوله: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾[٦]، وقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[٧].

---

(١) الرعد: الآية (٢).
(٢) الرعد: الآية (٢).
(٣) الرعد: الآية (٣).
(٤) الرعد: الآية (٣).
(٥) الرعد: الآية (١٢).
(٦) الزمر: الآية (٧).
(٧) إبراهيم: الآية (٨).

واقتصر في العبرة بالصواعق على الإنذار بها لأنها لا نعمة فيها لأن النعمة حاصلة بالسحاب وأما الرعد فآلة من آلات التخويف والإنذار. كما قال في آية سورة البقرة: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١). وكان العرب يخافون الصواعق. ولقبوا خويلد بن نفيل الصَعِق لأنه أصابته صاعقة أحرقته»(٢).

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه هو الذي يسخر البرق، وهو ما يرى من النور اللامع ساطعا من خلل السحاب. وروى ابن جرير أن ابن عباس كتب إلى أبي الجلد يسأله عن البرق، فقال: البرق: الماء.

وقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قال قتادة: خوفًا للمسافر، يخاف أذاه ومشقته، وطمعا للمقيم يرجو بركته ومنفعته، ويطمع في رزق اللَّه.

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ أي: ويخلقها منشأة جديدة، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض.

قال مجاهد: والسحاب الثقال: الذي فيه الماء. ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾(٣) كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾(٤)»(٥).

وقال الزجاج: «خوفا للمسافر، لأن في المطر خوفًا على المسافر، كما قال اللَّه تعالى: ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾(٦) وطمعًا للحاضر لانتفاعه بالمطر، ويجوز أن يكون -واللَّه أعلم- ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ خوفا لمن يخاف ضر المطر، لأنه ليس كل بلد ينتفع فيه بالمطر نحو مصر وما أشبهها، وطمعًا لمن يرجو الانتفاع به. ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ أي: التي قد ثقلت بالماء. ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ جاء في التفسير أنه ملك يزجر السحاب، وجائز أن يكون صوت الرعد تسبيحه؛ لأن صوت الرعد من أعظم الأشياء، وقد قال اللَّه ﷻ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ وخص ذكر الرعد لعظم صوته، واللَّه أعلم»(٧).

---

(١) البقرة: الآية (١٩).
(٢) التحرير والتنوير (١٣/١٠٣-١٠٥).
(٣) الرعد: الآية (١٣).
(٤) الإسراء: الآية (٤٤).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٧٥).
(٦) النساء: الآية (١٠٢).
(٧) معاني القرآن (٣/ ١٤٢-١٤٣).

وقال الشنقيطي: «ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي يري خلقه البرق خوفًا وطمعًا. قال قتادة: خوفًا للمسافر. يخاف أذاه ومشقته، وطمعًا للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق اللَّه. وعن الحسن: الخوف لأهل البحر، والطمع لأهل البر. وعن الضحاك: الخوف من الصواعق والطمع في الغيث.

وبين في موضع آخر: أن إراءته خلقه البرق خوفًا وطمعًا من آياته -جل وعلا-، الدالة على أنه المستحق لأن يعبد وحده لا شريك له. وذلك في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[1] الآية»[2].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية

* عن أنس بن مالك ﷺ «أن رسول اللَّه ﷺ: بعث رجلًا من أصحابه إلى رأس من رؤساء المشركين يدعوه إلى اللَّه، فقال المشرك: هذا الإله الذي تدعوني إليه أمن ذهب هو أم من فضة، أم من نحاس؟ فتعاظم مقالته، فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال: ارجع إليه فرجع إليه، فأعاد عليه القول الأول، فرجع فأعاده الثالثة، فبينما هما يتراجعان الكلام بينهما، إذ بعث اللَّه سحابة حيال رأسه فرعدت وأبرقت، ووقع منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ الآية[3].

⋆ **غريب الحديث:**

حيال: حيال الشيء: قُبالته، يقال: قعد حِياله وبحياله؛ أي: بإزائه.

بقحف: القِحْف: أحد أقحاف ثمانية تكون علبة عظيمة هي الجمجمة وفيها الدماغ، وما انفلق من الجمجمة فبان.

---

(١) الروم: الآية (٢٤). (٢) أضواء البيان (٣/ ٩٨).

(٣) أخرجه: النسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٠/ ١١٢٥٩)، وابن جرير [شاكر] (١٦/ ٣٩٢/ ٢٠٢٧٠)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٨٦-٢٨٧/ ٢٦٢٣)، وأبو يعلى (٦/ ٨٧-٨٨/ ٣٣٤١)، والبزار (كشف الأستار ٣/ ٥٤/ ٢٢٢١)، وابن أبي عاصم: (١/ ٣٠٤/ ٦٩٢)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٢٨٣).

وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٤٢) وقال: «رجال البزار رجال الصحيح غير ديلم بن غزوان وهو ثقة»، وصحح إسناده الشيخ الألباني في ظلال الجنة (١/ ٣٠٤).

* عن عبد اللَّه بن الزبير رضي الله عنهما: «أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته»[١].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أقبلت يهود إلى النبي ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم! أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: **ملك من الملائكة موكل بالسحاب، معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء اللَّه**. فقالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: **زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر**، قالوا: صدقت. فأخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: **اشتكى عرق النسا فلم يجد شيئًا يلائمه إلا لحوم الإبل وألبانها فلذلك حرمها**. قالوا: صدقت»[٢].

★ غريب الحديث:

مخاريق: جمع مخراق وهو في الأصل ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا؛ أراد أنه آلة تزجر بها الملائكة السحاب وتسوقه.

★ فوائد الأحاديث:

قال شيخ الإسلام: «وأما الرعد والبرق ففي الحديث المرفوع في الترمذي وغيره أنه سئل عن الرعد قال: ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار، يسوق بها السحاب حيث شاء اللَّه، وفي مكارم الأخلاق للخرائطي عن علي أنه سئل عن الرعد فقال: ملك. وسئل عن البرق، فقال: مخاريق بأيدي الملائكة، وفي رواية عنه: مخاريق من حديد بيده. وروى في ذلك آثار كذلك.

وقد روي عن بعض السلف أقوال لا تخالف ذلك كقول من يقول: إنه اصطكاك أجرام السحاب بسبب انضغاط الهواء فيه؛ فإن هذا لا يناقض ذلك، فإن الرعد مصدر رعد يرعد رعدا، وكذلك الراعد يسمى رعدا، كما يسمى العادل عدلا،

---

(١) أخرجه: مالك (٢/ ١٧١/ ٢٠٩٤ رواية أبي مصعب)، والبخاري في الأدب المفرد (٢/ ١٨٥/ ٧٢٣)، والبيهقي (٣/ ٣٦٢)، وابن أبي شيبة (٦/ ٢٧/ ٢٩٢١٤). وصححه الشيخ الألباني موقوفًا على عبداللَّه بن الزبير رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧٤)، والترمذي (٥/ ٢٧٤/ ٣١١٧) وقال: «حسن غريب»، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٣٦-٣٣٧/ ٩٠٧٢)، والطبراني (١٢/ ٤٦/ ١٢٤٢٩). وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٤٢): «رواه الترمذي باختصار. رواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات». وانظر الصحيحة (٤/ ٤٩١/ ١٨٧٢).

والحركة توجب الصوت والملائكة هي التي تحرك السحاب وتنقله من مكان إلى مكان، وكل حركة في العالم العلوي والسفلي فهي عن الملائكة، وصوت الإنسان هو عن اصطكاك أجرامه الذي هو شفتاه ولسانه وأسنانه ولهاته وحلقه، وهو مع ذلك يكون مسبحًا للرب، وآمرًا بمعروف وناهيًا عن منكر.

فالرعد إذا صوت يزجر السحاب، وكذلك البرق قد قيل: لمعان الماء أو لمعان النار، وكونه لمعان النار أو الماء لا ينافي أن يكون اللامع مخراقا بيد الملك، فإن النار التي تلمع بيد الملك كالمخراق مثل مزجى المطر، والملك يزجى السحاب كما يزجى السائق للمطي»[1].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «بينا رجل بفلاة من الأرض، فسمع صوتًا في سحابة: اسق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب، فأفرغ ماءه في حرة فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء، فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد اللّه، ما اسمك؟ قال: فلان - للاسم الذي سمع في السحابة فقال له: يا عبد اللّه لم تسألني عن اسمي؟! فقال: سمعت صوتًا في السحاب الذي هذا ماؤه، يقول: اسق حديقة فلان لاسمك فما تصنع فيها. قال: أما إذ قلت هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثًا، وأرد فيها ثلثه»[2].

★ **غريب الحديث:**

تنحى: معناه: قصد، يقال: تنحيت الشيء وانتحيته: إذا قصدته.

حرة: أرض ملبسة حجارة سودًا.

شرجة: جمعها شِراج، بكسر الشين، وهي مسيل الماء في الحرة إلى السهل.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن أبي جمرة: «وبيان ذلك أن السحاب تجري بين السماء والأرض مثقلة بالماء ليست على عمد ولا علاقة فوقها، وهي مع ذلك تمر مر الريح مع الريح،

(١) مجموع الفتاوى (٢٤/ ٢٦٣-٢٦٤).
(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩٦)، ومسلم (٤/ ٢٢٨٨/ ٢٩٨٤).

وتقف حيث تؤمر، ولا تحركها الريح حين تؤمر بالوقوف، وتمسك الماء ولا تنزله إلا حيث تؤمر، فهذه إظهار قدرة بارزة مشاهدة بغير حكمة تغطيها»(١).

وقال ابن القيم: «فإذا تأملت السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه، وكيف يخلقه اللَّه متى شاء وإذا شاء، وهو مع لينه ورخاوته حامل للماء الثقيل بين السماء والأرض إلى أن يأذن له ربه وخالقه في إرسال ما معه من الماء، فيرسله وينزله منه مقطعا بالقطرات، كل قطرة بقدر مخصوص اقتضته حكمته ورحمته، فيرش السحاب الماء على الأرض رشًّا، ويرسله قطرات مفصلة، لا تختلط قطرة منها بأخرى، ولا يتقدم متأخرها، ولا يتأخر متقدمها، ولا تدرك القطرة صاحبتها فتمزج بها، بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم لها، لا تعدل عنه حتى تصيب الأرض قطرة قطرة، قد عينت كل قطرة منها لجزء من الأرض، لا تتعداه إلى غيره، فلو اجتمع الخلق كلهم على أن يخلقوا منها قطرة واحدة، أو يحصوا عدد القطر في لحظة واحدة لعجزوا عنه، فتأمل كيف يسوقه سبحانه رزقًا للعباد والدواب والطير والذر والنمل، يسوقه رزقا للحيوان الفلاني في الأرض الفلانية بجانب الجبل الفلاني، فيصل إليه على شدة من الحاجة والعطش في وقت كذا وكذا»(٢).

* عن إبراهيم بن سعد أخبرني أبي قال: كنت جالسًا إلى جنب حميد بن عبد الرحمن في المسجد، فمر شيخ جميل من بني غفار، وفي أذنيه صمم أو قال وقر، أرسل إليه حميد، فلما أقبل قال: يا بن أخي! أوسع له فيما بيني وبينك، فإنه قد صحب رسول اللَّه ﷺ، فجاء حتى جلس فيما بيني وبينه. فقال له حميد: حدثني بالحديث الذي حدثتني عن رسول اللَّه ﷺ. فقال الشيخ: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن اللَّه ﷻ ينشئ السحاب فينطق أحسن المنطق، ويضحك أحسن الضحك**»(٣).

---

(١) بهجة النفوس (٣/ ١٣٦). (٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ٣٦-٣٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٣٥) واللفظ له، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٤١٢-٤١٣/ ٩٨٨)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٣/ ٢١٧/ ٥٢٢٠). قال الهيثمي في المجمع (٢/ ٢١٦): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح»، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (١٦٦٥).

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**فينطق أحسن النطق ويضحك أحسن الضحك**»: **قال ابن كثير**: «والمراد، واللَّه أعلم، أن نطقها الرعد وضحكها البرق، وقال موسى بن عبيدة، عن سعد بن إبراهيم قال: يبعث اللَّه الغيث، فلا أحسن منه مضحكا، ولا آنس منه منطقا، فضحكه البرق، ومنطقه الرعد»[١].

وقال الرامهرمزي: «هذا من أحسن التشبيه والصفة لأنه جعل صوت الرعد منطقًا للسحاب وتلألؤ البرق بمنزلة الضحك لها»[٢].

وقال الطحاوي: «تأملنا هذا الحديث، فوجدنا ما فيه موجودًا في كلام العرب، فمنه ما ذكره الفرّاء، قال: تقول العرب: يوم ضاحك مصح، وسحاب ناطق هاطل، تذهب بنطقه إلى رجوعه ومطره، لأنواء يعرفونه بها.

قال الفرّاء: وسمعت أبا ثروان يقول: شَتَوْنا بأرض سهلٍ عبورُها، كثير حبورها، ناطق سحابها، ضاحك جناتُها.

فأخبر عن هذه الأشياء بأفعال الآدميين لثبوت المعرفة على ما قصد له بوصف السحاب بالنطق، يريد غزارة مائه، ووصف الجنات بالضحك، لخروج زهره، وكبير مرعاه.

قال: وفي أمثالهم: نطق الشيب في رأسه، وضحك الشيب كذلك أيضًا: إذا ظهر، وكذلك: مال الجدار، واحترق الثوب، كل هذا معقول في المعنى، فخاطب النبي ﷺ -وقومه من العربية ذروتها وسنامها- الذين خاطبهم بذلك -وهم عرب- بما يفهمونه عنه، ويعقلونه من مراده، لأن اللَّه إنما أرسله إليهم بلسانهم ليبيّن لهم كما قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾[٣]. فخاطبهم بلسانهم لعلمه بفهمهم عنه ما خاطبهم به، واللَّه نسأله التوفيق»[٤].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٧٦).
(٢) الأمثال (ص: ١٥٦).
(٣) إبراهيم: الآية (٤).
(٤) شرح مشكل الآثار (١٣/ ٢١٨).

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾

★ غريب الآية:

المحال: العقوبة والإهلاك. يقال: مَحَل به: إذا عاقبه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «﴿وَهُمْ﴾ أي: الكفرةُ المخاطبون في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ وقد التفت إلى الغَيبة إيذانًا بإسقاطهم عن درجة الخِطاب وإعراضًا عنهم، وتعديدًا لجناياتهم لدى كلٍّ من يستحق الخطابَ كأنه قيل: هو الذي يفعل أمثالَ هذه الأفاعيلِ العجيبةِ من إراءة البرقِ وإنشاء السحابِ الثقالِ وإرسالِ الصواعقِ الدالةِ على كمال علمِه وقدرتِه، ويعقلها مَنْ يعقِلها من المؤمنين، أو الرعدُ نفسه أو الملكُ الموكلُ به والملائكةُ ويعملون بموجب ذلك من التسبيح والحمد والخوفِ من هيبته تعالى، وهم أي: الكفرة الذين حُكيت هَناتُهم مع ذلهم وهوانهم وحقارة شأنهم يجادلون في اللَّه أي: في شأنه تعالى حيث يفعلون ما يفعلون من إنكار البعثِ، واستعجال العذاب استهزاء، واقتراح الآيات، فالواو لعطف الجملةِ على ما قبلها من قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ الخ، أو على قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾[1] إلخ، وأما العطفُ على قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ كما قيل فلا مجال له؛ لأن قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ الخ، استئنافٌ لبيان بطلانِ قولهِم ذلك، ونظائره من استعجال العذاب وإنكار البعث قاطع لعطف ما بعده على ما قبله، وقيل: للحال أي: فيصيب بالصواعق من يشاء وهم في الجدال»[2].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: يَشُكّون في عظمته، وأنه لا إله إلا هو، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾. قال ابن جرير: شديدة مماحَلَته في عقوبة من

(١) الرعد: الآية (٨).
(٢) تفسير أبي السعود (٥/ ١٠).

طغى عليه وعتا وتمادى في كفره.

وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[1].

وعن علي ﷺ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾ أي: شديد الأخذ. وقال مجاهد: شديد القوة»[2].

وقال ابن عاشور: «وجملة: ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ في موضع الحال؛ لأنه من متممات التعجب الذي في قوله: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ﴾[3] الخ. فضمائر الغيبة كلها عائدة إلى الكفار الذين تقدم ذكرهم في صدر السورة بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[4] وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾[5] وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾[6]. وقد أعيد الأسلوب هنا إلى ضمائر الغيبة لانقضاء الكلام على ما يصلح لموعظة المؤمنين والكافرين فتمحض تخويف الكافرين.. والمجادلة إنما تكون في الشؤون والأحوال، فتعليق اسم الجلالة المجرور بفعل يجادلون يتعين أن يكون على تقدير مضاف تدل عليه القرينة؛ أي: في توحيد اللّه أو في قدرته على البعث. ومن جدلهم ما حكاه قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾[7]»[8].

وقال المراغي: «﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ أي: يجادلون في شأنه تعالى، وفيما وصفه به الرسول الكريم، من كمال العلم والقدرة والتفرد بالألوهية، وإعادة الناس للجزاء على أعمالهم يوم العرض والحساب.

وفي هذا تسلية لرسوله ﷺ فإنه لما نعى على كفار قريش عنادهم في اقتراحهم الآيات الحسية كآيات موسى وعيسى ﷺ، وإنكارهم كون الذي جاء به ﷺ آية: سلاّه بما ذكر كأنه قال له: إن هؤلاء لم يقصروا جحدهم وإنكارهم على النبوة بل تخطوه إلى الألوهية، ألا تراهم مع ظهور الآيات البينات على التوحيد يجادلون في

---

(١) النمل: الآيتان (٥٠و٥١).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٧٩).
(٣) الرعد: الآية (٥).
(٤) الرعد: الآية (١).
(٥) الرعد: الآية (٥).
(٦) الرعد: الآية (٧).
(٧) يس: الآيتان (٧٧ و ٧٨).
(٨) التحرير والتنوير (١٣/ ١٠٥-١٠٦).

اللَّه باتخاذ الشركاء وإثبات الأولاد له، ومع إحاطة علمه وشمول قدرته ينكرون البعث والجزاء والعرض للحساب، ومع شديد بطشه وعظيم سلطانه يقدمون على المكايدة والعناد فهوِّن عليك، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي: وهو سبحانه لا يغالب، فهو شديد البطش والكيد لأعدائه، يأتيهم من حيث لا يحتسبون ولا يترقبون، وهو القادر على أن ينزل عليهم عذابا من عنده لا يستطيعون حيلة لدفعه ولا قوة على رده، لكنه يمهلهم لأجل معلوم بحسب ما تقتضيه الحكمة»[١].

* * *

(١) تفسير المراغي (١٣/ ٨٢-٨٣).

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿١٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قال علي بن أبي طالب ﷺ: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ قال: التوحيد. رواه ابن جرير. وقال ابن عباس، وقتادة، ومالك عن محمد بن المنْكَدِر: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ قال: لا إله إلا اللّه.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ الآية أي: ومثل الذين يعبدون آلهة غير اللّه. ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ﴾ قال علي بن أبي طالب: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يناله أبدا بيده، فكيف يبلغ فاه؟.

وقال مجاهد: ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ﴾ يدعو الماء بلسانه، ويشير إليه فلا يأتيه أبدًا.

وقيل: المراد كقابض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شيء...

ومعنى هذا الكلام: أن هذا الذي يبسط يده إلى الماء، إما قابضًا وإما متناولًا له من بُعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلا للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع اللّه إلها غيره، لا ينتفعون بهم أبدا في الدنيا ولا في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾»[1].

وقال أبو حيان: «وقيل: دعوة الحق دعاؤه عند الخوف، فإنه لا يدعى فيه إلا هو، كما قال: ﴿ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾[2] قال الماوردي: وهو أشبه بسياق الآية.

وقيل: دعوة الطلب الحق أي: مرجو الإجابة، ودعاء غير اللّه لا يجاب، وقال الزمخشري: فيه وجهان: أحدهما: أن تضاف الدعوة إلى الحق الذي هو نقيض الباطل كما تضاف الكلمة إليه في قوله: (كلمة الحق) للدلالة على أن الدعوة ملابسة للحق مختصة به وأنها بمعزل من الباطل:

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٧٩-٨٠).

(٢) الإسراء: الآية (٦٧).

فأصبحت فيما كان بيني وبينها من الود مثل القابض الماء في اليد

وقال آخر:

وإني وإياكم وشوقًا إليكم كقابض ماء لم تسعه أنامله

وقيل: شبه الكفار في دعائهم لأصنامهم عند ضرورتهم برجل عطشان لا يقدر على الماء، جلس على شفير بئر يدعو الماء ليبل غلته، فلا هو يبلغ قعر البئر إلى الماء، ولا الماء يرتفع إليه لأنه جماد ولا يحس بعطشه ودعائه، كذلك ما يدعو الكفار من الأوثان جماد لا يحس بدعائهم، ولا يستطيع إجابتهم، ولا يقدر على نفعهم انتهى»[١].

قال الماوردي: «﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ﴾ ضرب الله ﷻ الماء مثلًا لإياسهم من إجابة دعائهم؛ لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلًا بالقابض الماء باليد، كما قال أبو الهذيل:

فأصبحتُ مما كان بيني وبينها مِن الود مثل القابض الماء باليد

وفي معنى هذا المثل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الذي يدعو إلهًا من دون الله كالظمآن الذي يدعو الماء ليبلغ إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبدًا؛ لأن الماء لا يستجيب له وما الماء ببالغ إليه، قاله مجاهد.

الثاني: أنه كالظمآن الذي يرى خياله في الماء وقد بسط كفه فيه ليبلغ فاه، وما هو ببالغه لكذب ظنه وفساد توهمه، قاله ابن عباس.

الثالث: أنه كباسط كفه إلى الماء ليقبض عليه فلا يحصل في كفيه شيء منه.

وزعم الفراء أن المراد بالماء ههنا البئر لأنها معدن للماء، وأن المثل كمن مد يده إلى البئر بغير رشاء، وشاهده قول الشاعر:

فإن الماء ماءُ أبي وجدي وبئري ذو حَفَرْتُ وذو طويت»[٢].

* * *

(١) البحر المحيط (٥/ ٣٦٧-٣٦٨).

(٢) النكت والعيون (٣/ ١٠٣-١٠٤).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ (١٥)﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء. ولهذا يسجُد له كلّ شيء طوعًا من المؤمنين، وكرها من الكافرين، ﴿وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ﴾ أي: البُكر والآصال، وهو جمع أصيل وهو آخر النهار، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

وقال أبو السعود: «ولا يبعُد أن يخلُق اللّه تعالى في الظلال أفهامًا وعقولًا بها تسجُد لله سبحانه كما خلقها للجبال، حتى اشتغلت بالتسبيح وظهر فيها آثارُ التجلّي كما قاله ابن الأنباري، ويجوز أن يراد بسجودها ما يشاهَد فيها من هيئة السجود تبعًا لأصحابها، وأنت خبير بأن اختصاصَ سجودِ الكافر حالة الضرورةِ والشدة باللّه سبحانه لا يُجدي، فإن سجودَهم لأصنامهم حالةَ الرخاء مُخِلٌّ بالقصر المستفادِ من تقديم الجار والمجرور، فالوجهُ حملُ السجودِ على الانقياد، ولأن تحقيقَ انقيادِ الكل في الإبداع والإعدامِ له تعالى أدخلُ في التوبيخ على اتخاذ أولياءَ من دونه من تحقيق سجودِهم له تعالى، وتخصيص انقيادِ العقلاءِ بالذكر مع كون غيرِهم أيضًا كذلك لأنهم العُمدة وانقيادهم دليل انقيادُ غيرهم»[(٣)].

وقال الخطيب: «وفي قصر سجود الظلال على الغدو والآصال، عرض واضح لسجود هذه الظلال، حيث تكون ظلال الأشياء في أول النهار وآخره ظاهرة ممتدة، يبدو فيها ظل الشيء أضعاف أصله، ثم ينكمش رويدا رويدا، حتى يقع تحت قدميه

---

(١) النحل: الآية (٤٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٨٠).

(٣) تفسير أبي السعود (٥/ ١٢).

عند الزوال، ثم يبدأ في الطول شيئًا فشيئا حتى يعود كما بدأ أول النهار في طوله وامتداده، أضعافا مضاعفة. إنها دورة كاملة للظل على الأرض أشبه بدورة الأفلاك في مداراتها..

وأقرب شيء إلى الإنسان وألصق الأشياء به، هو ظله.. وهذا الظل يسجد لله فإذا كان الإنسان مؤمنا سجد، وسجد معه ظله.. وإذا كان كافرا يأبى السجود لله، فإنه ساجد لله -كرهًا- بظله هذا الذي يسجد له غدوة وأصيلا وما بين الغدوة والأصيل.. فهل يستطيع أن يحول بين ظله وبين أن يسجد لله؟ فليجرب إذا.. وسيجد أنه كما لا يملك أن يمنع ظله من السجود لله، والانقياد لله فإنه لا يملك نفسه من الانقياد لله والخضوع لسلطانه القائم عليه في كل حركة يتحركها، أو نفس يتنفسه.. وليجرب مرة أخرى إن كان يستطيع الخروج عن سلطان الله! وهل يستطيع مثلًا أن يعيد نفسه إلى الشباب إن كان شيخا؟ وهل يستطيع أن يدفع عن نفسه عادية الجوع إذا امتنع عن الطعام يوما أو أياما؟ وهل يستطيع أن يغلب النوم فلا ينام أبدا؟ ثم أيستطيع أن يفر من الموت الذي هو ملاقيه يوما؟ أليست هذه، وآلاف غيرها من الضرورات القاهرة التي تتحكم في الإنسان، وتأخذه من مقوده -أليست من مظاهر الخضوع لله، طوعا وكرها؟ وبلى! فإن اللَّه سبحانه وتعالى ليقول: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾[1]»[2].

وقال الشنقيطي: «بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه يسجد له أهل السموات والأرض طوعًا وكرهًا، وتسجد له ظلالهم بالغدو والآصال. وذكر أيضًا سجود الظلال، وسجود أهل السموات والأرض في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩﴾[3] واختلف العلماء في المراد بسجود الظل وسجود غير المؤمنين، فقال بعض العلماء: سجود من في السموات والأرض من العام

(١) الرحمن: الآية (٣٣).

(٢) التفسير القرآني (٧/ ٨٨-٨٩).

(٣) النحل: الآيات (٤٨-٥٠).

المخصوص، فالمؤمنون والملائكة يسجدون لله سجودًا حقيقيًا، وهو وضع الجبهة على الأرض يفعلون ذلك طوعًا، والكفار يسجدون كرهًا، أعني المنافقين؛ لأنهم كفار في الباطن، ولا يسجدون لله إلا كرهًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾[1] الآية وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾[2] والدليل على أن سجود أهل السموات والأرض من العام المخصوص، قوله تعالى في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾[3]. فقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ دليل على أن بعض الناس غير داخل في السجود المذكور، وهذا قول الحسن وقتادة وغيرهما وذكره الفراء. وقيل: الآية عامة، والمراد بسجود المسلمين طوعًا انقيادهم لما يريد اللَّه منهم طوعًا، والمراد بسجود الكافرين كرهًا انقيادهم لما يريد اللَّه منهم كرهًا؛ لأن إرادته نافذة فيهم وهم منقادون خاضعون لصنعه فيهم، ونفوذ مشيئته فيهم، وأصل السجود في لغة العرب الذل والخضوع...

وعلى هذا القول فالسجود لغوي لا شرعي، وهذا الخلاف المذكور جار أيضًا في سجود الظلال فقيل: سجودها حقيقي، واللَّه تعالى قادر على أن يخلق لها إدراكًا تدرك به، وتسجد لله سجودًا حقيقيًّا. وقيل: سجودها ميلها بقدرة اللَّه أول النهار إلى جهة المغرب، وآخره إلى جهة المشرق، وادعى من قال هذا: أن الظل لا حقيقة له لأنه خيال فلا يمكن منه الإدراك.

ونحن نقول: إن اللَّه -جل وعلا- قادر على كل شيء، فهو قادر على أن يخلق للظل إدراكًا يسجد به لله تعالى سجودًا حقيقيًّا، والقاعدة المقررة عند علماء الأصول هي حمل نصوص الوحي على ظواهرها إلا بدليل من كتاب أو سنة، ولا يخفى أن حاصل القولين:

---

(١) النساء: الآية (١٤٢).

(٢) التوبة: الآية (٥٤).

(٣) الحج: الآية (١٨).

أن أحدهما: أن السجود شرعي وعليه فهو في أهل السموات والأرض من العام المخصوص.

والثاني: أن السجود لغوي بمعنى الانقياد والذل والخضوع، وعليه فهو باق على عمومه والمقرر في الأصول عند المالكية والحنابلة وجماعة من الشافعية أن النص إن دار بين الحقيقة الشرعية والحقيقة اللغوية حمل على الشرعية، وهو التحقيق خلافًا لأبي حنيفة في تقديم اللغوية، ولمن قال يصير اللفظ مجملًا لاحتمال هذا وذاك، وعقد هذه المسألة صاحب مراقي السعود بقوله:

واللفظ محمول على الشرعي فاللغوي على الجلي ولم يجب
إن يكن فمطلق العرفي بحث عن المجاز في الذي انتخب

وقيل: المراد بسجود الكفار كرها سجود ظلالهم كرهًا. وقيل: الآية في المؤمنين فبعضهم يسجد طوعًا لخفة امتثال أوامر الشرع عليه، وبعضهم يسجد كرهًا لثقل مشقة التكليف عليه مع أن إيمانه يحمله على تكلف ذلك والعلم عند اللَّه تعالى»[1].

* * *

(١) أضواء البيان (٣/ ٩٨-١٠١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو؛ لأنهم معترفون أنه هو الذي خلق السموات والأرض، وهو ربها ومدبرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: لا تحصل منفعة، ولا تدفع مضرة. فهل يَستَوي من عبد هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له، فهو على نور من ربه؟ ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ أي: أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله في الخلق، فخلقوا كخلقه، فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره؟ أي: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله، ولا ندّ له ولا عدْل له، ولا وزير له، ولا ولد ولا صاحبة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم معترفون أنها مخلوقة له عبيد له، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك. وكما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[1] فأنكر تعالى ذلك عليهم، حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[2]، ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ

---

(١) الزمر: الآية (٣).

(٢) سبأ: الآية (٢٣).

ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾[١] وقال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾[٢] فإذا كان الجميع عبيدا، فلم يعبد بعضهم بعضا بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع؟ ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك، وتنهاهم عن عبادة من سوى اللَّه، فكذبوهم وخالفوهم، فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة، ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾[٣]»[٤].

وقال أبو حيان: «ولما كان السؤال عن أمر واضح لا يمكن أن يدفع منه أحد، كان جوابه من السائل. فكان السبق إليه أفصح في الاحتجاج إليهم وأسرع في قطعهم في انتظار الجواب منهم، إذ لا جواب إلا هذا الذي وقعت المبادرة إليه، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾[٥] ويبعد ما قال مكي من أنهم جهلوا الجواب فطلبوه من جهة السائل فأعلمهم به السائل، لأنه قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾[٦] فإذا كانوا مقرين بأنّ منشئ السموات والأرض ومخترعها هو اللَّه، فكيف يقال: بأنهم جهلوا الجواب فطلبوه من السائل؟ وقال الزمخشري: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ حكاية لاعترافهم تأكيد له عليهم، لأنه إذا قال لهم: من رب السموات والأرض؟ لم يكن لهم بد من أن يقولوا: اللَّه، كقوله: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾[٧] وهذا كما يقول المناظر لصاحبه: أهذا قولك؟ فإذا قال: هذا قولي، قال: هذا قولك، فيحكي إقراره تقريرًا عليه واستئنافًا منه، ثم يقول له: فيلزمك على هذا القول كيت وكيت. ويجوز أن يكون تلقينًا أي: إنْ كفوا عن الجواب فلقنهم، فإنهم يتلقنونه ولا يقدرون أن ينكروه. وقال الكرماني: قل يا محمد للكفار من رب السموات والأرض؟ استفهام تقرير واستنطاق بأنهم يقولون اللَّه، فإذا قالوها قل: اللَّه؛ أي: هو كما قلتم. وقيل: فإن أجابوك وإلا قل: اللَّه، إذ لا جواب غير هذا انتهى. وهو تلخيص القولين اللذين قالهما الزمخشري. وقال البغوي: روي أنه لما

(١) النجم: الآية (٢٦).
(٢) مريم: الآيات (٩٣-٩٥).
(٣) الكهف: الآية (٤٩).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٨٠-٨١).
(٥) سبأ: الآية (٢٤).
(٦) الزمر: الآية (٣٨).
(٧) المؤمنون: الآيتان (٨٦و٨٧).

قال هذا للمشركين عطفوا عليه فقالوا: أجب أنت، فأمره اللَّه فقال: قل اللَّه انتهى. واستفهم بقوله: قل أفاتخذتم؟ على سبيل التوبيخ والإنكار؛ أي: بعد أن علمتم أنه تعالى هو رب السموات والأرض تتخذون من دونه أولياء وتتركونه، فجعلتم ما كان يجب أن يكون سببًا للتوحيد من علمكم وإقراركم سببًا للإشراك، ثم وصف تلك الأولياء بصفة العجز وهي كونها لا تملك لأنفسها نفعًا ولا ضرًّا، ومن بهذه المثابة فكيف يملك لهم نفعًا أو ضرًّا؟ ثم مثل ذلك حالة الكافر والمؤمن، ثم حالة الكفر والإيمان، وأبرز ذلك في صورة الاستفهام للذي يبادر المخاطب إلى الجواب فيه من غير فكر ولا روية بقوله: قل هل يستوي الأعمى والبصير؟ ثم انتقل إلى الاستفهام عن الوصفين القائمين بالكافر وهو: الظلمات، وبالمؤمن وهو النور»[١].

وقال القاسمي: «قال الناصر: وفي قوله تعالى: ﴿خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ﴾ في سياق الإنكار، تهكم بهم. لأن غير اللَّه لا يخلق خلقا البتة، لا بطريق المشابهة والمساواة لله، تقدس عن التشبيه، ولا بطريق الانحطاط والقصور. فقد كان يكفي في الإنكار عليهم أن الشركاء التي اتخذوها لا تخلق مطلقًا، ولكن جاء في قوله تعالى: ﴿كَخَلْقِهِۦ﴾ تهكم يزيد الإنكار تأكيدا!»[٢].

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾:

قال الشوكاني: «كائنًا ما كان ليس لغيره في ذلك مشاركة بوجه من الوجوه. قال الزجاج: والمعنى: أنه خالق كل شيء مما يصح أن يكون مخلوقًا، ألا ترى أنه تعالى شيء وهو غير مخلوق ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ﴾ أي: المتفرّد بالربوبية ﴿ٱلْقَهَّـٰرُ﴾ لما عداه، فكل ما عداه مربوب مقهور مغلوب»[٣].

وقال المراغي: «وخلاصة ذلك: أفبعد أن علمتم أنه هو الخالق لهذا الخلق العظيم، تتخذون من دونه أولياء هم غاية في العجز؟ وجعلتم ما كان يجب أن يكون سببا في الاعتراف بالوحدانية وهو علمكم بذلك؛ سببا في إشراككم به سواء من أضعف خلقه، وهو بمعنى قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٣٧٠).
(٢) محاسن التأويل (٩/ ٣٥٠).
(٣) فتح القدير (٣/ ١٠٥).

﴿تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾(١)، ثم ضرب مثلا للمشركين الذين يعبدون الأصنام والمؤمنين الذين يعترفون بأن لا رب غيره ولا معبود سواه، فقال:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: قل لهم مصورا سخيف آرائهم مفندا قبيح معتقداتهم: هل يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئًا ولا يهتدي لمحجة يسلكها إلا بأن يهدى بدليل، والبصير الذي يهدي الأعمى لسلوك الطريق؟ لا شك أن الجواب أنهما غير متساويين، فكذلك المؤمن الذي يبصر الحق فيتّبعه، ويعرف الهدى فيسلكه، لا يستوي وإياكم؟ وأنتم لا تعرفون حقًّا، ولا تبصرون رشدًا.

ثم ضرب مثلًا للكفر والإيمان بقوله: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ أي: بل هل تستوي الظلمات التي لا ترى فيها الطريق فتسلك، والنور الذي يُبْصَر به الأشياء، ويجلو ضوؤه الظلام - لا شك أن الجواب عن ذلك أنهما لا يستويان، فكذلك الكفر بالله صاحبه منه في حيرة، يضرب أبدًا في غمرة لا يهتدي إلى حقيقة، ولا يصل إلى صواب، والإيمان بالله صاحبه منه في ضياء، فهو يعمل على علم بربه ومعرفة منه بأنه يثيبه على إحسانه، ويعاقبه على إساءته، ويرزقه من حيث لا يحتسب، ويكلؤه بعنايته في كل وقت وحين، فهو يفوض أمره إليه إذا أظلمت الخطوب، وتعقدت في نظره مدلهمات الحوادث.

﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بل أخلق أوثانكم التي اتخذتموها معبودات من دون الله، خلقا كخلقه، فاشتبه عليكم أمرها فيما خلقت وخلق الله، فجعلتموها له شركاء من أجل ذلك - أم إنما بكم الجهل والبعد عن الصواب، إذ لا يخفى على من له مسكة من العقل، أن عبادة ما لا يضر ولا ينفع، من الجهل بحقيقة المعبود، ومن يجب له التذلل والخضوع، والإنابة والزلفى والإخبات إليه، وإنما الواجب عبادة من يرجى نفعه ويخشى عقابه وضره، وهو الذي يرزقه ويمونه آناء الليل وأطراف النهار.

ثم ذكر فذلكة لما تقدم، ونتيجة لما سبق من الأدلة والأمثال التي ضربت لها فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ أي: قل مبينا لهم وجه الحق: الله

---

(١) الحج: الآية (٧٣).

خالقكم وخالق أوثانكم وخالق كل شيء، وهو الفرد الذي لا ثاني له، الغالب على كل شيء سواه، فكيف تعبدون غيره وتشركون به ما لا يضر ولا ينفع؟»(١).

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾. أشار تعالى: في هذه الآية الكريمة إلى أنه هو المستحق لأن يعبد وحده لأنه هو الخالق ولا يستحق من الخلق أن يعبدوه إلا من خلقهم وأبرزهم من العدم إلى الوجود؛ لأن المقصود من قوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ إنكار ذلك وأنه هو الخالق وحده بدليل قوله بعده: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: خالق كل شيء هو المستحق لأن يعبد وحده ويبين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٢). وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾(٣) الآية وقوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾(٤) وقوله: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾(٥) إلى غير ذلك من الآيات؛ لأن المخلوق محتاج إلى خالقه فهو عبد مربوب مثلك، يجب عليه أن يعبد من خلقه وحده، كما يجب عليك ذلك فأنتما سواء بالنسبة إلى وجوب عبادة الخالق وحده لا شريك له»(٦).

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الشرك أخفى من دبيب النمل

* عن معقل بن يسار ﷺ قال: «انطلقت مع أبي بكر الصديق ﷺ إلى النبي ﷺ فقال: يا أبا بكر! للشرك فيكم أخفى من دبيب النمل. فقال أبو بكر ﷺ: وهل الشرك إلا من جعل مع اللَّه إلهًا آخر؟ فقال النبي ﷺ: والذي نفسي بيده، للشرك أخفى من دبيب النمل، ألا أدلك على شيء إذا قلته ذهب قليله وكثيره؟ قال: قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»(٧).

* عن أبي علي -رجل من بني كاهل- قال: خطبنا أبو موسى الأشعري فقال:

---

(١) تفسير المراغي (١٣/ ٨٥-٨٧).
(٢) البقرة: الآية (٢١).
(٣) الفرقان: الآية (٣).
(٤) الأعراف: الآية (١٩١).
(٥) لقمان: الآية (١١).
(٦) أضواء البيان (٣/ ١٠١).
(٧) أخرجه: البخاري في الأدب المفرد (٧١٦)، وأبو يعلى (١/ ٦١-٦٣/ ٥٩، ٦٠، ٦١)، وصححه الشيخ الألباني في الضعيفة تحت رقم (٣٧٥٥).

يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل. فقام إليه عبداللَّه بن حزن، وقيس بن المضارب فقالا: واللَّه لتخرجن مما قلت أو لنأتين عمر مأذون لنا أو غير مأذون. قال: بل أخرج مما قلت؛ خطبنا رسول اللَّه ﷺ ذات يوم فقال: «**أيها الناس! اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل**» فقال له من شاء اللَّه أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: «**قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئًا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلم**»[(١)].

★ **فوائد الحديثين:**

قال المناوي: «قال الرازي: السلامة في القيامة بقدر الاستقامة في نفي الشركاء، فمن الناس من أثبت ظاهرًا وهو الشرك الظاهر، والاستقامة في الدنيا لا تحصل إلا بنفي الشركاء ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾[(٢)]، ومنهم من أقرّ بالوحدانية ظاهرًا، لكنه يقول قولًا يهدم ذلك التوحيد، كأن يضيف السعادة والنحوسة إلى الكواكب، والصحة والمرض إلى الدواء، والغذاء أو العمل إلى العبد استقلالًا، وكل ذلك يبطل الاستقامة في معرفة الحق ﷻ. ومنهم من ترك كل ذلك لكنه يطيع النفس والشهوة أحيانًا، وإليه أشار بقوله: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[(٣)]. وهذا النوع من الشرك هو المسمى بالشرك الخفي، والمراد من قوله ﷻ حكاية عن إبراهيم وإسماعيل: ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾[(٤)]، وقول يوسف: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾[(٥)]، وأن الأنبياء مبرؤون عن الشرك الجلي. أما الحالة المسماة بالشرك الخفي -وهو الالتفات إلى غير الله- فالبشر لا ينفك عنه في جميع الأوقات، فلهذا السبب تضرع الأنبياء والرسل في أن يصرف عنهم الأسباب، تردّها صلابة قلوبهم بالله»[(٦)].

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٠٣)، والطبراني في الأوسط (٤/ ٢٨٤/ ٣٥٠٣)، وابن أبي شيبة (٦/ ٧٠-٧١/ ٢٩٥٤٧)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٢٣) وقال: «رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي علي ووثقه ابن حبان». والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب (٣٦).

(٢) البقرة: الآية (٢٢).

(٣) الفرقان: الآية (٤٣).

(٤) البقرة: الآية (١٢٨).

(٥) يوسف: الآية (١٠١).

(٦) فيض القدير (٤/ ١٧٢-١٧٣).

قلت: هذا التوجيه من الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أن المسلم أحيانًا ينطق بالشهادة ويثبت للَّه الوجود والصنع في الكون؛ توجيه جيد، حيث إنك تجده يثبت للأموات نفعًا وضرًّا؛ فيستغيث بهم في حالة ملماته، ووقوع النوازل به، ويستعين بهم في قيامه وقعوده وفي كل حركاته وسكناته، ويقسم بهم في إقسامه فيختار القسم بهم على القسم باللَّه، ويذبح لهم، ويوقد الشموع عند أضرحتهم، ويقبل أعتابهم وتربة قبورهم، ويحمل تربتهم فيضعها في زرعه وثماره، ويعقد لهم مواسم بزعمه، فيقع فيها من الشركيات ما يعلمه من يحضرها ويشاهدها، وهكذا يصرفون له كل ما لا يجوز أن يصرف إلا للَّه، فينقضون بذلك توحيدهم، وهم كما وصفهم اللَّه في هـذه الآيـة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾[1]. فيا حسرة على المسلمين! ويا حسرة على العلماء الذين انتسبوا إلى العلم وهم يشاهدون هذه الموبقات من الشركيات ولا يحذرون منها! بل يشاركون فيها إرضاء لسادتهم، وتحقيقًا لمنفعة ذواتهم. وهذا النوع مع الأسف أصبح في وقتنا الحاضر كثيرًا لا كثرهم اللَّه، وهم الذين يتصدرون المجالس، وهم المرضيون عند سادتهم، فيسبلون عليهم كل الألقاب، ويخولون لهم الإمكانيات، ويسخرونها لهم حتى يقوى ساعدهم على محاربة التوحيد والدفاع عن الشرك الواضح الذي لا خفاء فيه ولا لبس، واللَّه المستعان.

قال المناوي: «**قوله**: «**الشرك فيكم**» أيها الأمة «**أخفى من دبيب النمل**» قال الغزالي: ولذلك عجز عن الوقوف على غوائله سماسرة العلماء، فضلًا عن عامة العباد، وهو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها، وإنما يبتلى به العلماء والعباد المشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة، فإنهم مهما نهروا أنفسهم وجاهدوها وفطموها عن الشهوات، وصانوها عن الشبهات، وحملوها بالقهر على أصناف العبادات، عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح، فطلبت الاستراحة إلى الظاهر بالخير وإظهار العمل والعلم، فوجدت مخلصًا من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق، ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم، فنازعت إلى إظهار الطاعة، وتوصلت إلى اطلاع الخلق، ولم تقنع

(١) الرعد: الآية (١٤).

باطلاع الخالق، وفرحت بحمد الناس، ولم تقنع بحمد اللَّه، وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه للشهوات وتوقيه للشبهات، وتحمله مشقات العبادات، أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء، وبالغوا في الإعزاز، ونظروا إليه بعين الاحترام، وتبركوا بلقائه، ورغبوا في بركته ودعائه، وفاتحوه بالسلام والخدمة، وقدموه في المجالس والمحافل، وتصاغروا له، فأصابت النفس في ذلك لذة هي من أعظم اللذات، وشهوة هي أغلب الشهوات، فاستحقرت فيه ترك المعاصي والهفوات، واستلانت خشونة المواظبة على العبادات، لإدراكها في الباطن لذة اللذات وشهوة الشهوات، فهو يظن أن حياته باللَّه وبعبادته المرضية، وإنما حياته لهذه الشهوة الخفية التي يعمى عن دركها إلا العقول النافذة القوية، ويرى أنه يخلص في طاعة رب العالمين، وقد أثبت اسمه في جريدة المنافقين. وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهب اللَّه عنك صغار الشرك وكباره.. تقول: (اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم)»[١].

ذكر ابن أبي حاتم عن الحبر عبد اللَّه بن عباس ﵄ أنه فسر (الأنداد) في قول اللَّه تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢] قال: «الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: واللَّه وحياتك يا فلان وحياتي، وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء اللَّه وشئت، وقول الرجل: لولا اللَّه وفلان. لا تجعل فيها فلانًا؛ هذا كله من الشرك»[٣].

فالحلف بغير اللَّه، وتعليق نفع على فعل مخلوق، وتعليق نفع على فعل اللَّه ومعه غيره؛ كل ذلك يرى ابن عباس ﵄ أنه من الشرك». وما أكثر هذه الأمور في هذه الأزمان! واللَّه المستعان.

* * *

---

(١) فيض القدير (٤/ ١٧٣).

(٢) البقرة: الآية (٢٢).

(٣) رواه ابن أبي حاتم (١/ ٦٢/ ٢٢٩) وإسناده حسن.

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾

★ غريب الآية:

احتمل: الاحتمال: رفع الشيء على الظهر. يقال حمَّلْته كذا فتحَمَّله. إذا رفعه على ظهره حاملا له.

زَبَدا: الزبد: ما يطفو على الماء عند اشتداد السيل.

رابيًا: أي: طافيًا فوق الماء.

جفاء: الجفاء: الغثاء الذي يرميه السيل على ضفتي الوادي لا ينتفع به. يقال: أجفأت الأرض: إذا ذهب خيرها. وأجفأت القِدْرُ وجفأت: إذا ألقت زَبَدها.

يمكث: المكوث: اللبث والبقاء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: مطرا، ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ أي: أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيرا من الماء، وهذا صغير فوسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علما كثيرا، ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها، ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ﴾ أي: فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زَبَدٌ عال عليه، هذا مثل، وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ هذا هو المثل الثاني، وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ أي: ليجعل حلية أو نحاسا أو حديدًا، فيجعل متاعا فإنه يعلوه زبد منه، كما يعلو ذلك زبد منه. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ﴾

أي: إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل؛ ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗ﴾ أي: لا ينتفع به، بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح. وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شيء، ولا يبقى إلا الماء وذلك الذهب ونحوه ينتفع به؛ ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾[1] قال بعض السلف: كنت إذا قرأتُ مثلا من القرآن فلم أفهمه بَكَيت على نفسي؛ لأن اللَّه تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ الآية: هذا مثل ضربه اللَّه احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها؛ فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع اللَّه به أهله وهو قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ وهو الشك، ﴿فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وهو اليقين، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار، فكذلك يقبل اللَّه اليقين ويترك الشك. وقال العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ﴾ يقول: احتمل السيل ما في الوادي من عود ودمنة ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد، فللنحاس والحديد خبث، فجعل اللَّه مثل خبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت؛ فجعل ذاك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيئ يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد؛ وكذلك الهدى والحق جاءا من عند الله؛ فمن عمل بالحق كان له وبقي، كما بقي ما ينفع الناس في الأرض؛ وكذلك الحديد لا يستطاع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النار، فتأكل خبثه، ويخرج جيده فينتفع به، فكذلك يضمحل الباطل، فإذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الأعمال، فيزيغ الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق؛ وهكذا روي في تفسيرها عن مجاهد

---

(١) العنكبوت: الآية (٤٣).

والحسن البصري وعطاء وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف.

وقد ضرب ﷻ في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين: ناريًا ومائيًا وهما قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾[1] الآية، ثم قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾[2] الآية؛ وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مثلين: أحدهما: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ﴾[3] الآية؛ والسراب إنما يكون في شدة الحر، ولهذا جاء في الصحيحين: «**فيقال لليهود يوم القيامة: فما تريدون؟ فيقولون: أي ربنا عطشنا فاسقنا. فيقال: ألا تردون؟ فيردون النار فإذا هي كسراب يحطم بعضها بعضًا**»[4]. ثم قال تعالى في المثل الآخر: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾[5] الآية»[6].

وقال ابن القيم: «وقد ذكر اللَّه المثلين المائي والناري في سورة الرعد، ولكن في حق المؤمنين، فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ شبه الوحي الذي أنزله لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأودية، فقلب كبير يسع علما عظيما كواد كبير يسع ماء كثيرا، وقلب صغير إنما يسع بحسبه كالوادي الصغير، فسالت أودية بقدرها واحتملت قلوب من الهدى والعلم بقدرها، وكما أن السيل إذا خالط الأرض ومر عليها احتمل غثاء وزبدا، فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات ليقلعها ويذهبها كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه فيتكدر بها شاربه، وهي من تمام نفع الدواء، فإنه أثارها ليذهب بها، فإنه لا يجامعها ولا يشاركها، وهكذا يضرب اللَّه الحق والباطل، ثم ذكر المثل الناري فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ﴾ وهو الخبث الذي يخرج عند سبك الذهب والفضة والنحاس والحديد فتخرجه النار وتميزه وتفصله عن الجوهر

---

(١) البقرة: الآية (١٧).
(٢) البقرة: الآية (١٩).
(٣) النور: الآية (٣٩).
(٤) سيأتي تخريجه.
(٥) النور: الآية (٤٠).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٨١-٨٣).

الذي ينتفع به، فيرمي ويطرح ويذهب جفاء، فكذلك الشهوات والشبهات يرميها قلب المؤمن ويطرحها ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد والغثاء والخبث، ويستقر في قرار الوادي الماء الصافي الذي يستقي منه الناس ويزرعون ويسقون أنعامهم، كذلك يستقر في قرار القلب وجذره الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه وينتفع به غيره، ومن لم يفقه هذين المثلين ولم يتدبرهما و يعرف ما يراد منهما فليس من أهلهما، والله الموفق»(١).

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في ضرب الأمثال للحق والباطل

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن أناسا في زمن النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال النبي ﷺ: «**نعم، هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة ضوء ليس فيها سحاب؟**» قالوا: لا قال: «**وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ضوء ليس فيها سحاب؟**» قالوا: لا قال النبي ﷺ: «**ما تضارون في رؤية الله ﷻ يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن: تتبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقى من كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله بر أو فاجر، وغُبَّرَاتُ أهل الكتاب، فيدعى اليهود فيقال لهم: من كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزير ابن الله، فيقال لهم: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فماذا تبغون؟ فقالوا: عطشنا ربنا فاسقنا، فيشار ألا تردون، فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا، فيتساقطون في النار، ثم يدعى النصارى فيقال لهم: من كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال لهم: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فيقال لهم: ماذا تبغون، فكذلك مثل الأول، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر أو فاجر أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها، فيقال: ماذا تنتظرون؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد، قالوا: فارقنا الناس في الدنيا على أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم، ونحن ننتظر ربنا الذي كنا نعبد، فيقول:**

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٥٢-١٥٣).

أنا ربكم، فيقولون: لا نشرك بالله شيئًا مرتين أو ثلاثًا»[١].

★ فوائد الحديث:

محل الشاهد من هذا الحديث قوله ﷺ في اليهود: «فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا».

قال النووي: «أما السراب فهو الذي يتراءى للناس في الأرض القفر والقاع المستوي وسط النهار في الحر الشديد لامعا مثل الماء، يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، فالكفار يأتون جهنم - أعاذنا الله الكريم وسائر المسلمين منها ومن كل مكروه - وهم عطاش، فيحسبونها ماء، فيتساقطون فيها.

وأما: «يحطم بعضها بعضا» فمعناه: لشدة اتقادها وتلاطم أمواج لهبها. والحطم: الكسر والإهلاك، والحطمة: اسم من أسماء النار لكونها تحطم ما يلقى فيها»[٢].

* عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان؛ لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[٣].

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حوله؛ جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل الرجل يزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها»[٤].

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٦-١٧)، والبخاري (٨/ ٣١٦-٣١٧/ ٤٥٨١)، ومسلم (١/ ١٦٧-١٧١/ ١٨٣).

(٢) شرح مسلم (٣/ ٢٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٩)، والبخاري (١/ ٢٣٢/ ٧٩) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٧٨٧-١٧٨٨/ ٢٢٨٢)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٢٧/ ٥٨٤٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٢)، والبخاري (١١/ ٣٨٣/ ٦٤٨٣) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٧٨٩/ ٢٢٨٤)، والترمذي (٥/ ١٤٢/ ٢٨٧٤).

★ **فوائد الحديثين:**

قال ابن القيم: «جعل النبي ﷺ الناس بالنسبة إلى الهدى والعلم ثلاث طبقات: الطبقة الأولى: ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وهم الذين قاموا بالدين علما وعملا، ودعوة إلى اللَّه ﷻ ورسوله ﷺ، فهؤلاء أتباع الرسل -صلوات اللَّه عليهم وسلامه- حقًّا، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت فقبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، فزكت في نفسها وزكا الناس بها، وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة على الدعوة، ولذلك كانوا ورثة الأنبياء صلى اللَّه عليهم وسلم الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾[1] فالأيدي القوة في أمر اللَّه، والأبصار: البصائر في دين اللَّه ﷻ، فبالبصائر يدرك الحق ويعرف، وبالقوى يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه، فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم والفقه في الدين والبصر بالتأويل، ففجرت من النصوص أنهار العلوم، واستنبطت منها كنوزها، ورزقت فيها فهما خاصا كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقد سئل: هل خصكم رسول اللَّه ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهما يؤتيه اللَّه عبدا في كتابه[2]. فهذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الكثير الذي أنبتته الأرض، وهو الذي تميزت به هذه الطبقة عن (الطبقة الثانية) فإنها حفظت النصوص، وكان همها حفظها وضبطها، فوردها الناس وتلقوها منهم، فاستنبطوا منها واستخرجوا كنوزها، واتجروا فيها، وبذروها في أرض قابلة للزرع والنبات، ووردها كل بحسبه ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾[3] وهؤلاء هم الذين قال فيهم النبي ﷺ: «**نضر اللَّه امرءا سمع مقالتي فوعاها ثم أداها كما سمعها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه**»[4] وهذا عبد اللَّه بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن، مقدار ما سمع من النبي ﷺ لم يبلغ نحو العشرين حديثا

---

(١) ص: الآية (٤٥).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٧٩)، والبخاري (١٢/ ٣٠٣/ ٦٩٠٣)، والترمذي (٤/ ١٧/ ١٤١٢)، والنسائي (٨/ ٣٩٢/ ٤٧٥٨)، وابن ماجه (٢/ ٨٨٧/ ٢٦٥٨).

(٣) البقرة: الآية (٦٠).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٤٣٧)، والترمذي (٥/ ٣٣/ ٢٦٥٧)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ٨٥/ ٢٣٢)، وصححه ابن حبان (١/ ٢٦٨/ ٦٦)، من حديث ابن مسعود ﷺ.

الذي يقول فيه سمعت ورأيت، وسمع الكثير من الصحابة، وبورك في فهمه والاستباط منه حتى ملأ الدنيا علما وفقها.

قال أبو محمد بن حزم: وجمعت فتاويه في سبعة أسفار كبار، وهي بحسب ما بلغ جامعها وإلا فعلم ابن عباس كالبحر، وفقهه واستنباطه وفهمه في القرآن بالموضع الذي فاق به الناس، وقد سمع كما سمعوا، وحفظ القرآن كما حفظوا، ولكن أرضه كانت من أطيب الأراضي وأقبلها للزرع، فبذر فيها النصوص فأنبتت من كل زوج كريم ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1] وأين تقع فتاوى ابن عباس وتفسيره واستنباطه من فتاوى أبي هريرة وتفسيره؟ وأبو هريرة أحفظ منه بل هو حافظ الأمة على الإطلاق، يؤدي الحديث كما سمعه، ويدرسه بالليل درسا، فكانت همته مصروفة إلى الحفظ وبلغ ما حفظه كما سمعه، وهمة ابن عباس مصروفة إلى التفقه والاستنباط، وتفجير النصوص، وشق الأنهار منها، واستخراج كنوزها، وهكذا الناس بعده قسمان:

قسم حفاظ: معتنون بالضبط والحفظ والأداء كما سمعوا ولا يستنبطون ولا يستخرجون كنوز ما حفظوه، وقسم معتنون بالاستنباط واستخراج الأحكام من النصوص والتفقه فيها، فالأول كأبي زرعة وأبي حاتم وابن وارة، وقبلهم كبندار محمد بن بشار، وعمرو الناقد، وعبد الرزاق، وقبلهم كمحمد ابن جعفر غندر وسعيد بن أبي عروبة، وغيرهم من أهل الحفظ والإتقان والضبط لما سمعوه من غير استنباط وتصرف واستخراج الأحكام من ألفاظ النصوص.

والقسم الثاني: كمالك والشافعي والأوزاعي وإسحق والإمام أحمد بن حنبل والبخاري وأبي داود ومحمد بن نصر المروزي -وأمثالهم ممن جمع الاستنباط والفقه إلى الرواية- فهاتان الطائفتان هما أسعد الخلق بما بعث اللّه تعالى به رسوله ﷺ، وهم الذين قبلوه ورفعوا به رأسًا.

وأما (الطائفة الثالثة): وهم أشقى الخلق الذين لم يقبلوا هدى اللّه ولم يرفعوا به رأسًا فلا حفظ ولا فهم ولا رواية ولا دراية ولا رعاية.

فالطبقة الأولى: أهل رواية ودراية.

---

(١) الحديد: الآية (٢١).

والطبقة الثانية: أهل رواية ورعاية، ولهم نصيب من الدراية بل حظهم من الرواية أوفر.

والطبقة الثالثة: الأشقياء لا رواية ولا دراية ولا رعاية ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[١] فهم الذين يضيقون الديار، ويغلون الأسعار، إن همة أحدهم إلا بطنه وفرجه، فإن ترقت همته كان همه -مع ذلك- في لباسه وزينته، فإن ترقت همته فوق ذلك كان في داره وبستانه ومركوبه، فإن ترقت همته فوق ذلك، كان همه في الرياسة والانتصار للنفس الكلبية، فإن ارتفعت همته عن نصرة النفس الكلبية كان همه في نصرة النفس السبعية، وأما النفس الملكية فلم يعطها أحد من هؤلاء؟ فإن النفوس ثلاثة كلبية وسبعية وملكية.

فالكلبية تقنع بالعظم والكسرة والجيفة والعذرة، والسبعية لا تقنع بذلك بل بقهر النفوس والاستيلاء عليها بالحق والباطل، وأما الملكية فقد ارتفعت عن ذلك وشمرت إلى الرفيق الأعلى، فهمتها العلم والإيمان، ومحبة اللَّه تعالى، والإنابة إليه، والطمأنينة به، والسكون إليه، وإيثار محبته ومرضاته، وإنما تأخذ من الدنيا ما تأخذه لتستعين به على الوصول إلى فاطرها وربها ووليها، لا لتنقطع به عنه»[٢].

وقال: «شبّه سبحانه العلم الذي أنزله على رسوله بالماء الذي أنزله من السماء، لما يحصل لكل واحد منهما من الحياة، ومصالح العباد في معاشهم ومعادهم، ثم شبه القلوب بالأودية، فقلب كبير يسع علمًا كثيرًا، كواد عظيم يسع ماءً كثيرًا، وقلب صغير إنما يسع علمًا قليلًا، كواد صغير إنما يسع ماءً قليلًا، فقال اللَّه تعالى: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾[٣]. هذا مثل ضربه اللَّه تعالى للعلم حين تخالط القلوب بشاشته، فإنه يستخرج منها زبد الشبهات الباطلة، فيطفو على وجه القلب؛ كما يستخرج السيل من الوادي زبدًا يعلو فوق الماء. وأخبر سبحانه أنه راب أي: يطفو ويعلو على الماء لا يستقر في أرض الوادي، كذلك الشبهات الباطلة إذا أخرجها العلم؛ ربت فوق القلوب، وطفت فلا تستقر فيه، بل تجفى وترمى ويستقر في القلب ما ينفع صاحبه والناس من الهدى ودين الحق، كما يستقر

(١) الفرقان: الآية (٤٤).
(٢) الوابل الصيب (١٢٥-١٣٠).
(٣) الرعد: الآية (١٧).

في الوادي الماء الصافي ويذهب الزبد جفاء، وما يعقل عن اللّٰه أمثاله إلا العالمون. ثم ضرب سبحانه لذلك مثلًا آخر فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾[١] يعني أن مما يوقد عليه بنو آدم من الذهب والفضة والنحاس والحديد يخرج منه خبثه؛ وهو الزبد الذي تلقيه النار، وتخرجه من ذلك الجوهر بسبب مخالطتها، فإنه يقذف ويلقى به، ويستقر الجوهر الخالص وحده، وضرب سبحانه مثلًا بالماء لما فيه من الحياة والتبريد والمنفعة، ومثلًا بالنار لما فيها من الإضاءة والإشراق والإحراق، فآيات القرآن تحيي القلوب كما تحيا الأرض بالماء وتحرق خبثها وشبهاتها وشهواتها وسخائمها، كما تحرق النار ما تلقي فيها، وتميز جيدها من زبدها، كما تميز النار الخبث من الذهب والفضة والنحاس ونحوه منه. فهذا بعض ما في هذا المثل العظيم من العبر والعلم، قال اللّٰه تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[٢]»[٣].

* * *

(١) الرعد: الآية (١٧).
(٢) العنكبوت: الآية (٤٣).
(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٤٩).

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٨﴾

★ **غريب الآية:**

المهاد: الفراش. أصله المكان الممهد الموطأ. من مهَّدت الأرض ومهَدْتها، إذا وطَّأتها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أما الذين استجابوا لله فآمنوا به حين دعاهم إلى الإيمان به، وأطاعوه فاتبعوا رسوله وصدّقوه فيما جاءهم به من عند اللَّه، فإن لهم الحسنى، وهي الجنة، . . .

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ﴾، يقول -تعالى ذكره-: وأما الذين لم يستجيبوا لله حين دعاهم إلى توحيده والإقرار بربوبيته، ولم يطيعوه فيما أمرهم به، ولم يتبعوا رسوله فيصدقوه فيما جاءهم به من عند ربهم، فلو أن لهم ما في الأرض جميعًا من شيء ومثله معه ملكًا لهم، ثم قُبِل مثل ذلك منهم، وقبل منهم بدلا من العذاب الذي أعدّه اللَّه لهم في نار جهنم وعوضًا، لافتدوا به أنفسهم منه، يقول الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾، يقول: هؤلاء الذين لم يستجيبوا لله لهم سوء الحساب: يقول: لهم عند اللَّه أن يأخذهم بذنوبهم كلها، فلا يغفر لهم منها شيئًا، ولكن يعذبهم على جميعها . . . وقوله: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ يقول: ومسكنهم الذي يسكنونه يوم القيامة جهنم ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾، يقول: وبئس الفراش والوطاءُ جهنمُ التي هي مأواهم يوم القيامة»[1].

وقال أبو حيان: «والظاهر أنه لما ضرب هذا المثل للحق والباطل انتقل إلى ما

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٤١٦-٤١٧) شاكر.

لأهل الحق من الثواب، وأهل الباطل من العقاب، فقال: للذين استجابوا لربهم الحسنى؛ أي: الذين دعاهم الله على لسان رسوله ﷺ فأجابوا إلى ما دعاهم إليه من اتباع دينه الحالة الحسنى، وذلك هو النصر في الدنيا وما اختصوا به من نعمة الله، ودخول الجنة في الآخرة»[١].

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: أطاعوا الله ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وهو الجزاء الحسن كما قال تعالى مخبرًا عن ذي القرنين أنه قال: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾[٢] وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾[٣].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ أي: لم يطيعوا الله ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: في الدار الآخرة، لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهبا ومثله معه لافتدوا به، ولكن لا يتقبل منهم؛ لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفًا ولا عدلًا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: في الدار الآخرة؛ أي: يناقشون على النقير والقطمير، والجليل والحقير، ومن نوقش الحساب عذب؛ ولهذا قال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾»[٤].

وقال القاسمي: «وفي قوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ﴾ إشعار بتفسير الحسنى بالجنة، لانفهامها من مقابلتها»[٥].

وقال ابن القيم: «ولما ضرب الله سبحانه وتعالى هذين المثلين ذكر حكم من استجاب له ورفع به رأسا، وحكم من لم يستجب له ولم يرفع بهداه رأسا فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ والمقصود أن الله تعالى جعل الحياة حيث النور، والموت حيث الظلمة، فحياة الوجودين الروحي

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٣٧٣).
(٢) الكهف: الآيتان (٨٧و٨٨).
(٣) يونس: الآية (٢٦).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٨٣-٨٤).
(٥) محاسن التأويل (٩/ ٣٥٦).

والجسمي بالنور، وهو مادة الحياة، كما أنه مادة الإضاءة، فلا حياة بدونه، كما لا إضاءة بدونه، وكما به حياة القلب، فيه انفساحه وانشراحه وسعته كما في الترمذي عن النبي ﷺ «إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح» قالوا: وما علامة ذلك؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله»[(١)].

ونور العبد هو الذي يصعد عمله، وكلمه إلى اللَّه تعالى، فإن اللَّه تعالى لا يصعد إليه من الكلم إلا الطيب، وهو نور ومصدر عن النور ولا من العمل إلا الصالح، ولا من الأرواح إلا الطيبة، وهي أرواح المؤمنين التي استنارت بالنور الذي أنزله على رسوله ﷺ والملائكة الذين خلقوا من نور كما في صحيح مسلم عن عائشة ﵂ عن النبي ﷺ قال: «**خلقت الملائكة من نور، وخلقت الشياطين من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»[(٢)] فلما كانت مادة الملائكة من نور كانوا هم الذين يعرجون إلى ربهم -تبارك وتعالى-، وكذلك أرواح المؤمنين هي التي تعرج إلى ربها وقت قبض الملائكة لها، فيفتح لها باب السماء الدنيا ثم الثانية ثم الثالثة ثم الرابعة، إلى أن ينتهي بها إلى السماء السابعة، فتوقف بين يدي اللَّه ﷻ، ثم يأمر أن يكتب كتابه في عليين فلما كانت هذه الروح روحا زاكية طيبة نيرة مشرقة صعدت إلى اللَّه ﷻ مع الملائكة، وأما الروح المظلمة الخبيثة الكدرة، فإنها لا تفتح لها أبواب السماء، ولا تصعد إلى اللَّه تعالى؛ بل ترد من السماء الدنيا إلى عالمها ومحتدها لأنها أرضية سفلية، والأولى علوية سمائية، فرجعت كل روح إلى عنصرها وما هي منه»[(٣)].

* * *

(١) أخرجه من حديث ابن مسعود الحاكم (٤/ ٣١١)، وسكت عنه قال الذهبي: «فيه عدي بن الفضيل ساقط»، ولم أقف عليه عند الترمذي فلعله عند الحكيم الترمذي وأطال فيه النفس الشيخ الألباني في الضعيفة وخلص إلى ضعفه.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٥٣)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٤/ ٢٩٩٦).

(٣) الوابل الصيب (ص: ١٣٠-١٣٢).

قوله تعالى: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «ولما ذكر تعالى مثل المؤمن والكافر، وذكر ما للمؤمن من الثواب، وما للكافر من العقاب، ذكر استبعاد من يجعلهما سواء، وأنكر ذلك فقال: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ أي: ليسا مشتبهين، لأنّ العالم بالشيء بصير به، والجاهل به كالأعمى، والمراد أعمى البصيرة ولذلك قابله بالعلم. والهمزة للاستفهام المراد به: إنكار أن تقع شبهة بعدما ضرب من المثل في أن حال من علم أنما أنزل إليك من ربك الحق فاستجاب بمعزل من حال الجاهل الذي لم يستبصر فيستجيب، كبعد ما بين الزبد والماء، والخبث والإبريز. ثم ذكر أنه لا يتذكر بالموعظة، وضرب الأمثال إلا أصحاب العقول»[1].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى: لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هوَ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي: الذي لا شك فيه ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضا، لا يضاد شيء منه شيئًا آخر، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾[2] أي: صدقا في الإخبار، وعدلا في الطلب، فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت به يا محمد، ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد له، ولا صدقه ولا اتبعه، كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[3] وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ أي: أفهذا كهذا؟

(١) البحر المحيط (٥/ ٣٧٥).
(٢) الأنعام: الآية (١١٥).
(٣) الحشر: الآية (٢٠).

لا استواء. وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي: إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة جعلنا الله منهم»[١].

وقال ابن القيم: «وهذه شهادة من الله على عمى هؤلاء، وهي موافقة لشهادتهم على أنفسهم بالحيرة والشك، وشهادة المؤمنين عليهم»[٢].

وقال عبد الكريم الخطيب: «مناسبة هذه الآية لما قبلها، هي أن الله سبحانه وتعالى ذكر في الآيات السابقة، الأعمى والبصير، والظلمات والنور، والزبد وما ينفع الناس.. وهي أمور متضادة، كتضاد الشر والخير، والضلال والهدى.. كذلك الذين نظروا في آيات الله فعرفوا أنها الحق من الله، وأنها تنزيل من حكيم خبير، والذين عميت أبصارهم عن هذه الآيات، فلم يروا منها شيئًا يهديهم إلى الله: هما عالمان متضادان: هؤلاء مبصرون، وأولئك عمي لا يبصرون!

والاستفهام في الآية الكريمة مراد به التقريع والتسفيه لأهل الشرك والضلال، الذين عميت بصائرهم عن التهدي إلى الحق، على ضوء ما تلا عليهم الرسول الكريم من آيات الله..

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ هو تنويه بالمؤمنين الذين قادتهم عقولهم إلى الحق، فعرفوا الله، وآمنوا به، كما أنه تعريض بالمشركين واتهام لهم بالسفه، والغفلة، وأنهم ليسوا من أصحاب العقول العالمة المبصرة!»[٣].

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٨٤).

(٢) الصواعق المرسلة (٣/ ٨٥١).

(٣) التفسير القرآني (٧/ ٩٩-١٠٠).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾

★ غريب الآية:

الميثاق: المَوْثِقُ: وهو العهد المؤكد باليمين. أصله من الوثوق بالشيء: وهو الاطمئنان به. يقال: وثقت به: إذا سكنت إليه.

يخشون: الخشية: أشد الخوف. وقيل: خوف مشوب بتعظيم المخوف منه.

سوء: السوء: كل ما يَغُمُّ الإنسان من أمور الدنيا والآخرة، كفقد مال أو حميم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «هذا من صفة ذوي الألباب؛ أي: إنما يتذكر أولو الألباب الموفون بعهد اللَّه. والعهد اسم للجنس؛ أي: بجميع عهود اللَّه، وهي أوامره ونواهيه التي وصى بها عبيده، ويدخل في هذه الألفاظ التزام جميع الفروض، وتجنب جميع المعاصي.

وقوله: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ يحتمل أن يريد به جنس المواثيق؛ أي: إذا عقدوا في طاعة اللَّه عهدا لم ينقضوه.

قال قتادة: تقدم اللَّه إلى عباده في نقض الميثاق ونهى عنه في بضع وعشرين آية، ويحتمل أن يشير إلى ميثاق بعينه، هو الذي أخذه اللَّه على عباده حين أخرجهم من صلب أبيهم آدم.

وقال القفال: هو ما ركب في عقولهم من دلائل التوحيد والنبوات»[1].

وقال ابن عاشور: «وعهد اللَّه مصدر مضاف لمفعوله؛ أي: ما عاهدوا اللَّه على فعله، أو من إضافة المصدر إلى فاعله؛ أي: ما عهد اللَّه به إليهم. وعلى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٣٠٧-٣٠٨).

كلا الوَجهين فالمراد به الإيمان الذي أخذه اللَّه على الخلق المشار إليه بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾[١]، فذلك عهدهم ربهم. وأيضًا بقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ﴾[٢]، وذلك عهد اللَّه لهم بأن يعبدوه ولا يعبدوا غيره، فحصل العهد باعتبار إضافته إلى مفعوله وإلى فاعله.

وذلك أمر أودعه اللَّه في فطرة البشر فنشأ عليه أصلهم وتقلّده ذريته، واستمر اعترافهم لله بأنه خالقهم. وذلك من آثار عهد اللَّه. وطرأ عليهم بعد ذلك تحريف عهدهم فأخذوا يتناسون وتشتبه الأمور على بعضهم فطرأ عليهم الإشراك لتفريطهم النظر في دلائل التوحيد، ولأنه بذلك العهد قد أودع اللَّه في فطرة العقول السليمة دلائل الوحدانية لمن تأمل وأسلم للدليل، ولكن المشركين أعرضوا وكابروا ذلك العهد القائم في الفطرة، فلا جرم أن كان الإشراك إبطالًا للعهد ونقضًا له، ولذلك عطفت جملة: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ على جملة: ﴿يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾.

والتعريف في ﴿ٱلْمِيثَٰقَ﴾ يحمل على تعريف الجنس فيستغرق جميع المواثيق، وبذلك يكون أعم من عهد اللَّه فيشمل المواثيق الحاصلة بين الناس من عهود وأيمان.

وباعتبار هذا العموم حصلت مغايرة ما بينه وبين عهد اللَّه. وتلك هي مسوغة عطف ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ على ﴿يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ مع حصول التأكيد لمعنى الأولى بنفي ضدها، وتعريضًا بالمشركين لاتصافهم بضد ذلك الكمال، فعطفُ التأكيد باعتبار المغايرة بالعموم والخصوص.

والميثاق والعهد مترادفان. والإيفاء ونفي النقض متحدًا المعنى. وابتدئ من الصفات بهذه الخصلة لأنها تنبئ عن الإيمان، والإيمان أصل الخيرات وطريقها، ولذلك عطف على ﴿يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ قوله: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ تحذيرًا من كل ما فيه نقضه»[٣].

وقال السعدي: «فإن سألت عن وصفهم -أي: عن وصف أولي الألباب-؛

---

(١) الأعراف: الآية (١٧٢). (٢) يس: الآيتان (٦٠و٦١).

(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ١٢٥-١٢٦).

فلا تجد أحسن من وصف اللَّه لهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ الذي عهده إليهم والذي عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة موفورة، فالوفاء بها توفيتها حقها من التنمية لها، والنصح فيها، وتمام الوفاء بها أنهم ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ أي: العهد الذي عاهدوا عليه اللَّه، فدخل في ذلك جميع المواثيق والعهود والأيمان والنذور التي يعقدها العباد. فلا يكون العبد من أولي الألباب الذين لهم الثواب العظيم، إلا بأدائها كاملة، وعدم نقضها وبخسها»[1].

قال ابن جرير: وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، يقول -تعالى ذكره-: والذين يصلون الرَّحم التي أمرهم اللَّه بوصلها فلا يقطعونها ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، يقول: ويخافون اللَّه في قطْعها أن يقطعوها، فيعاقبهم على قطعها، وعلى خلافهم أمرَه فيها.

وقوله: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾، يقول: ويحذرون مناقشة اللَّه إياهم في الحساب، ثم لا يصفح لهم عن ذنب، فهم لرهبتهم ذلك جادُّون في طاعته، محافظون على حدوده»[2].

وقال ابن كثير: «﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من صلة الأرحام، والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج، وبذل المعروف، ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون اللَّه في ذلك، ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة. فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم، وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية»[3].

وقال ابن القيم: «جمع لهم مقامات الإسلام والإيمان في هذه الأوصاف، فوصفهم بالوفاء بعهده الذي عاهدهم عليه، وذلك يعم أمره ونهيه الذي عهده إليهم بينهم وبينه، وبينهم وبين خلقه، ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء به بأنهم لا يقع منهم نقضه، ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر اللَّه به أن يوصل، ويدخل في هذا ظاهر الدين وباطنه وحق اللَّه وحق خلقه، فيصلون ما بينهم وبين ربهم بعبوديته وحده لا شريك له، والقيام بطاعته والإنابة إليه والتوكل عليه، وحبه وخوفه ورجائه

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٠٢-١٠٣). (٢) جامع البيان (١٦/ ٤٢٠) شاكر.
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٨٥).

والتوبة إليه والاستكانة له والخضوع والذلة له، والاعتراف له بنعمته وشكره عليها، والإقرار بالخطيئة والاستغفار منها، فهذه هي الوصلة بين الرب والعبد، وقد أمر اللَّه بهذه الأسباب التي بينه وبين عبده أن توصل، وأمر أن نوصل ما بيننا وبين رسوله بالإيمان به، وتصديقه وتحكيمه في كل شيء، والرضا لحكمه والتسليم له، وتقديم محبته على محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين صلوات اللَّه وسلامه عليه، فدخل في ذلك القيام بحقه وحق رسوله، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الوالدين والأقربين بالبر والصلة، فإنه أمر ببر الوالدين وصلة الأرحام، وذلك مما أمر به أن يوصل، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الزوجات بالقيام بحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الأرقاء بأن نطعمهم مما نأكل، ونكسوهم مما نكتسي، ولا نكلفهم فوق طاقتهم، وأن نصل ما بيننا وبين الجار القريب والبعيد بمراعاة حقه، وحفظه في نفسه وماله وأهله بما نحفظ به نفوسنا وأهلينا وأموالنا، وأن نصل ما بيننا وبين الرفيق في السفر والحظر، وأن نصل ما بيننا وبين عموم الناس، بأن نأتي إليهم ما نحب أن يأتوه إلينا، وأن نصل ما بيننا وبين الحفظة الكرام الكاتبين بأن نكرمهم ونستحيي منهم، كما يستحي الرجل من جليسه ومن هو معه ممن يجله ويكرمه، فهذا كله مما أمر اللَّه به أن يوصل. ثم وصفه بالحامل لهم على هذه الصلة وهو خشية وخوف سوء الحساب يوم المآب، ولا يمكن لأحد قط أن يصل ما أمر اللَّه بوصله إلا بخشيته، ومتى ترحلت الخشية من القلب انقطعت هذه الصلة. ثم جمع لهم سبحانه ذلك كله في أصل واحد، هو آخية ذلك وقاعدته ومداره الذي يدور عليه وهو الصبر؛ فقال: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾»[١].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في أنه لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له

* عن أنس بن مالك ﷺ قال: خطبنا رسول اللَّه ﷺ فقال في الخطبة: «**لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له**»[٢].

---

(١) عدة الصابرين (ص: ٥٦-٥٩).

(٢) أحمد (٣/ ١٣٥)، وابن أبي شيبة في «الإيمان» (٧)، والبزار (كشف الأستار (١/ ٦٨/ ١٠٠)، والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٤٣/ ٨٤٩)، والبيهقي (٦/ ٢٨٨)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٨٩/ ٢٦٢٧)، وأبو يعلى=

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: «لا إيمان» قال التوربشتي: هذا الكلام وأمثاله وعيد لا يراد به الانقلاع، وإنما يقصد به الزجر والردع، ونفي الفضيلة، دون الحقيقة في رفع الإيمان وإبطاله. قال المظهر: معنى «لا دين لمن لا عهد له»: أن من جرى بينه وبين أحد عهد وميثاق، ثم غدر من غير عذر شرعي؛ فدينه ناقص، أما مع العذر كنقض الإمام المعاهدة مع الحربي إذا رأى المصلحة؛ فإنه جائز.

أقول: وفي الحديث إشكال؛ وهو أنه قد سبق أن الدين والإيمان والإسلام؛ أسماء مترادفة موضوعات لمفهوم واحد في عرف الشرع، فلم فرق بينهما، وخصص كل واحد منهما بمعنى؟ والجواب: أنهما وإن اختلفا لفظًا فقد اتفقا هاهنا معنى، فإن الأمانة ومراعاتها: إما مع اللَّه، فهي ما كلف به من الطاعة، وسمي أمانة لأنه لازم الوجود، كما أن الأمانة لازمة الأداء، قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾[1]. وإما مع الخلق فظاهر. وإن العهد وتوثيقه: إما مع اللَّه تعالى فاثنان: الأول الذي أخذه على جميع ذرية آدم في الأزل، وهو الإقرار بربوبيته قبل خلق الأجساد، مصداقه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾[2] والثاني: ما أخذه عند هبوط آدم إلى الدنيا من متابعة هدى اللَّه، ومن الاعتصام بكتاب ينزله، ورسول يبعثه، مصداقه قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾[3]. وإما مع الخلق فكذا ظاهر. فحينئذ مرجع الأمانة والعهد إلى طاعة اللَّه تعالى بأداء حقوقه وحقوق العباد، كأنه قيل: لا إيمان ولا دين لمن لا يفي بعهد اللَّه بعد ميثاقه، ولا يؤدي أمانة اللَّه بعد حملها، وهي التكاليف من الأوامر والنواهي، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[4] والتكرير

= (٥/ ٢٤٦-٢٤٧/ ٢٨٦٣)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٧٤-٧٥/ ٣٨)، وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ٩٦) وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط وفيه أبو هلال وثقه ابن معين وغيره وضعفه النسائي وغيره» ونقل المناوي في فيض القدير (٦/ ٣٨١) عن الذهبي قال: «سنده قوي»، وصححه ابن حبان (الإحسان ١/ ٤٢٢-٤٢٣/ ١٩٤)

(١) الأحزاب: الآية (٧٢). (٢) الأعراف: الآية (١٧٢).
(٣) البقرة: الآية (٣٨). (٤) البينة: الآية (٥).

المعنوي توكيد وتقرير»[١].

قال شيخ الإسلام: «وأصل العقود أن العبد لا يلزمه شيء إلا بالتزامه، أو بإلزام الشارع له، فما التزمه فهو ما عاهد عليه، فلا ينقض العهد، ولا يغدر. وما أمره الشارع به فهو مما أوجب اللَّه عليه أن يلتزمه وإن لم يلتزمه، كما أوجب عليه أن يصل ما أمر اللَّه به أن يوصل من الإيمان بالكتب والرسل، ومن صلة الأرحام؛ ولهذا يذكر اللَّه في كتابه هذا وهذا، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾[٢] فما أمر اللَّه به أن يوصل فهو إلزام من اللَّه به، وما عاهد عليه الإنسان فقد التزمه، فعليه أن يوفي بعهد اللَّه ولا ينقض الميثاق، إذا لم يكن ذلك مخالفا لكتاب الله»[٣].

وقال أيضًا: «ولهذا كان الوفاء بالعهود من الأمور التي اتفق أهل الأرض على إيجابها لبعضهم على بعض، وإن كان منهم القادر الذي لا يوفّي بذلك، كما اتفقوا في إيجاب العدل والصدق، فإذا اتفقوا وتعاقدوا على اجتلاب الأمر الذي يحبونه، ودفع الأمر الذي يكرهونه؛ أعان بعضهم بعضًا على اجتلاب المحبوب، ونصر بعضهم بعضًا على دفع المكروه، ولو لم يتعاقدوا بالكلام، فنفس اشتراكهم في أمر يوجب عليهم اجتلاب ما يصلح ذلك الأمر المشترك، ودفع ما يضره، كأهل النسب الواحد، وأهل البلد الواحد، فإن التناسب والتجاور يوجب التعاون على جلب المنفعة المشتركة، ودفع الضرر المشترك. فصار الاشتراك بينهم تارة يثبت بفعلهم، وهو التعاقد على ما فيه خيرهم، وتارة يثبت بفعل اللَّه تعالى. وقد جمع اللَّه ﷻ هذين الأصلين في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾[٤]، وذكر في هذه السورة الأمور التي بينهم من جهة الخلق، وهي من جهة العقود، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾[٥]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾[٦]»[٧].

* * *

(١) شرح الطيبي (٢/ ٤٩٢).
(٢) الرعد: الآيتان (٢٠و٢١).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٩/ ٣٤١-٣٤٢).
(٤) النساء: الآية (١).
(٥) الفرقان: الآية (٥٤).
(٦) الرعد: الآيتان (٢٠و٢١).
(٧) قاعدة في المحبة (ص: ١٢١).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾

★ غريب الآية:

عقبى: فُعْلى من العاقبة. وهي الانتهاء إلى الخير أو الشر. وتغلب في الثواب إذا أطلقت.

عدن: العدن: الإقامة والثبوت. يقال: عَدَنَ بمكان: إذا أقام به.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي: عن المحارم والمآثم، ففطموا أنفسهم عنها لله ﷻ؛ ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي، ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي: على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب، من فقراء ومحاويج ومساكين، ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي: في السر والجهر، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال، آناء الليل وأطراف النهار، ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبرا واحتمالا وصفحا وعفوا، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1]؛ ولهذا قال مخبرًا عن هؤلاء السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ والعدن: الإقامة؛ أي: جنات إقامة يخلدون فيها... وقوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ

(١) فصلت: الآيتان (٣٤و٣٥).

﴿وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾ أي: يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين؛ لتقر أعينهم بهم، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى، امتنانًا من اللَّه وإحسانًا من غير تنقيص للأعلى عن درجته، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[١]. وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: وتدخل عليهم الملائكة من هاهنا وهاهنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلمين مهنئين لهم بما حصل لهم من اللَّه من التقريب والإنعام، والإقامة في دار السلام، في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام»[٢].

وقال أبو حيان: «ونبه على هاتين الخصلتين: العبادة البدنية، والعبادة المالية، إذ هما عمود الدين، والصبر عليهما أعظم صبر لتكرر الصلوات، ولتعلق النفوس بحب تحصيل المال. ونبه على حالتي الإنفاق، فالسر أفضل حالات إنفاق التطوع كما جاء في «السبعة الذين يظلهم اللَّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها»[٣] والعلانية أفضل حالات إنفاق الفروض؛ لأنّ الإظهار فيها أفضل . . .

وللسلف هنا في الصبر أقوال متقاربة. قال ابن عباس: صبروا على أمر اللَّه. وقال أبو عمران الجوني: صبروا على دينهم. وقال عطاء: صبروا على الرزايا والمصائب. وقال ابن زيد: صبروا على الطاعة وعن المعصية، ويدرؤون يدفعون. قال ابن زيد: الشر بالخير. وقال قتادة: ردوا عليهم معروفًا كقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[٤] وقال الحسن: إذا حرموا أعطوا، وإذا ظلموا عفوا، وإذا قطعوا وصلوا. وقال القتبي: إذا سفه عليهم حلموا، وقال ابن جبير: يدفعون المنكر بالمعروف. وقال ابن كيسان: إذا أذنبوا تابوا، وإذا هربوا أنابوا ليدفعوا عن أنفسهم بالتوبة معرّة الذنب، وهذا المعنى قول ابن عباس في رواية الضحاك عنه. وقيل: يدفعون بلا إله إلا اللَّه شركهم. وقيل: بالسلام غوائل الناس. وقيل: من

---

(١) الطور: الآية (٢١). (٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٨٥-٨٦).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٣٩)، والبخاري (٢/ ١٨٢/ ٦٦٠)، ومسلم (٢/ ١١٥/ ١٠٣١)، والترمذي (٤/ ٥١٦/ ٢٣٩١)، والنسائي (٨/ ٦١٣-٦١٤/ ٥٣٩٥).

(٤) الفرقان: الآية (٦٣).

رأوا منه مكروهًا بالتي هي أحسن. وقيل: بالصالح من العمل السيئ، ويؤيده ما روي في الحديث أن معاذًا قال: أوصني يا رسول اللَّه فقال: «إذا عملت سيئة فاعمل إلى جنبها حسنة تمحها، السر بالسرّ والعلانية بالعلانية»،[1] وقيل العذاب: بالصدقة. وقيل: إذا هموا بالسيئة فكروا ورجعوا عنها واستغفروا»[2].

قوله: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ قال: «وهذا يدل على أن مجرد النسب من الصالح لا ينفع، إنما تنفع الأعمال الصالحة. وقيل: يحتمل قوله: ومن صلح أي: لذلك بقدر اللَّه تعالى وسابق علمه. قال ابن عباس: هذا الصلاح هو الإيمان باللَّه وبالرسول ﷺ، وهذه بشارة بنعمة اجتماعهم مع قراباتهم في الجنة. والظاهر أنّ ﴿وَمَن﴾ معطوف على الضمير في يدخلونها وقد فصل بينهما بالمفعول. وقيل: يجوز أن يكون مفعولًا معه أي: يدخلونها مع من صلح. ويشتمل قوله: من آبائهم، أبوي كل واحد والده ووالدته، وغلب الذكور على الإناث، فكأنه قيل: ومن صلح من آبائهم وأمهاتهم. والملائكة يدخلون عليهم من كل باب أي: بالتحف والهدايا من اللَّه تعالى تكرمة لهم. قال أبو بكر الورّاق: هذه ثمانية أعمال تشير إلى ثمانية أبواب الجنة، من عملها دخلها من أي: باب شاء. قال الأصم: نحو هذا قال: من كل باب: باب الصلاة، وباب الزكاة، وباب الصبر»[3].

قال القرطبي: «﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ أي: يقولون: سلام عليكم، فأضمر القول؛ أي: قد سلمتم من الآفات والمحن.

وقيل: هو دعاء لهم بدوام السلامة، وإن كانوا سالمين؛ أي: سلمكم اللَّه، فهو خبر معناه الدعاء، ويتضمن الاعتراف بالعبودية.

﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ أي: بصبركم، فـ(ما) مع الفعل بمعنى المصدر، والباء في ﴿بِمَآ﴾ متعلقة بمعنى. ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ ويجوز أن تتعلق بمحذوف؛ أي: هذه الكرامة بصبركم؛ أي: على أمر اللَّه تعالى ونهيه، قاله سعيد بن جبير.

وقيل: على الفقر في الدنيا، قاله أبو عمران الجوني.

---

(١) أخرجه الطبراني (٢٠/ ١٧٥/ ٣٧٤)، وابن أبي شيبة (٧/ ٧٨/ ٣٤٣٢٥)، وذكره الهيثمي في المجمع (٤/ ٣٩٥)، وقال: رواه الطبراني وأبو سلمة لم يدرك معاذا ورجاله ثقات»، والحديث حسنه لطرقه الشيخ الألباني في الصحيحة رقم (١٤٧٥).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٣٧٧).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٣٧٨).

وقيل: على الجهاد في سبيل اللَّه، كما روي عن عبد اللَّه بن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «هل تدرون من يدخل الجنة من خلق الله؟» قالوا: اللَّه ورسوله أعلم، قال: «المجاهدون الذين تسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، فيموت أحدهم وحاجته في نفسه لا يستطيع لها قضاء، فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كل باب، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾»(١)»(٢).

وقال ابن عاشور: «وجاءت الصلات ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ﴾ و﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ وما عطف عليهما بصيغة المضارع في تلك الأفعال الخمسة لإفادة التجدد كناية عن الاستمرار.

وجاءت صلة ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ وما عطف عليها وهو ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ﴾ بصيغة المضيّ لإفادة تحقق هذه الأفعال الثلاثة لهم، وتمكنها من أنفسهم تنويهًا بها؛ لأنها أصول لفضائل الأعمال.

فأما الصبر فلأنه ملاك استقامة الأعمال ومصدرها فإذا تخلق به المؤمن صدرت عنها الحسنات والفضائل بسهولة، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾(٣).

وأما الصلاة فلأنها عماد الدين وفيها ما في الصبر من الخاصية لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾(٤) وقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾(٥).

وأما الإنفاق فأصله الزكاة، وهي مقارنة للصلاة كلما ذكرت، ولها الحظ الأوفى من اعتناء الدين بها، ومنها النفقات والعطايا كلها، وهي أهم الأعمال، لأن بذل المال يشق على النفوس فكان له من الأهمية ما جعله ثانيًا للصلاة.

ثم أعيد أسلوب التعبير بالمضارع في المعطوف على الصلة وهو قوله: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ لاقتضاء المقام إفادة التجدد إيماء إلى أن تجدد هذا الدرء مما يُحرص عليه؛ لأن الناس عرضة للسيئات على تفاوت، فوُصف لهم دواء ذلك بأن يَدْفعوا السيّئات بالحسنات»(٦).

---

(١) سيأتي تخريجه في أحاديث الباب.
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٣١٢).
(٣) العصر: الآيات (٢-٣).
(٤) العنكبوت: الآية (٤٥).
(٥) البقرة: الآية (٤٥).
(٦) التحرير والتنوير (١٣/ ١٢٨-١٢٩).

وقال: «وفي هذه الآية بشرى لمن كان له سلف صالح أو خلف صالح أو زوج صالح ممن تحققت فيهم هذه الصلات، أنه إذا صار إلى الجنة لحق بصالح أصوله أو فروعه أو زوجه، وما ذكر اللَّه هذا إلا لهذه البشرى كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾[1]»[2].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة الفقراء المخلصين المجاهدين

* عن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إن أول ثلة تدخل الجنة الفقراء المهاجرون الذين تتقى بهم المكاره، إذا أمروا سمعوا وأطاعوا، وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى السلطان لم تقض له حتى يموت، وهي في صدره. وأن اللَّه تعالى يدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وريها فيقول: أين عبادي الذين قاتلوا في سبيل اللَّه، وقتلوا في سبيلي، وأوذوا في سبيلي، وجاهدوا في سبيلي، ادخلوا الجنة؛ فيدخلونها بغير حساب ولا عذاب. فتأتي الملائكة فيقولون: ربنا نحن نسبح لك الليل والنهار، ونقدس لك، من هؤلاء الذين آثرتهم علينا؟ فيقول الرب -تبارك وتعالى-: هؤلاء الذين قاتلوا في سبيلي، وأوذوا في سبيلي، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾»[3].

★ **فوائد الحديث:**

في الحديث: فضيلة الفقراء المهاجرين والمجاهدين في سبيل اللَّه . . إلى الجنة، وتمتعهم بنعيمها قبل أن يدخلها أهلها الذين استحقوها من غيرهم.

والحديث يؤيد من فسر قوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ في هذه الآية بأنه صبرهم على الفقر في الدنيا، وصبرهم على الجهاد في سبيل اللَّه. واللَّه أعلم.

---

(١) الطور: الآية (٢١).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ١٣١).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٨) وعبد بن حميد (٣٥٢) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣٤٧)، والبزار (كشف الأستار ٤/ ٢٥٦/ ٣٦٦٥)، والطبراني في الكبير (قطعة من الجزء ١٣/ ٦١/ ١٥١)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٥٩) وقال: «رواه أحمد والبزار والطبراني ورجالهم ثقات»، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٦/ ٤٣٨- ٤٣٩/ ٧٤٢١) والحاكم (٢/ ٧١-٧٢) ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما ذكر صفات السعداء، وذكر ما ترتب عليها من الأحوال الشريفة العالية؛ أتبعها بذكر حال الأشقياء، وذكر ما يترتب عليها من الأحوال المخزية المكروهة، وأتبع الوعد بالوعيد، والثواب بالعقاب؛ ليكون البيان كاملًا»[١].

وقال أبو حيان: «وترتب للسعداء هناك التصريح بعقبى الدار وهي الجنة، وإكرام الملائكة لهم بالسلام، وذلك غاية القرب والتأنيس. وهنا ترتب للأشقياء الإبعاد من رحمة اللّه. وسوء الدار أي: الدار السوء وهي النار، وسوء عاقبة الدار، وتكون دار الدنيا»[٢].

قال ابن جرير: « يقول -تعالى ذكره-: وأما الذين ينقضون عهد اللّه، ونقضهم ذلك، خلافهم أمر اللّه، وعملهم بمعصيته، ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾، يقول: من بعد ما وثّقوا على أنفسهم لله أن يعملوا بما عهد إليهم، ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، يقول: ويقطعون الرحم التي أمرهم اللّه بوصلها، ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فسادهم فيها: عملهم بمعاصي اللّه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾، يقول: فهؤلاء لهم اللعنة، وهي البعد من رحمته، والإقصاء من جِنانه، ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ يقول: ولهم ما يسوؤهم في الدار الآخرة»[٣].

وقال ابن كثير: «هذا حال الأشقياء وصفاتهم، وذكر مآلهم في الدار الآخرة ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في

---

(١) التفسير الكبير (١٠/ ٥٣).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٣٧٨-٣٧٩).

(٣) جامع البيان (١٦/ ٤٢٨). شاكر.

الدنيا، فأولئك كانوا يوفون بعهد اللَّه ويصلون ما أمر اللَّه به أن يوصل، وهؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ كما ثبت في الحديث: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**». وفي رواية: «**وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فَجر**»[1].

ولهذا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ وهي الإبعاد عن الرحمة، ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ وهي سوء العاقبة والمآل، ومأواهم جهنم وبئس القرار.

وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾ الآية، قال: هي ست خصال في المنافقين إذا كان فيهم الظَّهرة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، ونقضوا عهد اللَّه من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر اللَّه به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض. وإذا كانت الظَّهرة عليهم أظهروا الثلاث الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا»[2].

وقال المراغي: «وصف سبحانه الأشقياء بصفات هي السبب في خسرانهم:

١ - ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي: والذين ينقضون عهد اللَّه الذي ألزمه عباده بما أقام عليه من الأدلة العقلية كالتوحيد والقدرة والإرادة والإيمان بالأنبياء والوحي ونحوها.

ونقضه إما بألا ينظروا فيه، فلا يمكنهم العمل بموجبه، وإما بأن ينظروا فيه ويعلموا صحته ثم هم بعد يعاندون فيه، ولا يعملون بما علموه، واعتقدوا صحته. وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي: من بعد اعترافهم به وإقرارهم بصحته.

٢ - ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من الإيمان به وبجميع أنبيائه الذين جاءوا بالحق، فآمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض، وقطعوا الرحم وكانوا حربا على المؤمنين وعونا للكافرين، ومنعوا المساعدات العامة التي توجب التآلف والمودة بين المؤمنين كما جاء في الحديث: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه

---

(١) سيأتي تخريجه في أحاديث الباب.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٨٧).

بعضا»[١] وجاء أيضًا: «المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو اشتكى باقي الأعضاء بالسهر والحمى»[٢].

٣- ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بظلمهم لأنفسهم وظلمهم لغيرهم بابتزاز أموالهم، واغتصابها بلا حق، وتهييج الفتن بين المسلمين وإثارة الحرب عليهم، وإظهار العدوان لهم.

ثم حكم عليهم بما يستحقون بما دَسَّوْا به أنفسهم فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي: أولئك الذين اتصفوا بهذه المخازي وسيئ الصفات، لهم بسبب ذلك الطرد من رحمته ورضوانه، والبعد من خيري الدنيا والآخرة.

﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي: ولهم سوء العاقبة وهو عذاب جهنم، جزاء وفاقا لما اجترحوه من السيئات، وأتوا به من الشرور والآثام»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة المنافقين والوعيد في قطيعة الرحم

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»**[٤].

* عن عبد اللَّه بن عمرو ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»**[٥].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٠٥)، والبخاري (٥/ ١٢٥/ ٢٤٤٦)، ومسلم (٤/ ١٩٩٩/ ٢٥٨٥)، والترمذي (٤/ ٢٨٧/ ١٩٢٨)، من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٠)، والبخاري (١٠/ ٥٣٧/ ٦٠١١)، ومسلم (٤/ ١٩٩٩-٢٠٠٠/ ٢٥٨٦)، من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

(٣) تفسير المراغي (١٣/ ٩٦-٩٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٥٧)، والبخاري (١/ ١٢٠/ ٣٣) واللفظ له، ومسلم (١/ ٧٨/ ٥٩)، والترمذي (٥/ ٢٠/ ٢٦٣١)، والنسائي (٨/ ٤٩١/ ٥٠٣٦).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨٩)، والبخاري (١/ ١٢٠-١٢١/ ٣٤)، ومسلم (١/ ٧٨/ ٥٨)، وأبو داود (٥/ ٦٤/ ٤٦٨٨)، والترمذي (٥/ ٢٠-٢١/ ٢٦٣٢)، والنسائي (٨/ ٤٩٠-٤٩١/ ٥٠٣٥).

★ **فوائد الحديثين:**

قال النووي: «وقوله ﷺ: **«كان منافقًا خالصًا»** معناه: شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال. قال بعض العلماء: وهذا فيمن كانت هذه الخصال غالبة عليه. فأما من يندر فليس داخلا فيه. فهذا هو المختار في معنى الحديث. وقد نقل الإمام أبو عيسى الترمذي رضي الله عنه معناه عن العلماء مطلقا فقال: إنما معنى هذا عند أهل العلم نفاق العمل. وقال جماعة من العلماء: المراد به المنافقون الذين كانوا في زمن النبي ﷺ فحدثوا بإيمانهم، وكذبوا، واؤتمنوا على دينهم فخانوا، ووعدوا في أمر الدين ونصره فأخلفوا، وفجروا في خصوماتهم. وهذا قول سعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح. ورجع إليه الحسن البصري رحمه الله بعد أن كان على خلافه. وهو مروي عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم، ورروياه أيضًا عن النبي ﷺ، قال القاضي عياض رحمه الله: وإليه مال كثير من أئمتنا. وحكى الخطابي رحمه الله قولا آخر: أن معناه التحذير للمسلم أن يعتاد هذه الخصال التي يخاف عليه أن تفضي به إلى حقيقة النفاق. وحكى الخطابي: رحمه الله أيضًا عن بعضهم أن الحديث ورد في رجل بعينه منافق، وكان النبي ﷺ لا يواجههم بصريح القول، فيقول: فلان منافق، وإنما كان يشير إشارة كقوله ﷺ: **«ما بال أقوام يفعلون كذا ؟»**[1] والله أعلم.

وأما قوله ﷺ في الرواية الأولى: **«أربع من كن فيه كان منافقًا»** وفي الرواية الأخرى: **«آية المنافق ثلاث»** فلا منافاة بينهما؛ فإن الشيء الواحد قد تكون له علامات كل واحدة منهن تحصل بها صفته، ثم قد تكون تلك العلامة شيئًا واحدًا، وقد تكون أشياء. والله أعلم.

وقوله ﷺ: **«وإذا عاهد غدر»** هو داخل في قوله: **«وإذا اؤتمن خان»**»[2].

وقال العيني: «استنبط من هذه العلاماتِ الثلاثِ صفةِ المنافق، وجه الانحصار على الثلاث هو: التنبيه على فساد القول والفعل والنية. فبقوله: **«إذا حدث كذب»** نبه على فساد القول. وبقوله: **«إذا اؤتمن خان»** نبه على فساد الفعل. وبقوله: **«إذا وعد**

---

(١) أخرجه من حديث أنس أحمد (٣/ ٢٤١)، والبخاري (٩/ ١٢٩/ ٥٠٦٣)، ومسلم (٢/ ١٠٢٠/ ١٤٠١)، والنسائي (٦/ ٣٦٨-٣٦٩/ ٣٢١٧).

(٢) شرح صحيح مسلم (٢/ ٤١).

أخلف» نبه على فساد النية ؛ لأن خلف الوعد لا يقدح إلا إذا عزم عليه مقارنا بوعده ، أما إذا كان عازما ثم عرض له مانع أو بدا له رأي ؛ فهذا لم توجد فيه صفة النفاق ، ويشهد لذلك ما رواه الطبراني بإسناد لا بأس به في حديث طويل من حديث سلمان رضي الله عنه : «**إذا وعد وهو يحدث نفسه أنه يخلف**»[١] . . . وكذا قال في باقي الخصال . وقال العلماء : يستحب الوفاء بالوعد بالهبة وغيرها استحبابًا مؤكدًا ، ويكره إخلافه كراهة تنزيه لا تحريم ، ويستحب أن يعقب الوعد بالمشيئة ليخرج عن صورة الكذب ، ويستحب إخلاف الوعيد إذا كان التوعد به جائزًا ، ولا يترتب على تركه مفسدة»[٢] .

قال الحافظ ابن رجب : «وقد أمر اللَّه بالوفاء بالعهد فقال تعالى : ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[٣] وقال : ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾[٤] وقال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٥] . وفي الصحيحين عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : «**لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به**» وفي رواية : «**إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال : ألا هذه غدرة فلان**»[٦] . . . وخرج مسلم من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ : «**لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة**»[٧] .

والغدر حرام في كل عهد بين المسلم وغيره ، ولو كان المعاهد كافرًا . . . وقد أمر اللَّه بالوفاء بعهود المشركين إذا قاموا على عهودهم ولم ينقضوا منها شيئًا . وأما عهود المسلمين فيما بينهم فالوفاء بها أشد ، ونقضها أعظم إثمًا ، ومن أعظمها : نقض عهد الإمام على من بايعه ورضي به ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن

---

(١) أخرجه الطبراني (٦/ ٢٧٠/ ٦١٨٦) ، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٠٨) : «رواه الطبراني وفيه أبو النعمان عن أبي وقاص وكلاهما مجهول قاله الترمذي وبقية رجاله موثقون» .

(٢) عمدة القاري (١/ ٣٢٩) .

(٣) الإسراء : الآية (٣٤) .

(٤) النحل : الآية (٩١) .

(٥) آل عمران : الآية (٧٧) .

(٦) أخرجه : أحمد (٢/ ١٦) والبخاري (٦/ ٣٤٨/ ٣١٨٨) ومسلم (٣/ ١٣٥٩/ ١٧٣٥) وأبو داود (٣/ ١٨٨/ ٢٧٥٦) والترمذي (٤/ ١٢٢/ ١٥٨١) .

(٧) أخرجه : أحمد (٣/ ٣٥) ومسلم (٣/ ١٣٦١/ ١٧٣٨) .

النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، فذكر منهم: ورجل بايع إمامًا لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه ما يريد وفى له، وإلا لم يف له»[1]، ويدخل في العهود التي يجب الوفاء بها، ويحرم الغدر فيها؛ جميع عقود المسلمين فيما بينهم إذا تراضوا عليها؛ من المبايعات والمناكحات وغيرها من العقود اللازمة، التي يجب الوفاء بها، وكذلك ما يجب الوفاء به لله ﷻ؛ مما يعاهد العبد ربه عليه من نذر التبرر ونحوه»[2].

* عن عائشة ﵂ زوج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «الرحم شجنة، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته»[3].

★ **غريب الحديث:**

شجنة: بكسر المعجمة وسكون الجيم بعدها نون وجاء بضم أوله وفتحه رواية ولغة، وأصل الشجنة عروق الشجر المشتبكة. والشَّجَن بالتحريك: واحد الشجون، وهي طرق الأودية، ومنه قوله: الحديث ذو شجون؛ أي: يدخل بعضه في بعض.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن أبي جمرة: «وظاهر الحديث الإخبار بعظم ما جعل الله تعالى للرحم من الحق. وإن وصلها من أكبر أفعال البر. وإن قطعها من أكبر المعاصي.

وقوله: «من قطعها قطعته» هو كناية عن شدة الحرمان والعذاب لأن القطع ضد الوصل فكما عبر عن عظم الأجر بالوصل عبر عن عظم البلاء بالقطع أعاذنا الله من البلاء بمنه»[4].

قال القرطبي: «فالرحم المحرم قطعها، المأمور بصلتها على وجهين: عامة وخاصة. فالعامة: رحم الدين، وتجب مواصلتها بملازمة الإيمان، والمحبة لأهله

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٨٠) والبخاري (٥/ ٣٥٦/ ٢٦٧٢) ومسلم (١/ ١٠٣/ ١٠٨) وأبو داود (٣/ ٧٤٩/ ٣٤٧٤) والترمذي (٤/ ١٢٨/ ١٥٩٥) والنسائي (٧/ ٢٨٣/ ٤٤٧٤) وابن ماجه (٢/ ٧٤٤/ ٢٢٠٧).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٨٧-٤٨٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٦٢)، والبخاري (١٠/ ٥١١/ ٥٩٨٩) ومسلم (٤/ ١٩٨١/ ٢٥٥٥).

(٤) بهجة النفوس (٤/ ١٤٦).

ونصرتهم، والنصيحة لهم، وترك مضارّتهم، والعدل بينهم، والنَّصفة في معاملتهم، والقيام بحقوقهم الواجبة كتمريض المرضى، وحقوق الموتى: من غسلهم، والصلاة عليهم، ودفنهم، وغير ذلك من الحقوق المترتبة لهم.

وأما الرحم الخاصة: فتجب لهم الحقوق العامة، وزيادة عليها كالنفقة على القرابة القريبة، وتفقّد أحوالهم، وترك التغافل عن تعاهدهم في أوقات ضروراتهم، وتتأكد في حقهم حقوق الرحم العامة، حتى إذا تزاحمت الحقوق بُدئ بالأقرب فالأقرب»[1].

* * *

---

(١) المفهم (٦/ ٥٢٦).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «لما ذكر اللَّه سبحانه عاقبة المشركين بقوله: ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ كان لقائل أن يقول: قد نرى كثيرًا منهم قد وفر اللَّه له الرزق وبسط له فيه، فأجاب عن ذلك بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ فقد يبسط الرزق لمن كان كافرًا، ويقتره على من كان مؤمنًا ابتلاءً وامتحانًا، ولا يدلّ البسط على الكرامة ولا القبض على الإهانة، ومعنى يقدر: يضيق، ومنه ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾[1] أي: ضيق. وقيل: معنى يقدر يعطي بقدر الكفاية، ومعنى الآية: أنه الفاعل لذلك وحده القادر عليه دون غيره»[2].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يقول -تعالى ذكره-: وفرح هؤلاء الذين بسط لهم في الدنيا من الرزق على كفرهم باللَّه، ومعصيتهم إياه بما بسط لهم فيها، وجهلوا ما عند اللَّه لأهل طاعته، والإيمان به في الآخرة من الكرامة والنعيم، ثم أخبر -جل ثناؤه- عن قدر ذلك في الدنيا فيما لأهل الإيمان به عنده في الآخرة وأعلم عباده قلته، فقال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ يقول: وما جميع ما أعطى هؤلاء في الدنيا من السعة، وبسط لهم فيها من الرزق ورغد العيش فيما عند اللَّه لأهل طاعته في الآخرة إلا متاع قليل، وشيء حقير ذاهب»[3].

وقال ابن كثير: «يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء، ويقتره على من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة والعدل. وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا في الحياة الدنيا استدراجًا لهم وإمهالًا كما قال: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ

(١) الطلاق: الآية (٧).
(٢) فتح القدير (٣/ ١١٤).
(٣) جامع البيان (١٣/ ١٤٤).

﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[(١)].

ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ كما قال: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[(٢)] وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[(٣)]»[(٤)].

وقال ابن عاشور: «وجيء في جانب الكافرين بضمير الغيبة إشارة إلى أنهم أقل من أن يفهموا هذه الدقائق لعنجهية نفوسهم، فهم فرِحُوا بما لهم في الحياة الدنيا وغفلوا عن الآخرة، فالفرح المذكور فرحُ بَطَر وطغيان كما في قوله تعالى في شأن قارون: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[(٥)]، فالمعنى فرحوا بالحياة الدنيا دون اهتمام بالآخرة. وهذا المعنى أفادهُ الاقتصار على ذكر الدنيا في حين ذكر الآخرة أيضًا بقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾.

والمراد بالحياة الدنيا وبالآخرة نعيمهما بقرينة السياق، فالكلام من إضافة الحكم إلى الذات والمراد أحوالها»[(٦)].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن الدنيا متاع قليل

* عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: «نام رسول اللَّه ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول اللَّه، لو اتخذنا لك وطاء. فقال: **ما لي وللدنيا! ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**»[(٧)].

★ **غريب الحديث:**

وطاءً: بكسر الواو وفتحها؛ أي: فراشًا.

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «وجوه التلذذ والتنعم بالأغراض الدنيوية أعم من أن يكون بساطا،

---

(١) المؤمنون: الآيتان (٥٥و٥٦).
(٢) النساء: الآية (٧٧).
(٣) الأعلى: الآيتان (١٦و١٧).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٨٨).
(٥) القصص: الآية (٧٦).
(٦) التحرير والتنوير (١٣/ ١٣٤-١٣٥).
(٧) أخرجه: أحمد (١/ ٣٩١)، والترمذي (٤/ ٥٠٨/ ٢٣٧٧)، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٦/ ٤١٠٩)، وصححه الحاكم (٤/ ٣١٠) ووافقه الذهبي.

ومن ثم طابقه قوله: «ما لي وللدنيا» وقوله: «**ما أنا والدنيا**» أي: ليس حالي مع الدنيا إلا كحال راكب مستظل، وهو من التشبيه التمثيلي، ووجه الشبه سرعة الرحيل وقلة المكث، ومن ثم خص الراكب، واللام في «للدنيا» مقحمة للتأكيد، إن كان الواو بمعنى (مع) وإن كان للعطف فتقديره: ما لي والدنيا، وما للدنيا معي»[(١)].

قال المناوي: «ومقصوده أن الدنيا زينت للعيون والنفوس، فأخذت بهما استحسانا ومحبة، ولو باشر القلب معرفة حقيقتها ومعتبرها؛ لأبغضها، ولما آثرها على الآجل الدائم... وقال الحكيم: جعل الله الدنيا ممرا والآخرة مقرا، والروح عارية والرزق بلغة، والمعاش حجة والسعي خيرا، ودعا من دار الآفات إلى دار السلام، ومن السجن إلى البستان، وذلك حال كل إنسان، لكن للنفس أخلاق دنية ردية تعمي عن كونها دار ممر، وتلهي عن تذكر كون الآخرة دار مقر، ولا يبصر ذلك إلا من اطمأنت نفسه وماتت شهوته، واستنار قلبه بنور اليقين، فلذلك شهد المصطفى ﷺ هذه الحال في نفسه ولم يضفها لغيره، وإن كان سكان الدنيا جميعا كذلك لعماهم عما هنالك»[(٢)].

وقال ابن الجوزي: «لما جمعت كتابي المسمى بالمنتظم في تاريخ الملوك والأمم؛ اطلعت على سير الخلق من الملوك والوزراء والعلماء والأدباء والفقهاء والمحدثين والزهاد وغيرهم، فرأيت الدنيا قد تلاعبت بالأكثرين تلاعبًا أذهب أديانهم، حتى كانوا لا يؤمنون بالعقاب.

فمن الأمراء من يقتل ويصادر ويقطع ويحبس بغير حق، ثم ينخرط في سلك المعاصي، كأن الأمر إليه، أو قد جاءه الأمن من العقاب. فربما تخايل أن حفظي الرعايا يرد عني، وينسى أنه قد قيل لرسول الله ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[(٣)]، وقد انخرط جماعة ممن يتسم بالعلم في سلك المعاصي لتحصيل أغراضهم العاجلة فما نفعهم العلم، ورأينا خلقا من المتزهدين خالفوا لنيل أغراضهم، وهذا لأن الدنيا فخ، والناس كعصافير، والعصفور يريد الحبة وينسى الخنق، قد نسي أكثر الخلق مآلهم ميلا إلى عاجل لذاتهم، فأقبلوا يسامرون

---

(١) شرح الطيبي (١٠/ ٣٢٩٠).
(٢) فيض القدير (٥/ ٤٦٤-٤٦٥).
(٣) الزمر: الآية (١٣).

الهوى، ولا يلتفتون إلى مشاورة العقل، فلقد باعوا بلذة يسيرة خيرًا كثيرًا، واستحقوا بشهوات مرذولة عذابًا عظيمًا، فإذا نزل بأحدهم الموت قال: ليتني لم أكن، ليتني كنت ترابا، فيقال له: الآن؟

فوا أسفي لفائت لا يمكن استدراكه، ولمرتهن لا يصح فكاكه، ولندم لا ينقطع زمانه، و لمعذب عز عليه إيمانه بالله، ما نفعت العقول إلا لمن يلتفت إليها و يعول عليها، ولا يمكن قبول مشاورها إلا بعزيمة الصبر عما يشتهي.

فتأمل في الأمراء عمر بن الخطاب، و ابن عبد العزيز رضي الله عنهما، وفي العلماء أحمد ابن حنبل -رحمة الله عليه-، و في الزهاد أويسًا القرني، لقد أعطوا الجد حقه وفهموا مقصود الوجود، وما هلك الهالكون إلا لقلة الصبر عن المشتهى، وربما كان فيهم من لا يؤمن بالبعث والعقاب.

وليس العجب من ذاك، إنما العجب من مؤمن يوقن، ولا ينفعه يقينه، ويعقل العواقب، ولا ينفعه عقله»[١].

قلت: ما ذكره الإمام ابن الجوزي رحمه الله في هذا التوجيه العظيم لواقع الناس من علماء وأمراء وزهاد، هو واقع في كل زمان. فالناس أقبلوا على الدنيا بخيلهم ورجلهم، ورأوا السعادة في نيل لذاتهم وشهواتهم، واغتر الأغنياء بأموالهم، واغتر الأمراء بحراسهم والتفاف الناس حولهم للطمع فيما عندهم، وإن كان أكثرهم أو معظمهم يكرهونهم، واغتر العلماء أو من ينتسب إلى العلم ولو على سبيل الزور والبهتان بتقريب الأمراء لهم، وتصديق بعض الناس لهم في تلونهم ونفاقهم وتزلفهم لسادتهم، وهكذا اغتر الصوفية بمساندة أهل الباطل لهم، ونسوا أن الله تعالى لهم بالمرصاد، وأن الله تعالى لا محالة آخذهم ومعاقبهم إذا شاء على سوء صنيعهم إذا لم يتوبوا من حماقتهم وسفاهتهم وما هم عليه جميعًا من الطغيان والغرور بالله، والاغترار باستدراجه لهم بنعمه الظاهرة، نسأل الله السلامة والمعافاة من هذه الأنواع الموجودة، وهذه الكثرة المتكاثرة إلا من سلم ونجا، وعلم ما لله من وقار وتعظيم، وأن الموت لا محالة آتيه، وهو مرتحل عن الدنيا مهما طال زمانه والله المستعان.

---

(١) صيد الخاطر (ص: ٧٢٦-٧٢٨).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يبين حال الدنيا في جنب الآخرة وأن حالها كمَلِكٍ: «خطّ مدينة في أصح المواضع وأحسنها هواء، وأكثرها مياهًا، وشق أنهارها وغرس أشجارها، وقال لرعيته: تسابقوا إلى أحسن الأماكن فيها؛ فمن سبق إلى مكان فهو له، ومن تخلف سبقه الناس إلى المدينة، فأخذوا منازلهم، وتبوؤوا مساكنهم فيها، وبقي من أصحاب الحسرات، ونصب لهم ميدان السباق، وجعل على الميدان شجرة كبيرة: لها ظل مديد وتحتها مياه جارية، وفي الشجرة من كل أنواع الفواكه، وعليها طيور عجيبة الأصوات، وقال لهم: لا تغتروا بهذه الشجرة وظلها، فعن قليل تُجتثّ من أصلها، ويذهب ظلها، وينقطع ثمرها، وتموت أطيارها، وأما مدينة الملك؛ فأُكُلها دائم، وظلها مديد، ونعيمها سرمدي، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فسمع الناس بها فخرجوا في طلبها على وجوههم؛ فمروا بطريقهم بتلك الشجرة على أثر تعب ونصب وحر وظمأ، فنزلوا كلهم تحتها، واستظلوا بظلها، وذاقوا حلاوة ثمرها، وسمعوا نغمات أطيارها، فقيل لهم: إنما نزلتم تحتها لتحموا أنفسكم، وتضمروا مراكبكم للسباق، فتهيؤوا للركوب وكونوا على أهبة، فإذا صاح النفير استدركتم حلبة السباق. فقال الأكثرون: كيف ندع هذا الظل الظليل، والماء السلسبيل، والفاكهة النضجة، والدعة والراحة، ونقتحم هذه الحلبة في الحر والغبار، والتعب والنصب والسفر البعيد، والمفاوز المعطشة التي تتقطع فيها الأمعاء؟ وكيف نبيع النقد الحاضر بالنسيئة الغائبة إلى الأجل البعيد، ونترك ما نراه إلى ما لا نراه، وذرة منقودة في اليد أولى من درة موعودة بعد غد، خذ ما تراه ودع شيئًا سمعت به، ونحن بنو اليوم، وهذا عيش حاضر، كيف نتركه لعيش غائب في بلد بعيد لا ندري متى نصل إليه، ونهض من كل ألف واحد وقالوا: واللّٰه ما مقامنا هذا في ظل زائل تحت شجرة قد دنا قلعها، وانقطاع ثمرها، وموت أطيارها، ونترك المسابقة إلى الظل الظليل الذي لا يزول، والعيش الهنيء الذي لا ينقطع إلا من أعجز العجز، وهل يليق بالمسافر إذا استراح تحت ظل أن يضرب خباءه عليه ويتخذه وطنه خشية التأذي بالحر والبرد؟ وهل هذا إلا أسفه السفه؟ فالسباق السباق والبدار البدار.

حكمُ المنيّة في البريّة جاري ... ما هذه الدنيا بدار قرارِ
اقضوا مآربَكم سِراعًا إنما ... أعمارُكم سَفَرٌ من الأسفارِ

وتراكضوا خيلَ السباقِ وبادِروا أن تُستَرَدَّ فإنهن عَواري
ودعوا الإقامة تحت ظل زائلٍ أنتم على سفرٍ بهذي الدارِ
من يرجو طِيبَ العيش فيها إنما يبني الرجاءَ على شفيرٍ هارِ
والعيشُ كلّ العيش بعد فراقها في دار أهلِ السّبقِ أكرمِ دارِ

فاقتحموا حلبة السباق، ولم يستوحشوا من قلة الرفاق، وساروا في ظهور العزائم، ولم تأخذهم في سيرهم لومة لائم، والمتخلّف في ظل الشجرة نائم. فواللَّه ما كان إلا قليل حتى ذوت أغصان تلك الشجرة، وتساقطت أوراقها، وانقطع ثمرها، ويبست فروعها، وانقطع مشربها، فقلعها قيّمها من أصلها، فأصبح أهلها في حر السموم يتقلبون، وعلى ما فاتهم من العيش في ظلها يتحسرون، أحرقها قيمها فصارت هي وما حولها نارًا تلظى، وأحاطت النار بمن تحتها، فلم يستطع أحد منهم الخروج منها، فقالوا: أين الركب الذين استظلوا معنا تحت ظلها ثم راحوا وتركوه؟ فقيل لهم: ارفعوا أبصاركم تروا منازلهم، فرأوهم من البعد في قصور مدينة الملك وغرفها يتمتعون بأنواع اللذات؛ فتضاعفت عليهم الحسرات ألا يكونوا معهم، وزاد تضاعفها بأن حيل بينهم وبين ما يشتهون، وقيل: هذا جزاء المتخلّفين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَهُمْ وَلَكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

* عن المستورد بن شداد ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«واللَّه ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع»**[(٣)].

⋆ غريب الحديث:

اليمّ: البحر.

⋆ فوائد الحديث:

قال النووي ﵀: «ومعنى الحديث: ما الدنيا بالنسبة إلى الآخرة في قِصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذاتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق

---

(١) النحل: الآية (١١٨). (٢) عدة الصابرين (٣٧٦-٣٧٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٢٨-٢٢٩)، ومسلم (٤/ ٢١٩٣/ ٢٨٥٨)، والترمذي (٤/ ٤٨٦/ ٢٣٢٣) وابن ماجه (٢/ ١٣٧٦/ ٤١٠٨).

بالأصبع إلى باقي البحر»[1].

وقال القرطبي: «وهذا مثل لحقارة الدنيا وقلتها، وهو نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[2] أي: كل شيء يتمتع به في الدنيا من أولها إلى آخرها قليل، إذ لا بقاء له ولا صفو فيه، وهذا بالنسبة إلى نفسها، وأما بالنسبة إلى الآخرة، فلا خطر ولا قدر للدنيا، وهذا هو المقصود بتمثيل هذا الحديث حيث قال: «فلينظر بماذا يرجع». ووجه هذا التمثيل أن القدر الذي يتعلق بالإصبع من ماء البحر لا قدر له ولا خطر، وكذلك الدنيا بالنسبة إلى الآخرة»[3].

قال الإمام ابن القيم: «تمثيله لها ﷺ بمدخل إصبعه في اليم، فالذي يرجع به إصبعه من البحر هو مثل الدنيا بالنسبة إلى الآخرة. وهذا أيضًا من أحسن الأمثال؛ فإن الدنيا منقطعة فانية، ولو كانت مدتها أكثر مما هي، والآخرة أبدية لا انقطاع لها، ولا نسبة للمحصور إلى غير المحصور، بل لو فُرض أن السماوات والأرض مملوءتان خردلًا، وبعد كل ألف سنة طائر ينقل خردلة، لفني الخردل والآخرة لا تفنى، فنسبة الدنيا إلى الآخرة في التمثيل كنسبة خردلة واحدة إلى ذلك الخردل. والمقصود: أن الدنيا نفس من أنفاس الآخرة، وساعة من ساعاتها»[4].

* عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ مر بالسوق داخلًا من بعض العالية والناس كنفته. فمر بجدي أسك ميت، فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: **أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟** فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به؟ قال: **أتحبون أنه لكم؟** قالوا: والله لو كان حيًا كان عيبًا فيه لأنه أسك، فكيف وهو ميت؟ فقال: **فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم**»[5].

★ **غريب الحديث:**

من بعض العالية: أي: كان دخوله ﷺ من بطن العالية إلى السوق، والعالية والعوالي أماكن بأعلى أراضي المدينة، والنسبة إليها علوي، وأدناها على أربعة أميال، وأبعدها من جهة نجد ثمانية.

---

(١) شرح مسلم (١٧/ ١٥٩).
(٢) النساء: الآية (٧٧).
(٣) المفهم (٧/ ١٢٥-١٢٦).
(٤) عدة الصابرين (ص: ٣٦٥-٣٦٦).
(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٦٥)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٢/ ٢٩٥٧) واللفظ له، وأبو داود (١/ ١٣٠/ ١٨٦).

كنفته: بفتح الكاف والنون والفاء؛ أي: جانبه.

جدي: بفتح الجيم وسكون الدال: هو ولد المعز.

أسكّ: بفتح الهمزة والسين والكاف المشددة: يطلق على ملتصق الأذنين، وعلى فاقدهما، وعلى مقطوعهما، وعلى الأصم الذي لا يسمع. والمراد هاهنا: الأول.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «المراد الدار الدنيا، أو الحياة الدنيا التي تقابلها الدار الأخرى، أو الحياة الأخرى، ومعنى هوان الدنيا على الله: أن اللَّه تعالى لم يجعلها مقصودة لنفسها، بل جعلها طريقا موصلة إلى ما هو المقصود لنفسه، وأنه لم يجعلها دار إقامة، ولا جزاء، وإنما جعلها دار رحلة وبلاء، وأنها ملكها في الغالب الكفرة والجهال، وحماها الأنبياء والأولياء.. وحسبك بها هوانًا، أن اللَّه قد صغرها، وحقرها وذمها، وأبغضها وأبغض أهلها ومحبيها، ولم يرض لعاقل فيها إلا بالتزود منها، والتأهب للارتحال عنها، ويكفيك من ذلك ما رواه أبو عيسى الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر اللَّه وما والاه، أو عالم أو متعلم**»[1].. ولا يفهم من هذا الحديث إباحة لعن الدنيا وسبها مطلقا.. إن المباح لعنه من الدنيا ما كان منها مبعدًا عن اللَّه وشاغلا عنه، كما قال بعض السلف: كل ما شغلك عن اللَّه تعالى من مال وولد فهو عليك مشؤوم، وهو الذي نبه اللَّه على ذمه بقوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾[2] وأما ما كان من الدنيا يقرب إلى اللَّه تعالى، ويعين على عبادة اللَّه تعالى؛ فهو المحمود بكل لسان، والمحبوب لكل إنسان، فمثل هذا لا يسب؛ بل يرغب فيه ويحب، وإليه الإشارة بالاستثناء حيث قال: «**إلا ذكر اللَّه وما والاه، أو عالم أو متعلم**»»[3].

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٤٨٥-٤٨٦/ ٢٣٢٢)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٧/ ٤١١٢)، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة رقم (٢٧٩٧).

(٢) الحديد: الآية (٢٠).

(٣) المفهم: (٧/ ١٠٧-١٠٨).

* عن المستورد بن شداد ﷺ قال: «كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة فقال رسول الله ﷺ: **أترون هذه هانت على أهلها حين ألقوها؟ قالوا: من هوانها ألقوها يا رسول الله. قال: فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها**»[(1)].

★ غريب الحديث:

سَخْلة: بفتح السين وسكون المعجمة: ولد معز أو ضأن.

هانت: هان هونًا، بالضم، وهوانًا ومهانةً: ذلّ.

★ فوائد الحديث:

قال المباركفوري رحمه الله: ««قالوا: من هوانها» أي: من أجل هوانها. «الدنيا أهون» أي: أذلّ وأحقر «على الله» أي: عنده تعالى «من هذه» أي: من هوان هذه السخلة»[(2)].

وقال ابن القيم: «وفي مسند الإمام أحمد في هذا الحديث: «فوالذي نفسي بيده للدنيا عند الله أهون عليه من تلك السخلة على أهلها»؛ فأكد ذلك بالقسم الصادق، فإذا كان مثلها عند الله أهون وأحقر من سخلة ميتة على أهلها؛ فمحبها وعاشقها أهون على الله من تلك السخلة، وكونها سخلة أهون عليهم من كونها شاة كبيرة، لأن تلك ربما انتفعوا بصوفها أو دبغوا جلدها، وأما ولد شاة صغيرة ميت ففي غاية الهوان، والله المستعان»[(3)].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أدنى مقعد أحدكم من الجنة أن يقول له: تمن فيتمنى ويتمنى فيقول له: هل تمنيت؟ فيقول: نعم. فيقول له: فإن لك ما تمنيت ومثله معه**»[(4)].

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٣٠)، والترمذي (٤/ ٤٨٥/ ٢٣٢١) واللفظ له، وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٧/ ٤١١١).

(٢) تحفة الأحوذي (٦/ ٥٠٤).

(٣) عدة الصابرين (ص: ٣٦٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٥)، ومسلم (١/ ١٦٧/ ١٨٢[٣٠١]).

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «معناه: يقول له: تمنّ من الشيء الفلاني ومن الشيء الآخر يسمي له أجناس ما يتمنى وهذا من عظيم رحمته ﷺ.

قوله في رواية أبي هريرة: «**لك ذلك ومثله معه**». وفي رواية أبي سعيد وعشرة أمثاله. قال العلماء: وجه الجمع بينهما أن النبي ﷺ أعلم أولًا بما في حديث أبي هريرة، ثم تكرم اللَّه تعالى فزاد ما في رواية أبي سعيد، فأخبر به النبي ﷺ، ولم يسمعه أبو هريرة»[1].

* * *

(١) شرح مسلم (٣/ ٢٢).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧﴾

★ **غريب الآية:**

أناب: الإنابة: الرجوع إلى الحق بالتوبة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ويقول لك يا محمد، مشركو قومك: هلا أنزل عليك آية من ربك، إمّا ملك يكون معك نذيرًا، أو يُلْقَى إليك كنز؟ فقل: إن اللَّه يضل منكم من يشاء أيها القوم، فيخذله عن تصديقي والإيمان بما جئته به من عند ربي ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾، فرجع إلى التوبة من كفره والإيمان به، فيوفقه لاتباعي وتصديقي على ما جئته به من عند ربه، وليس ضلالُ من يضلّ منكم بأن لم ينزل علي آية من ربّي، ولا هداية من يهتدي منكم بأنّها أنزلت عليّ، وإنما ذلك بيَدِ اللَّه، يوفّق من يشاء منكم للإيمان، ويخذل من يشاء منكم فلا يؤمن»[1].

وقال ابن عطية: «هذا رد على مقترحي الآيات من كفار قريش، كسقوط السماء عليهم كسفًا ونحو ذلك من قولهم: سيِّر عنا الأخشبين، واجعل لنا البطاح محارث ومغترسًا كالأردن، وأحي لنا قصيًّا وأسلافنا، فلما لم يكن ذلك -بحسب أن آيات الاقتراح لم تجر عادة الأنبياء بالإتيان بها إلا إذا أراد اللَّه تعذيب قوم- قالوا هذه المقالة، فرد اللَّه عليهم ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ أي: أن نزول الآية لا تكون معه ضرورة إيمانكم ولا هداكم، وإنما الأمر بيد اللَّه ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ﴾ إلى طاعته والإيمان به ﴿إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ إلى الطاعة وآمن بالآيات الدالة»[2].

وقال الشنقيطي: «بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن الكفار اقترحوا عليه ﷺ

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٤٣١).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٣١١).

الإتيان بآية ينزلها عليه ربه، وبين هذا المعنى في مواضع متعددة كقوله: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾(١) إلى غير ذلك من الآيات، وبين تعالى في موضع آخر أن في القرآن العظيم كفاية عن جميع الآيات في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾(٢) وبين في موضع آخر حكمة عدم إنزال آية كناقة صالح ونحوها بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾(٣) الآية»(٤).

وقال القاسمي: «وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ جملة جرت مجرى التعجب من قولهم، مشيرة إلى أنه من باب العناد والاقتراح لما لا تقتضيه الحكمة من الآيات المحسوسة التي لا يمهل أحد بعد مجيئها، لا من باب طلب الهداية. وإلا فلو كان بغيتهم طلب الهداية بآية لكفاهم إنزال هذا الكتاب من مثله صلوات اللَّه عليه، آية، فإنه آية الآيات..! ولكنهم قوم آثروا الضلال على الهدى، زاغوا عنه فأزاغ اللَّه قلوبهم. فطوى ما دل عليه هذه الجملة، إيجازًا للعلم بها»(٥).

وقال ابن كثير: «هو المضل والهادي، سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا، أو لم يجبهم إلى سؤالهم؛ فإن الهداية والإضلال ليس منوطا بذلك ولا عدمه، كما قال: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾(٦) وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾(٧) وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾(٨)؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي: ويهدي إليه من أناب إلى اللَّه، ورجع إليه، واستعان به، وتضرع لديه»(٩).

وقال المراغي: «والخلاصة: أن في القرآن وحده غنى عن كل آية، ولو أراد اللَّه

---

(١) الأنبياء: الآية (٥).
(٢) العنكبوت: الآية (٥١).
(٣) الإسراء: الآية (٥٩).
(٤) أضواء البيان (٣/ ١٠٢).
(٥) محاسن التأويل (٩/ ٣٥٩-٣٦٠).
(٦) يونس: الآية (١٠١).
(٧) يونس: الآيتان (٩٦و٩٧).
(٨) الأنعام: الآية (١١١).
(٩) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٨٨-٨٩).

هدايتكم لصرف اختياركم إلى تحصيل أسبابها، وكان لكم فيه مرشدًا أيما مرشد، ولكن الله جعلكم سادرين في الضلالة لا تلوون على شيء، ولا ينفعكم إرشاد ولا نصح، لسوء استعدادكم، وكثرة لجاجكم وعنادكم، ومن كانت هذه حاله فأنى له أن يهتدي ولو جاءته كل آية؟»[١].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في عناد الكفار وطلبهم الآيات من أنبيائهم تعجيزا

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا ونؤمن بك! قال: وتفعلون؟ قالوا: نعم. قال: فدعا فأتاه جبريل فقال: إن ربك عز وجل يقرأ عليك السلام، ويقول: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة. قال: بل باب التوبة والرحمة»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال البنا رحمه الله: «طلبوا أن يحول لهم جبل الصفا الموجود بمكة من حجر إلى ذهب... وإنما اختار ذلك ﷺ -يعني: باب الرحمة والتوبة- رحمة بهم ورجاء إسلام كثير منهم... فإن لم يؤمن قومك بعد إرسال الآيات أهلكناهم؛ لأن من سنتنا في الأمم إذا سألوا الآيات ثم لم يؤمنوا بعد إتيانها؛ أن نهلكهم ولا نمهلهم، وقد حكمنا بإمهال هذه الأمة إلى يوم القيامة»[٣].

* * *

(١) تفسير المراغي (١٣/ ١٠٠).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٤٢، ٢٥٨) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٨٠/ ١١٢٩٠)، وصححه الحاكم (٢/ ٣١٤) ووافقه الذهبي.

(٣) الفتح الرباني (١٨/ ١٩٣).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «والذين آمنوا: بدل من أناب. واطمئنان القلوب سكونها بعد الاضطراب من خشيته. وذكر اللَّه ذكر رحمته ومغفرته، أو ذكر دلائله على وحدانيته المزيلة لعلق الشبه. أو تطمئن بالقرآن، لأنه أعظم المعجزات تسكن به القلوب وتنتبه. ثم ذكر الحض على ذكر اللَّه وأنه به تحصل الطمأنينة ترغيبًا في الإيمان، والمعنى: أنه بذكره تعالى تطمئن القلوب لا بالآيات المقترحة، بل ربما كفر بعدها، فنزل العذاب كما سلف في بعض الأمم»[1].

وقال القاسمي: «أي: آمنوا باللَّه ورسوله وكتابه ﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: تسكن وتخشى عند ذكره، وترضى به مولى ونصيرا. والعدول إلى صيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان واستمراره ﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: بذكره دون غيره تسكن القلوب أنسًا به، واعتمادًا عليه، ورجاء منه؛ وقدر بعضهم مضافًا؛ أي: بذكر رحمته ومغفرته، أو بذكر دلائله الدالة على وحدانيته؛ ورأى آخرون أن المراد بذكر اللَّه القرآن؛ لأنه يسمى ذكرًا، كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[2] وقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[3] لأنه آية بينة تسكن القلوب وتثبت اليقين فيها. وهذا المعنى يناسب قوله: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾[4] أي: هؤلاء ينكرون كونه آية. والمؤمنون يعلمون أنه أعظم آية تطمئن لها قلوبهم ببرد اليقين، قال الشهاب: وهو أنسب الوجوه»[5].

وقال شيخ الإسلام: القلوب تطمئن بذكره: كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ فتقديم المفعول يدل على أنها لا تطمئن إلا بذكره، وهو تعالى إذا

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٣٨٠).
(٢) الأنبياء: الآية (٥٠).
(٣) الحجر: الآية (٩).
(٤) يونس: الآية (٢٠).
(٥) محاسن التأويل (٩/ ٣٦٠-٣٦١).

ذكر وجلت، فحصل لها اضطراب ووجل لما تخافه من دونه وتخشاه من فوات نصيبها منه، فالوجل إذا ذكر حاصل بسبب من الإنسان، وإلا فنفس ذكر اللَّه يوجب الطمأنينة، لأنه هو المعبود لذاته، والخير كله منه، قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2] وقال علي ﷺ: «لا يرجونَّ عبد إلا ربه، ولا يخافنّ عبد إلا ذنبه». فالخوف الذي يحصل عند ذكره هو بسبب من العبد، وإلا فذكر الرب نفسه يحصل الطمأنينة والأمن، فما أصابك من حسنة فمن اللَّه، وما أصابك من سيئة فمن نفسك، كما قال ذلك المريض الذي سئل: كيف تجدك؟ فقال: أرجو اللَّه وأخاف ذنوبي. فقال النبي ﷺ: «ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه اللَّه ما يرجو، وأمنه مما يخاف»[3]. ولم يقل بذكر اللَّه توجل القلوب، كما قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ بل قال: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[4] وإنما يتوكلون عليه لطمأنينتهم إلى كفايته، وأنه سبحانه حسب من توكل عليه، يهديه وينصره ويرزقه بفضله ورحمته وجوده، فالتوكل عليه يتضمن الطمأنينة إليه والاكتفاء به عما سواه»[5].

وقال ابن القيم: «ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة الطمأنينة، قال اللَّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾[6]، الطمأنينة سكون القلب إلى الشيء وعدم اضطرابه وقلقه، ومنه الأثر المعروف: «الصدق طمأنينة والكذب ريبة»[7] أي: الصدق يطمئن إليه

---

(١) الحجر: الآيتان (٤٩و٥٠). (٢) المائدة: الآية (٩٨).

(٣) أخرجه من حديث أنس ﷺ الترمذي (٣/ ٣١١/ ٩٨٣)، وقال: «حسن غريب»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٦٢/ ١٠٩٠١)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٣/ ٤٢٦١)، وحسن إسناده المنذري في الترغيب (٤/ ٢٦٨).

(٤) الأنفال: الآية (٢). (٥) النبوات (١/ ٣٧٨-٣٨٠).

(٦) الفجر: الآيات (٢٧-٣٠).

(٧) أخرجه من حديث الحسن بن علي ﷺ أحمد (١/ ٢٠٠)، والترمذي (٤/ ٥٧٦/ ٢٥١٨)، وقال: حسن صحيح، والنسائي (٨/ ٧٣٢/ ٥٧٢٧)، وصححه ابن حبان (٢/ ٤٩٨/ ٧٢٢)، والحاكم (٢/ ١٣)وقال الذهبي: «سنده قوي».

قلب السامع، ويجد عنده سكونًا إليه، والكذب يوجب له اضطرابًا وارتيابًا، ومنه قوله ﷺ: «البر ما اطمأن إليه القلب»(١) أي: سكن إليه وزال عنه اضطرابه وقلقه، وفي ذكر اللَّه هاهنا قولان: أحدهما: أنه ذكر العبد ربه، فإنه يطمئن إليه قلبه ويسكن، فإذا اضطرب القلب وقلق فليس له ما يطمئن به سوى ذكر اللَّه. ثم اختلف أصحاب هذا القول فيه:

فمنهم من قال: هذا في الحلف واليمين، إذا حلف المؤمن على شيء سكنت قلوب المؤمنين إليه واطمأنت، ويروى هذا عن ابن عباس ﷺ. ومنهم من قال: بل هو ذكر العبد ربه بينه وبينه، يسكن إليه قلبه ويطمئن. والقول الثاني: أن ذكر اللَّه هاهنا القرآن، وهو ذكره الذي أنزله على رسوله، به طمأنينة قلوب المؤمنين، فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين، ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن، فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه، واضطرابه وقلقه من شكه، والقرآن هو المحصل لليقين، الدافع للشكوك والظنون والأوهام، فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به، وهذا القول هو المختار. وكذلك القولان أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾(٢).

والصحيح أن ذكره الذي أنزله على رسوله -وهو كتابه- من أعرض عنه: قيض له شيطانا يضله ويصده عن السبيل، وهو يحسب أنه على هدى، وكذلك القولان أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾(٣).

والصحيح أنه ذكره الذي أنزله على رسوله -وهو كتابه- ولهذا يقول المعرض عنه: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾(٤).

وأما تأويل من تأوله على الحلف: ففي غاية البعد عن المقصود، فإن ذكر اللَّه بالحلف يجري على لسان الصادق والكاذب، والبر والفاجر، والمؤمنون تطمئن

(١) أخرجه من حديث وابصة أحمد (٤/ ٢٢٨)، والدارمي (٢/ ٢٤٦)، وأبو يعلى (٣/ ١٦٠-١٦١/ ١٥٨٦)، وقال المنذري في الترغيب (٢/ ٥٥٧): «إسناده حسن» وكذا حسنه لغيره الشيخ الألباني في صحيح الترغيب.

(٢) الزخرف: الآية (٣٦). (٣) طه: الآية (١٢٤).

(٤) طه: الآيتان (١٢٥و١٢٦).

قلوبهم إلى الصادق ولو لم يحلف، ولا تطمئن قلوبهم إلى من يرتابون فيه ولو حلف، وجعل اللَّه سبحانه الطمأنينة في قلوب المؤمنين ونفوسهم، وجعل الغبطة والمدحة والبشارة بدخول الجنة لأهل الطمأنينة، فطوبى لهم وحسن مآب»[1].

وقال: «وحقيقة الطمأنينة التي تصير بها النفس مطمئنة؛ أن تطمئن في باب معرفة أسمائه وصفاته ونعوت كماله، إلى خبره الذي أخبر به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله، فتتلقاه بالقبول والتسليم والإذعان وانشراح الصدر له وفرح القلب به، فإنه مُعَرِّفٌ من مُعَرِّفات الرب سبحانه إلى عبده على لسان رسوله، فلا يزال القلب في أعظم القلق والاضطراب في هذا الباب، حتى يخالط الإيمان بأسماء الرب تعالى وصفاته وتوحيده وعلوه على عرشه وتكلمه بالوحي بشاشة قلبه، فينزل ذلك عليه نزول الماء الزلال على القلب الملتهب بالعطش، فيطمئن إليه ويسكن إليه، ويفرح به ويلين له قلبه ومفاصله حتى كأنه شاهد الأمر كما أخبرت به الرسل، بل يصير ذلك لقلبه بمنزلة رؤية الشمس في الظهيرة لعينه، فلو خالفه في ذلك من بين شرق الأرض وغربها لم يلتفت إلى خلافهم. وقال: إذا استوحش من الغربة قد كان الصديق الأكبر مطمئنا بالإيمان وحده وجميع أهل الأرض يخالفه، وما نقص ذلك من طمأنينته شيئًا، فهذا أول درجات الطمأنينة، ثم لا يزال يقوى كلما سمع بآية متضمنة لصفة من صفات ربه، وهذا أمر لا نهاية له، فهذه الطمأنينة أصل أصول الإيمان التي قام عليه بناؤه، ثم يطمئن إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعدها من أحوال القيامة حتى كأنه يشاهد ذلك كله عيانا، وهذا حقيقة اليقين الذي وصف به سبحانه وتعالى أهل الإيمان حيث قال: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[2] فلا يحصل الإيمان بالآخرة حتى يطمئن القلب إلى ما أخبر اللَّه سبحانه به عنها طمأنينته ! إلى الأمور التي لا يشك فيها ولا يرتاب، فهذا هو المؤمن حقًّا باليوم الآخر»[3].

* * *

(١) مدارج السالكين (٢/ ٥١٢-٥١٤).

(٢) البقرة: الآية (٤).

(٣) الروح (ص: ٢٢١).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩﴾

⋆ غريب الآية:

طوبى: هي من الطيب. وطوبى لك: معناه: أصبت خيرا وطَيِّبًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «واختلف في معنى ﴿طُوبَىٰ﴾ فقيل: خير لهم، وقال عكرمة: معناه نعم ما لهم، وقال الضحاك: معناه: غبطة لهم. وقال ابن عباس: ﴿طُوبَىٰ﴾: اسم الجنة بالحبشية، وقال سعيد بن مسجوع: اسم الجنة ﴿طُوبَىٰ﴾ بالهندية، وقيل ﴿طُوبَىٰ﴾: اسم شجرة في الجنة وبهذا تواترت الأحاديث»(١).

وقال المراغي: «أي: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم الفرح وقرة العين عند ربهم، وحسن المآب والمرجع. وفي هذا من الترغيب في طاعته، والتحذير من معصيته، ومن شديد عقابه، ما لا خفاء فيه.

وخلاصة ذلك: أن أهل الجنة منعمون بكل ما يشتهون، كما جاء في الحديث: **«فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»**(٢)»(٣).

وقال السعدي: «أي: آمنوا بقلوبهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وصدقوا هذا الإيمان بالأعمال الصالحة، أعمال القلوب كمحبة الله وخشيته ورجائه، وأعمال الجوارح كالصلاة ونحوها. ﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ أي: لهم حالة طيبة ومرجع حسن.

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٣١٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٣)، والبخاري (٦/ ٣٩١/ ٣٢٤٤)، ومسلم (٤/ ٢١٧٤/ ٢٨٢٤)، والترمذي (٥/ ٣٢٣/ ٣١٩٧)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٧/ ٤٣٢٨)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) تفسير المراغي (١٣/ ١٠١).

وذلك بما ينالون من رضوان اللَّه وكرامته في الدنيا والآخرة، وأن لهم كمال الراحة وتمام الطمأنينة، ومن جملة ذلك شجرة طوبى التي في الجنة، التي يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها، كما وردت بها الأحاديث الصحيحة»[١].

وقال الخطيب: «هو توكيد لقوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.. حيث إن ذكر اللَّه يقيم الإنسان على الإيمان باللَّه، ويمسك به في مجال العمل الصالح، فيحيى حياة طيبة، يجد فيها الأمن والسكينة، فإذا كانت الآخرة وجد ما عمل من صالحات حاضرًا فيسعد به ويهنأ.

والطوبى: مؤنث أطيب، وهو الحسن الجميل من كل شيء..

والمآب: المرجع، والمراد به يوم القيامة»[٢].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في وصف طوبى وأهلها

* عن عتبة بن عبد السلمي يقول: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فسأله عن الحوض، وذكر الجنة، ثم قال الأعرابي: فيها فاكهة؟ قال: **«نعم، وفيها شجرة تدعى طوبى»**. فذكر شيئًا لا أدري ما هو. قال: أي شجر أرضنا تشبه؟ قال: **«ليست تشبه شيئًا من شجر أرضك»** فقال النبي ﷺ: **«أتيت الشام؟»** فقال: لا. قال: **«تشبه شجرة بالشام تدعى الجوزة، تنبت على ساق واحد وينفرش أعلاها»**. قال: ما عظم أصلها؟ قال: **«لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك، ما أحطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هرما»** قال: فيها عنب؟ قال: **«نعم»**. قال: فما عظم العنقود؟ قال: **«مسيرة شهر للغراب الأبقع ولا يفتر»**[٣].

★ **غريب الحديث:**

الجَوْزَة: الجوز: الذي يؤكل، فارسي معرّب، واحدته: جوزة، والجمع:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٠٩).

(٢) التفسير القرآني (٧/ ١٠٩-١١٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٨٣-١٨٤)، والطبراني (١٧/ ١٢٦-١٢٧/ ٣١٢)، وفي الأوسط (١/ ٢٥٤-٢٥٥-٢٥٦/ ٤٠٤)، وابن جرير [شاكر] (١٦/ ٤٤٢/ ٢٠٣٩٣) وقال أحمد شاكر: «إسناده جيد»، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٦/ ٤٢٩-٤٣٠/ ٧٤١٤)، ورواه ابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٣٣٠) قال الألباني: «إسناده صحيح» حديث (٧١٦).

جَوْزَات. وأرض مجازة: فيها أشجار الجوز. قال أبو حنيفة: شجر الجوز كثير بأرض العرب من بلاد اليمن يحمل ويربى.. وأصل الجوز فارسي، وقد جرى في كلام العرب وأشعارها، وخشبه موصوف عندهم بالصلابة والقوة...

جَذَعَة: أصل الجذع من أسنان الدواب: هو ما كان منها شابًّا فتيًّا، فهو من الإبل ما دخل في السنة الخامسة، ومن البقر والمعز ما دخل في السنة الثانية، وقيل: البقر في الثالثة، ومن الضأن ما تمت له سنة، وقيل: أقل منها، ومنهم من يخالف بعض هذا في التقدير.

تَرْقُوَتُها: التَرْقُوَة، وهي العظم الذي بين ثُغرة النحر والعاتق، وهما تَرْقُوَتان من الجانبين، ووزنها: فَعْلُوَة، بالفتح. والجمع: التَّرَاقِي.

الغراب الأبقع: فيه سواد وبياض، وقيل: في صدره بياض. والجمع: بُقعان. والبقَع -محركا- في الطير والكلاب؛ كالبلق في الدواب.

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «أن رجلًا قال له: يا رسول الله، طوبى لمن رآك وآمن بك؟ قال: «**طوبى لمن رآني وآمن بي، ثم طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني**» قال له رجل: وما طوبى؟!.. قال: «**شجرة في الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها**»[1].

★ غريب الحديث:

أكمام: جمع كِمامة، وهي وعاء الطَّلْع وغطاء النَّوْر.

★ فوائد الحديثين:

قال النووي: «وأما معنى (طوبى) فاختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن معناه فرح وقرة عين. وقال عكرمة: نعم ما لهم. وقال الضحاك: غبطة لهم. وقال قتادة: حسنى لهم. وعن قتادة أيضًا معناه أصابوا خيرًا. وقال إبراهيم: خير لهم وكرامة: وقال ابن عجلان:

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٧١) واللفظ له، وأبو يعلى (٢/ ٥١٩-٥٢٠/ ١٣٧٤)، والخطيب في التاريخ (٤/ ٩١)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٦٧): «وقال رواه أحمد وأبو يعلى وسكت عنه». فيه دراج عن أبي الهيثم قال فيه الحافظ في التقريب: «دراج أبو السمح صدوق في حديثه عن أبي الهيثم ضعف». وله شواهد، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٦/ ٢١٣/ ٧٢٣٠)، انظر الصحيحة (٤/ ٦٣٩و٦٤٠) حديث (١٩٨٥).

دوام الخير. وقيل: الجنة. وقيل: شجرة في الجنة. وكل هذه الأقوال محتملة في الحديث. والله أعلم»[1].

* * *

(١) شرح مسلم (٢/ ١٥٠-١٥١).

قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية : «الكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ متعلقة بالمعنى الذي في قوله : ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾(١) أي : كما أنفذ اللّٰه هذا كذلك أرسلتك، هذا قول والذي يظهر لي أن المعنى : كما أجرينا العادة بأن اللّٰه يضل ويهدي لا بالآيات المقترحة فكذلك أيضًا فعلنا في هذه الأمة أرسلناك إليها بوحي، لا بآيات مقترحة، فيضل اللّٰه من يشاء ويهدي من يشاء.

وقوله : ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ قال قتادة وابن جريج : نزلت حين عاهدهم رسول اللّٰه عام الحديبية، فكتب الكاتب : بسم اللّٰه الرحمن الرحيم، فقال قائلهم : نحن لا نعرف الرحمن ولا نقرأ اسمه.

قال القاضي أبو محمد : والذي أقول في هذا : أن ﴿بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يراد به اللّٰه تعالى وذاته، ونسب إليهم الكفر به على الإطلاق، وقصة الحديبية وقصة أمية بن خلف مع عبد الرحمن بن عوف، إنما هي إباية الاسم فقط، وهروب عن هذه العبارة التي لم يعرفوها إلا من قبل محمد ﷺ.

ثم أمر اللّٰه تعالى نبيه بالتصريح بالدين والإفصاح بالدعوة في قوله : ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ : المرجع كالمآب، لأن التوبة الرجوع»(٢).

وقال ابن كثير : «يقول تعالى : وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة : ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي : تبلغهم تفسير رسالة اللّٰه إليهم، كذلك أرسلنا في

---

(١) الرعد: الآية (٢٧).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٣١٢-٣١٣).

الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كُذّب الرسل من قبلك، فلك بهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، فإن تكذيبهم لك أشدّ من تكذيب غيرك من المرسلين، قال الله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾[١] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾[٢] أي: كيف نصرناهم، وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ أي: هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن لا يقرون به؛ لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، وقالوا: ما ندري ما ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، قاله قتادة والحديث في صحيح البخاري[٣] وقد قال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾[٤] وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن»[٥]. ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هذا الذي تكفرون به أنا مؤمن به، معترف مقر له بالربوبية والإلهية، هو ربي لا إله إلا هو، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: في جميع أموري، ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي: إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه»[٦].

وقال ابن عاشور: «ولما كان الإرسال قد علق بقوله: ﴿فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ صارت الإشارة أيضًا متحملة لمعنى إرسال الرسل من قبله إلى أمم يقتضي مرسَلين؛ أي: ما كانت رسالتك إلاّ مثل رسالة الرسل من قبلك. كقوله: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾[٧] وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا﴾[٨] لإبطال توهم المشركين أن النبي ﷺ لما لم يأتهم بما سألوه فهو غير مرسل من الله. وفي هذا

---

(١) النحل: الآية (٦٣).
(٢) الأنعام: الآية (٣٤).
(٣) سيأتي تخريجه في الباب نفسه.
(٤) الإسراء: الآية (١١٠).
(٥) سيأتي تخريجه في الباب نفسه.
(٦) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٩٣-٩٤).
(٧) الأحقاف: الآية (٩).
(٨) الفرقان: الآية (٢٠).

الاستدلال تمهيد لقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾(١). ولذلك أردفت الجملة بقوله: ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.. والتلاوة: القراءة. فالمقصود لتقرأ عليهم القرآن، كقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾(٢).

وفيه إيماء إلى أن القرآن هو معجزته لأنه ذكره في مقابلة إرسال الرسل الأولين ومقابلة قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾(٣). وقد جاء ذلك صريحًا في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾(٤). وقال النبي ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيتُ وحيًا أوحاه اللَّه إلي»(٥).

وجملة وهم يكفرون بالرحمن عطف على جملة: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ﴾؛ أي: أرسلناك بأوضح الهداية وهم مستمرون على الكفر لم تدخل الهداية قلوبهم، فالضمير عائد إلى المشركين المفهومين من المقام لا إلى ﴿أُمَّةٍ﴾؛ لأن الأمة منها مؤمنون... والتعبير بالمضارع في ﴿يَكْفُرُونَ﴾ للدلالة على تجدد ذلك واستمراره. ومعنى كفرهم باللَّه إشراكهم معه غيره في الإلهية، فقد أبطلوا حقيقة الإلهية فكفروا به.

واختيار اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ من بين أسمائه تعالى لأن كفرهم بهذا الاسم أشد لأنهم أنكروا أن يكون اللَّهُ رحمانا. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾(٦)، فأشارت الآية إلى كفرين من كفرهم: جحدِ الوحدانية، وجحدِ اسم الرحمن؛ ولأن لهذه الصفة مزيد اختصاص بتكذيبهم الرسول -عليه الصلاة والسلام-، وتأييده بالقرآن لأن القرآن هُدًى ورحمة للناس. وقد أرادوا تعويضه بالخوارق التي لا تكسب هديًا بذاتها ولكنها دالة على صدق من جاء بها... وقد لقن النبي ﷺ بإبطال كفرهم المحكي إبطالًا جامعًا بأن يقول: ﴿هُوَ رَبِّى﴾، فضمير ﴿هُوَ﴾ عائد إلى ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ باعتبار المسمى بهذا الاسم؛ أي: المسمى هو ربي

---

(١) الرعد: الآية (٣١).
(٢) النمل: الآية (٩٢).
(٣) الرعد: الآية (٧).
(٤) العنكبوت: الآية (٥١).
(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٣٤١)، والبخاري (٩/ ٣/ ٤٩٨١)، ومسلم (١/ ١٣٤/ ١٥٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٣٠/ ١١١٢٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٦) الفرقان: الآية (٦٠).

وأن الرحمن اسمه.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إبطال لإشراكهم معه في الإلهية غيره. وهذا مما أمر الله نبيه أن يقوله، فهو احتراس لرد قولهم: إن محمدًا ﷺ يدعو إلى رب واحد وهو يقول: إن ربه الله وإن ربه الرحمان، فكان قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ دالًا على أن المدعو بالرحمن هو المدعو بالله إذ لا إله إلا إله واحد، فليس قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إخبارًا من جانب الله على طريقة الاعتراض.

وجملة: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ هي نتيجة لكونه ربًا واحدًا. ولكنها كالنتيجة لذلك فصلت عن التي قبلها لما بينهما من الاتصال»[1].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم من جحد شيئًا من الأسماء والصفات

* عن المسور بن مخرمة ومروان -يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه- قالا: فساق البخاري حديث صلح الحديبية إلى أن قال: قال معمر قال الزهري في حديثه: «فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتابًا. فدعا النبي ﷺ الكاتب. فقال النبي ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾. فقال: سهيل: أما ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ فوالله ما أدري ما هي ولكن اكتب: (باسمك اللهم) كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فقال النبي ﷺ: اكتب (باسمك اللهم)»[2].

★ فوائد الحديث:

قال صاحب «تيسير العزيز الحميد»: «إن الله تعالى سمى جحود اسم من أسمائه كفرًا، فدل على أن جحود شيء من أسماء الله وصفاته كفر، فمن جحد شيئًا من أسماء الله وصفاته من الفلاسفة، والجهمية والمعتزلة ونحوهم، فله نصيب من الكفر بقدر ما جحد من الاسم أو الصفة، فإن الجهمية والمعتزلة ونحوهم، وإن

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ١٣٩-١٤٢).

(٢) أحمد (٤/ ٣٢٣-٣٢٦)، والبخاري (٥/ ٤١٢-٤١٦/ ٢٧٣١-٢٧٣٢) مختصرًا، وأبو داود (٣/ ١٩٤-٢٠٩/ ٢٧٦٥)، والنسائي (٥/ ١٨٤/ ٢٧٧٠).

كانوا يقرون بجنس الأسماء والصفات؛ فعند التحقيق لا يقرون بشيء؛ لأن الأسماء عندهم أعلام محضة، لا تدل على صفات قائمة بالرب -تبارك وتعالى- وهذا نفس كفر الذين جحدوا اسم الرحمن»[١].

قال ابن القيم رحمه الله: «مما ادعوا أنه مجاز اسمه سبحانه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ وقالوا: وصفه بالرحمة مجاز، قالوا: لأن الرأفة والرحمة هي رقة تعتري القلب، وهي من الكيفيات النفسية، والله منزه عنها، وهذا باطل من وجوه: أحدها: أنهم جحدوا حقيقة الرحمة فقالوا: إن نسبتها إلى الله تعالى محال. وأنه ليس برحيم بعباده على الحقيقة، وقد سبقهم إلى هذا النفي مشركو العرب الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾[٢] فأنكروا حقيقة اسمه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أن يسمى بذلك، ولم يكونوا ينكرون ذاته وربوبيته، ولا ما يجعله المعطلة معنى اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ من الإحسان، فإن أحدًا لم ينكر إحسان الله إلى خلقه. فإن قيل: فلو كان هذا كما ذكرتم لأنكروا اسم (الرحيم) لأن المعنى واحد.

قيل: إنما لم ينكروا ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لأن ورود ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ في أسمائه أكثر من ورود ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾.

ولهذا قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[٣] ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾[٤] ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾[٥] ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ﴾[٦] ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾[٧] وإنما جاء (الرحيم) مقيدًا كقوله: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾[٨] وقوله: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[٩] ومقرونًا باسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ كما في (الفاتحة)، أو باسم آخر نحو ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[١٠] وأيضًا فالرحمن جاء على بناء (فعلان) الدال على الصفة الثابتة اللازمة الكاملة، كما يشعر به هذا البناء نحو غضبان وندمان وحيران، فالرحمن من صفته الرحمة، والرحيم من

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ٥٩١).
(٢) الفرقان: الآية (٦٠).
(٣) طه: الآية (٥).
(٤) الفرقان: الآية (٥٩).
(٥) مريم: الآية (٤٥).
(٦) النبأ: الآية (٣٧).
(٧) الرحمن: الآيتان (١و٢).
(٨) الأحزاب: الآية (٤٣).
(٩) التوبة: الآية (١١٧).
(١٠) السجدة: الآية (٦).

يرحم بالفعل، وأيضًا فلا يخلو إنكارهم لهذا الاسم، إما أن تكون دلالته على حقيقة الرحمة أو لا، فإن كان الأول فمن أنكر أن يكون حقيقة فقد وافقهم، وإن لم يكن كذلك فمن المعلوم أن موضوع الاسم وحقيقته صفة الرحمة القائمة بموصوفها، فلو كانت حقيقة الاسم منتفية في نفس الأمر لكان طعنهم أقوى، وكان ذلك بمنزلة وصفه بالأكل والشرب والنوم والجور ونحوها مما يليق به. وبالجملة؛ فالذي أنكر أن يكون اللَّه رحمانًا على الحقيقة هو (جهم بن صفوان) وشيعته. قال اللَّه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾[1].

ومن أعظم الإلحاد في أسمائه إنكار حقائقها ومعانيها، والتصريح بأنها مجازات، وهو أنواع هذا أحدها.

الثاني: جحدها وإنكارها بالكلية. **الثالث**: تشبيهه فيها بصفات المخلوقين ومعاني أسمائه، وأن الثابت له منها مماثل للثابت لخلقه، وهذا يذكره المتكلمون في كتبهم ويجعلونها مقالة لبعض الناس، وهذه كتب المقالات بين أظهرنا لا نعلم ذلك مقالة لطائفة من الطوائف ألبتة، وإنما المعطلة الجهمية يسمون كل من أثبت صفات الكمال لله تعالى مشبهًا وممثلًا، ويجعلون التشبيه لازم قولهم، ويجعلون لازم المذهب مذهبًا، ويسرعون في الرد عليهم وتكفيرهم...

الوجه الثاني: إن الإلحاد إما أن يكون بإنكار لفظ الاسم أو بإنكار معناه، فإن كان إنكار لفظه إلحادا؛ فمن ادعى أن (الرحمن) مجاز لا حقيقة؛ فإنه يجوز إطلاق القول بنفيها، فلا يستنكف أن يقول: ليس بالرحمن ولا الرحيم، كما يصح أن يقال للرجل الشجاع: ليس بأسد على الحقيقة، وإن قالوا: نتأدب في إطلاق هذا النفي، فالأدب لا يمنع صحة الإطلاق، وإن كان الإلحاد هو إنكار معاني أسمائه وحقائقها؛ فقد أنكرتم معانيها التي تدل عليها بإطلاقها، وما صرفتموه إليه من المجاز فنقيض معناها أو لازم من لوازم معناها، وليس هو الحقيقة، ولهذا يصرح غلاتهم بإنكار معانيها بالكلية، ويقولون: هي ألفاظ لا معاني لها.

الوجه الثالث: إن هذا الحامل لكم على دعوى المجاز في اسم (الرحمن) هو

---

(١) الأعراف: الآية (١٨٠).

بعينه موجود في اسم (العليم)، و(القدير)، و(السميع)، و(البصير)، وسائر الأسماء، فإن المعقول من العلم صفة عرضية تقوم بالقلب، إما ضرورية وإما نظرية، والمعقول من الإرادة حركة النفس الناطقة لجلب ما ينفعها ودفع ما يضرها، أو ينفع غيرها أو يضره، والمعقول من القدرة القوة القائمة بجسم تتأتى به الأفعال الاختيارية، فهل تجعلون إطلاق هذه الأسماء والصفات على اللَّه حقيقة أم مجازًا؟ فإن قلتم: حقيقة، تناقضتم أقبح التناقض إذ عمدتم إلى صفاته سبحانه فجعلتم بعضها حقيقة وبعضها مجازًا، مع وجود المحذور فيما جعلتموه حقيقة، وإن قلتم: لا يستلزم ذلك محذورًا، فمن أين استلزم اسم (الرحمن) المحذور، وإن قلتم: الكل مجاز؛ لم تتمكنوا بعد ذلك من إثبات حقيقة اللَّه ألبتة، لا في أسمائه ولا في الإخبار عنه بأفعاله وصفاته، وهذا انسلاخ من العقل والإنسانية.

الوجه الرابع: أن نفاة الصفات يلزمهم نفي الأسماء من جهة أخرى، فإن (العليم) و(القدير) و(السميع) و(البصير) أسماء تتضمن ثبوت الصفات في اللغة فيمن وصف بها، فاستعمالها لغير من وصف بها استعمال للاسم في غير ما وضع له، فكما انتفت عنه حقائقها فإنه تنتفي عنه أسماؤها، فإن الاسم المشتق تابع للمشتق منه في النفي والإثبات، فإذا انتفت حقيقة الرحمة والعلم والقدرة والسمع والبصر، انتفت الأسماء المشتقة منها عقلًا ولغة، فيلزم من نفي الحقيقة أن تنفي الصفات والاسم جميعًا. . .

الوجه الخامس: إنه كيف يكون أظهر الأسماء التي افتتح اللَّه بها كتابه في أم القرآن وهي من أظهر شعار التوحيد، والكلمة الجارية على ألسنة أهل الإسلام وهي: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ التي هي مفتاح الطهور والصلاة وجميع الأفعال، كيف يكون مجازًا؟ هذا من أشنع الأقوال، فهذان الاسمان اللذان افتتح اللَّه بهما أم القرآن، وجعلهما عنوان ما أنزله من الهدي والبيان، وضمنهما الكلمة التي لا يثبت لها شيطان، وافتتح بها كتابه نبي اللَّه سليمان، وكان جبرائيل ينزل بها على النبي ﷺ عند افتتاح كل سورة من القرآن»[1].

(١) مختصر الصواعق المرسلة (ص: ٣٤١-٣٥١).

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب أسمائكم إلى الله عبدالله وعبدالرحمن»(١).

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «إنما كانت هذه الأسماء أحب إلى الله تعالى؛ لأنها تضمنت ما هو وصف واجب للحق تعالى؛ وهو: الإلهية، والرحمانية، وما هو وصف الإنسان وواجب له، وهو: العبودية والافتقار، ثم قد أضيف العبد الفقير للإله الغني إضافة حقيقية. فصدقت أفراد هذه الأسماء الأصلية، وشرفت بهذه الإضافة التركيبية، فحصلت لهما هذه الأفضلية الأحبية. ويلحق بهذين الاسمين كل ما كان مثلهما، مثل: عبدالملك، وعبدالصمد، وعبدالغني»(٢).

قال الحافظ ابن حجر: «وقال غيره: الحكمة في الاقتصار على الاسمين أنه لم يقع في القرآن إضافة عبد إلى اسم من أسماء الله تعالى غيرهما، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾(٣) وقال في آية أخرى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾(٤) ويؤيده قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾(٥)»(٦).

* عن علي رضي الله عنه قال: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟»(٧).

★ **فوائد الحديث:**

قال الشيخ العثيمين: «مناسبته ظاهرة؛ لأن بعض الصفات لا تحتملها أفهام العامة، فيمكن إذا حدثتهم بها كان لذلك أثر سيئ عليهم؛ كحديث النزول إلى السماء الدنيا مع ثبوت العلو، فلو حدثت العامي بأنه نفسه ينزل إلى السماء الدنيا مع علوه على عرشه، فقد يفهم أنه إذا نزل؛ صارت السماوات فوقه، وصار العرش

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤)، ومسلم (٣/ ١٦٨٢/ ٢١٣٢)، وأبو داود (٥/ ٢٣٦/ ٤٩٤٩)، والترمذي (٥/ ١٢١/ ٢٨٣٣)، وابن ماجه (٢/ ١٢٢٩/ ٣٧٢٨).

(٢) المفهم (٥/ ٤٥٣).

(٣) الجن: الآية (١٩).

(٤) الفرقان: الآية (٦٣).

(٥) الإسراء: الآية (١١٠).

(٦) فتح الباري (١٠/ ٦٩٧).

(٧) رواه البخاري (١/ ٣٠٠/ ١٢٧).

خاليًا منه، وحينئذ لابد في هذا من حديث تبلغه عقولهم فتبيّن لهم أن اللَّه ﷻ ينزل نزولًا لا يماثل نزول المخلوقين مع علوه على عرشه، وأنه لكمال فضله ورحمته يقول: «**من يدعوني فأستجيب له**...»[(١)] الحديث»[(٢)].

قال الحافظ ابن حجر: «وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة. ومثله قول ابن مسعود: «ما أنت محدثٌ قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[(٣)] رواه مسلم. وممن كره التحديث ببعض دون بعض أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان، ومالك في أحاديث الصفات، وأبو يوسف في الغرائب، ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه في الجرابين وأن المراد ما يقع من الفتن، ونحوه عن حذيفة وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرنيين لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمده من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي، وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة وظاهره في الأصل غير مراد، فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب. واللَّه أعلم»[(٤)].

قلت: ما ورد عن مالك في كراهة التحدث بأحاديث الصفات؛ المقصود منه سؤال التعنت أو السؤال عن الكيفية، وإلا فمالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ ألف (الموطأ) للرد على الجهمية كما قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال سليمان بن عبداللَّه آل الشيخ: «وفي الأثر دليل على أنه إذا خشي ضرر من تحديث الناس ببعض ما لا يعرفون؛ فلا ينبغي تحديثهم به، وليس ذلك على إطلاق، وإن كثيرًا من الدين والسنن يجهله الناس، فإذا حدثوا به كذبوا بذلك وأعظموه، فلا يترك العالم تحديثهم، بل يعلمهم برفق ويدعوهم بالتي هي أحسن»[(٥)].

* عن طاووس قال: سمعت رجلًا يحدث ابن عباس بحديث أبي هريرة هذا[(٦)]،

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٨٧)، والبخاري (٣٣٦/ ١١٤٥)، ومسلم (١/ ٥٢١/ ٧٥٨)، وأبو داود (٢/ ٧٦-٧٧/ ١٣١٥)، والترمذي (٢/ ٣٠٧-٣٠٨/ ٤٤٦)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٢٠/ ٧٧٦٨)، وابن ماجه (١/ ٤٣٥/ ١٣٦٦)، من حديث أبي هريرة.

(٢) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ العثيمين (١٠/ ٧٧٥-٧٧٦).

(٣) أخرجه مسلم في المقدمة (١/ ١١).

(٤) فتح الباري (١/ ٣٠٠).

(٥) تيسير العزيز الحميد (ص: ٥٩٢-٥٩٣).

(٦) أي: حديث «تحاجت الجنة والنار فأما النار فإنهم يلقون فيها (وتقول: هل من مزيد؟) فلا تمتلئ حتى يضع=

فقام رجل فانتفض، فقال ابن عباس: «ما فرق هؤلاء يجدون رِقَّةً عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه»[1].

★ **فوائد الحديث:**

قال سليمان بن عبدالله آل الشيخ: «قوله: «ما فرق هؤلاء؟» يحتمل وجهين:

أحدهما: أن تكون (ما) استفهامية إنكارية. و«فَرَق» بفتح الفاء والراء، وهو الخوف والفزع؛ أي: ما فزع هذا وأضرابه من أحاديث الصفات واستنكارهم لها؟ والمراد الإنكار عليهم، فإن الواجب على العبد التسليم والإذعان والإيمان بما صح عن اللَّه وعن رسوله ﷺ وإن لم يحط به علمًا. ولهذا قال الشافعي: آمنت باللَّه، وبما جاء عن اللَّه على مراد اللَّه، وآمنت برسول اللَّه، وما جاء عن رسول اللَّه على مراد رسول اللَّه.

والثاني: أن يكون بفتح الفاء وتشديد الراء، ويجوز تخفيفها.

و(ما) نافية؛ أي: ما فرَّق هذا وأضرابه بين الحق والباطل، ولا عرفوا ذلك، فلهذا قال: يجدون رقة، وهي ضد القسوة؛ أي: لينًا وقبولًا للمحكم، ويهلكون عند متشابهه؛ أي: ما يشتبه عليهم فهمه، لأن آيات الصفات هي المتشابه كما تقوله الجهمية ونحوهم، ولأن في القرآن متشابهًا لا يعرف معناه كالألفاظ الأعجمية، فإن لفظ التشابه والمتشابه يدلان على بطلان ذلك، وإنما المراد بالمتشابه أي: ما يشتبه فهمه على بعض الناس دون بعض، فالمتشابه أمر نسبي إضافي، فقد يكون مشتبهًا بالنسبة إلى قوم بينًا جليًا بالنسبة إلى آخرين»[2].

* * *

= رجله -أو قال: قدمه- فيها...» الحديث. أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٤) والبخاري (٨/ ٧٦٥/ ٤٨٥٠) ومسلم (٤/ ٢١٨٦/ ١٨٤٦) والترمذي (٤/ ٥٩٨-٥٩٩/ ٢٥٦١) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٦٨/ ١١٥٢٢).

(١) رواه عبدالرزاق (١١/ ٤٢٣/ ٢٠٨٩٥)، وابن أبي عاصم (١/ ٢١٢/ ٤٨٥)، وقال الألباني: «إسناده صحيح».

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص: ٥٩٤-٥٩٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾[1]

★ غريب الآية:

سيرت: السير: المضي في الأرض. يقال: سرت بفلان وسَيَّرْتُهُ على التكثير.

قطعت: التقطيع تفصيل المتصل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مادحا للقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ، ومفضلا له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق أو تكلم به الموتى في قبورها؛ لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك؛ لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به، جاحدون له، ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي: مرجع الأمور كلها إلى الله ﷻ، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن يضلل فلا هادي له، ومن يهد الله فلا مضل له. وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة؛ لأنه مشتق من الجمع»[2].

وقال أبو حيان: «ولما ذكر تعالى علة إرساله، وهي تلاوة ما أوحاه إليه، ذكر تعظيم هذا الموحى وأنه لو كان قرآنًا تسير به الجبال عن مقارها، أو تقطع به الأرض حتى تتزايل قطعًا قطعًا، أو تكلم به الموتى فتسمع وتجيب؛ لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير، ونهاية في الإنذار والتخويف. كما قال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ

(١) الرعد: الآية (٣١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٩٤).

جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، فجواب لو محذوف وهو ما قدرناه، وحذف جواب لو لدلالة المعنى عليه جائز نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾[2] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾[3] وقال الشاعر:

وَجَـدِّكَ لـو شـيء أتـانـا رَسُـولُـه سواك ولكن لم نَجِدْ عَنْكَ مَدْفَعًا

وقيل: تقديره لما آمنوا به كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾[4] قال الزجاج. وقال الفراء: هو متعلق بما قبله، والمعنى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾. ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ وما بينهما اعتراض، وعلى قول الفراء: يترتب جواب لو أن يكون لما آمنوا، لأنّ قولهم وهم يكفرون بالرحمن ليس جوابًا، وإنما هو دليل على الجواب. وقيل: معنى قطعت به الأرض شققت فجعلت أنهارًا وعيونًا. ويترتب على أن يكون الجواب المحذوف لما آمنوا قوله: بل لله الأمر جميعًا أي: الإيمان والكفر، إنما يخلقهما اللَّه تعالى ويريدهما. وأما على تقدير لكان هذا القرآن، فيحتاج إلى ضميمة وهو أن يقدر: لكان هذا القرآن الذي أوحينا إليك المطلوب فيه إيمانهم وما تضمنه من التكاليف، ثم قال: بل لله الأمر جميعًا أي: الإيمان والكفر بيد اللَّه يخلقهما فيمن يشاء»[5].

وقال البقاعي: «ولما فرغ من الجواب عن الكفر بالموحى، عطف على «هو ربي» الجواب عن الكفر بالوحي فقال: ﴿وَلَوْ﴾ إشارة إلى أنه يعتقد في القرآن ما هو أهله بعد ما أخبر عن اعتقاده في الرحمن؛ أي: وقل: لو ﴿أَنَّ قُرْءَانًا﴾ كانت به الآيات المحسوسات بأن ﴿سُيِّرَتْ﴾ أي: بأدنى إشارة من مشير ما ﴿بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: فأذهبت على ثقلها وصلابتها عن وجه الأرض ﴿أَوْ قُطِّعَتْ﴾ أي: كذلك ﴿بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: على كثافتها فشققت فتفجرت منها الأنهار ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فسمعت وأجابت لكان هذا القرآن، لأنه آية لا مثل لها، فكيف يطلبون آية غيره! أو

---

(١) الحشر: الآية (٢١).
(٢) البقرة: الآية (١٦٥).
(٣) الأنعام: الآية (٢٧).
(٤) الأنعام: الآية (١١١).
(٥) البحر المحيط (٥/ ٣٨١-٣٨٢).

يقال: إن التقدير: لو كان شيء من ذلك بقرآن غيره لكان به -إقرارًا لأعينكم- إجابة إلى ما تريدون، لكنه لم تجر عادة لقرآن قبله بأن يكون به ذلك، فلم يكن بهذا القرآن، لأن اللَّه لم يرد ذلك لحكمة علمها، وليس لأحد غير اللَّه أمر في خرق شيء من العادات، لا لولي ولا لنبي ولا غيرهما حتى يفعل لأجلكم بشفاعة أو بغيرها شيئًا لم يرده اللَّه في الأزل ﴿بَل﴾ ويجوز أن يكون التقدير: لو وجد شيء من هذا بقرآن يومًا ما لكان بهذا القرآن، فكان حينئذ يصير كل من حفظ منه شيئًا فعل ما شاء من ذلك، فسير له ما شاء من الجبال إلى ما أراد من الأراضي لما رام من الأغراض، وقطع به ما طلب من الأرض أنهارًا وجنانًا وغيرها، وكلم به من اشتهى من الموتى، ثم إذا فتح هذا الباب فلا فرق بين القدرة على هذا والقدرة على غيره، فيصير من حفظ منه شيئًا قادرًا على شيء، فبطلت حينئذ حكمة اختصاص اللَّه سبحانه بذلك من أراد من خلص عباده، وأدى ذلك إلى أن يدعي من أراد من الفجرة أن أمر ذلك بيده، يفعل فيه ما يشاء متى شاء، فيصير ادعاؤه مقرونًا بالفعل شبهة في الشرك، وليعلم قطعًا أنه ليس في يد أحد أمر، بل ﴿لِلَّهِ﴾ أي: الذي له صفات الكمال وحده ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ وهو ما يصح أن يؤمر فيه وينهى ﴿جَمِيعًا﴾ في ذلك وغيره، لا لي ولا لأحد من الأنبياء الذين قلتم إني لست أدنى منزلة منهم، وأما الخوارق التي كانت لهم فلولا أن شاءها لما كانت، فالأمر إليه وحده، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن»[1].

وقال المراغي: «خلاصة ذلك: لو أن ظهور أمثال ما اقترحوه مما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة، لكان مظهر ذلك هو القرآن الذي لم يعدوه آية واقترحوا غيره.

ولا يخفى ما في هذا من تعظيم شأنه الكريم، ووصفهم بسخف العقل، وسوء التدبير والرأي، وبيان أن تلك المقترحات لا ينبغي أن يؤبه لها، ولا يلتفت إليها، لأنها صادرة عن التشهي والهوى، والتمادي في الضلال، والمكابرة والعناد، لا عن تقدير للأمور على وجهها الصحيح، وتأمل في حقائقها، وما يجب أن يكون لها من الاعتبار.

---

(١) نظم الدرر (١٠/ ٣٤٠-٣٤٢).

ويجوز أن يكون المعنى: لو أن كتابا فعلت بوساطته هذه الأفاعيل العجيبة لما آمنوا به لفرط عنادهم وغلوهم في مكابرتهم، وهذا بمعنى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي: بل مرجع الأمور كلها بيد اللَّه، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ومن يضلل فلا هادي له، ومن يهد فما له من مضل.

وخلاصة ذلك: إن اللَّه قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات، لكن الإرادة لم تتعلق بذلك، لعلمه أن قلوبهم لا تلين، ولا يجدي هذا فائدة في إيمانهم»[١].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن القرآن من أعظم الآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ

* **عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى اللَّه إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[٢].**

تقدم الكلام على هذا الحديث مستوفىً عند قوله تعالى من سورة (يونس): ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[٣].

* * *

(١) تفسير المراغي (١٣/ ١٠٥).
(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٥١)، والبخاري (١٣/ ٣٠٨/ ٧٢٧٤)، ومسلم (١/ ١٣٤/ ١٥٢)، واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣/ ٧٩٧٧).
(٣) يونس: الآية (٣٧).

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ييأس: اليأس: القنوط في الشيء، وقيل: هو هنا بمعنى العلم واليقين.

قارعة: أصل القرع الضرب، يقال: قرعه الأمر إذا أصابه، والقارعة: الداهية، والجمع قوارع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقال غير واحد من السلف في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أفلم يعلم الذين آمنوا. وقرأ آخرون: «أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء اللَّه لهدى الناس جميعا». وقال أبو العالية: قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا، ولو يشاء اللَّه لهدى الناس جميعا.

وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أي: بسبب تكذيبهم، لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا، أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1] وقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾[2].

قال قتادة عن الحسن: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أي: القارعة. وهذا هو الظاهر من السياق»[3].

(١) الأحقاف: الآية (٢٧).
(٢) الأنبياء: الآية (٤٤).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٩٥).

وقال أبو السعود: «﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: أفلم يعلموا على لغة هوازنَ أو قومٍ من النَّخْع أو على استعمال اليأس في معنى العِلم لتضمّنه له، ويؤيده قراءة علي وابن عباس وجماعةٍ من الصحابة والتابعين ﷺ: أفلم يتبينْ بطريق التفسير. والفاءُ للعطف على مقدر أي: أغفَلوا عن كون الأمرِ جميعًا لله تعالى فلم يعلموا ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ على حذف ضميرِ الشأنِ وتخفيفِ أن ﴿لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ﴾ بإظهار أمثالِ تلك الآثارِ العظيمة، فالإنكارُ متوجهٌ إلى المعطوفين جميعًا، أو أعلموا كونَ الأمر جميعًا لله فلم يعلموا ما يوجبه ذلك العلمُ مما ذكر فهو متوجِّهٌ إلى ترتب المعطوفِ على المعطوف عليه؛ أي: تخلف العلم الثاني عن العلم الأول، وعلى التقديرين: فالإنكارُ إنكارُ الوقوعِ كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ﴾[١] لا إنكار الواقع كما في قولك: ألم تخفِ اللَّه حتى عصيتَه، ثم إن مناطَ الإنكار ليس عدمَ علمهم بمضمون الشرطية فقط؛ بل مع عدم علمِهم بعدم تحققِ مقدَّمها، كأنه قيل: ألم يعلموا أن اللَّه تعالى لو شاء هدايتَهم لهداهم، وأنه لم يشأها، وذلك لأنهم كانوا يؤيدون أن يظهر ما اقترحوا من الآيات ليجتمعوا على الإيمان، وعلى الثاني: لو أن قرآنًا فُعل به ما فُصِّل من التعاجيب لما آمنوا به كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ فالإضرابُ حينئذٍ متوجّهٌ إلى ما سلف من اقتراحهم مع كونهم في العناد على ما شُرح؛ أي: فليس لهم ذلك؛ بل لله الأمر جميعًا، إن شاء اللَّه أتى بما اقترحوا، وإن شاء لم يأت به، حسبما تستدعيه داعيةُ الحكمةِ، من غير أن يكون لأحد عليه تحكّم أو اقتراحٌ، واليأسُ بمعنى القنوط؛ أي: ألم يعلم الذين آمنوا حالَهم هذه فلم يقنَطوا من إيمانهم حتى أحبّوا ظهورَ مقترحاتِهم؟ فالإنكارُ متوجهٌ إلى المعطوفين، أو أعلموا ذلك فلم يقنَطوا من إيمانهم؟ فهو متوجهٌ إلى وقوع المعطوفِ بعد المعطوفِ عليه؛ أي: إلى تخلف القنوط عن العلم المذكور، والإنكارُ على التقديرين إنكارُ الواقع كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[٢] ونظائره، لا إنكارُ الوقوع، فإن عدم قنوطِهم منه مما لا مردّ له»[٣].

---

(١) طه: الآية (٨٦). (٢) الأعراف: الآية (٦٥).

(٣) تفسير أبي السعود (٥/ ٢٢-٢٣).

وقال الألوسي: «قال القاضي: وهذه الآية تدل على بطلان من يجوز الخلف على اللَّه تعالى في ميعاده، وهي وإن كانت واردة في حق الكفار إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وعمومه يتناول كل وعيد ورد في حق الفساق، وأجاب الإمام بأن الخلف غير وتخصيص العموم غير، ونحن لا نقول بالخلف، ولكنا نخصص عمومات الوعيد بالآيات الدالة على العفو، وأنت تعلم أن المشهور في الجواب أن آيات الوعد مطلقة، وآيات الوعيد وإن وردت مطلقة لكنها مقيدة حذف قيدها لمزيد التخويف، ومنشأ الأمرين عظم الرحمة وغاية الكرم، والفرق بين الوعد والوعيد أظهر من أن يذكر. نعم قد يطلق الوعد على ما هو وعيد في نفس الأمر لنكتة، وليتأمل فيما هنا على الوجه الذي تقرر»[١].

* * *

(١) روح المعاني (١٣/١٥٨-١٥٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٣٢﴾

★ **غريب الآية:**

الاستهزاء: المبالغة في الهزء.

فأمليت: الإملاء: الإمهال والترك مدة على جهة الاستدراج.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: يا محمد إن يستهزئ هؤلاء المشركون من قومك ويطلبوا منك الآيات تكذيبًا منهم ما جئتهم به، فاصبر على أذاهم لك، وامض لأمر ربك في إنذارهم، والإعذار إليهم، فلقد استهزأت أممٌ من قبلك قد خلَت فمضتْ بُرسلِي، فأطلتُ لهم في المَهَل، ومددت لهم في الأجَل، ثم أحللتُ بهم عذابي ونقمتي حين تمادَوْا في غيِّهم وضَلالهم، فانظر كيف كان عقابي إياهم حين عاقبتهم، ألم أذقهم أليم العذاب، وأجعلهم عبرةً لأولي الألباب؟»[1].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى مسليا لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: فلك فيهم أسوة، ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: أنظرتهم وأجلتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أخذةً رابية، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم وأمليت لهم؟ كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[2] وفي الصحيحين: «**إن اللَّه ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»[3]، ثم قرأ رسول اللَّه ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[4]»[5].

(١) جامع البيان (١٦/ ٤٦٠-٤٦١).
(٢) الحج: الآية (٤٨).
(٣) سيأتي تخريجه في هذا الباب.
(٤) هود: الآية (١٠٢).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٩٦).

وقال ابن عاشور: «﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[(١)] عطف على جملة: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾[(٢)] الخ، لأن تلك المُثُل الثلاثة التي فرضت؛ أريد بها أمور سألها المشركون النبي ﷺ استهزاءً وتعجيزًا لا لترقب حصولها..

وجاءت عقب الجملتين لما فيها من المناسبة لهما من جهة المُثل التي في الأول، ومن جهة الغاية التي في الثانية.

وقد استهزأ قوم نوح به عليه السلام ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾[(٣)]، واستهزأت عاد بهود عليه السلام ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[(٤)]، واستهزأت ثمود بصالح عليه السلام ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾[(٥)]، واستهزأوا بشعيب عليه السلام ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[(٦)]، واستهزأ فرعون بموسى عليه السلام ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[(٧)]»[(٨)].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان عقوبة الظلم ومآل صاحبه

* عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته قال: ثم قرأ:** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[(٩)]»[(١٠)].

★ فوائد الحديث:

انظر ما تقدم في سورة (هود) عند قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾.

---

(١) الرعد: الآية (٣٢).
(٢) الرعد: الآية (٣١).
(٣) هود: الآية (٣٨).
(٤) الشعراء: الآية (١٨٧).
(٥) الأعراف: الآية (٦٦).
(٦) هود: الآية (٨٧).
(٧) الزخرف: الآية (٥٢).
(٨) التحرير والتنوير (١٣/ ١٤٧-١٤٨).
(٩) هود: الآية (١٠٢).
(١٠) أخرجه: البخاري (٨/ ٤٥١/ ٤٦٨٦)، ومسلم (٤/ ١٩٩٧-١٩٩٨/ ٢٥٨٣)، والترمذي (٥/ ٢٦٩/ ٣١١٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٥/ ١١٢٤٥)، وابن ماجه (٢/ ١٣٣٢/ ٤٠١٨).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «أفالرب الذي هو دائمٌ لا يَبيد ولا يهلك، قائم بحفظ أرزاق جميع الخلق، متضمن لها، عالم بهم وبما يكسبونه من الأعمال، رقيبٌ عليهم، لا يَعْزُب عنه شيء أينما كانوا، كَمن هو هالك بائِدٌ لا يسمع ولا يُبصر ولا يفهم شيئًا، ولا يدفع عن نفسه ولا عمَّن يعبده ضرا، ولا يَجْلب إليهما نفعا كلاهما سَواء؟ وحذف الجواب في ذلك فلم يقُل، وقد قيل: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ككذا وكذا، اكتفاءً بعلم السامع بما ذكر عما ترك ذِكْره. وذلك أنه لما قال -جل ثناؤه-: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾، علم أن معنى الكلام: كشركائهم التي اتخذوها آلهةً»[1].

وقال: «﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾، يقول -تعالى ذكره-: أنا القائم بأرزاق هؤلاء المشركين، والمدبِّرُ أمورهم، والحافظُ عليهم أعمالَهُمْ، وجعلوا لي شركاء من خلقي يعبدُونها دوني، قل لهم يا محمد: سمّوا هؤلاء الذين أشركتموهم في عبادة اللَّه، فإنهم إن قالوا: آلهة فقد كذبوا، لأنه لا إله إلا الواحد القهار لا شريك له، ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، يقول: أتخبرونه بأن في الأرض إلهًا، ولا إله غيرُه في الأرض ولا في السماء؟»[2].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر،

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٤٦٢) شاكر،

(٢) جامع البيان (١٦/ ٤٦٥) شاكر.

ولا يخفى عليه خافية، ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾(٢) وقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾(٣) وقال: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾(٤) وقال: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾(٥) وقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٦) أفمن هو هكذا كالأصنام التي يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، ولا تملك نفعًا لأنفسها ولا لعابديها، ولا كشف ضر عنها ولا عن عابديها؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه، وهو قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي: عبدوها معه، من أصنام وأنداد وأوثان.

﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: أعلمونا بهم، واكشفوا عنهم حتى يُعرفوا، فإنهم لا حقيقة لهم؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا وجود له؛ لأنه لو كان له وجود في الأرض لعلمها؛ لأنه لا تخفى عليه خافية.

﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ قال مجاهد: بظن من القول. وقال الضحاك وقتادة: بباطل من القول.

أي: إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر، وسميتموها آلهة، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾(٧).

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾ قال مجاهد: قولهم؛ أي: ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾(٨).

﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: من قرأها بفتح الصاد، معناه: أنهم لما زين لهم ما فيه وأنه حق، دَعَوا إليه وصَدّوا الناس عن اتباع طريق الرسل. ومن قرأها بالضم أي:

---

(١) يونس: الآية (٦١).
(٢) الأنعام: الآية (٥٩).
(٣) هود: الآية (٦).
(٤) الرعد: الآية (١٠).
(٥) طه: الآية (٧).
(٦) الحديد: الآية (٤).
(٧) النجم: الآية (٢٣).
(٨) فصلت: الآية (٢٥).

بما زين لهم من صحة ما هم عليه، صدوا به عن سبيل الله؛ ولهذا قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ كَمَا قَالَ: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾[١] وقال: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾[٢]»[٣].

* * *

(١) المائدة: الآية (٤١).

(٢) النحل: الآية (٣٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٩٦-٩٧).

قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾

★ غريب الآية:

واق: اسم فاعل من الوقاية التي هي دفع الأذى والمكروه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار: فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بأيدي المؤمنين قتلا وأسرا، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ أي: المدّخر مع هذا الخزي في الدنيا، ﴿أَشَقُّ﴾ أي: من هذا بكثير»(١).

أو المراد بعذاب الدنيا ما هم فيه من عذاب الحيرة والضلة؛ فإن نفس غير المؤمنين في نكد مستمر وداء دوي لا برء له إلا الإيمان؛ كما قال القاسمي.

وقال أبو حيان: «وكان عذاب الآخرة أشق على النفوس، لأنه إحراق بالنار دائمًا ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾(٢) ومن واق: من ساتر يحفظهم من العذاب ويحميهم»(٣).

وقال الخطيب: «هذا هو جزاء المكذبين الضالين، الذين حادوا اللّه ورسوله .. ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما ينالهم على يد المؤمنين من هزيمة، وبما تغلي به قلوبهم أبدًا من حسرة وكمد.. فالكافر همه كله في هذه الدنيا، وحياته كلها محصورة في الأيام المعدودة التي يعيشها فيها.. فهو من أجل هذا، حريص أشد الحرص على كل ما في دنياه هذه، فإذا فاته شيء منها -وما أكثر ما يفوته- استبد به

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٩٧).
(٢) النساء: الآية (٥٦).
(٣) البحر المحيط (٥/ ٣٨٦).

الجزاء، واستولى عليه اليأس، وملكه الحزن.. وإن أصيب بموت قريب أو حبيب -وما أكثر ما يصاب- لم يجد شيئًا من ذلك العزاء، الذي يجده المؤمنون الذين يفوضون أمرهم لله، ويسلمون مصيرهم إليه، ويرجون العاقبة عنده، ويحتسبون الصبر لديه..! وكذا الكافر في قلق دائم، وجزع متصل، إذ لا حياة له وراء هذه الحياة، حسب تقديره وتفكيره.. فحيث ما التفت، وجد العدم باسطًا يديه لاحتوائه، والفناء فاغرًا فاه لابتلاعه..!»[1].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة ان عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة

* عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة...»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن كثير: «وهو كما قال، صلوات الله وسلامه عليه، فإن عذاب الدنيا له انقضاء، وذاك دائم أبدًا في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفا، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾[3] وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾[4]»[5].

* * *

(١) التفسير القرآني (٧/ ١٣٢-١٣٣).

(٢) رواه: أحمد (٢/ ١٩)، ومسلم (٢/ ١١٣٠-١١٣١/ ١٤٩٣)، والترمذي (٣/ ٥٠٦-٥٠٧/ ١٢٠٢) والنسائي (٦/ ٤٨٦-٤٨٧/ ٣٤٧٣).

(٣) الفجر: الآيتان (٢٥و٢٦).

(٤) الفرقان: الآيات (١١-١٥).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٩٨).

قوله تعالى: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: صفتها ونعتها؛ أي: سارحة في أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها، يفجرونها تفجيرًا؛ أي: يصرفونها كيف شاؤوا وأين شاؤوا، كقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ﴾[(١)]. وقوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ﴾ أي: فيها الفواكه والمطاعم والمشارب، لا انقطاع لها ولا فناء»[(٢)].

وقال ابن عاشور: «والإشارة إلى الجنة بصفاتها بحيث صارت كالمشاهدة، والمعنى: تلك هي التي سمعتم أنها عقبى الدار للذين يوفون بعهد الله إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[(٣)] هي الجنة التي وعد المتّقون. وقد علم أن الذين اتقوا هم المؤمنون الصالحون كما تقدم. وأول مراتب التقوى الإيمان. وجملة وعقبى الكافرين النار مستأنفة للمناسبة بالمضادة. وهي كالبيان لِجملة ولهم سوء الدار»[(٤)].

وقال السعدي: «يقول تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الذين تركوا ما نهاهم الله عنه، ولم يقصروا فيما أمرهم به؛ أي: صفتها وحقيقتها ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا

(١) محمد: الآية (١٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٩٨).

(٣) الرعد: الآيات (٢٢-٢٤).

(٤) التحرير والتنوير (١٣/ ١٥٦).

﴿ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أنهار العسل، وأنهار الخمر، وأنهار اللبن، وأنهار الماء التي تجري في غير أخدود، فتسقي تلك البساتين والأشجار فتحمل جميع أنواع الثمار.

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ دائم أيضًا، ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ أي: مآلهم وعاقبتهم التي إليها يصيرون، ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ فكم بين الفريقين من الفرق المبين؟!!»[1].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الجنة وأهلها وأنها مخلوقة

* عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال في حديث انخساف الشمس وفيه: «ثم انصرف وقد تجلت الشمس فقال ﷺ: **إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله**، قالوا: يا رسول الله! رأيناك تناولت شيئًا في مقامك، ثم رأيناك كعكعت. قال ﷺ: **إني رأيت الجنة فتناولت عنقودًا، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، وأُريت النار فلم أر منظرًا كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء**، قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: **بكفرهن**. قيل: كيف يكفرن بالله؟ قال: **يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئًا قالت: ما رأيت منك خيرًا قط**»[2].

★ غريب الحديث:

انخسفت -وفي رواية مسلم- **انكسفت**: يقال: كَسَفت الشمس والقمر، بفتح الكاف، وكُسِفا، بضمها، وانكسفا، وخَسَفا، وخُسِفا، وانخسفا، بمعنى. وقيل: كسف الشمس، بالكاف، وخسف القمر، بالخاء. ثم جمهور أهل العلم وغيرهم على أن الخسوف والكسوف يكون لذهاب ضوئهما كله، ويكون لذهاب بعضه. وقال جماعة منهم الليث بن سعد: الخسوف في الجميع، والكسوف في بعض. وقيل: الخسوف ذهاب لونهما والكسوف تغيره.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١١٤).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩٨)، والبخاري (٢/ ٦٨٦/ ١٠٥٢) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٦٢٦/ ٩٠٧)، وأبو داود (١/ ٧٠٢/ ١١٨٩)، والنسائي (٣/ ١٦٢-١٦٤/ ١٤٩٢).

كعكعت: في رواية الكشميهني: «تكعكعت»، بزيادة تاء في أوله، ومعناه: تأخرت، يقال: كع الرجل: إذا نكص على عقبيه. ووقع في رواية مسلم: «ثم رأيناك كففت» بفاءين خفيفتين.

يكفرن العشير ويكفرن الإحسان: يكفرن إحسان العشير. والعشير: المعاشر، كالزوج. ويكفرن الإحسان بتغطيته وجحده.

★ فوائد الحديث:

قوله ﷺ: **«فتناولت منها عنقودًا»**، **قال ابن بطال**: «ولم يأخذه ﷺ ولم يأكل منه في الدنيا؛ لأن طعام الجنة باق أبدا لا يفنى، ولا يجوز أن يكون شيء من دار البقاء في دار الفناء»(١).

قال الحافظ: «فيه أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان اليوم»(٢).

وقد تقدم الكلام على هذه المسألة في سورة (هود).

* عن جابر ﷺ قال: «سمعت النبي ﷺ يقول: **إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون**. قالوا: فما بال الطعام؟ قال: **جشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس**»(٣).

★ فوائد الحديث:

وقد سبق الكلام عن هذا الحديث في سورة (يونس) عند تفسير الآيتين (٩و١٠).

* عن ثمامة بن عقبة سمعت زيد بن أرقم قال: «أتى النبي ﷺ رجل من اليهود فقال: يا أبا القاسم ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون؟ وقال لأصحابه: إن أقر لي بهذه خصمته. قال: فقال رسول اللَّه ﷺ: **بلى والذي نفسي**

---

(١) شرح البخاري (٣/ ٤٢).

(٢) الفتح (٢/ ٦٩٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٦٤)، ومسلم (٤/ ٢١٨٠-٢١٨١/ ٢٨٣٥) واللفظ له، وأبو داود مختصرًا (٥/ ١٠٧/ ٤٧٤١).

بيده إن أحدكم ليعطى قوة مائة رجل في المطعم والمشرب والشهوة والجماع. قال: فقال اليهودي: إن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة؟ قال: فقال رسول اللَّه ﷺ: حاجة أحدهم عرق يفيض من جلودهم مثل ريح المسك فإذا البطن قد ضمر»(١).

★ غريب الحديث:

أقر: بالحق: اعترف به.

خصمته: خصم من باب ضرب؛ أي: غلبه في الخصومة.

قد ضَمِرَ: الضُّمْر، بسكون الميم وضمها: الهزال وخفة اللحم.

★ فوائد الحديث:

قال ابن أبي العز: «فأما أبدية الجنة وأنها لا تفنى ولا تبيد؛ فهذا مما يعلم بالضرورة أن الرسول ﷺ أخبر به، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾(٢)؛ أي: غير مقطوع وكذلك قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ وقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾(٣) وقد أكد اللَّه خلود أهل الجنة بالتأبيد في عدة مواضع من القرآن وأخبر أنهم: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾(٤) وهذا الاستثناء منقطع.. فهذه موتة تقدمت على حياتهم الأبدية»(٥).

وقال: «وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان إمام المعطلة، وليس له سلف قط، لا من الصحابة، ولا من التابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، ولا من أهل السنة. وأنكره عليه عامة أهل السنة، وكفروه به، وصاحوا به وبأتباعه من أقطار الأرض. وهذا قاله لأصله الفاسد الذي اعتقده، وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٦٧، ٣٧١) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٥٤/ ١١٤٧٨)، والطبراني (٥/ ١٧٧/ ٥٠٠٤)، وفي الأوسط (٢/ ٤٣١/ ١٧٤٣)، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٣/ ٣٣٩٩٤)، والبزار (كشف الأستار ٤/ ١٩٧/ ٣٥٢٢). وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٤١٦) وقال: «ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح غير ثمامة بن عقبة وهو ثقة».

(٢) هود: الآية (١٠٨).

(٣) الحجر: الآية (٤٨).

(٤) الدخان: الآية (٥٦).

(٥) شرح الطحاوية (ص: ٤٢٥-٤٢٦).

الحوادث! وهو عمدة أهل الكلام المذموم، التي استدلوا بها على حدوث الأجسام، وحدوث ما لم يخل من الحوادث، وجعلوا ذلك عمدتهم في حدوث العالم. فرأى جهم أن ما يمنع من حوادث لا أول لها في الماضي، يمنعه في المستقبل!! فدوام الفعل عنده على الرب في المستقبل ممتنع، كما هو ممتنع عنده عليه في الماضي! وأبو الهذيل العلاّف شيخ المعتزلة، وافقه على هذا الأصل، لكن قال: إن هذا يقتضي فناء الحركات، فقال بفناء حركات أهل الجنة والنار، حتى يصيروا في سكون دائم، لا يقدر أحد منهم على حركة!! وقد تقدم الإشارة إلى اختلاف الناس في تسلسل الحوادث في الماضي والمستقبل، وهي مسألة دوام فاعلية الرب تعالى، وهو لم يزل ربًا قادرًا فعّالًا لما يريد، فإنه لم يزل حيًّا عليمًا قديرًا. ومن المحال أن يكون الفعل ممتنعًا عليه لذاته، ثم ينقلب فيصير ممكنًا لذاته، من غير تجدد شيء، وليس للأول حد محدود حتى يصير الفعل ممكنًا له عند ذلك الحد، ويكون قبله ممتنعًا عليه. فهذا القول تصوره كافٍ في الجزم بفساده»[1].

* * *

(١) شرح الطحاوية (ص: ٤٢٤-٤٢٥).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾

★ غريب الآية:

الأحزاب: جمع حزب، وهي الجماعات المتفرقة من يهود ونصارى، سموا بذلك لكونهم طوائف لا تجمعهم عقيدة واحدة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ﴾ وهم قائمون بمقتضاه ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ﴾[1] الآية، وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾[2] أي: إن كان ما وعدنا الله به في كتبنا من إرسال محمد ﷺ لحقا وصدقا مفعولا لا محالة، وكائنا، فسبحانه ما أصدق وعده، فله الحمد وحده، ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[3].

وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ أي: ومن الطوائف من يكذّب ببعض ما أنزل إليك.

وقال مجاهد: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي: اليهود والنصارى، ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ أي: بعض ما جاءك من الحق. وكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ

---

(١) البقرة: الآية (١٢١).

(٢) الإسراء: الآيتان (١٠٧و١٠٨).

(٣) الإسراء: الآية (١٠٩).

أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾(١) . .

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ أي: إنما بعثت بعبادة اللَّه وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلي، ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ﴾ أي: إلى سبيله أدعو الناس، ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ أي: مرجعي ومصيري»(٢).

وقال ابن عاشور: «والمناسبة هي أن الذين أرسل إليهم بالقرآن انقسموا في التصديق بالقرآن فِرقًا؛ ففريق آمنوا باللَّه وهم المؤمنون، وفريق كفروا به وهم مصداق قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾(٣)، كما تقدم أنه عائد إلى المشركين المفهومين من المقام كما هو مصطلح القرآن.

وهذا فريق آخر أيضًا أهل الكتاب، وهو منقسم أيضًا في تلقي القرآن فرقتين: فالفريق الأول صدّقوا بالقرآن وفرحوا به وهم الذين ذُكروا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾(٤)، وكلهم من النصارى، مثل ورقة بن نوفل، وكذلك غيره ممن بلغهم القرآن أيام مُقام النبي بمكة قبل أن تبلغهم دعوة النبي ﷺ، فإن اليهود كانوا قد سُرُّوا بنزول القرآن مصدّقًا للتوراة، وكانوا يحسبون دعوة النبي ﷺ مقصورة على العرب، فكان اليهود يستظهرون بالقرآن على المشركين، قال تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾(٥). وكان النصارى يستظهرون به على اليهود؛ وفريق لم يثبت لهم الفرحُ بالقرآن وهم معظم اليهود والنصارى البعداء عن مكة، وما كفر الفريقان به إلا حين علموا أن دعوة الإسلام عامة.

وبهذا التفسير تظهر بلاغة التعبير عنهم بـ﴿يَفْرَحُونَ﴾ دون (يؤمنون). وإنما سلكنا هذا الوجه بناءً على أن هذه السورة مكية، كان نزولها قبل أن يُسلم عبد اللَّه بن سلام وسلمان الفارسي وبعض نصارى نجران وبعض نصارى اليمن، فإن كانت السورة مدنية أو كان هذا من المدني فلا إشْكال. فالمراد بالذين آتيناهم الكتاب الذين

---

(١) آل عمران: الآية (١٩٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٠٠).
(٣) الرعد: الآية (٣٠).
(٤) المائدة: الآية (٨٣).
(٥) البقرة: الآية (٨٩).

أوتوه إيتاء كاملًا، وهو المجرد عن العصبية لما كانوا عليه من الحسد، فهو كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾[1].

فالأظهر أن المراد بالأحزاب أحزابُ الذين أوتوا الكتاب، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[2] في سورة مريم؛ أي: ومن أحزابهم من ينكر بعض القرآن، فاللام عوض عن المضاف إليه. ولعل هؤلاء هم خبثاؤهم ودُهاتهم الذين توسموا أن القرآن يبطل شرائعهم فأنكروا بعضه، وهو ما فيه من الإيماء إلى ذلك من إبطال أصول عقائدهم مثل عُبودية عيسى عليه السلام بالنسبة للنصارى، ونبوءته بالنسبة لليهود.

وفي التعبير عنهم بالأحزاب إيماء إلى أن هؤلاء هم المتحزبون المتصلبون لقومهم ولما كانوا عليه. وهكذا كانت حالة اضطراب أهل الكتاب عندما دمغتهم بعثة النبي ﷺ وأخذ أمر الإسلام يفشو»[3].

وقال أبو حيان: «ولما كان ما أنزل إليه يتضمن عبادة الله ونفي الشريك، أمر بجواب المنكرين، فقيل له: قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به، فإنكاركم لبعض القرآن الذي أنزل إنكار لعبادة الله وتوحيده، وأنتم تدعون وجوب العبادة ونفي الشريك ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾ إلى شرعه ودينه، وإليه مرجعي عند البعث يوم القيامة في جميع أحوالي في الدنيا والآخرة»[4].

* * *

---

(١) البقرة: الآية (١٢١).

(٢) مريم: الآية (٣٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ١٥٦-١٥٧).

(٤) البحر المحيط (٥/ ٣٨٧).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكمًا معربًا، شرّفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(١).

وقوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ أي: آراءهم، ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: من اللَّه تعالى ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ أي: من اللَّه تعالى. وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعدما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام»(٢).

وقال ابن عاشور: «و﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ حالان من ضمير ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾. والحكم: هنا بمعنى الحكمة كما في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾(٣). وجُعل نفس الحكم حالًا منه مبالغة. والمراد أنه ذو حكم؛ أي: حكمة. والحكمة تقدمت.

و﴿عَرَبِيًّا﴾ حال ثانية وليس صفة لـ﴿حُكْمًا﴾ إذ الحكمة لا توصف بالنسبة إلى الأمم، وإنما المعنى أنه حكمة معبر عنها بالعربية. والمقصود أنه بلغة العرب التي هي أفصح اللغات وأجملها وأسهلها، وفي ذلك إعجازه. فحصل لهذا الكتاب كمالان: كمال من جهة معانيه ومقاصده وهو كونه حكمًا، وكمال من جهة ألفاظه وهو المكنى عنه بكونه عربيًا، وذلك ما لم يبلغ إليه كتاب قبله، لأن الحكمة أشرف المعقولات فيناسب شرفها أن يكون إبلاغها بأشرف لغة وأصلحها للتعبير عن

---

(١) فصلت: الآية (٤٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٠٠).

(٣) مريم: الآية (١٢).

الحكمة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[١]. ثم في كونه عربيًّا امتنان على العرب المخاطبين به ابتداء بأنه بلغتهم وبأن في ذلك حسن سمعتهم، ففيه تعريض بأفن رأي الكافرين منهم إذ لم يشكروا هذه النعمة كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٢]. قال مالك: فيه بقاء ذكركم.

وجملة: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾[٣] معترضة، واللام موطئة للقسم وضمير الجمع في قوله: ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ عائد إلى معلوم من السياق وهم المشركون الذين وجه إليهم الكلام.

وإتباع أهوائهم يحتمل السعي لإجابة طلبتهم إنزال آية غير القرآن تحذيرًا من أن يسأل اللَّه إجابتهم لما طلبوه كما قال لنوح عليه السلام: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٤] والمقصود من هذا تحذير المسلمين من أن يركنوا إلى تمويهات المشركين، والتحذير من الرجوع إلى دينهم تهييجًا لتصلبهم في دينهم على طريقة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[٥]، وتأييس المشركين من الطمع في مجيء آية توافق مقترحاتهم»[٦].

قوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾:

قال الزمخشري: «وهذا من باب الإلهاب والتهييج، والبعث للسامعين على الثبات في الدين والتصلب فيه، وأن لا يزلّ زالّ عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة، وإلا فكان رسول اللَّه ﷺ من شدّة الشكيمة بمكان»[٧].

* * *

(١) الشعراء: الآيات (١٩٢-١٩٥).
(٢) الأنبياء: الآية (١٠).
(٣) البقرة: الآية (١٢٠).
(٤) هود: الآية (٤٦).
(٥) الزمر: الآية (٦٥).
(٦) التحرير والتنوير (١٣/ ١٦٠-١٦١).
(٧) الكشاف (٢/ ٣٦٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾، يا محمد ﴿رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ إلى أمم قَدْ خَلَتْ من قبلِ أمتك، فجعلناهم بَشرًا مثلَك، لهم أزواج ينكحون، وذريةٌ أنسَلوهم، ولم نجعلهم ملائكةً لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون، فنجعلَ الرسولَ إلى قومك من الملائكة مثلهم، ولكن أرسلنا إليهم بشرًا مثلهم، كما أرسلنا إلى من قبلهم من سائر الأمم بشرًا مثلهم»[٢].

وقال القاسمي: «أي: مثل إبراهيم وإسحق ويعقوب وغيرهم وهو رد لقولهم: لو كان نبيا لكان من جنس الملائكة كما قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾[٣]، وإعلام، بأن ذلك سنة كثير من الرسل، فما جاز في حقهم لم لا يجوز في حقه؟ وقد قال تعالى له: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾[٤]»[٥].

وقال الألوسي: «إنه -عليه الصلاة والسلام- لم يشغله أمر النساء عن شيء ما من أمر النبوة، وفي أدائه ﷺ للأمرين على أكمل وجه؛ دليل وأي دليل، على مزيد كماله ملكية وبشرية. ومما يوضح ذلك أنه ﷺ كان يجوع الأيام حتى يشد على بطنه الشريف الحجر، ومع ذا يطوف على جميع نسائه في الليلة الواحدة ولا يمنعه ذاك عن هذا.

وفي تكثير نسائه -عليه الصلاة والسلام- فوائد جمة، ولو لم يكن فيه سوى الوقوف على استواء سره وعلنه لكفى، وذلك لأن النساء من شأنهم أن لا يحفظن سرًّا كيفما كان، فلو كان منه -عليه الصلاة والسلام- في السر ما يخالف العلن لوقفن عليه مع كثرتهن، ولو كن قد وقفن لأفشوه عملا بمقتضى طباع النساء لا سيما الضرائر.

---

(١) الرعد: الآية (٣٨).
(٢) جامع البيان (١٦/ ٤٧٥-٤٧٦).
(٣) الفرقان: الآية (٧).
(٤) الكهف: الآية (١١٠).
(٥) محاسن التأويل (٩/ ٣٧١).

ومن وقف على الآثار وأحاط خبرًا بما روى عن هاتيك النساء الطاهرات؛ علم أنهن لم يتركن شيئًا من أحواله الخفية إلا ذكروه، وناهيك ما روي أن الصحابة -رضي اللَّه تعالى عنهم- اختلفوا في الإيلاج بدون إنزال هل يوجب الغسل أم لا؟ فسألوا عائشة -رضي اللَّه تعالى عنها- فقالت. . . : «فعل ذلك رسول اللَّه ﷺ فاغتسلنا جميعًا»[1]»[2].

وقال القرطبي: «هذه الآية تدل على الترغيب في النكاح والحض عليه، وتنهى عن التبتل، وهو ترك النكاح، وهذه سنة المرسلين كما نصت عليه هذه الآية، والسنة واردة بمعناها، قال ﷺ: «تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم»[3] الحديث، . . وقال: «من تزوج فقد استكمل نصف الدين فليتق اللَّه في النصف الثاني»[4]. ومعنى ذلك أن النكاح يعف عن الزنى، والعفاف أحد الخصلتين اللتين ضمن رسول اللَّه ﷺ عليهما الجنة فقال: «من وقاه اللَّه شر اثنتين ولج الجنة ما بين لحييه وما بين رجليه»[5] خرجه الموطأ وغيره.

وفي صحيح البخاري عن أنس قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ. (ثم ساق الحديث، وسيأتي في الباب).

وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: أراد عثمان أن يتبتل فنهاه النبي ﷺ[6]، ولو أجاز له ذلك لاختصينا، وقد تقدم في آل عمران الحض على طلب

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ١٦١)، والترمذي (١/ ١٨٠-١٨١/ ١٠٨) وقال: حسن صحيح، والنسائي في الكبرى (١/ ١٠٨/ ١٩٦)، وابن ماجه (١/ ١٩٩/ ٦٠٨)، وصححه ابن حبان (٣/ ٤٥١/ ١١٧٥) الإحسان.

(٢) روح المعاني (١٣/ ١٦٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٥٨)، والطبراني في الأوسط (٦/ ٤٦/ ٥٠٩٥)، والبزار (الكشف: ٢/ ١٤٨-١٤٩/ ١٤٠٠)، وقال الهيثمي: (٤/ ٢٥٨) إسناده حسن، وصححه ابن حبان (٩/ ٣٣٨/ ٤٠٢٨) من حديث أنس ابن مالك بلفظ: كان رسول اللَّه ﷺ يأمر بالباءة، وينهى عن التبتل نهيا شديدا، ويقول: «تزوجوا الودود الولود، إني مكاثر الأنبياء يوم القيامة».

(٤) أخرجه: الطبراني في الأوسط (٨/ ٣١٥/ ٧٦٤٣)، والبيهقي في الشعب (٤/ ٣٨٢-٣٨٣/ ٥٤٨٦)، وقال الهيثمي (٤/ ٢٥٢): رواه الطبراني في الأوسط بإسنادين، وفيهما يزيد الرقاشي وجابر الجعفي وكلاهما ضعيف، وقد وثقا. والحديث حسنه الشيخ الألباني بمجموع طرقه في الصحيحة (٦٢٥) من حديث أنس ﷺ.

(٥) أخرجه: الترمذي (٤/ ٥٢٤/ ٢٤٠٩) وقال حسن غريب، وصححه ابن حبان (١٣/ ٩-١٠/ ٥٧٠٣)، والحاكم (٤/ ٣٥٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٦) أخرجه: أحمد (١/ ١٧٥)، والبخاري (٩/ ١٤٥/ ٥٠٧٣-٥٠٧٤)، ومسلم (٢/ ١٠٢٠/ ١٤٠٢). والترمذي (٣/ ٣٩٤/ ١٠٨٣)، وابن ماجه (١/ ٥٩٣/ ١٨٤٨) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

الولد والرد على من جهل ذلك.

وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول: إني لأتزوج المرأة وما لي فيها من حاجة، وأطؤها وما أشتهيها، قيل له: وما يحملك على ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: حبي أن يخرج الله مني من يكاثر به النبي ﷺ النبيين يوم القيامة، وإني سمعته يقول: «**عليكم بالأبكار فإنهن أعذب أفواها، وأحسن أخلاقا، وأنتق أرحاما، وإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة**»[(١)] يعني بقول: «أنتق أرحاما» أقبل للولد، ويقال للمرأة الكثيرة الولد ناتق، لأنها ترمي بالأولاد رميا.

وخرج أبو داود عن معقل بن يسار قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال، وإنها لا تلد، أفأتزوجها؟ قال: «**لا**». ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال: «**تزوجوا الودود الولود؛ فإني مكاثر بكم الأمم**»[(٢)]»[(٣)].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن النكاح سنة الأنبياء عامة

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فأنا أصلي الليل أبدًا. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا. فجاء رسول الله ﷺ فقال: **أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[(٤)].

---

(١) أخرجه: ابن ماجه (١/ ٥٩٨/ ١٨٦١) من حديث عبد الرحمن بن سالم بن عتبة بن عويم بن ساعدة الأنصاري عن أبيه عن جده رضي الله عنه، وحسنه الشيخ الألباني في الصحيحة (٦٢٣) بمجموع طرقه.

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ٥٤٢/ ٢٠٥٠)، والنسائي (٦/ ٣٧٣-٣٧٤/ ٣٢٢٧)، وصححه ابن حبان (٩/ ٣٦٣-٣٦٤/ ٤٠٥٦-٤٠٥٧)، والحاكم (٢/ ١٦٢) ووافقه الذهبي من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٣٢٧-٣٢٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٤١)، والبخاري (٩/ ١٢٩/ ٥٠٦٣) واللفظ له، ومسلم (٢/ ١٠٢٠/ ١٤٠١)، والنسائي (٦/ ٣٦٨-٣٦٩/ ٣٢١٧).

★ **غريب الحديث:**

تقالّوها: استقلّوها؛ أي: رأى كل منهم أنها قليلة.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «النكاح مع خوف العنت واجب، ومن غير خوف العنت سنة مؤكدة عند جمهور الفقهاء، ومذهب أبي حنيفة وأحمد بن حنبل أنه حينئذ أفضل من جميع النوافل؛ لأنه سبب في وجود الولد... قال الإمام أحمد: ليس العزوبة من أمر الإسلام في شيء، النبي ﷺ تزوج أربعة عشر امرأة ومات عن تسع، ثم قال: لو ترك الناس النكاح لم يغزوا ولم يحجوا ولم يكن كذا ولم يكن كذا، وقد كان النبي ﷺ يصبح وما عنده شيء، وكان يختار النكاح ويحث عليه، وينهى عن التبتل، فمن رغب عن فعل النبي ﷺ فهو على غير الحق...

وقد لبس إبليس على كثير من الصوفية فمنعهم من النكاح فقدماؤهم تركوا ذلك تشاغلًا بالتعبد ورأوا النكاح شاغلًا عن طاعة اللَّه ﷻ وهؤلاء وإن كانت بهم حاجة إلى النكاح أو بهم نوع شوق إليه فقد خاطروا بأبدانهم وأديانهم، وإن لم يكن بهم حاجة إليه فاتتهم الفضيلة. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: **وفي بضع أحدكم صدقة. قالوا: يأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ قالوا: نعم. قال: وكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر**»[1]...

ومنهم من قال: النكاح يوجب النفقة والكسب صعب، وهذه حجة للترفه عن تعب الكسب. وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«دينار أنفقته في سبيل اللَّه ودينار أنفقته في رقبة ودينار أنفقته في الصدقة ودينار أنفقته على عيالك أفضلها الدينار الذي أنفقته على عيالك»**[2]. ومنهم من قال: النكاح يوجب الميل إلى الدنيا، فروينا عن أبي سليمان الداراني أنه قال: إذا طلب الرجل الحديث أو سافر في طلب المعاش أو تزوج فقد ركن إلى الدنيا. قال

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٦٧)، ومسلم (٢/ ٦٩٧/ ١٠٠٦)، وأبو داود (٥/ ٤٠٦-٤٠٧/ ٥٢٤٣)، والحديث من رواية أبي ذر، وليس من رواية أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٧٣)، ومسلم (٢/ ٦٩٢/ ٩٩٥)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٧٦/ ٩١٨٣).

المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: قلت: وهذا كله مخالف للشرع. وكيف لا يطلب الحديث والملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم... فما أرى هذه الأوضاع إلا على خلاف الشرع. فأما جماعة من متأخري الصوفية فإنهم تركوا النكاح ليقال: زاهد، والعوام تعظِّم الصوفي إذا لم تكن له زوجة، فيقولون: ما عرف امرأة قط! فهذه رهبانية تخالف شرعنا.

قال أبو حامد: ينبغي أن لا يشغل المريد نفسه بالتزويج فإنه يشغله عن السلوك ويأنس بالزوجة ومن أنس بغير اللَّه شغل عن اللَّه تعالى.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: وإني لأعجب من كلامه، أتراه ما علم أن من قصد عفاف نفسه ووجود ولد أو عفاف زوجة فإنه لم يخرج عن جادة السلوك أو يرى الأنس الطبيعي بالزوجة ينافي أنس القلوب بطاعة اللَّه تعالى واللَّه تعالى قد منّ على الخلق بقوله: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1] وفي الحديث الصحيح عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال له: «هلّا تزوجت بكرًا تلاعبها وتلاعبك»[2] وما كان بالذي ليدله على ما يقطع أنسه باللَّه تعالى، أترى رسول اللَّه ﷺ لمّا كان ينبسط إلى نسائه ويسابق عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أكان خارجًا عن الأنس بالله؟! هذه كلها جهالات بالعلم.

واعلم أنه إذا دام ترك النكاح على شبان الصوفية أخرجهم إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: المرض بحبس الماء...

النوع الثاني: الفرار إلى المتروك، فإن منهم خلقًا كثيرًا صابروا على ترك الجماع، فاجتمع الماء فأُقلِقوا، ورجعوا فلامسوا النساء، ولابسوا من الدنيا أضعاف ما فروا منه، فكانوا كمن أطال الجوع ثم أكل ما ترك في زمن الصبر.

النوع الثالث: الانحراف إلى صحبة الصبيان، فإن قومًا منهم أيسوا أنفسهم من النكاح، فأقلقهم ما اجتمع عندهم، فصاروا يرتاحون إلى صحبة المرد»[3].

---

(١) الروم: الآية (٢١).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٩٤)، والبخاري (٩/ ١٢١/ ٥٠٧٩)، ومسلم (٢/ ١٠٨٧/ ١٤٦٦)، وأبو داود (٢/ ٥٤٠-٥٤١/ ٢٠٤٨)، والنسائي (٦/ ٣٦٩-٣٧٠/ ٣٢١٩)، والترمذي (٣/ ٤٠٦/ ١١٠٠) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (١/ ٥٩٨/ ١٨٦٠).

(٣) تلبيس إبليس (ص: ٣٥٧-٣٦١) بتصرف.

قال الحافظ ابن حجر في قوله: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»: «والمراد: من ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس مني، ولمح بذلك إلى طريقة الرهبانية، فإنهم الذين ابتدعوا التشديد كما وصفهم اللَّه تعالى، وقد عابهم بأنهم ما وفوه بما التزموه. وطريقة النبي ﷺ الحنيفية السمحة، فيفطر ليتقوى على الصوم، وينام ليتقوى على القيام، ويتزوج لكسر الشهوة وإعفاف النفس وتكثير النسل. وقوله: «فليس مني» إن كانت الرغبة بضرب من التأويل يعذر صاحبه فيه؛ فمعنى «فليس مني» أي: على طريقتي، ولا يلزم أن يخرج عن الملة. وإن كان إعراضًا وتنطعًا يفضي إلى اعتقاد أرجحية عمله؛ فمعنى «فليس مني»: ليس على ملتي، لأن اعتقاد ذلك نوع من الكفر، وفي الحديث دلالة على فضل النكاح والترغيب فيه»[1].

* * *

(١) فتح الباري (٩/ ١٣١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما يقدِر رسولٌ أرسله اللَّه إلى خلقه أنْ يأتي أمَّتَه بآية وعلامة، من تسيير الجبال، ونقل بَلْدةٍ من مكان إلى مكان آخر، وإحياء الموتى ونحوها من الآيات ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، يقول: إلا بأمر اللَّه الجبالَ بالسير، والأرضَ بالانتقال، والميتَ بأن يحيا»[٢].

وقال ابن عطية: «جاء قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الآية، لفظه لفظ النهي والزجر، والمقصود به إنما هو النفي المحض، لكنه نفي تأكد بهذه العبارة، ومتى كانت هذه العبارة عن أمر واقع تحت قدرة المنهي فهي زجر، ومتى لم يقع ذلك تحت قدرته فهو نفي محض مؤكد، و﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ معناه: إلا أن يأذن اللَّه في ذلك»[٣].

وقال أبو السعود: «﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ منهم أي: ما صح وما استقام ولم يكن في وسعه ﴿أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾ مما اقتُرح عليه وحكمٍ مما التُمس منه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ومشيئتِه المبنية على الحِكم والمصالحِ التي عليها يدور أمرُ الكائنات لا سيما مثلُ هذه الأمورِ العظام»[٤].

وقال الشوكاني: «وفيه ردّ على الكفار حيث اقترحوا على رسول اللَّه ﷺ من الآيات ما اقترحوا بما سبق ذكره»[٥].

* * *

(١) الرعد: الآية (٣٨).
(٢) جامع البيان (١٦/ ٤٧٦).
(٣) المحرر الوجيز (٣/ ٣١٦).
(٤) تفسير أبي السعود (٥/ ٢٧).
(٥) فتح القدير (٣/ ١٢٤).

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَابِ ۝٣٩﴾

★ غريب الآية:

يمحو: المحو: إزالة الأثر. خلافه: الإثبات، لأن العلم كله منسوب إليه.

أم الكتاب: المراد هنا: اللوح المحفوظ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها، وكل شيء عنده بمقدار، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠﴾[1]. وكان الضحاك بن مزاحم يقول في قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكل كتاب أجل يعني لكل كتاب أنزله من السماء مدة مضروبة عند الله ومقدار معين»[2].

وقال ابن عطية: «وقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لفظ عام في جميع الأشياء التي لها آجال، وذلك أنه ليس كائن منها إلا وله أجل في بدئه أو في خاتمته وكل أجل مكتوب محصور، فأخبر تعالى عن كتبه الآجال التي للأشياء عامة، وقال الضحاك والفراء: المعنى: لكل كتاب أجل.

قال القاضي أبو محمد: وهذا العكس غير لازم ولا وجه له، إذ المعنى تام في ترتيب القرآن، بل يمكن هدم قولهما بأن الأشياء التي كتبها اللّٰه تعالى أزلية باقية كتنعيم أهل الجنة وغيره يوجد كتابها لا أجل له»[3].

وقال القاسمي: «أي: لكل وقت من الأوقات أمر مكتوب، مقدر معين أو

---

(١) الحج: الآية (٧٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٠١).

(٣) المحرر الوجيز (٣/ ٣١٦).

مفروض في ذلك الوقت على الخلق حسبما تقتضيه الحكمة فالشرائع معينة عند اللَّه بحسب الأوقات، في كل وقت يأتي بما هو صلاح ذلك الوقت رسول من عنده، وكذا جميع الحوادث من الآيات وغيرها فليس الأمر على إرادة الكفار واقتراحاتهم، بل على حسب ما يشاؤه تعالى ويختاره وفيه رد لاستعجالهم الآجال وإتيان الخوارق والعذاب»[1].

وقال ابن عاشور: «﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ تذييل لأنه أفاد عموم الآجال فشمل أجل الإتيان بآية من قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. وذلك إبطال لتوهم المشركين أن تأخر الوعيد يدل على عدم صدقه. وهذا ينظر إلى قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾[2] فقد قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3]. وإذ قد كان ما سألوه من جملة الآيات، وكان ما وعدوه آية على صدق الرسالة؛ ناسب أن يذكر هنا أن تأخير ذلك لا يدل على عدم حصوله فإن لذلك آجالًا أرادها اللَّه واقتضتها حكمته، وهو أعلم بخلقه وشؤونهم، ولكن الجهلة يقيسون تصرفات اللَّه بمثل ما تجري به تصرفات الخلائق..

والكتاب: المكتوب، وهو كناية عن التحديد والضبط، لأن شأن الأشياء التي يراد تحققها أن تكتب لئلا يخالف عليها. وفي هذا الرد تعريض بالوعيد. والمعنى: لكل واقع أجلٌ يقع عنده، ولكل أجل كتاب؛ أي: تعيين وتحديد لا يتقدمه ولا يتأخر عنه»[4].

وقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ قال ابن كثير: «اختلف المفسرون في ذلك، فقال الثوري، ووَكِيع، وهُشَيْم، عن ابن أبي ليلى، عن المنهال ابن عمرو، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس: يدبر أمر السنة، فيمحو اللَّه ما يشاء، إلا الشقاء والسعادة، والحياة والموت. وفي رواية: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ قال: كل شيء إلا الموت والحياة، والشقاء والسعادة فإنهما قد فرغ منهما.

(١) محاسن التأويل (٩/ ٣٧١-٣٧٢).
(٢) العنكبوت: الآية (٥٣).
(٣) الأنفال: الآية (٣٢).
(٤) التحرير والتنوير (١٣/ ١٦٤).

وقال مجاهد: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة، فإنهما لا يتغيران.

وقال منصور: سألت مجاهدا فقلت: أرأيت دعاء أحدنا يقول: اللهم، إن كان اسمي في السعداء فأثبته فيهم، وإن كان في الأشقياء فامحه عنهم واجعله في السعداء، فقال: حسن. ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر، فسألته عن ذلك، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[1] قال: يقضي في ليلة القدر ما يكون في السَّنة من رزق أو مصيبة، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، فأما كتاب السعادة والشقاوة فهو ثابت لا يُغير.

وقال الأعمش، عن أبي وائل شَقِيق بن سلمة: إنه كان كثيرًا يدعو بهذا الدعاء: اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فامحه، واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب...

ثم ذكر أقوالًا أخرى فقال: ومعنى هذه الأقوال: أن الأقدار ينسخ اللّه ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء»[2].

وقال أبو السعود: «﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ أي: ينسخ ما يشاء نسخَه من الأحكام لما تقتضيه الحكمةُ بحسب الوقت ﴿وَيُثْبِتُ﴾ بدلَه ما فيه المصلحةُ أو يبقيه على حاله غيرَ منسوخ، أو يثبتُ ما شاء إثباتَه مطلقًا أعمَّ منهما ومن الإنشاء ابتداءً، أو يمحو من ديوان الحفَظةِ الذين ديدنُهم كَتْبُ كلِّ قولٍ وعملٍ ما لا يتعلق به الجزاءُ ويثبت الباقيَ، أو يمحو سيئاتِ التائبِ ويثبت مكانها الحسنةَ، أو يمحو قَرْنًا ويثبت آخرين، أو يمحو الفاسداتِ من العالم الجُسماني ويثبت الكائناتِ، أو يمحو الرزق ويزيد فيه، أو يمحو الأجل أو السعادة والشقاوة، وبه قال ابن مسعود وابنُ عمر رضي اللّه عنهم، والقائلون به يتضرعون إلى اللّه تعالى أن يجعلهم سعداءَ... والأنسبُ تعميمُ كل من المحو والإثبات ليشمل الكل، ويدخلُ في ذلك موادُّ الإنكار دخولًا أوليًا... ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أصلُه وهو اللوحُ المحفوظُ، إذ ما من شيء من الذاهب والثابت إلا وهو مكتوبٌ فيه كما هو»[3].

---

(١) الدخان: الآيتان (٣و٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٠١-١٠٢).
(٣) تفسير أبي السعود (٥/ ٢٧).

وقال ابن عطية: «وتخبط الناس في معنى هذه الألفاظ، والذي يتخلص به مشكلها: أن نعتقد أن الأشياء التي قدرها اللَّه تعالى في الأزل وعلمها بحال ما لا يصح فيها محو ولا تبديل، وهي التي ثبتت في ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وسبق بها القضاء، وهذا مروي عن ابن عباس وغيره من أهل العلم، وأما الأشياء التي قد أخبر اللَّه تعالى أنه يبدل فيها وينقل كعفو الذنوب بعد تقريرها، وكنسخ آية بعد تلاوتها واستقرار حكمها؛ ففيها يقع المحو والتثبيت فيما يقيده الحفظة ونحو ذلك، وأما إذا رد الأمر للقضاء والقدر فقد محا اللَّه ما محا وثبت ما ثبت. وجاءت العبارة مستقلة بمجيء الحوادث، وهذه الأمور فيما يستأنف من الزمان، فينتظر البشر ما يمحو أو ما يثبت وبحسب ذلك خوفهم ورجاؤهم ودعاؤهم.

وقالت فرقة -منها الحسن- هي في آجال بني آدم، وذلك أن اللَّه تعالى في ليلة القدر، وقيل: - في ليلة نصف شعبان - يكتب آجال الموتى فيمحى ناس من ديوان الأحياء ويثبتون في ديوان الموتى. وقال قيس بن عباد: العاشر من رجب هو يوم ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾.

قال القاضي أبو محمد: وهذا التخصيص في الآجال أو غيرها لا معنى له، وإنما يحسن من الأقوال هنا ما كان عامًا في جميع الأشياء، فمن ذلك أن يكون معنى الآية: أن اللَّه تعالى يغير الأمور على أحوالها، أعني ما من شأنه أن يغير -على ما قدمناه- فيمحوه من تلك الحالة ويثبته في التي نقله إليها. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعن عبد اللَّه بن مسعود أنهما كانا يقولان في دعائهما: اللهم إن كنت كتبتنا في ديوان الشقاوة فامحنا وأثبتنا في ديوان السعادة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت.

قال القاضي أبو محمد: وهذا دعاء في غفران الذنوب وعلى جهة انجزع منها؛ أي: اللهم إن كنا شقينا بمعصيتك وكتب علينا ذنوب وشقاوة بها فامحها عنا بالمغفرة، وفي لفظ عمر في بعض الروايات بعض من هذا، ولم يكن دعاؤهما البتة في تبديل سابق القضاء، ولا يتأول عليهما ذلك»[(١)].

وقال ابن تيمية رحمه الله: «أما قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾[(٢)]

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٣١٧).
(٢) الأنعام: الآية (٢).

فالأجل الأول هو أجل كل عبد الذي ينقضي به عمره، والأجل المسمى عنده هو أجل القيامة العامة. . . وأما أجل الموت فهذا تعرفه الملائكة الذين يكتبون رزق العبد وأجله وعمله وشقي أو سعيد كما قال في الصحيحين عن ابن مسعود قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك. ثم يكون مضغة مثل ذلك. ثم يبعث إليه ملكا فيؤمر بأربع كلمات، فيقال: اكتب رزقه، وأجله وعمله وشقي أو سعيد. ثم ينفخ في الروح**»[1] فهذا الأجل الذي هو أجل الموت قد يُعلمه الله لمن شاء من عباده. وأما أجل القيامة المسمى عنده فلا يعلمه إلا هو»[2].

وقال القاسمي: «ظهر لي أن ما يستدل به الكثير من الآيات لمطلب ما، أن يدقق النظر فيه تدقيقا زائدا، فقد يكون سياق الآية لأمر لا يحتمل غيره، ويظن ظان أنه يستدل بها في بحث آخر، وقد يؤكده ما يراه من إطباق كثير من أرباب التصانيف على ذلك وإنما المدار على فهم الأسلوب والسياق والسباق.

خذ لك مثلًا قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فكم ترى من يستدل بها على العلم المعلق، ومحو ما في اللوح الذي يسمونه (لوح المحو والإثبات) ويوردون من الإشكالات والأجوبة ما لا يجد الواقف عليه مقنعا ولا مطمأنا.

مع أن هذه الآية، لو تمعن فيها القارئ، لعلم أنها في معنى غير ما يتوهمون. وذلك أنهم كانوا يقترحون على رسول الله ﷺ، في أوائل البعثة، أن يأتي بآية كآية موسى وعيسى. توهما أن ذلك هو أقصى ما يدل على نبوة النبي في كل زمان ومكان فأعلمهم الله تعالى أن دور تلك الآيات الحسية انقضى دورها وذهب عصرها. وقد استعد البشر للتنبه إلى الآية العقلية، وهي آية الاعتبار والتبصر. وإن تلك الآيات محيت كما محي عصرها. وقد أثبت تعالى غيرها مما هو أجلى وأوضح وأدل على الدعوة. وهو قوله تعالى قبلها: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٢)، والبخاري (٦/ ٣٧٣/ ٣٢٠٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٦/ ٢٦٤٣)، وأبو داود (٥/ ٨٢-٨٣/ ٤٧٠٨)، والترمذي (٤/ ٣٨٨-٣٨٩/ ٢١٣٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٦/ ١١٢٤٦)، وابن ماجه (١/ ٢٩/ ٧٦) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٨٩).

كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[(١)]»[(٢)].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن القدر لا يرده إلا الدعاء

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من أحبَّ أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره؛ فليصِلْ رحمه**»[(٣)].

★ **فوائد الحديث:**

مسألة الزيادة في العمر:

قال الحافظ: «قال ابن التين: ظاهر الحديث يعارض قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[(٤)] والجمع بينهما من وجهين: أحدهما: أن هذه الزيادة كناية عن البركة في العمر بسبب التوفيق إلى الطاعة، وعمارة وقته بما ينفعه في الآخرة، وصيانته عن تضييعه في غير ذلك. ومثل هذا ما جاء أن النبي ﷺ تقاصر أعمار أمته بالنسبة لأعمار من مضى من الأمم فأعطاه اللَّه ليلة القدر[(٥)]. وحاصله أن صلة الرحم تكون سببًا للتوفيق للطاعة والصيانة عن المعصية فيبقى بعده الذكر الجميل، فكأنه لم يمت. ومن جملة ما يحصل له من التوفيق العلم الذي ينتفع به من بعده، والصدقة الجارية عليه، والخلف الصالح. . .

ثانيهما: أن الزيادة على حقيقتها، وذلك بالنسبة إلى علم الملك الموكل بالعمر، وأما الأول الذي دلت عليه الآية فبالنسبة إلى علم اللَّه تعالى، كأن يقال للملك مثلًا: إن عمر فلان مائة مثلًا إن وصل رحمه، وستون إن قطعها. وقد سبق في علم اللَّه أنه يصل أو يقطع، فالذي في علم اللَّه لا يتقدم ولا يتأخر، والذي في علم الملك هو الذي يمكن فيه الزيادة والنقص وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا

---

(١) الرعد: الآيتان (٣٨ و ٣٩).
(٢) محاسن التأويل (٩/ ٣٧٣-٣٧٤).
(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٤٧)، والبخاري (١٠/ ٥٠٨-٥٠٩/ ٥٩٨٥)، ومسلم (٤/ ١٩٨٢/ ٢٥٥٧)، وأبو داود (٢/ ٣٢١/ ١٦٩٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٣٨/ ١١٤٢٩).
(٤) الأعراف: الآية (٣٤).
(٥) أخرجه: مالك في الموطأ (١/ ٣٢١/ ١٥)، قال أبو عمر: «لا أعلم هذا الحديث يروى مسندًا من وجه من الوجوه». وقال الشيخ الألباني في ضعيف الترغيب (١/ ٣٠٧/ ٦٠٤): «ضعيف معضل».

ﵟاللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِﵞ فالمحو والإثبات بالنسبة لما في علم الملك، وما في أم الكتاب هو الذي في علم اللَّه تعالى، فلا محو فيه البتة. ويقال له: القضاء المبرم، ويقال للأول: القضاء المعلق»[1].

وقال شيخ الإسلام: «أما نقص العمر وزيادته، فمن الناس من يقول: إنه لا يجوز بحال، ويحمل ما ورد على زيادة البركة، والصواب أنه يحصل نقص وزيادة عما كتب في صحف الملائكة، وأما علم اللَّه القديم فلا يتغير»[2].

وقال -رحمه اللَّه تعالى-: «والأجل أجلان: أجل مطلق يعلمه اللَّه وأجل مقيّد، وبهذا يتبين معنى قوله ﷺ: «من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»، فإن اللَّه أمر الملك أن يكتب له أجلًا وقال: «إن وصل رحمه زدته كذا وكذا» والملك لا يعلم أيزداد أم لا، لكن اللَّه يعلم ما يستقر عليه الأمر فإذا جاء ذلك لا يتقدم ولا يتأخر»[3].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الرزق نوعان: أحدهما: ما علمه اللَّه أنه يرزقه فهذا لا يتغير. والثاني: ما كتبه وأعلم به الملائكة، فهذا يزيد وينقص بحسب الأسباب، فإن العبد يأمر اللَّه الملائكة أن تكتب له رزقًا، وإن وصل رحمه زاده اللَّه على ذلك، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه» وكذلك عمر داود زاد ستين سنة فجعله اللَّه مائة بعد أن كان أربعين، ومن هذا الباب قول عمر: «اللهم إن كنت كتبتني شقيًّا فامحني واكتبني سعيدًا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت»»[4].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فصل بين الدعاء والقدر: وههنا سؤال مشهور، وهو: أن المدعوّ به إن كان قد قُدّر لم يكن بدّ من وقوعه، دعا به العبد أو لم يدع؛ وإن لم يكن قد قُدّر لم يقع، سواء سأله العبد أو لم يسأله؟!

فظنت طائفة صحة هذا السؤال، فتركت الدعاء وقالت: لا فائدة فيه! وهؤلاء -مع فرط جهلهم وضلالهم- متناقضون، فإن طرد مذهبهم يوجب تعطيل جميع الأسباب. فيقال لأحدهم: إن كان الشبع والرّيّ قد قُدّرا لك فلا بد من وقوعهما،

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٥٠٩-٥١٠).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٤/ ٣٨١).
(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٥١٧).
(٤) مجموع الفتاوى (٨/ ٥٤٠).

أكلت أو لم تأكل. وإن لم يُقدّرا لم يقعا أكلت أو لم تأكل! وإن كان الولد قد قُدّر لك فلا بد منه وُطئت الزوجة والأمة أو لم تُطأ، وإن لم يُقدّر ذلك لم يكن؛ فلا حاجة إلى التزوج والتسري. وهلم جرًّا!

فهل يقول هذا عاقل أو آدمي؟ بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التي بها قوامه وحياته؛ فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام، بل هم أضل سبيلًا.

وتكايس بعضهم وقال: الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض يُثيب اللَّه عليه الداعي، من غير أن يكون له تأثير في المطلوب بوجه ما، ولا فرق عند هذا المتكايس بين الدعاء وبين الإمساك عنه بالقلب واللسان في التأثير في حصول المطلوب، وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت، ولا فرق.

وقالت طائفة أخرى أكيس من هؤلاء: بل الدعاء علامة مجردة نصبها اللَّه سبحانه أمارة على قضاء الحاجة، فمتى وفّق اللَّه العبد للدعاء كان ذلك علامة له وأمارة على أن حاجته قد قُضيت. وهذا كما إذا رأينا غيمًا أسود باردًا في زمن الشتاء، فإن ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر.

قالوا: وهكذا حكم الطاعات مع الثواب، والكفر والمعاصي مع العقاب، هي أمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب، لا أنها أسباب له.

وهكذا عندهم الكسر مع الانكسار، والحرق مع الإحراق، والإزهاق مع القتل. ليس شيء من ذلك سببًا البتة، ولا ارتباط بينه وبين ما يترتب عليه، إلا مجرد الاقتران العادي، لا التأثير السببي!

وخالفوا بذلك الحس والعقل، والشرع والفطرة، وسائر طوائف العقلاء، بل أضحكوا عليهم العقلاء.

والصواب: أن هاهنا قسمًا ثالثًا، غير ما ذكره السائل، وهو أن هذا المقدّر قُدّر بأسباب، ومن أسبابه الدعاء، فلم يُقدَّر مجرّدًا عن سببه، ولكن قُدِّر بسببه، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور. وهذا كما قُدِّر الشبع والرّيّ بالأكل والشرب، وقُدِّر الولد بالوطء، وقُدّر حصول الزرع بالبذر، وقُدّر خروج نَفَس الحيوان بالذبح، وكذلك قُدّر دخول الجنة بالأعمال، ودخول

النار بالأعمال.

وهذا القسم هو الحق، وهذا الذي حُرمه السائل ولم يُوَفّق له. وحينئذ؛ فالدعاء من أقوى الأسباب، فإذا قُدّر وقوع المدعوّ به بالدعاء لم يصحّ أن يقال: لا فائدة في الدعاء! كما لا يقال: لا فائدة في الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال! وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء، ولا أبلغ في حصول المطلوب.

ولما كان الصحابة رضي الله عنهم أعلم الأمة بالله ورسوله ﷺ وأفقههم في دينه، كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم.. بل الفقيه كل الفقيه الذي يرد القدر بالقدر، ويدفع القدر بالقدر، ويعارض القدر بالقدر، بل لا يمكن للإنسان أن يعيش إلا بذلك، فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من قدر الله، والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر»[1].

* * *

(١) الداء والدواء (ص: ٢٢-٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لا معقب: أي: لا متتبع له ولا مُكِرًّا عليه بنقض. والعَقِبُ: الذي يتتبع الشيء لينظر ما فيه من خلل لينقضه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى لرسوله: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد بعض الذي نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي: قبل ذلك، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي: إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة اللّه وقد بلغت ما أمرت به، ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ أي: حسابهم وجزاؤهم، كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾[1].

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ﴾ قال ابن عباس: أو لم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض؟ وقال في رواية: أو لم يروا إلى القرية تخرب، حتى يكون العمران في ناحية؟ وقال مجاهد وعِكْرِمة: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ﴾ قال: خرابها. وقال الحسن والضحاك: هو ظهور المسلمين على المشركين. وقال العوفي عن ابن عباس: نقصان أهلها وبركتها. وقال مجاهد: نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض. وقال الشعبي: لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حُشُّك، ولكن تنقص الأنفس والثمرات. وكذا قال عِكْرِمة: لو كانت الأرض تنقص لم تجد مكانا تقعد فيه، ولكن هو الموت.

---

(١) الغاشية: الآيات (٢١-٢٦).

وقال ابن عباس في رواية: خرابها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها. وكذا قال مجاهد أيضًا: هو موت العلماء...

والقول الأول أولى، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، كقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1]، وهذا اختيار ابن جرير»[2].

وقال القرطبي: «وذكر وكيع بن الجراح عن طلحة بن عمير عن عطاء بن أبي رباح في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: ذهاب فقهائها وخيار أهلها.

قال أبو عمر بن عبد البر: قول عطاء في تأويل الآية حسن جدا، تلقاه أهل العلم بالقبول.

قلت: وحكاه المهدوي عن مجاهد وابن عمر، وهذا نص القول الأول نفسه، روى سفيان عن منصور عن مجاهد، ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: موت الفقهاء والعلماء، ومعروف في اللغة أن الطرف: الكريم من كل شيء... وقيل: نقصها بجور ولاتها.

قلت: وهذا صحيح معنى، فإن الجور والظلم يخرب البلاد، بقتل أهلها وانجلائهم عنها، وترفع من الأرض البركة، والله أعلم»[3].

وقال القاسمي: «فمعنى الآية: أولم يروا ما يحدث في الدنيا من الاختلافات: موت بعد حياة، وذل بعد عز، ونقص بعد كمال! وإذا كان هذا مشاهدًا محسوسًا، فما الذي يؤمنهم من أن يقلب الله الأمر عليهم فيذلهم بعد العزة! ولا يخفاك أن هذا المعنى لا يذكره السلف تفسيرا للآية على أنه المراد منها، وإنما يذكرونه تهويلا لخطب موت العلماء بسبب أنهم أركان الأرض وصلاحها وكمالها وعمرانها، فموتهم نقص لها وخراب منها. كما قال أحمد بن غزال:

الأرض تحيى إذا ما عاش عالمها ... متى يمت عالم منها يمت طرف

---

(١) الأحقاف: الآية (٢٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٠٤).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٣٣٤).

كالأرض تحيى إذا ما الغيث حل بها وإن أبى عاد في أكنافها التلف»[١].

وقال ابن عاشور: «وأيًّا ما كان تفسير الآية وسبب نزولها ومكانه فهي للإنذار بأنهم صائرون إلى زوال، وأنهم مغلوبون زائلون، كقوله في الآية الأخرى في سورة الأنبياء: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[٢]؛ أي: ما هم الغالبون. وهذا إمهال لهم وإعذار لعلهم يتداركون أمرهم. وجملة: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ﴾ عطف على جملة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ مؤكدة للمقصود منها، وهو الاستدلال على أن تأخير الوعيد لا يدل على بطلانه، فاستدل على ذلك بجملة: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ ثم بجملة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ ثم بجملة ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ﴾؛ لأن المعنى: أن ما حكم اللَّه به من العقاب لا يبطله أحد، وأنه واقع ولو تأخر.

ولذلك فجملة: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ﴾ في موضع الحال، وهي المقيدة للفعل المراد، إذ هي مصب الكلام، إذ ليس الغرض الإعلام بأن اللَّه يحكم إذ لا يكاد يخفى، وإنما الغرض التنبيه إلى أنه لا معقب لحكمه. وأفاد نفي جنس المعقب انتفاء كل ما من شأنه أن يكون معقبا؛ من شريك أو شفيع أو داع أو راغب أو مستعصم أو مفتد»[٣].

وقال المراغي: «﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ﴾ أي: واللَّه يحكم وحكمه النافذ الذي لا يُرد، ولا يستطيع أحد أن يبطله، وقد جرت سنته أن الأرض يستعمرها عباده الصالحون بالعدل فيها والسير على نهج المساواة و ترك الظلم. وقد حكم للمسلمين بالعز والإقبال على ما وَضَعَ من السنن العامة، وعلى أعدائهم بالإدبار وركود ريحهم، لما سلكوه من الظلم والفساد في الأرض. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فعمّا قريب سيحاسبهم في الآخرة كِفاء ما دنسوا به أنفسهم، وران على قلوبهم بارتكاب الآثام بعد أن يعذبهم في الدنيا بالقتل والأسر، فلا تستبطئ عقابهم، فإنه آت لا محالة، وكل آت قريب»[٤].

* * *

(١) محاسن التأويل (٩/ ٣٧٥-٣٧٦).
(٢) الأنبياء: الآية (٤٤).
(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ١٧٢).
(٤) تفسير المراغي (١٣/ ١١٨).

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مكر: المكر: في الأصل إخفاء الحيلة والتدبير على سبيل الإساءة. ومَكَرَ به: إذا صرفه عن بغيته بالحيلة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ برسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر اللَّه بهم، وجعل العاقبة للمتقين، كقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2].

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: أنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر، وسيجزي كل عامل بعمله. ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّرُ﴾ وقرئ: ﴿الْكُفَّارُ﴾ ﴿لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي: لمن تكون الدائرة والعاقبة، لهم أو لأتباع الرسل؟ كلا بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة، ولله الحمد والمنة»[3].

وقال ابن عاشور: «لما كان قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾[4] تهديدًا وإنذارًا مثل قوله: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾[5] وهو إنذار بوعيد على تظاهرهم بطلب الآيات، وهم يضمرون التصميم على التكذيب والاستمرار عليه؛ شبه

---

(١) الأنفال: الآية (٣٠).
(٢) النمل: الآيات (٥٠-٥٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٠٥).
(٤) الرعد: الآية (٤١).
(٥) محمد: الآية (١٨).

عملهم بالمكر، وشبه بعمل المكذبين السابقين كقوله: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾(١). وفي هذا التشبيه رمز إلى أن عاقبتهم كعاقبة الأمم التي عَرفوها. فنقص أرض هؤلاء من أطرافها من مكر اللَّه بهم جزاء مكرهم، فلذلك أعقب بقوله: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: كما مكر هؤلاء... والمعنى: مكرَ هؤلاء ومكرَ الذين من قبلهم وحل العذاب بالذين من قبلهم فمكر اللَّه بهم وهو يمكر بهؤلاء مكرًا عظيمًا كما مكر بمن قبلهم.

وتقديم المجرور في قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ للاختصاص؛ أي: له لا لغيره، لأن مكره لا يدفعه دافع، فمكر غيره كلاً مكر بقرينة أنه أثبت لهم مكرًا بقوله: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. وهذا بمعنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾(٢)»(٣).

وقال الخطيب: «﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فيحاسب ويجازي.. لا يفلت مجرم من حسابه وعقابه..

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.. وعند الحساب سيرى الكفار بأعينهم لمن الفوز والظفر، وعلى من الخزي والخذلان؟»(٤).

* * *

(١) الأنبياء: الآية (٦).
(٢) آل عمران: الآية (٥٤).
(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ١٧٣-١٧٤).
(٤) التفسير القرآني للقرآن (٧/ ١٤٣-١٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ويقول الذين كفروا بالله من قومك يا محمد لست مرسلا! تكذيبا منهم لك، وجحودًا لنبوّتك، فقل لهم إذا قالوا ذلك: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾، يقول: قل حَسْبي الله ﴿شَهِيدَۢا﴾، يعني شاهدًا ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، عليّ وعليكم، بصدقي وكذبكم ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾»[1].

وقال ابن عاشور: «﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ عطف على ما تضمنته جملة: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[2] من التعريض بأن قولهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[3] ضَرْب من المكر بإظهارهم أنهم يتطلبون الآيات الدالة على صدق الرسول ﷺ، مظهرين أنهم في شك من صدقه وهم يبطنون التصميم على التكذيب. فذكرت هذه الآيةُ أنهم قد أفصحوا تارات بما أبطنوه، فنطقوا بصريح التكذيب، وخرجوا من طور المكر إلى طور المجاهرة بالكفر فقالوا: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًاۚ﴾.

وقد حكي قولهم بصيغة المضارع للدلالة على تكرر ذلك منهم، ولاستحضار حالهم العجيبة من الاستمرار على التكذيب بعد أن رأوا دلائل الصدق، كما عبر بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[4]...

ولما كانت مقالتهم المحكية هنا صريحة لا مواربة فيها؛ أمر الرسول بجواب لا جدال فيه، وهو تحكيم الله بينه وبينهم.

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٥٠٠).
(٢) الرعد: الآية (٤٣).
(٣) الأنعام: الآية (٣٧).
(٤) هود: الآية (٣٨).

وقد أمر الرسول -عليه الصلاة والسلام- بأن يجيبهم جواب الواثق بصدقه المستشهد على ذلك بشهادة الصدق من إشهاد اللَّه تعالى وإشهاد العالمين بالكتب والشرائع.

ولما كانت الشهادة للرسول -عليه الصلاة والسلام- بالصدق شهادة على الذين كفروا بأنهم كاذبون؛ جعلت الشهادة بينه وبينهم.

وإشهاد اللَّه في معنى الحلف على الصدق كقول هود عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ﴾[١].

والموصول في ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يجوز أن يراد به جنس من يتصف بالصلة. والمعنى: وكل من عندهم علم الكتاب. وإفراد الضمير المضاف إليه ﴿عِندَهُۥ﴾ لمراعاة لفظ ﴿مَنۡ﴾. وتعريف ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تعريف للعهد، وهو التوراة؛ أي: وشهادة علماء الكتاب. وذلك أن اليهود كانوا قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة يستظهرون على المشركين بمجيء النبي المصدق للتوراة.

ويحتمل أن يكون المراد بمن عنده علم الكتاب معيّنًا، فهو ورقة بن نوفل إذ علم أهل مكة أنه شهد بأن ما أوحي به إلى رسول اللَّه ﷺ هو الناموس الذي أنزل على موسى عليه السلام كما في حديث بدء الوحي في الصحيح[٢]. وكان ورقة منفردًا بمعرفة التوراة والإنجيل. وقد كان خبر قوله للنبي ﷺ ما قاله معروفًا عند قريش.

فالتعريف في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تعريف الجنس المنحصر في التوراة والإنجيل.

وقيل: أريد به عبد اللَّه بن سلام الذي آمن بالنبي ﷺ في أول مقدمِهِ المدينة. ويبعده أن السورة مكية كما تقدم.

ووجه شهادة علماء الكتاب برسالة محمد ﷺ وجدانهم البشارة بنبي خاتم للرسل ﷺ، ووجدانهم ما جاء في القرآن موافقًا لسنن الشرائع الإلهية ومفسرًا للرموز الواردة في التوراة والإنجيل في صفة النبي ﷺ المصدق الموعود به. ولهذا المعنى كان التعبير في هذه الآية بـ ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ دون أهل الكتاب؛ لأن

---

(١) هود: الآية (٥٤).

(٢) أحمد (٦/ ٢٣٢-٢٣٣)، والبخاري (٨/ ٧١٥/ ٤٩٥٣-٤٩٥٤)، ومسلم (١/ ١٣٩-١٤٠/ ١٦٠) عن عائشة رضي الله عنها.

تطبيق ذلك لا يدركه إلا علماؤهم. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[1]»[2].

وقال ابن كثير: «والصحيح في هذا: أن ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة، من بشارات الأنبياء به، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾. وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل: أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة»[4].

وقال الخطيب: «بهذه الآية الكريمة تختم سورة الرعد فيلتقي ختامها مع بدئها: ﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[5].. ثم يصافح هذا الختام بدء السورة التي بعدها (إبراهيم) ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[6]..

فقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ﴾ هو جواب الكافرين على هذا الكتاب الذي جاءهم النبي به، والذي هو الحق الذي أنزل إليه من ربه..

وقوله تعالى في أول سورة (إبراهيم) بعد هذه السورة: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ هو رد على جواب هؤلاء الكافرين، وردع لهم، وأنهم لم يخرجوا من الظلمات إلى النور، ولم يأذن الله لهم بالخروج من تلك الظلمات»[7].

وقال السعدي: «﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ﴾ أي: يكذبونك

---

(١) الشعراء: الآية (١٩٧).
(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ١٧٥-١٧٦).
(٣) الأعراف: الآيتان (١٥٦و١٥٧).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٠٦).
(٥) الرعد: الآية (١).
(٦) إبراهيم: الآيتان (١و٢).
(٧) التفسير القرآني للقرآن (٧/ ١٤٤-١٤٥).

ويكذبون ما أرسلت به، ﴿قُلْ﴾ لهم إن طلبوا على ذلك شهيدا: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ وشهادته بقوله وفعله وإقراره، أما قوله فبما أوحاه اللَّه إلى أصدق خلقه مما يثبت به رسالته.

وأما فعله فلأن اللَّه تعالى أيد رسوله ونصره نصرا خارجا عن قدرته وقدرة أصحابه وأتباعه، وهذا شهادة منه له بالفعل والتأييد.

وأما إقراره، فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسوله، وأنه أمر الناس باتباعه، فمن اتبعه فله رضوان اللَّه وكرامته، ومن لم يتبعه فله النار والسخط وحل له ماله ودمه واللَّه يقره على ذلك، فلو تقول عليه بعض الأقاويل لعاجله بالعقوبة.

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهذا شامل لكل علماء أهل الكتابين، فإنهم يشهد منهم للرسول من آمن واتبع الحق، فصرح بتلك الشهادة التي عليه، ومن كتم ذلك فإخبار اللَّه عنه أن عنده شهادة أبلغ من خبره، ولو لم يكن عنده شهادة لرد استشهاده بالبرهان، فسكوته يدل على أن عنده شهادة مكتومة.

وإنما أمر اللَّه باستشهاد أهل الكتاب لأنهم أهل هذا الشأن، وكل أمر إنما يستشهد فيه أهله ومن هم أعلم به من غيرهم، بخلاف من هو أجنبي عنه، كالأميين من مشركي العرب وغيرهم، فلا فائدة في استشهادهم لعدم خبرتهم ومعرفتهم واللَّه أعلم»[1].

وقال شيخ الإسلام: «فمن عنده علم الكتاب شهد بما في الكتاب الأول، وهو يوجب تصديق الرسول لأنه يشهد بالمثل، ويشهد أيضًا بالعين، وكل من الشهادتين كافية، فمتى ثبت الجنس علم قطعا أن العين منه»[2].

وقال أيضًا: «ولكن المقصود بيان أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبك فيه الكافرون، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وقال تعالى:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١١٩-١٢٠). (٢) النبوات (١/ ١٧٩).
(٣) الأحقاف: الآية (١٠).

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴾[1] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾[6].

فالمقصود بيان أن أهل الكتاب عندهم ما يصدقك فيما كذبك فيه الكافرون، وذلك من وجوه:

أحدها: أن الكتب المتقدمة تنطق بأن موسى وغيره دعوا إلى عبادة اللَّه وحده، ونهوا عن الشرك، فكان في هذا حجة على من ظن أن الشرك دين. ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾[9].

الوجه الثاني: أن أهل الكتاب يعلمون أن اللَّه إنما أرسل إلى الناس بشرًا مثلهم، لم يرسل إليهم ملكًا، فإن من الكفار من كان يزعم أن اللَّه لا يرسل إلا ملكًا أو بشرًا معه ملك، ويتعجبون من إرسال بشر ليس معه ملك ظاهر كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾[10] وقال

(١) القصص: الآيتان (٥٢و٥٣).
(٢) الإسراء: الآيات (١٠٧-١٠٩).
(٣) المائدة: الآية (٨٣).
(٤) النساء: الآية (١٦٢).
(٥) النحل: الآية (٤٣).
(٦) البقرة: الآية (١٤٦).
(٧) الزخرف: الآية (٤٥).
(٨) الأنبياء: الآية (٢٥).
(٩) النحل: الآية (٣٦).
(١٠) الإسراء: الآيتان (٩٤و٩٥).

تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾[2].

وكذلك قال الذين من بعدهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾[3]، وكذلك قال قوم فرعون لموسى وهارون: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾[4]، وقال فرعون: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾[5]، وكذلك قالوا لمحمد ﷺ، وقال تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[7].

فبين سبحانه أنكم لا تطيقون التلقي عن الملك، فلو أنزلناه ملكا لجعلناه في صورة بشر، وحينئذ كنتم تظنونه بشرا فيحصل اللبس عليكم، فأمر اللَّه تعالى بسؤال أهل الكتاب عمن أرسل إليهم أكان بشرًا أم كان ملكًا؛ ليقيم الحجة بذلك على من أنكر إرسال بشر، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[8]، وأهل الذكر هم أهل الذكر الذي أنزله اللَّه تعالى.

الوجه الثالث: أنهم يسألون أهل الكتاب عما جرى للرسل مع أممهم وكيف كان عاقبة المؤمنين بهم، وعاقبة المكذبين لهم.

---

(١) المؤمنون: الآيات (٢٣-٢٥).
(٢) القمر: الآيتان (٢٣و٢٤).
(٣) المؤمنون: الآيتان (٣٣و٣٤).
(٤) المؤمنون: الآية (٤٧).
(٥) الزخرف: الآيتان (٥٢و٥٣).
(٦) يونس: الآيتان (١و٢).
(٧) الأنعام: الآيتان (٨و٩).
(٨) الأنبياء: الآيات (٧-٩).

الوجه الرابع: يسألون أهل الكتاب عن الدين الذي بعث اللَّه به رسله، وهو دين الإسلام الذي اتفقت عليه الرسل؛ كالأمر بالتوحيد والصدق والعدل وبر الوالدين وصلة الأرحام والنهي عن الشرك والظلم والفواحش.

الوجه الخامس: يسألونهم عما وصفت به الرسل ربهم، هل هو موافق لما وصفه به محمد أم لا؟ وهذه الأمور المسؤول عنها متواترة عند أهل الكتاب معلومة لهم، ليست مما يشكون فيه، وليس إذا كان مثل هذا معلوما لهم بالتواتر فيسألون عنه يجب أن يكون كل ما يقولونه معلوما لهم بالتواتر، وأيضا فإنهم يسألون أيضًا عما عندهم من الشهادات والبشارات بنبوة محمد ﷺ. وقد أخبر اللَّه بذلك في القرآن فقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[(١)].

فقد أخبر عن عيسى أنه صدق بالرسول والكتاب الذي قبله وهو التوراة، وبشر بالرسول الذي يأتي بعده وهو أحمد قال تعالى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[(٣)]، وقال تعالى عن من أثنى عليه من النصارى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ

---

(١) الصف: الآية (٦).
(٢) البقرة: الآيات (١٤٤-١٤٦).
(٣) الشعراء: الآيات (١٩٢-١٩٧).
(٤) المائدة: الآية (٨٣).

عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[١] وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٣]، وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٥].

والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمد ﷺ عندهم في الكتب المتقدمة متواترة عنهم، وكان قبل أن يبعث النبي ﷺ، تجري حروب وقتال بين العرب وبين أهل الكتاب فتقول أهل الكتاب: قد قرب مبعث هذا النبي الأمي الذي يبعث بدين إبراهيم، فإذا ظهر اتبعناه، وقتلناهم معه شر قتلة، فلما بعث النبي ﷺ كان منهم من آمن به ومنهم من كفر به؛ فقال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ﴾ أي: يستنصرون بمحمد ﷺ على الذين كفروا ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولهذا كان النبي ﷺ في خطابه لأهل الكتاب يقول لهم: «والله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله»[٦] وكذلك من أسلم منهم كعبدالله بن سلام كان يقول لغيره من أهل الكتاب: والله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وهذا أمر معروف في الأحاديث الصحاح المخرجة في الصحيحين وغيرهما فظهر بما ذكرناه تحريف هؤلاء لكلام الله، وأنه لا حجة لهم فيما أنزل على محمد ﷺ»[٧].

---

(١) الإسراء: الآيات (١٠٦-١٠٩).
(٢) الأنعام: الآية (١١٤).
(٣) القصص: الآيات (٥١-٥٤).
(٤) الأنعام: الآية (٢٠).
(٥) البقرة: الآية (٨٩).
(٦) أخرجه أحمد (٣/ ٢١١)، والبخاري (٧/ ٣١٧-٣١٨/ ٣٩١١)، من حديث أنس ﷺ.
(٧) الجواب الصحيح (٢/ ٣٥٨-٣٦٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة إبراهيم

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ
رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ①﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

أما الكلام عن الحروف المقطعة فقد تقدم في أول البقرة.

قال أبو حيان: «هذه السورة مكية كلها في قول الجمهور، وعن ابن عباس وقتادة، هي مكية إلا من قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ الآية إلى قوله: ﴿إِلَى النَّارِ﴾ وارتباط أول هذه السورة بالسورة قبلها واضح جدًا؛ لأنه ذكر فيها: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا﴾ ثم ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ ثم ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ فناسب هذا قوله: ﴿الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾. وأيضًا فإنهم لما قالوا على سبيل الاقتراح: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ وقيل له: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أنزل ﴿الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ كأنه قيل: أو لم يكفهم من الآيات كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات هي الضلال، إلى النور وهو الهدى»[1].

وقال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ فإن معناه: هذا كتاب أنزلناه

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٣٩٢).

إليك، يا محمد، يعني القرآن ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ يقول: لتهديهم به من ظلمات الضلالة والكفرِ، إلى نور الإيمان وضيائه، وتُبصّر به أهلَ الجهل والعمَى سُبُل الرَّشاد والهُدَى. وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ يعني: بتوفيق ربهم لهم بذلك ولطفه بهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ يعني: إلى طريق اللَّه المستقيم، وهو دينه الذي ارتضاه، وشَرَعُه لخلقه.. وأضاف -تعالى ذكره- إخراجَ الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربِّهم لهم بذلك إلى نبيه ﷺ، وهو الهادي خَلْقَه، والموفقُ من أحبَّ منهم للإيمان، إذ كان منه دعاؤهم إليه، وتعريفهُم ما لهم فيه وعليهم. فبيّنٌ بذلك صِحة قولِ أهل الإثبات الذين أضافوا أفعال العباد إليهم كَسبًا، وإلى الله -جل ثناؤه- إنشاءً وتدبيرًا، وفسادُ قول أهل القَدر الذين أنكرُوا أن يكون لله في ذلك صُنْعٌ»[(١)].

وقال ابن كثير: «أي: هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم، الذي هو أشرف كتاب أنزله اللَّه من السماء، على أشرف رسول بعثه اللَّه في الأرض، إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم. ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب؛ لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي إلى الهدى والرشد، كما قال: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[(٣)].

وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: هو الهادي لمن قَدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أي: العزيز الذي لا يمانع ولا يغالب، بل هو القاهر لكل ما سواه، «الحميد» أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله، وشرعه وأمره ونهيه، الصادق في خبره»[(٤)].

وقال ابن عطية: «وقوله: ﴿لِتُخْرِجَ﴾ أسند الإخراج إلى النبي ﷺ من حيث له فيه المشاركة بالدعاء والإنذار، وحقيقته إنما هي لله تعالى بالاختراع والهداية. وفي هذه اللفظة تشريف للنبي ﷺ.

(١) جامع البيان (١٦/ ٥١١-٥١٢). شاكر.
(٢) البقرة: الآية (٢٥٧).
(٣) الحديد: الآية (٩).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٠٧-١٠٨).

وعم ﴿ٱلنَّاسَ﴾ إذ هو مبعوث إلى جميع الخلق، ثبت ذلك بآيات القرآن التي اقترن بها ما نقل تواترًا من دعوته العالم كله، ومن بعثته إلى الأحمر والأسود، علم الصحابة ذلك مشاهدة، ونقل عنهم تواترًا، فعلم قطعًا والحمد لله»[١].

وقال الألوسي: «أي: أنزلناه إليك لتخرجهم كافة بما في تضاعيفه من البينات الواضحة المفصحة عن كونه من عند اللَّه تعالى، الكاشفة عن العقائد الحقة من عقائد الكفر والضلال، وعبادة اللَّه ﷻ من الآلهة المختلفة كالملائكة وخواص البشر والكواكب والأصنام، التي كلها ظلمات محضة، وجهالات صرفة، إلى الحق المؤسس على التوحيد الذي هو نور بحت»[٢].

وقال أبو حيان: «ولما كان قوله: إلى النور، فيه إبهام ما أوضحه بقوله: إلى صراط. ولما تقدم شيئان أحدهما إسناد إنزال هذا الكتاب إليه. والثاني إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم؛ ناسب ذكر هاتين الصفتين صفة العزة المتضمنة للقدرة والغلبة، وذلك من حيث إنزال الكتاب، وصفة الحمد المتضمنة استحقاقه الحمد من حيث الإخراج من الظلمات إلى النور، إذ الهداية إلى الإيمان هي النعمة التي يجب على العبد الحمد عليها والشكر. وتقدمت صفة العزيز، لتقدم ما دل عليها، وتليها صفة الحميد لتلو ما دل عليها»[٣].

وقال الشنقيطي: «بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أنزل على نبيه ﷺ هذا الكتاب العظيم ليخرج به الناس من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والهدى وأوضح هذا المعنى في آيات أخر كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[٤] وقوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾[٥]، الآية إلى غير ذلك من الآيات كما تقدمت الإشارة إليه وقد بين تعالى أنه لا يخرج أحدًا من الظلمات إلى النور إلا بإذنه -جل وعلا- في قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ الآية وأوضح ذلك في آيات أخر كقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٣٢١).
(٢) روح المعاني (١٣/ ١٨٠).
(٣) البحر المحيط (٥/ ٣٩٣).
(٤) الحديد: الآية (٩).
(٥) البقرة: الآية (٢٥٧).

ٱللَّهِۚ﴾[١] الآية وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾[٢] الآية إلى غير ذلك من الآيات»[٣].

وقال ابن القيم: «لما أظلمت الأرض وبعد عهد أهلها بنور الوحي، وتفرقوا في الباطل فرقا وأحزابا، لا يجمعهم جامع، ولا يحصيهم إلا الذي خلقهم، فإنهم فقدوا نور النبوة ورجعوا إلى مجرد العقول، فكانوا كما قال النبي فيما يروي عن ربه أنه قال: «**إني خلقت عبادي حنفاء، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا وإن اللَّه نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**»[٤]، فكان أهل العقول كلهم في مقته إلا بقايا متمسكين بالوحي، فلم يستفيدوا بعقولهم حين فقدوا نور الوحي إلا عبادة الأوثان أو الصلبان أو النيران أو الكواكب والشمس والقمر أو الحيرة والشك أو السحر أو تعطيل الصانع والكفر به فاستفادوا بها مقت الرب سبحانه لهم وإعراضه عنهم فأطلع اللَّه شمس الرسالة في تلك الظلم سراجا منيرا وأنعم بها على أهل الأرض في عقولهم وقلوبهم ومعاشهم ومعادهم؛ نعمة لا يستطيعون لها شكورا فأبصروا بنور الوحي ما لم يكونوا بعقولهم يبصرونه، ورأوا في ضوء الرسالة ما لم يكونوا بآرائهم يرونه فكانوا كما قال اللَّه تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾[٥]، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[٦] وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾[٧]، وقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَاۚ﴾[٨]»[٩].

---

(١) النساء: الآية (٦٤).
(٢) يونس: الآية (١٠٠).
(٣) أضواء البيان (٣/ ١٠٤).
(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٤٦٢)، ومسلم (٤/ ٢١٩٧-٢١٩٨/ ٢٨٦٥)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦-٢٧/ ٨٠٧٠-٨٠٧١).
(٥) البقرة: الآية (٢٥٧).
(٦) إبراهيم: الآية (١).
(٧) الشورى: الآية (٥٢).
(٨) الأنعام: الآية (١٢٢).
(٩) الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٦٨-١٠٦٩).

قلت: للَّه در العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ على تصويره للمنفصلين عن الهداية للوحي ولهم عقول لم تؤهلهم للهداية لعبادة اللَّه التي خلقوا من أجلها.

فالعقل إذا لم يمتلئ بالوحي فاض ضلالًا، وأصبحت حياة صاحبه كلها معكوسة منكوسة تتخبط في سبل الضلال المظلمة الحالكة، ظلمات بعضها فوق بعض، فيقع في عبادة الأوثان بكل أصناف الوثنية، وتتنوع عبادته للأوثان؛ فتارة يتجه إلى قبرٍ صاحبه قد مضت عليه مئات السنين، ولم يبق له عظم ولا لحم، إن كان حقًّا مدفونًا فيه أحد؛ وإلا فغالب القبور التي يتجه إليها هؤلاء الوثنيون هي وهمية لا حقيقية، وإن كان حقًّا فيها ميت فلا يدرى أحيوان هو أو إنسان، وإن كان إنسانًا ونسب إلى الإسلام فلا يدرى أهو من أهل الجنة أو من أهل النار، وإن كان من أهل الجنة فلا ينفع ولا يضر؛ فإن اللَّه لم يجعل لأحد القدرة بعد موته في نفع أحد أو ضره؛ لأنه في عالم البرزخ المنفصل عن عالم الدنيا.

فعباد القبور الآن في العالم الإسلامي عددهم لا يحصيه إلا اللَّه، وأحيانًا تجد العابد للقبور أو الداعية إلى ذلك كبعض الجهال الذين نشاهدهم في وقتنا الحاضر يحمل أكبر الشهادات!

وعباد الأوثان والصلبان في الغرب والشرق لم تؤهلهم اختراعاتهم لإفراد اللَّه بالعبادة؛ الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد، وهكذا عباد البقر في الهند، وعباد الأحياء من الصوفية والرافضة وأصحاب المواسم، وكلهم في ظلمات الشرك، وإن كانت عقولهم في مجال الدنيا عقولًا كبيرة لكنها لم تتنور بنور الوحي، وقس على هذا كل هداية؛ فإنها إذا لم ترتبط بالوحي فإنها توقع صاحبها في كل أهوال الجهل، ظلمات بعضها فوق بعض، فنسأل اللَّه أن ينور قلوبنا وبصيرتنا بالوحي، وأن يجعل لها منه نصيبًا وافرًا، وأن لا يحرمنا من الهداية به آمين.

* * *

قوله تعالى: ﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «ومعنى قوله: ﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ اللَّه الذي يملك جميع ما في السماوات ومَا في الأرض.

يقول لنبيه محمد ﷺ: أنزلنا إليك هذا الكتاب لتدعُوَ عِبادي إلى عِبادة مَنْ هذه صفته، وَيَدعُوا عبادَةَ من لا يملك لهم ولا لنفسه ضَرًّا ولا نفعًا من الآلهة والأوثان. ثم توعّد-جل ثناؤه- من كفر به، ولم يستجب لدعاء رسوله إلى ما دعاه إليه من إخلاص التوحيد له فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ يقول: الوادِي الذي يسيلُ من صديد أهل جهنم، لمن جحد وحدانيته، وعبد معه غيره، مِن عَذَاب اللَّه الشَّدِيد»[(١)].

وقال الشوكاني: «﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قرأ نافع وابن عامر بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هو اللَّه المتصف بملك ما في السموات وما في الأرض. وقرأ الجمهور بالجرّ على أنه عطف بيان لكونه من الأعلام الغالبة، فلا يصح وصف ما قبله به؛ لأن العلم لا يوصف به. وقيل: يجوز أن يوصف به من حيث المعنى»[(٢)].

وقال ابن عاشور: «ومآل القراءتين واحد، وكلتا الطريقتين تفيد أن المنتقل إليه أجدر بالذكر عقب ما تقدمه، فإن اسم الجلالة أعظم من بقية الصفات؛ لأنه عَلَم الذات الذي لا يشاركه موجود في إطلاقه ولا في معناه الأصلي المنقول منه إلى العلمية إلا أن الرفع أقوى وأفخم.. وإجراء الوصف بالموصول على اسم الجلالة

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٥١٤).

(٢) فتح القدير (٣/ ١٣٢).

لزيادة التفخيم لا للتعريف؛ لأن ملك سائر الموجودات صفة عظيمة، والله معروف بها عند المخاطبين. وفيه تعريض بأن صراط غير الله من طرق آلهتهم ليس بواصل إلى المقصود لنقصان ذويه. وفي ذكر هذه الصلة إدماجُ تعريض بالمشركين الذين عبدوا ما ليس له السماوات والأرض»[1].

وقال أبو السعود: «﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما وُجد فيهما داخلًا فيهما أو خارجًا عنهما متمكنًا فيهما كما مر في آية الكرسي، ففيه على القراءتين بيانٌ لكمال فخامة شأنِ الصراط وإظهارٌ لتحتم سلوكه على الناس قاطبةً، وتجويزُ الرفع على الابتداء بجعل الموصول خبرًا مبناه الغفولُ عن هذه النكتة، وقوله ﷻ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ وعيدٌ لمن كفر بالكتاب ولم يخرجْ به من الظلمات إلى النور بالويل، وهو نقيضُ الوال وهو النجاةُ، وأصله النصبُ كسائر المصادر ثم رفع رفعها للدلالة على الثبات كسلامٌ عليك ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ متعلق بويل على معنى يولولون ويضِجون منه قائلين: يا ويلاه، كقوله تعالى: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾[2]»[3].

وقال المراغي: «﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي هو الله المتصف بملك ما فيهما خلقا وتصرفا وتدبيرا. وهذه الجملة الدالة على عظمة خالق الأكوان، المنفرد بالعظمة والسلطان، قد كررت في كثير من سور الكتاب الكريم، للتنبيه إلى أن من أهم مقاصد هذا الدين أن يكون في المسلمين حكماء ربانيون، يتفهمون حقائق هذا الكون، ويدركون أسرار بدائعه، ويستخرجون للناس ما في باطن الأرض، وينتفعون بما في ظاهرها، ويتأملون فيما في السموات من بديع الصنع، وما تقدمه لنا من الخير العميم الذي ينتفع منه الإنسان والحيوان، في مأكلهما ومشربهما ومسكنهما وسائر حاجاتهما ومرافقهما. وجاء في سورة يوسف قوله تعالى توبيخا للغافلين، وحثا لهمم المستبصرين: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[4].

ومع كل هذا فوا أسفا، رأينا كثيرا من المسلمين الذين تتلى عليهم هذه الآية صباح مساء - يكتفون بمجرد تلاوتها والإيمان بها دون بحث ولا تفهم لمغزاها

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ١٨٢).
(٢) الفرقان: الآية (١٣).
(٣) تفسير أبي السعود (٥/ ٣١).
(٤) يوسف: الآية (١٠٥).

ولا المراد منها، ولا استبصار بما تنطوي عليه من المقاصد والمرامي، ولو كان ذلك كافيا لكان ذكر الخبز حين الجوع كافيا في الشبع، والنظر إلى الماء كافيا في الري.

ثم توعد الذين جحدوا آياته، وكفروا بوحدانيته، فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي وهلاك بشديد العذاب يوم القيامة لمن كفر بك، ولم يستجب دعوتك، بإخلاص التوحيد لخالق السموات والأرض، وترك عبادة من لا يملك لنفسه شيئًا، بل هو مملوك له تعالى لأنه بعض ما في السموات والأرض»[1].

* * *

(١) تفسير المراغي (١٣/ ١٢٤-١٢٥).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو السعود: «﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: يؤثرونها، استفعالٌ من المحبة، فإن المؤثرَ للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحبَّ إليها وأفضلَ عندها من غيره، ﴿عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: الحياة الآخرةِ الأبدية ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ التي بين شأنها، والاقتصارُ على الإضافة إلى الاسم الجليلِ المنطوي على كل وصفٍ جميل لروم الاختصار.. ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾ أي: يبغون لها فحُذف الجارّ وأوصل الفعلُ إلى الضمير أي يطلبون لها ﴿عِوَجًا﴾ أي: زيغًا واعوجاجًا، وهي أبعدُ شيء من ذلك؛ أي: يقولون لمن يريدون صدَّه وإضلاله: إنها سبيلٌ ناكبةٌ وزائغة غيرُ مستقيمة، ومحل موصول هذه الصلاتِ الجرُّ على أنه بدلٌ من الكافرين أو صفةٌ له، فيعتبر كلّ وصف من أوصافهم بإزاء ما يناسبه من المعاني المعتبرةِ في الصراط، فالكفرُ المنبئ عن الستر بإزاء كونه نورًا، واستحبابُ الحياة الدنيا الفانيةِ المفصحةِ عن وخامة العاقبةِ بمقابلة كونِ سلوكه محمودَ العاقبة، والصدُّ عنه بإزاء كونه مأمونًا، وفيه من الدلالة على تماديهم في الغي ما لا يخفى. أو النصبُ على الذم، أو الرفعُ على الابتداء والخبر. قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ وعلى الأول جملةٌ مستأنفة وقعت معلّلةً لما سبق من لحوق الويل بهم تأكيدًا لما أشعر به بناءُ الحكم على الموصول؛ أي: أولئك الموصوفون بالقبائح المذكورةِ من استحباب الحياةِ الدنيا على الآخرة، وصدِّ الناس عن سبيل اللّه المستقيمةِ، ووصفها بالاعوجاج، وهي منه بنزه في ضلال عن طريق الحق بعيدٍ بالغٍ في ذلك غايةَ الغايات القاصيةِ، والبعدُ وإن كان من أحوال الضالّ إلا أنه قد وُصف به وصفُه مجازًا للمبالغة كجدّ جدُّه وداهيةٌ دهياءُ، ويجوز أن يكون المعنى في ضلال ذي بُعد أو فيه بُعدٌ، فإن الضالّ قد يضِل عن الطريق مكانًا قريبًا وقد يضل بعيدًا، وفي جعل

الضلال محيطًا بهم إحاطةَ الظرف بما فيه ما لا يخفى من المبالغة»[(١)].

قال ابن كثير: «ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة؛ أي: يقدمونها ويُؤثرونها عليها، ويعملون للدنيا ونَسُوا الآخرة، وتركوها وراء ظهورهم، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهي اتباع الرسل ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: ويحبون أن تكون سبيل اللَّه عوجًا مائلة عائلة وهي مستقيمة في نفسها، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها، فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق، لا يرجى لهم -والحالة هذه- صلاح»[(٢)].

قال القرطبي: «وكل من آثر الدنيا وزهرتها، واستحب البقاء في نعيمها على النعيم في الآخرة، وصد عن سبيل اللَّه - أي صرف الناس عنه وهو دين اللَّه، الذي جاءت به الرسل، في قول ابن عباس وغيره - فهو داخل في هذه الآية، وقد قال ﷺ: «**إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون**»[(٣)] وهو حديث صحيح. وما أكثر ما هم في هذه الأزمان، واللَّه المستعان. وقيل: ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾ أي يلتمسون الدنيا من غير وجهها؛ لأن نعمة اللَّه لا تلتمس إلا بطاعته دون معصيته. ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يطلبون لها زيغا وميلا لموافقة أهوائهم، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم»[(٤)].

وقال المراغي: «ثم وصف سبحانه أولئك الكافرين بصفات ثلاث:

١- ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾[(٥)] أي إن أولئك الكافرين يطلبون الدنيا، ويعملون لها ويتمتعون بلذاتها، ويقترفون الآثام، ويرتكبون الموبقات، ويؤثرون ذلك على أعمال الآخرة التي تقربهم إلى اللَّه زلفى، وينسون يوما تجازى فيه كل نفس بما عملت، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، وفصيلته التي تؤويه، ومن في الأرض جميعا.

٢- ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي ويمنعون من تتجه عزائمهم إلى الإيمان باللَّه واتباع رسوله فيما جاء به من عند ربه، أن يؤمنوا به ويتبعوه، لما زين لهم الشيطان

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ٣١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٠٨).

(٣) سيأتي تخريجه في: الآية نفسها.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٣٣٩-٣٤٠).

(٥) إبراهيم: الآية (٣).

من سلوك سبيل الطغيان، وران على قلوبهم من الفجور والعصيان، والبعد عن كل ما يقرب إلى الرحمن.

٣- ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي ويطلبون لها الزيغ والعوج وهي أبعد ما تكون من ذلك، فيقولون لمن يريدون صدهم وإضلالهم عن سبيل اللّه ودينه، إن ذلك الدين ناء عن الصراط المستقيم، وزائغ عن الحق واليقين، وإنك لتسمع كثيرا من الملحدين يقول إن القوانين الإسلامية في الحدود والجنايات شديدة غاية الشدة وإنها تصلح للأمم العربية في البادية، لا للأمم التي أخذت قسطا عظيما من الحضارة: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[1] فتلك شريعة دانت لها أمة غيرت وجه البسيطة، وملكت ناصية العالم ردحًا من الزمان، وكانت مضرب الأمثال في العدل وترك الجور، وثلت عروش الأكاسرة والقياصرة، وامتلكت بلادهم وأزالت عزهم وسلطانهم، إلى أن غير أهلها معالمها فأركسهم اللّه بما كسبوا فبدل عزهم ذلا، وسعادتهم شقاء، وتلك سنة اللّه، أن الأرض يرثها عباده الصالحون لاستعمارها، ثُم حكم عليهم بما يستحقون فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ أي فهم باختيارهم لأنفسهم حب العاجلة، وصدهم عن الدين، وابتغائهم له الزيغ والعوج - في ضلال بعيد عن الحق لا يرجى لهم فلاح، وأنى لهم ذلك وقد كبوا على وجوههم وزين لهم الفساد والغي، فيرون حسنًا ما ليس بالحسن، وقبيحا ما ليس بالقبيح»[2].

قلت: يشير الشيخ المراغي رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الكلمة إلى واقع الزنادقة المصريين المعاصرين له بالخصوص، وزنادقة العالم العربي والإسلامي بالعموم؛ فإن مظاهر الحضارة الغربية أبهرتهم بقشابة ثوبها ولمعانها مما جعلهم يتنكبون عن الإسلام ويصفونه بما ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، والحقيقة أنهم لا للحضارة الغربية نصروا ولا للإسلام طبقوا، فهم حثالة وزبد راب لا يصلح أن ينتفع به في شيء، وكذلك أصحاب الخرافات والشركيات الذين ينتسبون للإسلام ويريدون أن يرجع الناس إلى عبادة الأوثان والأصنام، وتقليد الشيوخ المقدسين عندهم باسم الأئمة المعصومين، أو باسم شيوخ الطريقة، أو باسم المذهبيين الفقهاء، أو بأي اسم من

(١) الكهف: الآية (٥).
(٢) تفسير المراغي (١٣/ ١٢٥-١٢٦).

الأسماء التي إذا اعتصم بها المسلم ضل في عقيدته وفقهه وعبادته؛ ولذلك فالنجاة من سموم هؤلاء وشرورهم هو الاعتصام بالكتاب والسنة.

والحقيقة أن هذه الآية الكريمة التي نحن بصددها ينبغي أن تكتب على جباه أهل زماننا؛ فإنهم كما وصفهم اللَّه تعالى: استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، ويصدون عن سبيل اللَّه، ويحبون أن يعيشوا دائمًا في العوج والضلال، ويصطادون في الماء العكر، كلما ظهرت لهم فتنة أركسوا فيها، واللَّه المستعان.

وقال السعدي: «ثم وصفهم بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ﴾ فرضوا بها واطمأنوا، وغفلوا عن الدار الآخرة.

﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ التي نصبها لعباده وبينها في كتبه وعلى ألسنة رسله، فهؤلاء قد نابذوا مولاهم بالمعاداة والمحاربة، ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أي: سبيل اللَّه ﴿عِوَجًا﴾ أي: يحرصون على تهجينها وتقبيحها، للتنفير منها، ولكن يأبى اللَّه إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين ذكر وصفهم ﴿فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ لأنهم ضلوا وأضلوا، وشاقوا اللَّه ورسوله وحاربوهما، فأي ضلال أبعد من هذا؟!! وأما أهل الإيمان فبعكس هؤلاء يؤمنون باللَّه وآياته، ويستحبون الآخرة على الدنيا ويدعون إلى سبيل اللَّه ويحسنونها مهما أمكنهم، ويبغون استقامتها»[(١)].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم الأئمة المضلين الذين يصدون عن سبيل الله

* عن أبي الدرداء ﷺ قال: «عهد إلينا رسول اللَّه ﷺ: **أن أخوف ما أخاف عليكم الأئمة المضلون**»[(٢)].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «معناه: أن الأشياء التي أخافها على أمتي؛ أحقها بأن تخاف

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٢٢-١٢٣).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤٤١) والطيالسي (٩٧٥)، وذكره الشيخ الألباني في الصحيحة (١٥٨٢) لشواهده.

الأئمة المضلون»(١).

وقال المناوي: «(الأئمة) جمع إمام وهو مقتدى القوم ورئيسهم، ومن يدعوهم إلى قول أو فعل أو اعتقاد، (المضلون) يعني إذا استقصيت الأشياء المخوفة لم يوجد أخوف منه.

قال في المطامح: كان ﷺ حريصا على إصلاح أمته، راغبا في دوام خيرتها، فخاف عليهم فساد الأئمة؛ لأن بفسادهم يفسد النظام لكونهم قادة الأنام، فإذا فسدوا فسدت الرعية، وكذا العلماء إذا فسدوا فسد الجمهور من حيث إنهم مصابيح الظلام انتهى»(٢).

قلت: وما أخبر به النبي ﷺ من خوفه على أمته من الأئمة المضلين؛ قد وقع منذ زمن بعيد، فتحوا كل أبواب الشرور؛ فانتشرت الموبقات وعلى رأسها الشرك، فلا تجد شبرًا من الأرض إلا وفيه وثن باسم الولي أو الصالح، له حرم وله سدنة وله رواد ومريدون، يشدون إليه الرحال، يذبحون له ويصلون عنده ويستغيثون به، ويستعينون به في الملمات، ويطوفون به ويحجون إليه، ويقسمون به في أيمانهم، ولا يتركون مظهرًا من مظاهر الشرك إلا وفعلوه فيه وبه، وانتشر الخمر وأصبحت له مؤسسات وشركات ومعامل، وتجار يروجونه في كل مكان، بل هو من أرخص المشروبات في بعض البلاد، وهكذا معالم الربا وبقية الموبقات التي إن سردناها طال بنا المقام وسودنا فيها صفحات كثيرة، والذي سلم من هذه الموبقات من هؤلاء الأئمة قليل نادر جدًّا، والأكثرون مع الأسف على ما وصفت، وهم يحمون كل رذيلة ويدافعون عنها، ولهم علماء يؤيدونهم في ذلك ويباركون لهم في كل موبقة يبغونها ويحبونها، وقلما تجد العالم الصادق الذي يحذر من الموبقات ويدعو إلى سنة رسول الله ﷺ، فعلماء السوء هم الذين يكادون يملأون الأرض، لا كثرهم الله.

* * *

(١) شرح مسلم (١٨/ ٥١).
(٢) فيض القدير (٢/ ٤١٩).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾(١)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما أرسلنا إلى أمة من الأمم يا محمد، من قبلك ومن قبلِ قومك، رسولا إلا بلسان الأمة التي أرسلناه إليها ولغتهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ يقول: ليفهمهم ما أرسله اللَّه به إليهم من أمره ونَهيه، ليُثْبت حجة اللَّه عليهم، ثم التوفيقُ والخذلانُ بيد اللَّه، فيخذُل عن قبول ما أتاه به رسُوله من عنده من شاء منهم، ويوفّق لقبوله من شاء ولذلك رفع ﴿فَيُضِلُّ﴾؛ لأنه أريد به الابتداء لا العطف على ما قبله، كما قيل: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ﴾(٢)»(٣).

وقال ابن عطية: «هذه الآية طعن ورد على المستغربين أمر محمد ﷺ؛ أي: لست يا محمد ببدع من الرسل، وإنما أرسلناك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور على عادتنا في رسلنا، في أن نبعثهم بألسنة أممهم ليقع البيان والعبارة المتمكنة، ثم يكون سائر الناس من غير أهل اللسان عيالًا في التبيين على أهل اللسان الذي يكون للنبي، وجعل اللَّه العلة في إرسال الرسل بألسنة قومهم طلب البيان ثم قطع قوله: ﴿فَيُضِلُّ﴾ أي: إن النبي إنما غايته أن يبلغ ويبين، وليس فيما كلف أن يهدي ويضل، بل ذلك بيد اللَّه ينفذ فيه سابق قضائه، وله في ذلك العزة التي لا تعارض، والحكمة التي لا تعلل، لا رب غيره.

قال القاضي أبو محمد: فإن اعترض أعجمي بأن يقول: من أين يبين لي هذا الرسول الشريعة وأنا لا أفهمه؟ قيل له: أهل المعرفة باللسان يعبرون ذلك، وفي

(١) إبراهيم: الآية (٤).
(٢) الحج: الآية (٥).
(٣) جامع البيان (١٦/ ٥١٦).

ذلك كفايتك.

فإن قال: ومن أين تتبين لي المعجزة وأفهم الإعجاز وأنا لا أفقه اللغة؟ قيل له: الحجة عليك إذعان أهل الفصاحة والذين كانوا يظن بهم أنهم قادرون على المعارضة وبإذعانهم قامت الحجة على البشر، كما قامت الحجة في معجزة موسى بإذعان السحرة، وفي معجزة عيسى بإذعان الأطباء»[1].

وقال أبو السعود: «﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ أي: في الأمم الخاليةِ من قبلك كما سيذكر إجمالًا ﴿مِن رَّسُولٍ إِلَّا﴾ ملتبسًا ﴿بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ متكلمًا بلغة من أُرسل إليهم من الأمم المتفقة على لغة سواءٌ بعث فيهم أو لا، . . ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ ما أمروا به فيتلقَّوه منه بيُسر وسُرعة ويعملوا بموجبه من غير حاجة إلى الترجمة ممن لم يُؤمر به، وحيث لم يمكن مراعاةُ هذه القاعدة في شأن سيدنا محمدٍ ﷺ وعليهم أجمعين لعموم بعثتِه للثقلين كافةً على اختلاف لغاتِهم وكان تعددُ نظمِ الكتاب المنزل إليه حسب تعددِ ألسنة الأممِ أدعى إلى التنازع واختلافِ الكلمةِ وتطرّقِ أيدي التحريف مع أن استقلال بعضٍ من ذلك بالإعجاز دون غيره مَئِنّةٌ لقدح القادحين واتفاقَ الجميع فيه أمرٌ قريب من الإلجاء وحصرِ البيانِ بالترجمة والتفسير اقتضت الحكمةُ اتحادَ النظمِ المنبئ عن العزة وجلالةِ الشأن المستتبعِ لفوائدَ غنيةٍ عن البيان، على أن الحاجة إلى الترجمة تتضاعف عند التعددِ إذ لا بد لكل أمةٍ من معرفة توافق الكلِّ وتحاذيه حذوَ القُذّة بالقذة من مخالفة ولو في خَصلة فذّة، وإنما يتم ذلك بمن يترجم عن الكل واحدًا أو متعددًا وفيه من التعذر ما يتاخم الامتناعَ، ثم لما كان أشرفَ الأقوام وأولاهم بدعوته عليه الصلاة والسلام قومُه الذين بعث فيهم ولغتُهم أفضلَ اللغات؛ نزل الكتابُ المتين بلسان عربي مبين، وانتشرت أحكامُه فيما بين الأمم أجمعين.
وقيل: الضمير في قومه لمحمد ﷺ، فإنه تعالى أنزل الكتب كلَّها عربيةً ثم ترجمها جبريلُ -عليه الصلاة والسلام-، أو كلٌّ من نزل عليه من الأنبياء ﷺ بلغة من نزل عليهم، ويرده قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ فإنه ضميرُ القوم وظاهرٌ أن جميع الكتب لم تنزل لتبيين العرب وفي رَجْعه إلى قوم كل نبي كأنه قيل: وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومِ محمد ﷺ ليبين الرسولُ لقومه الذين أرسل إليهم ما لا يخفى من

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٣٢٣).

التكلف ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ إضلالَه أي يخلق فيه الضلالَ لمباشرة أسبابِه المؤدية إليه أو يخذله ولا يلطُف به لما يعلم أنه لا ينجع فيه الإلطاف ﴿وَيَهْدِى﴾ بالتوفيق ومنح الإلطاف ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَه لما فيه من الإنابة والإقبال إلى الحق، والالتفاتُ بإسناد الفعلين إلى الاسم الجليل المنطوي على الصفات لتفخيم شأنِهما وترشيح مناطِ كل منهما، والفاء فصيحة مثلها في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ﴾[1] كأنه قيل: فبيّنوه لهم فأضل اللَّه منهم من شاء إضلالَه لما لا يليق إلا به وهدى من شاء هدايتَه لاستحقاقه لها، والحذفُ للإيذان بأن مسارعة كلِّ رسول إلى ما أمر به وجريانَ كل من أهل الخذلان والهدايةِ على سنته أمرٌ محققٌ غنيٌّ عن الذكر والبيانِ. والعدولُ إلى صيغة الاستقبالِ لاستحضار الصورةِ أو للدلالة على التجدد والاستمرارِ حسب تجدد البيانِ من الرسل المتعاقبةِ عليهم السلام، وتقديمُ الإضلال على الهداية إما لأنه إبقاءُ ما كان على ما كان، والهدايةُ إنشاءُ ما لم يكن، أو للمبالغة في بيان أن لا تأثيرَ للتبيين والتذكير من قبل الرسلِ، وأن مدارَ الأمر إنما هو مشيئتُه تعالى بإيهام أن ترتبَ الضلالةِ على ذلك أسرعُ من ترتب الاهتداءِ وهذا محقِّقٌ لما سلف من تقييد الإخراجِ من الظلمات إلى النور بإذن اللَّه تعالى»[2].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويستدل بهذه الآية الكريمة على أن علوم العربية الموصلة إلى تبيين كلامه وكلام رسوله أمور مطلوبة محبوبة لله؛ لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها. إلا إذا كان الناس في حالة لا يحتاجون إليها، وذلك إذا تمرنوا على العربية، ونشأ عليها صغيرهم، وصارت طبيعة لهم، فحينئذ قد اكتفوا المؤنة وصلحوا لأن يتلقوا عن اللَّه وعن رسوله ابتداءً كما تلقى الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ»[3].

قال ابن عاشور: «وإنما كان المخاطب أولًا هم العرب الذين هو بين ظهرانيهم ونزل الكتاب بلغتهم لتعذر نزوله بلغات الأمم كلها، فاختار اللَّه أن يكون رسوله عليه الصلاة والسلام من أمة هي أفصح الأمم لسانًا، وأسرعهم أفهامًا، وألمعهم ذكاءً، وأحسنهم استعدادًا لقبول الهدى والإرشاد، ولم يؤمن برسول من الرسل في

---

(١) الشعراء: الآية (٦٣).

(٢) تفسير أبي السعود (٥/ ٣٢-٣٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٢٣-١٢٤).

حياته عددٌ من الناس مثل الذين آمنوا بمحمّد ﷺ في حياته فقد عم الإسلامُ بلاد العرب وقد حج مع النبي ﷺ في حجة الوداع نحو خمسين ألفًا أو أكثر. وقيل مائة ألف وهم الرجال المستطيعون. واختار أن يكون الكتاب المنزل إليهم بلغة العرب؛ لأنها أصلح اللغات جمعَ معان، وإيجاز عبارة، وسهولة جري على الألسن، وسرعة حفظ، وجمال وقع في الأسماع، وجعلت الأمة العربية هي المتلقية للكتاب بادئ ذي بدء، وعهد إليها نشره بين الأمم. وفي التعليل بقوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ إيماء إلى هذا المعنى؛ لأنه لما كان المقصود من التشريع البيان كانت أقرب اللغات إلى التبيين من بين لغات الأمم المرسل إليهم هي اللغة التي هي أجدر بأن يأتي الكتاب بها، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[١]. فهذا كله من مطاوي هذه الآية»[٢].

وقال القاسمي: «وقال بعض المحققين: يقول قائل: ألا تدل هذه الآية على أن بعثة النبي ﷺ كانت للعرب خاصة؟ نقول: لا؛ لأنه جرت سنة اللّه أن يختار أمة واحدة ويعدها لتهذيب الأمم الأخرى، كما يعد فردا واحدا منها لتهذيب سائر أفرادها. ولما كانت الأمة العربية هي المختارة لتهذيب الأمم وتعديل عوجها وإقامة منار العدل في ذلك العالم المظلم -فقد وجب أن التهذيب الإلهي ينزل بلغتها خاصة حتى تستعد وتتهيأ لأداء وظيفتها. وقد أتم اللّه نعمته عليها، فقامت بما عهد إليها بما أدهش العالم أجمع، ولله في خلقه شؤون»[٣].

وقال القرطبي: «﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ رد على القدرية في نفوذ المشيئة، وهو مستأنف، وليس بمعطوف على ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ لأن الإرسال إنما وقع للتبيين لا للإضلال.

ويجوز النصب في (يضل) لأن الإرسال صار سببًا للإضلال، فيكون كقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[٤] وإنما صار الإرسال سببًا للإضلال لأنهم كفروا به لما جاءهم، فصار كأنه سبب لكفرهم»[٥].

---

(١) الشعراء: الآيات (١٩٣-١٩٥).
(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ١٨٧).
(٣) محاسن التأويل (١٠/ ٧).
(٤) القصص: الآية (٨).
(٥) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٣٤٠-٣٤١).

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة فيمن تكلم بالفارسية والرطانة

* عن جابر بن عبدالله ﷺ قال: قلت يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطحنت صاعًا من شعير فتعال أنت ونفر. فصاح النبي ﷺ فقال: «**يا أهل الخندق، إن جابرًا قد صنع سورًا، فحي هلا بكم**»[(١)].

★ غريب الحديث:

فحي هلا بكم: قال العيني: «مركب من (حي) و(هل)، وقد يبنى على الفتح، وقد يقال: حيّهلًا بالتنوين، وحيّهلا بلا تنوين، وعليها الرواية أي: عليكم بكذا، أو أدعوكم، أو أقبلوا، أو أسرعوا بأنفسكم. وجاء: حيّهَلْ بسكون اللام، وحيّهْلَ بسكون الهاء وفتح اللام مع الألف وبدون الألف، وحيّهْلًا بسكون الهاء وبالتنوين، وجاء معديًا بنفسه، وبالباء، وبإلى وبعلى»[(٢)].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «والغرض منه قوله: «إن جابرًا قد صنع سورًا» وهو بضم المهملة وسكون الواو. قال الطبري: السور بغير همز: الصنيع من الطعام الذي يدعى إليه وقيل: الطعام مطلقًا، وهو بالفارسية، وقيل: بالحبشية، وبالهمز: بقية الشيء، والأول هو المراد هنا. قال الإسماعيلي: السور كلمة بالفارسية. قيل له: أليس هو الفضلة؟ قال: لم يكن هناك شيء فضل ذلك منه، إنما هو بالفارسية من أتى دعوة. وأشار المصنف (أي البخاري) إلى ضعف ما ورد من الأحاديث الواردة في كراهة الكلام بالفارسية كحديث «كلام أهل النار بالفارسية» وكحديث «**من تكلم بالفارسية زادت في خبثه ونقصت من مروءته**»[(٣)] أخرجه الحاكم في مستدركه وسنده واهٍ. وأخرج فيه أيضًا عن عمر رفعه: «**من أحسن العربية فلا يتكلمن بالفارسية فإنه يورث النفاق**»[(٤)] الحديث وسنده واهٍ أيضًا»[(٥)].

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٧٧)، والبخاري (٦/ ٢٢٥/ ٣٠٧٠) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٦١٠و١٦١١/ ٢٠٣٩).

(٢) عمدة القاري (١٠/ ٤٠١-٤٠٢).

(٣) أخرجه الحاكم (٤/ ٨٨)، حديث أنس بن مالك ﷺ وسكت عنه، قال الذهبي: ليس بصحيح وإسناده واه بمرة.

(٤) أخرجه الحاكم (٤/ ٨٧)، وسكت عنه وقال الذهبي: فيه عمرو بن هارون كذبه ابن معين، وتركه الجماعة.

(٥) فتح الباري (٦/ ٢٢٦-٢٢٧).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كأنه -يعني البخاري- أشار إلى أن النبي ﷺ كان يعرف الألسنة لأنه أرسل إلى الأمم كلها على اختلاف ألسنتهم، فجميع الأمم قومه بالنسبة إلى عموم رسالته، فاقتضى أن يعرف ألسنتهم ليفهم عنهم ويفهموا عنه، ويحتمل أن يقال: لا يستلزم ذلك نطقه بجميع الألسنة لإمكان الترجمان الموثوق به عندهم»[(١)].

* عن أم خالد بنت خالد بن سعيد رضي الله عنها قالت: «أتيت رسول اللَّه ﷺ مع أبي وعلي قميص أصفر، قال رسول اللَّه ﷺ: سَنَه، سَنَه. قال عبد اللَّه (أي: الراوي عن أبيها): وهي بالحبشية: حسنة. قالت: فذهبت ألعب بخاتم النبوة، فزبرني أبي. قال رسول اللَّه ﷺ: دعها. ثم قال رسول اللَّه ﷺ: **أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي، ثم أبلي وأخلقي**. قال عبد الله: فبقيت حتى ذكر»[(٢)].

★ غريب الحديث:

قال الحافظ: «سَنَه سَنَه» وهو بفتح النون وسكون الهاء، وفي رواية الكشميهني «سناه» بزيادة ألف، والهاء فيهما للسكت، وقد تحذف، قال ابن قرقول: هو بفتح النون الخفيفة عند أبي ذر وشددها الباقون وهي بفتح أوله للجميع إلا القابسي فكسره»[(٣)].

★ فوائد الحديث:

قال العيني: «وفيه: جواز الرطانة بغير العربية؛ لأن الكلام بغير العربية يحتاج المسلمون إليه للتكلم مع رسل العجم، وقد أمر الشارع زيد بن ثابت بكلام العجم. وقال ابن التين: إنما يكره أن يتكلم بالعجمية إذا كان بعض من حضر لا يفهمها، فيكون كمناجي القوم دون الثالث. قال الداودي: إذا لم يعرفها اثنان فأكثر يلزم أن يجوز ذلك»[(٤)].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما الرطانة وتسمية شهورهم بالأسماء العجمية.

فقال أبو محمد الكرماني المسمى بحرب باب: تسمية الشهور بالفارسية قلت

---

(١) فتح الباري (٦/ ٢٢٦).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٦٥)، والبخاري (٦/ ٢٢٥-٢٢٦/ ٣٠٧١) واللفظ له، وأبو داود (٤/ ٣١١/ ٤٠٢٤).

(٣) فتح الباري (٦/ ٢٢٧).

(٤) عمدة القاري (١٠/ ٤٠٣).

لأحمد فإن للفرس أياما وشهورا يسمونها بأسماء لا تعرف؟ فكره ذلك أشد الكراهة. وروى فيه عن مجاهد أنه يكره أن يقال: آذرماه وذي ماه. قلت: فإن كان اسم رجل أسميه به فكرهه، وقال: وسألت إسحاق قلت: تاريخ الكتاب يكتب بالشهور الفارسية مثل آذرماه وذي ماه، قال: إن لم يكن في تلك الأسامي اسم يكره فأرجو.

قال: وكان ابن المبارك يكره إيزدان يحلف به، وقال: لا آمن أن يكون أضيف إلى شيء يعبد، وكذلك الأسماء الفارسية.

قال: وكذلك أسماء العرب كل شيء مضاف

قال: وسألت إسحاق مرة أخرى قلت: الرجل يتعلم شهور الروم والفرس؟ قال: كل اسم معروف في كلامهم فلا بأس.

فما قاله أحمد من كراهة هذه الأسماء له وجهان:

أحدهما: إذا لم يعرف معنى الاسم جاز أن يكون معنى محرمًا فلا ينطق المسلم بما لا يعرف معناه، ولهذا كرهت الرقى العجمية كالعبرانية أو السريانية أو غيرها، خوفا أن يكون فيها معان لا تجوز.

وهذا المعنى هو الذي اعتبره إسحق، ولكن إذا علم أن المعنى مكروه فلا ريب في كراهته، وإن جهل معناه فأحمد كرهه. وكلام إسحق يحتمل أنه لم يكره.

والوجه الثاني: كراهة أن يتعود الرجل النطق بغير العربية، فإن اللسان العربي شعار الإسلام وأهله، واللغات من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميزون.

ولهذا كان كثير من الفقهاء أو أكثرهم يكرهون في الأدعية التي في الصلاة والذكر: أن يدعى اللَّه أو يذكر بغير العربية...

وأما الخطاب بها من غير حاجة في أسماء الناس والشهور: كالتواريخ ونحو ذلك؛ فهو منهي عنه مع الجهل بالمعنى بلا ريب. وأما مع العلم به: فكلام أحمد بيّن في كراهته أيضًا. فإنه كره آذرماه ونحوه. ومعناه ليس محرمًا. وأظنه سئل عن الدعاء في الصلاة بالفارسية؟ فكرهه. وقال: لسان سوء. وهو أيضًا قد أخذ بحديث عمر رضي الله عنه الذي فيه النهي عن رطانتهم، وعن شهود أعيادهم. وهذا قول مالك أيضًا. فإنه قال: لا يُحرم بالعجمية، ولا يدعو بها. ولا يحلف بها. وقال: نهى عمر عن رطانة الأعاجم. وقال: «إنها خِبّ». فقد استدل بنهي عمر عن الرطانة مطلقًا.

وقال الشافعي فيما رواه السلفي بإسناد معروف إلى محمد بن عبدالله بن الحكم قال: سمعت محمد بن إدريس الشافعي يقول: (سمى الله الطالبين من فضله في الشراء والبيع: تجارًا، ولم تزل العرب تسميهم التجار، ثم سماهم رسول الله ﷺ[1] بما سمى الله به من التجارة بلسان العرب، والسماسرة اسم من أسماء العجم، فلا نحب أن يسمي رجل يعرف العربية تاجرًا إلا تاجرًا، ولا ينطق بالعربية فيسمي شيئًا بالعجمية، وذلك أن اللسان الذي اختاره الله ﷻ لسان العرب، فأنزل به كتابه العزيز، وجعله لسان خاتم أنبيائه محمد ﷺ. ولهذا نقول: ينبغي لكل أحد يقدر على تعلم العربية: أن يتعلمها؛ لأنها اللسان الأولى بأن يكون مرغوبًا فيه من غير أن يحرم على أحد أن ينطق بالعجمية).

فقد كره الشافعي لمن يعرف العربية أن يسمى بغيرها، وأن يتكلم بها خالطًا لها بالعجمية. وهذا الذي ذكره قاله الأئمة؛ مأثور عن الصحابة والتابعين. وقد قدمنا عن عمر وعلي رضي الله عنهما ما ذكرناه.

وروى أبو بكر بن أبي شيبة في المصنف[2]: حدثنا وكيع عن أبي هلال عن أبي بريدة قال: قال عمر: (ما تعلم الرجل الفارسية إلا خَبَّ، ولا خبَّ رجل إلا نقصت مروءته).

وقال: حدثنا وكيع عن ثور عن عطاء قال: (لا تعلموا رطانة الأعاجم، ولا تدخلوا عليهم كنائسهم، فإن السخط ينزل عليهم).

وهذا الذي رويناه فيما تقدم عن عمر رضي الله عنه.

وقال: حدثنا إسماعيل بن علية عن داود بن أبي هند أن محمد بن سعد بن أبي وقاص سمع قومًا يتكلمون بالفارسية، فقال: ما بال المجوسية بعد الحنيفية؟[3]... ونقل عن طائفة منهم: أنهم كانوا يتكلمون بالكلمة بعد الكلمة من العجمية.

---

(١) مثل حديث ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «التاجر الأمين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة» أخرجه ابن ماجه (٢/ ٧٢٤/ ٢١٣٩) وصححه الحاكم (٢/ ٦)، وذكره الشيخ الألباني في الصحيحة (٣٤٥٣).

(٢) (٥/ ٢٩٩/ ٢٦٢٨٠).

(٣) ابن أبي شيبة (٥/ ٢٩٩/ ٢٦٢٨٢).

قال أبو خلدة: (كلمني أبو العالية بالفارسية). وقال منذر الثوري: (سأل رجل محمد بن الحنفية عن الجبن؟ فقال: يا جارية اذهبي بهذا الدرهم فاشتري به نبيزًا، فاشترت به نبيزًا، ثم جاءت به) يعني الخبز.

وفي الجملة: فالكلمة بعد الكلمة من العجمية أمرها قريب، وأكثر ما كانوا يفعلون ذلك، إما لكون المخاطب أعجميًّا، أو قد اعتاد العجمية، يريدون تقريب الأفهام عليه، كما قال النبي ﷺ لأم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص وكانت صغيرة، قد ولدت بأرض الحبشة لما هاجر أبوها «فكساها النبي ﷺ قميصًا، وقال: **يا أم خالد هذا سَنَا**» والسنا بلغة الحبشة: الحسن.

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال لمن أوجعه بطنه: «أشكم بدرد» وبعضهم يرويه مرفوعًا[(١)]. ولا يصح.

وأما اعتياد الخطاب بغير العربية التي هي شعار الإسلام ولغة القرآن، حتى يصير ذلك عادة للمصر وأهله، ولأهل الدار، وللرجل مع صاحبه، ولأهل السوق، أو للأمراء، أو لأهل الديوان، أو لأهل الفقه: فلا ريب أن هذا مكروه؛ فإنه من التشبه بالأعاجم، وهو مكروه كما تقدم.

ولهذا كان المسلمون المتقدمون، لما سكنوا أرض الشام ومصر -ولغة أهلهما رومية- وأرض العراق وخراسان -ولغة أهلهما فارسية- وأهل المغرب -ولغة أهلها بربرية-: عوّدوا أهل هذه البلاد العربية، حتى غلبت على أهل هذه الأمصار مسلمهم وكافرهم. وهكذا كانت خراسان قديمًا، ثم إنهم تساهلوا في أمر اللغة، واعتادوا الخطاب بالفارسية، حتى غلبت عليهم، وصارت العربية مهجورة عند كثير منهم، ولا ريب أن هذا مكروه.

وإنما الطريق الحسن: اعتياد الخطاب بالعربية، حتى يتلقنها الصغار في الدور والمكاتب، فيظهر شعار الإسلام وأهله، ويكون ذلك أسهل على أهل الإسلام في فقه معاني الكتاب والسنة وكلام السلف، بخلاف من اعتاد لغة ثم أراد أن ينتقل إلى أخرى فإنه يصعب عليه.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١١٤٤/ ٣٤٥٨)، وقال البوصيري في الزوائد: في إسناده ليث وهو ابن سليم وقد ضعفه الجمهور، وفيه أيضا دؤاد بن علية قال فيه ابن حبان: منكر الحديث جدا.

واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيرًا قويًا بينًا، ويؤثر أيضًا في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين. ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق.

وأيضًا فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب؛ فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ثم منها ما هو واجب على الأعيان. ومنها ما هو واجب على الكفاية.

وهذا معنى ما رواه أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا عيسى بن يونس عن ثور عن عمر ابن يزيد قال: «كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أما بعد، فتفقهوا في السنة، وتفقهوا في العربية، وأعربوا القرآن، فإنه عربي»[١].

وفي حديث آخر عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «**تعلموا العربية، فإنها من دينكم، وتعلموا الفرائض، فإنها من دينكم**»[٢].

وهذا الذي أمر به عمر رضي الله عنه من فقه العربية وفقه الشريعة: يجمع ما يحتاج إليه؛ لأن الدين فيه فقه أقوال وأعمال، ففقه العربية: هو الطريق إلى فقه أقواله وفقه السنة هو الطريق إلى فقه أعماله»[٣].

قلت: لا شك أن العناية باللغة العربية دراسةً وفهمًا ونطقًا علامة من علامات صدق المسلمين، وأن الإسلام الذي هو الكتاب والسنة نزل بلغة العرب على أفصح رجل من العرب، والتنكر للغة العربية ومحاربتها وتشويهها هي حملة المنافقين في القديم والحديث، وأما واقع المسلمين في الوقت الحاضر فاللغة تابعة عندهم للرقي الذي تحوزه الأمة الراقية من الغزاة لبلاد الإسلام، فالعرب قد رفضوا لغتهم وقوانينهم ومناهجهم وعاداتهم وأخلاقهم، فتربت أجيالهم على أيدي الاستعمار، وأصبحت لغة المستعمر هي اللغة الرسمية، وإن كان المسلمون يزعمون أنها اللغة العربية في دساتيرهم، لكن في الحقيقة اللغة الرسمية هي لغة الغازي، فمن غزاه

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٥/ ٢٤٠/ ٢٥٦٥٢).
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١١٦-١١٧/ ٢٩٩٢٢).
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٦١-٤٧١).

الإنجليز فلغته الرسمية الإنجليزية، ومن غزاه الفرنسيون فلغته الرسمية هي الفرنسية، وأصبحت اللغة العربية غريبة جدًّا.

والحق الذي ينبغي أن يستقر في الأذهان هو أن اللغة العربية هي الوسيلة إلى فهم الكتابة والسنة، وقد تفطن لهذا صحابة رسول اللَّه ﷺ، حيث إنهم إذا ما فتحوا مصرًا من الأمصار سارعوا إلى تعليم أهله اللغة العربية، والكلام في هذا يطول.

وأما اللغات الأخرى فتتعلم لأغراض كثيرة منها الدعوة إلى اللَّه، ومنها الاطلاع على ما عند الآخرين من علوم وفنون. والأمور بحسبها؛ فلا نغلو فنحرّم تعليم اللغات الأجنبية، ولا نغمص اللغة العربية حقّها، لكن كما سبق يجب أن تكون اللغة العربية عند جميع المسلمين هي المقدَّمة؛ في مناهجهم التعليمية تكون هي أول مادة يتعلمها الطالب وتعطى حقها من الزمن الذي يتمكن معه الطالب من فهمها الفهم الكامل، وهكذا في وسائل إعلامهم وجرائدهم مع الاعتناء بتراثهم إن كان فيه ما يخدم دينهم أو دنياهم.

وإلا فلغة المسلم أينما كان هي العربية، ويجب أن تعلم للمرأة مع أبنائها والرجل مع أولاده، وكل العلائق الاجتماعية يجب أن تكون بالعربية، وباللَّه التوفيق.

* عن أبي هريرة ﷺ أن الحسن بن علي أخذ تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه؛ فقال له النبي ﷺ بالفارسية: «**كخ، كخ، أما تعرف أنا لا نأكل الصدقة؟**»[(١)].

⋆ **غريب الحديث:**

كخ كخ: قال العيني: «وهو بفتح الكاف وكسرها وسكون الخاء المعجمة وكسرها وبالتنوين مع الكسر وبغير تنوين، وهي كلمة يزجر بها الصبيان من المستقذرات، يقال له: كخ؛ أي: اتركها وارمِ بها.

وقال ابن دريد: يقال: كخ يكخ كخًا: إذا نام فقط. وقال الداودي: كلمة أعجمية عربت»[(٢)].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٧٩)، والبخاري (٦/ ٢٢٦/ ٣٠٧٢) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٧٥١/ ١٠٦٩)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٩٤/ ٨٦٤٥).

(٢) عمدة القاري (١٠/ ٤٠٣).

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الغرض منه قوله: «كخ كخ» وهي كلمة زجر للصبي عما يريد فعله. . . وقد نازع الكرماني في كون الألفاظ الثلاثة عجمية؛ لأن الأول يجوز أن يكون من توافق اللغتين، والثاني يجوز أن يكون أصله (حسنة) فحذف أوله إيجازًا، والثالث من أسماء الأصوات. وقد أجاب عن الأخير ابن المنير فقال: وجه مناسبته أنه ﷺ خاطبه بما يفهمه مما لا يتكلم به الرجل مع الرجل، فهو كمخاطبة العجمي بما يفهمه من لغته. قلت: وبهذا يجاب عن الباقي، ويزاد بأن تجويزه حذف أول حرف من الكلمة لا يعرف، وتشبيهه بقوله: «كفى بالسيف شا» لا يتجه؛ لأن حذف الأخير معهود في الترخيم، والله أعلم»(١).

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن الله ﷻ فضل محمدًا ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. قالوا: يا ابن عباس ما فضله على أهل السماء؟ قال: لأن الله ﷻ قال لأهل السماء: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢)، وقال الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾(٣) قالوا: يا ابن عباس: ما فضله على الأنبياء؟ قال: لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ وقال الله لمحمد ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾(٤) فأرسله الله ﷻ إلى الإنس والجن»(٥).

---

(١) فتح الباري (٦/ ٢٢٧-٢٢٨).
(٢) الأنبياء: الآية (٢٩).
(٣) الفتح: الآيتان (١و٢).
(٤) سبأ: الآية (٢٨).
(٥) أخرجه: أبو يعلى (٥/ ٩٦/ ٢٧٠٥) من طريق إبراهيم بن يحيى وهو العدني، قال الذهبي في الميزان (١/ ٧٣): «إبراهيم بن يحيى العدني عن الحكم بن أبان. وعنه سفيان بن عيينة بخبر منكر والرجل نكرة» وأضاف الحافظ ابن حجر في لسان الميزان (١/ ١٢٤): «وهذا الرجل ذكره ابن حبان في الثقات»، وتابعه عند الطبراني (١١/ ٢٣٩-٢٤٠/ ١١٦١٠)، والحاكم (٢/ ٣٥٠) يزيد بن أبي حكيم، قال فيه الحافظ في التقريب: «صدوق». وقال الحاكم: «صحيح الإسناد فإن الحكم بن أبان قد احتج به جماعة من أئمة الإسلام» ووافقه الذهبي. وتابع إبراهيم بن يحيى عند البيهقي في الدلائل (٥/ ٤٨٦-٤٨٧) واللفظ له: حفص بن عمر العدني وقال الحافظ في التقريب: «ضعيف». والحديث ذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٥٤-٢٥٥) وقال: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير الحكم بن أبان وهو ثقة ورواه أبو يعلى باختصار كثير»، والدارمي: (١/ ١٩٤-١٩٣) وصحح إسناده محققه حسين سليم أسد.

★ **فوائد الحديث:**

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «يجب على الإنسان أن يعلم أن اللَّه عَزَّ وَجَلَّ أرسل محمدًا ﷺ إلى جميع الثقلين الإنس والجن، وأوجب عليهم الإيمان به وبما جاء به وطاعته، وأن يحللوا ما حلل اللَّه ورسوله ويحرموا ما حرم اللَّه ورسوله، وأن يوجبوا ما أوجبه اللَّه ورسوله، ويحبوا ما أحبه اللَّه ورسوله، ويكرهوا ما كرهه اللَّه ورسوله، وأن كل من قامت عليه الحجة برسالة محمد ﷺ من الإنس والجن فلم يؤمن به استحق عقاب اللَّه تعالى كما يستحقه أمثاله من الكافرين الذين بعث إليهم الرسول.

وهذا أصل متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين، وسائر طوائف المسلمين: أهل السنة والجماعة، وغيرهم، رضي اللَّه عنهم أجمعين»[(١)].

وقال: «إن دعوة محمد ﷺ شاملة للثقلين الإنس والجن على اختلاف أجناسهم، فلا يظن أنه خص العرب بحكم من الأحكام أصلًا، بل إنما علق الأحكام باسم مسلم وكافر، ومؤمن ومنافق، وبر وفاجر، ومحسن وظالم، وغير ذلك من الأسماء المذكورة في القرآن والحديث، وليس في القرآن ولا الحديث تخصيص العرب بحكم من أحكام الشريعة، ولكن بعض العلماء ظن ذلك في بعض الأحكام وخالفه الجمهور، كما ظن طائفة منهم أبو يوسف أنه خص العرب بأن لا يسترقوا، وجمهور المسلمين على أنهم يسترقون كما صحت بذلك الأحاديث الصحيحة»[(٢)].

وقال أيضًا: «والمقصود هنا: أن النبي ﷺ إنما علق الأحكام بالصفات المؤثرة فيما يحبه اللَّه وفيما يبغضه، فأمر بما يحبه اللَّه، ودعا إليه بحسب الإمكان، ونهى عما يبغضه اللَّه، وحسم مادته بحسب الإمكان، لم يخص العرب بنوع من أنواع الأحكام الشرعية؛ إذ كانت دعوته لجميع البرية؛ لكن نزل القرآن بلسانهم، بل نزل بلسان قريش. كما ثبت عن عمر بن الخطاب أنه قال لابن مسعود: أقرئ الناس بلغة قريش فإن القرآن نزل بلسانهم[(٣)]. وكما قال عثمان للذين يكتبون المصحف من قريش والأنصار: إذا اختلفتم في شيء فاكتبوه بلغة هذا الحي من قريش، فإن القرآن نزل بلسانهم، وهذا لأجل التبليغ؛ لأنه بلغ قومه أولًا ثم بواسطتهم بلغ سائر الأمم، وأمره اللَّه بتبليغ قومه أولًا، ثم بتبليغ الأقرب فالأقرب إليه، كما أمر بجهاد

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٩-١٠). (٢) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٨).
(٣) أخرجه البخاري (٩/ ١٣/ ٤٩٨٧)، والترمذي (٥/ ٢٦٥-٢٦٦/ ٣١٠٤).

الأقرب فالأقرب»[١].

وقال أيضًا: «والمقصود هنا أنه أرسل إلى جميع الثقلين الإنس والجن، فلم يخص العرب دون غيرهم من الأمم بأحكام شرعية، ولكن خص قريشًا بأن الإمامة فيهم، وخص بني هاشم بتحريم الزكاة عليهم، وذلك لأن جنس قريش لما كانوا أفضل وجب أن تكون الإمامة في أفضل الأجناس مع الإمكان، وليست الإمامة أمرًا شاملًا لكل أحد منهم، وإنما يتولاها واحد من الناس.

وأما تحريم الصدقة فحرمها عليه وعلى أهل بيته تكميلًا لتطهيرهم ودفعًا للتهمة عنه، كما لم يورث، فلا يأخذ ورثته درهمًا ولا دينارًا، بل لا يكون له ولمن يمونه من مال اللَّه إلا نفقتهم، وسائر مال اللَّه يصرف فيما يحبه اللَّه ورسوله، وذوو قرباه يعطون بمعروف من مال الخمس، والفيء الذي يعطى منه في سائر مصالح المسلمين لا يختص بأصناف معينة كالصدقات. . . والمقصود هنا أن بعض آيات القرآن، وإن كان سببه أمورًا كانت في العرب، فحكم الآيات عام يتناول ما تقتضيه الآيات لفظًا ومعنى في أي نوع كان، ومحمد ﷺ بعث إلى الإنس والجن. . . والمراد هنا أن محمدًا ﷺ أرسل إلى الثقلين: الإنس والجن، وقد أخبر اللَّه في القرآن أن الجن استمعوا القرآن وأنهم آمنوا به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٢]، ثم أمره أن يخبر الناس بذلك فقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾[٣] إلخ، فأمره أن يقول ذلك ليعلم الإنس بأحوال الجن، وأنه مبعوث إلى الإنس والجن؛ لما في ذلك من هدى الإنس والجن ما يجب عليهم من الإيمان باللَّه ورسله واليوم الآخر، وما يجب من طاعة رسله ومن تحريم الشرك بالجن وغيرهم، كما قال في السورة: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[٤]»[٥].

وقد تقدم الكلام عليه في مواضع منها سورة الأعراف، عند قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[٦].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٢٧-٢٨).
(٢) الأحقاف: الآيات (٢٩-٣٢).
(٣) الجن: الآية (١).
(٤) الجن: الآية (٦).
(٥) مجموع الفتاوى (١٩/ ٣٠-٣٣).
(٦) الأعراف: الآية (١٥٨).

* عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لم يبعث اللَّه نبيًّا إلا بلغة قومه**»[١].

* عن جابر بن عبد اللَّه الأنصاري رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي. كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود.. وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي. وجعلت لي الأرض طيبة طهورًا ومسجدًا. فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان. ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر. وأعطيت الشفاعة**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «قوله ﷺ: «**وبعثت إلى كل أحمر وأسود**» وفي الرواية الأخرى: «**إلى الناس كافة**» قيل: المراد بالأحمر: البيض من العجم وغيرهم، وبالأسود: العرب؛ لغلبة السمرة فيهم وغيرهم من السودان. وقيل: المراد بالأسود: السودان، وبالأحمر: من عداهم من العرب وغيرهم. وقيل: الأحمر: الإنس، والأسود: الجن، والجميع صحيح، فقد بعث إلى جميعهم»[٣].

وقال القرطبي: «يعني كافة الخلق كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾»[٤].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٨) وذكره الهيثمي (٧/ ٤٣) وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، إلا أن مجاهدًا لم يسمع من أبي ذر»، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع بقوله يشهد له القرآن. وقال المناوي في الفيض (٥/ ٢٩٣): «ومصداقه في القرآن».

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٤)، والبخاري (١/ ٥٧٤/ ٣٣٥)، ومسلم (١/ ٣٧٠-٣٧١/ ٥٢١) واللفظ له، والنسائي (١/ ٢٢٩-٢٣١/ ٤٣٠).

(٣) شرح النووي (٥/ ٥).

(٤) المفهم (٢/ ١١٦).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله، فيضل من يستحق الإضلال، ويهدي من هو أهل لذلك»[٢].

وقال أبو حيان: «﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الواضع الأشياء على ما اقتضته حكمته وإرادته»[٣].

وقال ابن عاشور: «وجملة ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تذييل لأن العزيز قويّ لا ينفلت شيء من قدرته ولا يخرج عما خُلق له، والحكيم يضع الأشياء مواضعها، فموضع الإرسال والتبيين يأتي على أكمل وجه من الإرشاد. ومَوْقع الإضلال والهدى هو التكوين الجاري على أنسب حال بأحوال المرسل إليهم، فالتبيين من مقتضَى أمر التشريع، والإضلالُ من مقتضَى أمر التكوين»[٤].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة العزة

* عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقول: «**أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا يموت والجن والإنس يموتون**»[٥].

★ **غريب الحديث:**

العزة: معناها: المنعة والغلبة. ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾[٦] أي: غلبني وقهرني. ومن أمثال العرب: (من عَزَّ بَزَّ) أي: من غلب استلب.

---

(١) إبراهيم: الآية (٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٠٨).

(٣) البحر المحيط (٥/ ٣٩٤).

(٤) التحرير والتنوير (١٣/ ١٨٨).

(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٣٠٢)، والبخاري (١٣/ ٤٥٦/ ٧٣٨٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٨٦/ ٢٧١٧)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٩٩/ ٧٦٨٤).

(٦) ص: الآية (٢٣).

★ **فوائد الحديث:**

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الذي له العزة كلها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع. فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة، وخضعت لعظمته»[١].

وقد نظم ابن القيم هذه المعاني فقال:

وهو العزيز فلن يرام جنابه ... أنى يرام جناب ذي السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شيء هذه صفتان
وهو العزيز بقوة هي وصفه ... فالعز حينئذ ثلاث معان
وهي التي كملت له سبحانه ... من كل وجه عادم النقصان»[٢]

قال الشيخ ابن العثيمين: «وذكر أهل العلم أن العزة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع: فعزة القدر: معناه أن اللَّه تعالى ذو قدر عزيز؛ يعني: لا نظير له. وعزة القهر: هي عزة الغلبة؛ يعني: أنه غالب كل شيء، قاهر كل شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾[٣]؛ يعني: غلبني في الخطاب. فاللَّه سبحانه عزيز لا غالب له بل هو غالب كل شيء. وعزة الامتناع: وهي أن اللَّه تعالى يمتنع أن يناله سوء أو نقص؛ فهو مأخوذ من القوة والصلابة، ومنه قولهم: أرض عزاز؛ يعني: قوية شديدة.

هذه معاني العزة التي أثبتها اللَّه تعالى لنفسه، وهي تدل على كمال قهره وسلطانه، وعلى كمال صفاته، وعلى تمام تنزهه عن النقص، تدل على كمال قهره وسلطانه في عزة القهر. وعلى تمام صفاته وكمالها وأنه لا مثيل لها في عزة القدر، وعلى تمام تنزهه عن العيب والنقص في عزة الامتناع»[٤].

وقال الشيخ الغنيمان: «والعزة من صفات ذاته تعالى التي لا تنفك عنه، فغلب بعزته وقهر بها كل شيء، وكل عزة حصلت لخلقه فهي منه..». اهـ.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٦).
(٢) نونية ابن القيم (٢/ ٧٨) (شرح محمد خليل هراس).
(٣) ص: الآية (٢٣).
(٤) شرح الواسطية (١/ ٣٤٥-٣٤٦).

وقال أيضًا: «فالاستعاذة هي: الالتجاء إلى اللَّه، والاحتماء بجنابه من شر كل ذي شر، والعوذ يكون لدفع الشر، واللوذ يكون لطلب الخير، كما قال بعض الشعراء:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ويا من أعوذ به فيما أحاذره

وعزة اللَّه تعالى صفته كما تقدم، فالنبي ﷺ وهو أعلم الخلق باللَّه وأتقاهم له؛ يتعوذ بصفاته تعالى؛ لأن ذلك من عبادة اللَّه، بل هو من أفضلها امتثالًا لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ﴾[1]. ومثل الاستعاذة بصفات اللَّه تعالى الحلف بها»[2].

* عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يزال يلقى فيها وتقول: هل من مزيد حتى يضع فيها رب العالمين قدمه فينزوي بعضها إلى بعض ثم تقول: قد قد، بعزتك وكرمك. ولا تزال الجنة تفضل حتى ينشئ اللَّه لها خلقًا فيسكنهم فضل الجنة**»[3].

★ **فوائد الحديث:**

بوّب البخاري رحمه الله في «كتاب التوحيد»: (باب قول اللَّه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[4] ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾[5] ومن حلف بعزة اللَّه وصفاته، فهو يثبت صفة العزة لله عز وجل، ولذلك قال الحافظ[6]: «والذي يظهر أن مراد البخاري بالترجمة إثبات العزة لله، ردًّا على من قال: إنه العزيز بلا عزة، كما قالوا: العليم بلا علم».

قال الغنيمان: «لا يقصد إثبات العزة بخصوصها بل مع سائر الصفات كما هو ظاهر»[7].

وقال: «والقسم بأسماء اللَّه وصفاته قسم به تعالى، والمقصود أن اللَّه تعالى متصف بالصفات، فأراد أن يبين ذلك بما ثبت منها في كتاب اللَّه تعالى ومنها العزة»[8].

---

(١) الأعراف: الآية (١٨٠).

(٢) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ١٤٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٣٤)، والبخاري (١٣/ ٤٥٦/ ٧٣٨٤)، ومسلم (٤/ ٢١٨٧-٢١٨٨/ ٢٨٤٨)، والترمذي (٥/ ٣٦٤/ ٣٢٧٢)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١١/ ٧٧٢٥).

(٤) الصافات: الآية (١٨٠).

(٥) المنافقون: الآية (٨).

(٦) فتح الباري (١٣/ ٤٥٧).

(٧) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري (١/ ١٤٨).

(٨) شرح كتاب التوحيد (١/ ١٥٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب، لتخرج الناس كلهم، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا. قال مجاهد: هي التسع الآيات. ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ أي: أمرناه قائلين له: ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: ادعهم إلى الخير، ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان. ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأياديه ونعَمه عليهم، في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه، وإنجائه إياهم من عدوهم، وفلقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من النعم. قال ذلك مجاهد، وقتادة، وغير واحد»[(١)].

وقال ابن القيم: «وقد فسرت أيام اللَّه بنعمه، وفسرت بنقمة من أهل الكفر والمعاصي، فالأول تفسير ابن عباس وأبي بن كعب ومجاهد، والثاني: تفسير مقاتل، والصواب: أن أيامه تعم النوعين وهي وقائعه التي أوقعها بأعدائه، ونعمه التي ساقها إلى أوليائه، وسميت هذه النعم والنقم الكبار المتحدث بها أياما لأنها ظرف، لها تقول العرب: فلان عالم بأيام العرب وأيام الناس أي: بالوقائع التي كانت في تلك الأيام، فمعرفة هذه الأيام توجب للعبد استبصار العبر، وبحسب معرفته بها تكون عبرته وعظته. قال اللَّه تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[(٢)]. ولا يتم ذلك إلا بالسلامة من الأغراض وهي متابعة الهوى والانقياد

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٠٩).

(٢) يوسف: الآية (١١١).

لداعي النفس الأمارة بالسوء، فإن اتباع الهوى يطمس نور العقل، ويعمي بصيرة القلب، ويصد عن اتباع الحق، ويضل عن الطريق المستقيم، فلا تحصل بصيرة العبرة معه ألبتة. والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره، فأرته نفسه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، فالتبس عليه الحق بالباطل، فأنى له الانتفاع بالتذكر أو بالتفكر أو بالعظة»[١].

وقال الشوكاني: «لما بيّن أن المقصود من بعثة نبينا ﷺ هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور؛ أراد أن يبين أن الغرض من إرسال الأنبياء لم يكن إلاّ ذلك، وخصّ موسى بالذكر لأن أمته أكثر الأمم المتقدّمة على هذه الأمة المحمدية فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ أي: متلبسًا بها، والمراد بالآيات: المعجزات التي لموسى، ومعنى ﴿أَنْ أَخْرِجْ﴾ أي: أخرج؛ لأن الإرسال فيه معنى القول، ويجوز أن يكون التقدير بأن أخرج، والمراد بقومه بنو إسرائيل بعد ملك فرعون. ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ من الكفر أو من الجهل الذي قالوا بسببه: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[٢] ﴿إِلَى النُّورِ﴾ إلى الإيمان، أو إلى العلم ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ أي: بوقائعه. قال ابن السكيت: العرب تقول الأيام، في معنى الوقائع، يقال: فلان عالم بأيام العرب؛ أي: بوقائعها. وقال الزجاج: أي ذكرهم بنعم اللّه عليهم وبنقم أيام اللّه التي انتقم فيها من قوم نوح وعاد وثمود، والمعنى: عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد»[٣].

وقال القرطبي: «ودل هذا على جواز الوعظ المرقق للقلوب، المقوي لليقين. الخالي من كل بدعة، والمنزه عن كل ضلالة وشبهة»[٤].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين، لعبرة لكل صَبَّار؛ أي: في الضراء، شكور؛ أي: في السراء، كما قال قتادة: نعم العبد، عبد إذا ابتُلِي صَبَر، وإذا أعطي شكر»[٥].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٤٩).
(٢) الأعراف: الآية (١٣٨).
(٣) فتح القدير (٣/ ١٣٤).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٣٤٢).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٠٩).

وقال أبو حيان: «والإشارة بقوله: إن في ذلك، إلى التذكير بأيام اللَّه. وصبار، شكور، صفتا مبالغة، وهما مشعرتان بأنّ أيام اللَّه المراد بهما بلاؤه ونعماؤه أي: صبار على بلائه، شكور لنعمائه. فإذا سمع بما أنزل اللَّه من البلاء على الأمم، أو بما أفاض عليهم من النعم، تنبه على ما يجب عليه من الصبر إذا أصابه بلاء، ومن الشكر إذا أصابته نعماء، وخص الصبار والشكور لأنهما هما اللذان ينتفعان بالتذكير والتنبيه ويتعظان به. وقيل: أراد لكل مؤمن ناظر لنفسه؛ لأنّ الصبر والشكر من سجايا أهل الإيمان»[١].

وقال السعدي: «يخبر تعالى: أنه أرسل موسى بآياته العظيمة الدالة على صدق ما جاء به وصحته، وأمره بما أمر اللَّه به رسوله محمدا ﷺ بل وبما أمر به جميع الرسل قومهم ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ أي: ظلمات الجهل والكفر وفروعه، إلى نور العلم والإيمان وتوابعه. ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ أي: بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، وبأيامه في الأمم المكذبين، ووقائعه بالكافرين، ليشكروا نعمه وليحذروا عقابه، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في أيام اللَّه على العباد ﴿لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: صبار في الضراء والعسر والضيق، شكور على السراء والنعمة، فإنه يستدل بأيامه على كمال قدرته، وعميم إحسانه، وتمام عدله وحكمته»[٢].

وقال المراغي: «وفي هذا إيماء إلى أن الإنسان في هذه الحياة يجب أن يكون بين صبر وشكر أبدا؛ لأنه إما في مكروه يصبر عليه، وإما في محبوب يشكر عليه، والوقت في هذه الحياة ذهب، فمتى ضاع من حياتنا زمن دون عمل نسدي فيه خدمة لأنفسنا ولديننا ووطننا فقد كفرنا النعمة، وأضعنا الفرصة، ولم نعتبر بما حل بمن قبلنا من الأمم الغابرة، فليحذر كل امرئ أن يضيع حياته بلا عمل، وليخف على وقت يضيع، ثم بعده عذاب سريع»[٣].

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٣٩٥).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٢٤).
(٣) تفسير المراغي (١٣/ ١٢٩).

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن أمر المؤمن كله خير

* عن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»[(١)].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم رحمه الله **في بيان معنى الصبر**: «وأصل هذه الكلمة هو المنع والحبس، فالصبر حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عن لطم الخدود وشق الثياب ونحوهما... وأما حقيقته: فهو خلق فاضل من أخلاق النفس، يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها»[(٢)].

وقوله: «**وليس ذلك إلا للمؤمن**» **قال المناوي**: «وليس ذلك للكافرين ولا للمنافقين. ثم بين وجه العجب بقوله: «إن أصابته سراء» كصحة وسلامة ومال وجاه؛ «شكر» اللَّه على ما أعطاه، «وكان خيرًا له»؛ فإنه يكتب في ديوان الشاكرين. «وإن أصابته ضراء» كمصيبة «صبر؛ فكان خيرًا له» فإنه يصير من أحزاب الصابرين الذين أثنى اللَّه عليهم في كتابه المبين. فالعبد مادام قلم التكليف جاريًا عليه؛ فمناهج الخير مفتوحة بين يديه، فإنه بين نعمة يجب عليه شكر المنعم بها، ومصيبة يجب عليه الصبر عليها، وأمر ينفذه ونهي يجتنبه، وذلك لازم له إلى الممات..»[(٣)].

قال ابن القيم: «ومعنى هذا أن لله على العبد عبوديته في عافيته وفي بلائه فعليه أن يحسن صحبة العافية بالشكر وصحبة البلاء بالصبر»[(٤)].

قال القاري: «وفيه إشارة إلى أن الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. وفي تقديم الشكر في الحديث إشارة

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٦)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٥/ ٢٩٩٩).

(٢) عدة الصابرين (ص ٣٣).

(٣) فيض القدير (٤/ ٣٠٢).

(٤) عدة الصابرين (ص ٣٧).

إلى كثرة النعم وسبقتها، وفي تقديم الصبر في الآية إيماء إلى قوة احتياج العبد إلى الصبر، فإنه على أنواع ثلاث: صبر على الطاعة، وصبر على المعصية، وصبر على المصيبة، وفي إسناد الفعل إلى الخير والشر نكتة خفية رمز إلى أن الأمر بيد اللَّه يصيب به من يشاء من عباده، فالتسليم أسلم، واللَّه أعلم»(١).

وقال ابن القيم: «الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر، وقال عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنه: الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر. ولهذا جمع اللَّه سبحانه بين الصبر والشكر في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾(٢)، وقد ذُكر لهذا التصنيف اعتبارات:

أحدها: أن الإيمان اسم لمجموع القول والعمل والنية، وهي ترجع إلى شطرين: فعل وترك، فالفعل هو العمل بطاعة اللَّه، وهو حقيقة الشكر، والترك هو الصبر عن المعصية، والدين كله في هذين الشيئين: فعل المأمور، ترك المحظور.

الاعتبار الثاني: أن الإيمان مبني على ركنين: يقين، وصبر. وهما الركنان المذكوران في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾(٣)؛ فباليقين يعلم حقيقة الأمر والنهي، والثواب والعقاب، وبالصبر ينفّذ ما أُمر به ويكفّ نفسه عما نُهي عنه، ولا يحصل له التصديق بالأمر والنهي أنه من عند اللَّه وبالثواب والعقاب إلا باليقين، ولا يمكنه الدوام على فعل المأمور وكف النفس عن المحظور إلا بالصبر، فصار الصبر نصف الإيمان، والنصف الثاني الشكر، بفعل ما أُمر به، وترك ما نُهي عنه.

الاعتبار الثالث: أن الإيمان قول وعمل، والقول قول القلب واللسان، والعمل عمل القلب والجوارح.

وبيان ذلك: أن من عرف اللَّه بقلبه، ولم يُقرّ بلسانه لم يكن مؤمنًا؛ كما قال عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾(٤)، وكما قال عن قوم عاد وقوم صالح: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ

---

(١) المرقاة (٤/ ٢١٦-٢١٧).

(٢) في سورة إبراهيم [٥]، وفي سورة حم عسق [٣٣] لآياتٍ، وفي سورة سبأ [١٩]، وفي سورة لقمان [٣١]

(٣) السجدة: الآية (٢٤).

(٤) النمل: الآية (١٤).

فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾[١]، وقال موسى لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾[٢]. فهؤلاء حصل لهم قول القلب: وهو المعرفة والعلم، ولم يكونوا بذلك مؤمنين، وكذلك من قال بلسانه ما ليس في قلبه لم يكن بذلك مؤمنًا، بل كان من المنافقين، وكذلك من عرف بقلبه وأقرّ بلسانه لم يكن بمجرد ذلك مؤمنًا، حتى يأتي بعمل القلب من الحبّ والبغض، والموالاة والمعاداة؛ فيحب اللَّه ورسوله، ويوالي أولياء اللَّه ويعادي أعداءه، ويستسلم بقلبه لله وحده، وينقاد لمتابعة رسوله وطاعته، والتزام شريعته ظاهرًا وباطنًا، وإذا فعل ذلك لم يكفِ في كمال إيمانه حتى يفعل ما أُمر به؛ فهذه الأركان الأربعة هي أركان الإيمان التي قام عليها بناؤه، وهي: ترجع إلى علم وعمل، ويدخل في العمل كفّ النفس الذي هو متعلَّق النهي، وكلاهما لا يحصل إلى بالصبر، فصار الإيمان نصفين: أحدهما الصبر، والثاني متولِّد عنه من العلم والعمل.

الاعتبار الرابع: أن النفس لها قوتان: قوة الإقدام، وقوة الإحجام، وهي دائمًا تتردد بين أحكام هاتين القوتين، فتُقْدم على ما تحبّه، وتُحجم عما تكرهه، والدين كله إقدام وإحجام، إقدام على طاعة، وإحجام عن معاصي اللَّه، وكل منهما لا يمكن حصوله إلا بالصبر.

الاعتبار الخامس: أن الدين كله رغبة ورهبة، فالمؤمن هو الراغب الراهب. قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[٣]. وفي الدعاء عند النوم، الذي رواه البخاري في صحيحه: «اللهم إني أسلمتُ نفسي إليك، ووجّهت وجهي إليك، وفوّضتُ أمري إليك، وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة»[٤].

فلا تجد المؤمن أبدًا إلا راغبًا وراهبًا، والرغبة والرهبة لا تقوم إلا على ساق الصبر، فرهبته تحمله على الصبر، ورغبته تقوده إلى الشكر.

الاعتبار السادس: أن جميع ما يباشره العبد في هذه الدار لا يخرج عما ينفعه

---

(١) العنكبوت: الآية (٣٨). (٢) الإسراء: الآية (١٠٢).
(٣) الأنبياء: الآية (٩٠).
(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٣٨٥)، والبخاري (١١/ ١٣٦/ ٦٣١٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٨١-٢٠٨٢/ ٢٧١٠)، والترمذي (٥/ ٤٣٧/ ٣٣٩٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٩٣/ ١٠٦١١).

في الدنيا والآخرة، أو يضره في الدنيا والآخرة، أو ينفعه في أحد الدارين، ويضره في الأخرى، وأشرف الأقسام أن يفعل ما ينفعه في الآخرة ويترك الآخرة ويترك ما يضره فيها، وهو حقيقة الإيمان، ففعل ما ينفعه هو الشكر، وترك ما يضره هو الصبر.

الاعتبار السابع: أن العبد لا ينفكّ عن أمر يفعله، ونهي يتركه، وقدر يجري عليه، وفرضه في الثلاثة الصبر والشكر؛ ففِعل المأمور هو الشكر، وترك المحظور والصبر على المقدور هو الصبر.

الاعتبار الثامن: أن للعبد فيه داعيين: داعٍ يدعوه إلى الدنيا وشهواتها ولذاتها، وداعٍ يدعوه إلى اللَّه والدار الآخرة وما أعدّ فيها لأوليائه من النعيم المقيم، فعصيان داعي الشهوة والهوى هو الصبر، وإجابة داعي اللَّه والدار الآخرة هو الشكر.

الاعتبار التاسع: أن الدين مداره على أصلين: العزم والثبات، وهما الأصلان المذكوران في الحديث الذي رواه أحمد والنسائي عن النبي ﷺ: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد»[1].

وأصل الشكر صحة العزيمة، وأصل الصبر قوة الثبات، فمتى أُيّد العبد بعزيمة وثبات؛ فقد أُيّد بالمعونة والتوفيق.

الاعتبار العاشر: أن الدين مبني على أصلين: الحق والصبر، وهما المذكوران في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾[2]، ولما كان المطلوب من العبد هو العمل بالحق في نفسه وتنفيذه في الناس.

وكان هذا هو حقيقة الشكر لم يمكنه ذلك إلا بالصبر عليه، فكان الصبر نصف الإيمان، واللَّه سبحانه وتعالى أعلم»[3].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٥)، والنسائي (٣/ ٦١/ ١٣٠٣)، وصححه ابن حبان الإحسان (٣/ ٢١٥-٢١٦/ ٩٣٥) والحاكم (١/ ٥٨٠) على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٢) العصر: الآية (٣).

(٣) عدة الصابرين (ص ١٧٦-١٨٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمدٍ ﷺ: واذكر، يا محمد، إذ قال موسى بن عمران لقومه من بني إسرائيل: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، التي أنعم بها عليكم ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، يقول: حين أنجاكم من أهل دين فرعون وطاعته ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: يذيقونكم شديدَ العذاب ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾، مع إذاقتهم إياكم شديد العذاب يذبحون أبناءكم.

وأدخلت الواو في هذا الموضع؛ لأنه أريد بقوله: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾، الخبرُ عن أن آل فرعون كانوا يعذبون بني إسرائيل بأنواع من العذاب غير التذبيح وبالتذبيح. وأما في موضعٍ آخر من القرآن، فإنه جاء بغير الواو: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾[1]، وفي موضع ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾[2]، ولم تدخل الواو في المواضع التي لم تدخل فيها لأنه أريد بقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾، وبقوله: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾، تبيينه صفات العذاب الذي كانوا يسومونهم. وكذلك العملُ في كل جملة أريد تفصيلُها، فبغير الواو تفصيلها، وإذا أريد العطف عليها بغيرها وغير تفصيلها فبالواو... وقوله: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾، يقول: ويُبقون نساءكم فيتركون قتلهن، وذلك استحياؤهم كَان إياهُنَّ، وقد بينا ذلك فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع ومعناه: يتركونهم والحياة...

﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، يقول تعالى: فيما يصنعُ بكم آلُ فرعون من

---

(١) البقرة: الآية (٤٩).

(٢) الأعراف: الآية (١٤١).

أنواع العذاب، بلاءٌ لكم من ربكم عظيمٌ؛ أي: ابتلاء واختبارٌ لكم، من ربكم عظيم. وقد يكون البلاء، في هذا الموضع نَعْماء، ويكون: من البلاء الذي يصيب النَّاس من الشدائد»[١].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن موسى، حين ذَكَّر قومه بأيام اللَّه عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حيث كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم، ويتركون إناثهم فأنقذهم اللَّه من ذلك، وهذه نعمة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها.

وقيل: وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿بَلَآءٌ﴾ أي: اختبار عظيم. ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا، واللَّه أعلم، كقوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٢]»[٣].

وقال أبو السعود: «﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ شروعٌ في بيان تصدّيه -عليه الصلاة والسلام- لما أُمر به من التذكير للإخراج المذكورِ، وإذ منصوبٌ على المفعولية بمضمر خوطب به النبيُّ -عليه الصلاة والسلام-، وتعليقُ الذكر بالوقت مع أن المقصودَ تذكيرُ ما وقع فيه من الحوادث قد مر سرُّه غيرَ مرة أي اذكر لهم وقت قولِه عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بدأ عليه الصلاة والسلام بالترغيب لأنه عند النفس أقبلُ وهي إليه أميلُ، والظرفُ متعلّقٌ بنفس النعمة إن جُعلت مصدرًا أو بمحذوف وقع حالًا منها إن جعلت اسمًا أي: اذكروا إنعامه عليكم أو اذكروا نعمته كائنةً عليكم، وكذلك كلمةُ إذْ في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: اذكروا إنعامه عليكم وقت إنجائِه إياكم من آل فرعون أو اذكروا نعمةَ اللَّه مستقرةً عليكم وقت إنجائِه إياكم منهم، أو بدلُ اشتمال من نعمةَ اللَّه مرادًا بها الإنعامُ أو العطية ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يبغونكم مِنْ سامه خَسفًا إذا أولاه ظلمًا، وأصلُ السَّوم الذهابُ في طلب الشيء ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ السوءُ مصدر ساء يسوء والمرادُ به جنسُ العذاب السيئ أو استعبادهم واستعمالُهم في الأعمال الشاقة

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٥٢٣-٥٢٥).

(٢) الأعراف: الآية (١٦٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١١٠).

والاستهانةُ بهم وغيرُ ذلك مما لا يحصر، ونصبُه على أنه مفعولٌ ليسومونكم ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ المولودين وإنما عطفه على يسومونكم إخراجًا له عن مرتبة العذاب المعتاد، وإنما فعلوا ذلك لأن فرعون رأى في المنام أو قال له الكهنة أنه سيولد منهم مَنْ يذهب بملكه فاجتهدوا في ذلك فلم يُغن عنهم من قضاء اللَّه شيئًا.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي يُبقونهن في الحياة مع الذل والصَّغار ولذلك عد من جملة البلاء. والجملُ أحوالٌ من آل فرعون أو من ضمير المخاطبين أو منهما جميعًا لأن فيها ضميرَ كلَ منهما ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ أي: فيما ذكر من أفعالهم الفظيعة ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي ابتلاء منه لا أن البلاء عينُ تلك الأفعال اللهم إلا أن تجعل (في) تجريديةً فنسبتُه إلى اللَّه تعالى إما من حيث الخلقُ أو الإقدارُ والتمكين ﴿عَظِيمٌ﴾ لا يطاق، ويجوز أن يكون المشارُ إليه الإنجاء من ذلك، والبلاءُ الابتلاءُ بالنعمة وهو الأنسب كما يلوح به التعرضُ لوصف الربوبية، وعلى الأول يكون ذلك باعتبار المآل الذي هو الإنجاءُ أو باعتبار أن بلاء المؤمن تربيةٌ له»[1].

* * *

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾

★ **غريب الآية:**

التأذن: مبالغة في الأذان، يقال: أذن وتأذن مثل: أوعد وتوعد وأفضل وتفضل. وفي صيغة تفعل زيادة على صيغة أفعل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي: آذنكم وأعلمكم بوعده لكم. ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾[1].

وقوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي: لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ أي: كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها، ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها»[2].

وقال ابن عاشور: «ومعنى ﴿تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ تكلّم كلامًا عَلَنًا؛ أي: كلم موسى عليه السلام بما تضمنه هذا الذي في الآية بمسمع من جماعة بني إسرائيل»[3].

وقال أبو حيان: «واحتمل إذ أن يكون منصوبًا بـ(اذكروا)، وأن يكون معطوفًا على إذ أنجاكم؛ لأنّ هذا الإعلام بالمزيد على الشكر من نعمه تعالى. والظاهر أنّ متعلق الشكر هو الإنعام أي: لئن شكرتم إنعامي، وقاله الحسن والربيع. قال الحسن: لأزيدنكم من طاعتي. وقال الربيع: لأزيدنكم من فضلي. وقال ابن عباس: أي لئن وحدتم وأطعتم لأزيدنكم في الثواب. وكأنه راعى ظاهر المقابلة في قوله: ولئن كفرتم إن عذابي لشديد. وظاهر الكفر المراد به الشرك، فلذلك فسر الشكر بالتوحيد والطاعة وغيره. قال: ولئن كفرتم؛ أي: نعمتي فلم تشكروها،

---

(١) الأعراف: الآية (١٦٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١١٠).
(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ١٩٣).

رتب العذاب الشديد على كفران نعمة اللّٰه تعالى، ولم يبين محل الزيادة، فاحتمل أن يكون في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما، وجاء التركيب على ما عهد في القرآن من أنه إذا ذكر الخبر[1] أسند إليه تعالى. وإذا ذكر العذاب بعده عدل عن نسبته إليه فقال: لأزيدنكم، فنسب الزيادة إليه وقال: إنّ عذابي لشديد، ولم يأت التركيب لأعذبنكم، وخرج في لأزيدنكم بالمفعول، وهنا لم يذكر، وإن كان المعنى عليه أي: إنّ عذابي لكم لشديد»[2].

وقال القرطبي: «والآية نص في أن الشكر سبب المزيد، وقد تقدم في «البقرة» ما للعلماء في معنى الشكر. وسئل بعض الصلحاء عن الشكر لله فقال: ألا تتقوى بنعمه على معاصيه. . .

قلت: فحقيقة الشكر على هذا، الاعتراف بالنعمة للمنعم. وألا يصرفها في غير طاعته»[3].

وقال أبو السعود: «﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ من جملة مقالِ موسى عليه الصلاة والسلام لقومه معطوفٌ على نعمة اللّٰه؛ أي: اذكروا نعمة اللّٰه عليكم، واذكروا حين تأذّن ربكم أي آذن إيذانًا بليغًا لا تبقى معه شائبةُ شبهة، لِما في صيغة التفعّل من معنى التكلّف المحمول في حقه سبحانه على غايته التي هي الكمالُ، وقيل: هو معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنجَنكُم﴾؛ أي: اذكروا نعمتَه تعالى في هذين الوقتين، فإن هذا التأذنَ أيضًا نعمةٌ من اللّٰه تعالى عليهم ينالون بها خيري الدنيا والآخرة، وفي قراءة ابن مسعود رضي اللّٰه تعالى عنه: وإذا قال ربكم، ولقد ذكّرهم عليه الصلاة والسلام أولًا بنعمائه تعالى عليهم صريحًا وضمنّه تذكيرَ ما أصابهم قبل ذلك من الضراء، ثم أمرهم ثانيًا بذكر ما جرى من اللّٰه سبحانه من الوعد بالزيادة على تقدير الشكر والوعيدِ بالعذاب على تقدير الكفر، والمرادُ بتذكير الأوقات تذكيرُ ما وقع فيها من الحوادث مفصلةً، إذ هي محيطةٌ بذلك، فإذا ذُكرت ذكر ما فيها كأنه مشاهَدٌ معايَن، ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ يا بني إسرائيلَ ما خوّلتُكم من نعمة الإنجاء وإهلاكِ العدوّ وغير ذلك من النعم والآلاءِ الفائتة للحصر وقابلتموه بالإيمان والطاعة ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ نعمةً إلى نعمة، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ ذلك وغمِصتموه

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب: الخير.

(٢) البحر المحيط (٥/ ٣٩٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٣٤٣).

﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، فعسى يصيبكم منه ما يصيبكم، ومن عادة الكرام التصريحُ بالوعد والتعريضُ بالوعيد، فما ظنُّك بأكرم الأكرمين؟»[1].

وقال ابن عاشور: «وجملة ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ موطئة للقسم، والقسم مستعلم في التأكيد. والشكر مؤذن بالنعمة. فالمراد: شكر نعمة الإنجاء من آل فرعون وغيرها، ولذلك حذف مفعول ﴿شَكَرْتُمْ﴾ ومفعول ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ليقدر عامًا في الفعلين. والكفر مراد به كفر النعمة، وهو مقابلة المنعم بالعصيان. وأعظم الكفر جحد الخالق أو عبادة غيره معه وهو الإشراك، كما أن الشكر مقابلة النعمة بإظهار العبودية والطاعة. واستغنى بـ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ عن ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾[2] لكونه أعم وأوجز، ولكون إفادة الوعيد بضرب من التعريض أوقع في النفس. والمعنى: إن عذابي لشديد لمن كفر فأنتم إذن منهم»[3].

وقال شيخ الإسلام: «وهو سبحانه ينعم عليك ويحسن إليك بنفسه، فإن ذلك موجب ما تسمى به ووصف به نفسه، إذ هو الرحمن الرحيم الودود المجيد، وهو قادر بنفسه وقدرته من لوازم ذاته، وكذلك رحمته وعلمه وحكمته، لا يحتاج إلى خلقه بوجه من الوجوه، بل هو الغني عن العالمين، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غني كريم، ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾»[4].

وقال ابن القيم: «الذكر رأس الشكر فما شكر اللَّه تعالى من لم يذكره... فإذا ذكر نعمة اللَّه تعالى عليه بها هاج من قلبه هائج الشكر، فالذكر رأس الشكر، وقال النبي ﷺ لمعاذ: «**والله يا معاذ إني لأحبك فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[5] فجمع بين الذكر والشكر كما جمع ﷻ بينهما في قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[6] فالذكر والشكر جماع السعادة والفلاح»[7].

---

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ٣٤-٣٥).
(٢) النمل: الآية (٢١).
(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ١٩٣-١٩٤).
(٤) مجموع الفتاوى (١/ ٣٧).
(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٤-٢٤٥) وأبو داود (٢/ ١٨٠-١٨١/ ١٥٢٢) والنسائي (٣/ ٦٠-٦١/ ١٣٠٢) وصححه ابن حبان الإحسان (٥/ ٣٦٤-٣٦٥/ ٢٠٢٠) والحاكم (١/ ٢٧٣) ووافقه الذهبي، من حديث معاذ ﷺ.
(٦) البقرة: الآية (١٥٢).
(٧) الوابل الصيب (ص: ١٤٥-١٤٨).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقال موسى لقومه: إن تكفروا أيها القوم فتجحدوا نعمةَ اللَّه التي أنعمها عليكم أنتم، - ويفعل في ذلك مثل فعلكم مَنْ في الأرض جميعًا - ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ﴾ عنكم وعنهم من جميع خلقه، لا حاجة به إلى شكركم إياه على نعمه عند جميعكم ﴿حَمِيدٌ﴾، ذُو حمد إلى خلقه بما أنعم به عليهم»[1].

وقال أبو حيان: «ثم نبه موسى ﷺ قومه على أنّ الباري تعالى، وإن أوعد بالعذاب الشديد على الكفر، فهو غير مفتقر إلى شكركم؛ لأنه تعالى هو الغني عن شكركم، الحميد المستوجب الحمد على ما أسبغ من نعمه، وإن لم يحمده الحامدون، فثمرة شكركم إنما هي عائدة إليكم. وأنتم خطاب لقومه، وقال: ومن في الأرض يعني: الناس كلهم؛ لأنّ من كان في العالم العلوي وهم الملائكة لا يدخلون في من في الأرض، وجواب إنْ تكفروا محذوف لدلالة المعنى، التقدير: فإنما ضرر كفركم لاحق بكم، واللَّه تعالى متصف بالغنى المطلق. والحمد سواء. كفروا أم شكروا، وفي خطابه لهم تحقير لشأنهم، وتعظيم لله تعالى، وكذلك في ذكر هاتين الصفتين»[2].

وقال ابن عاشور: «أعيد فعل القول في عطف بعض كلام موسى ﷺ على بعض لِئَلا يتوهّم أن هذا مما تأذّن به الرب، وإنما هو تنبيه على كلام اللَّه. وفي إعادة فِعل القول اهتمام بهذه الجملة، وتنويه بها حتى تبرز مستقلة وحتى يصغي إليها السامعون للقرآن.

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٥٢٨) شاكر.

(٢) البحر المحيط (٥/ ٣٩٦).

ووجه الاهتمام بها أن أكثر الكفار يحسبون أنهم يحسنون إلى اللَّه بإيمانهم، وأن أنبياءهم حين يلحّون عليهم بالإيمان إنما يبتغون بذلك تعزيز جانبهم والحرصَ على مصحلتهم. فلمّا وعدهم على الشكر بالزيادة وأوعدهم على الكفر بالعقوبة خشي أن يحسبوا ذلك لانتقام المثيب بما أثاب عليه، ولتضرّره مما عاقب عليه، فنبّههم إلى هذا الخاطر الشيطاني حتى لا يسري إلى نفوسهم فيكسبهم إذْلاَلَا بالإيمان والشكر والإقلاع عن الكفر»[١].

وقال المراغي: «أي: إن تجحدوا نعمة اللَّه التي أنعمها عليكم، ويفعل مثل فعلكم من في الأرض جميعا، فما أضررتم بالكفر إلا أنفسكم، إذ حرمتموها من مزيد الإنعام، وعرضتموها للعذاب الشديد، وإن اللَّه غني عن شكركم وشكر غيركم، وهو المحمود وإن كفر به من كفر، وهذا كقوله: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾[٢] الآية، وقوله: ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[٣] وقد يكون موسى قال هذه المقالة حين عاين منهم دلائل العناد، ومخايل الإصرار على الكفر والفساد، وتيقن أنه لا ينفعهم الترغيب، ولا التعريض بالترهيب»[٤].

وقال السعدي: «﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ فالطاعات لا تزيد في ملكه والمعاصي لا تنقصه، وهو كامل الغنى، حميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ليس له من الصفات إلا كل صفة حمد وكمال، ولا من الأسماء إلا كل اسم حسن، ولا من الأفعال إلا كل فعل جميل»[٥].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان غنى اللَّه عن خلقه

* عن أبي ذر ﵁ عن النبي ﷺ فيما روى عن اللَّه -تبارك وتعالى- أنه قال: «**يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا. يا عبادي! كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم. يا عبادي! كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي! كلكم عار إلا من كسوته،**

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ١٩٤).
(٢) الزمر: الآية (٧).
(٣) التغابن: الآية (٦).
(٤) تفسير المراغي (١٣/ ١٣١).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٢٦).

فاستكسوني أكسكم. يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد؛ ما نقص ذلك من ملكي شيئًا. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته؛ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر. يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[1].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن رجب: «قوله: «لو أن أولكم وآخركم وإنسكم..» هو إشارة إلى أن ملكه لا يزيد بطاعة الخلق، ولو كانوا كلهم بررة أتقياء، قلوبهم على قلب أتقى رجل منهم، ولا ينقص ملكه بمعصية العاصين، ولو كان الجن والإنس كلهم عصاة فجرة، قلوبهم على قلب أفجر رجل منهم؛ فإنه سبحانه الغني بذاته عمن سواه، وله الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله فملكه ملك كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه، على أي وجه كان»[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولهذا ذكر هذين الأصلين بعد هذا، فذكر أن برهم وفجورهم الذي هو طاعتهم ومعصيتهم، لا يزيد في ملكه ولا ينقص، وأن إعطاءه إياهم غاية ما يسألونه؛ نسبته إلى ما عنده أدنى نسبة، وهذا بخلاف الملوك وغيرهم ممن يزداد ملكه بطاعة الرعية، وينقص ملكه بالمعصية. وإذا أعطى الناس ما يسألونه أنفد ما عنده ولم يغنهم، وهم في ذلك يبلغون مضرته ومنفعته، وهو يفعل

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٤٩٠)، ومسلم (٤/ ١٩٩٤-١٩٩٥/ ٢٥٧٧) واللفظ له، من طريق أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر به. وأخرجه أحمد (٥/ ١٥٤و١٧٧)، والترمذي (٤/ ٥٦٦-٥٦٧/ ٢٤٩٥) وقال حديث حسن، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٢/ ٤٢٥٧) من طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن أبي ذر به.

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٦-٤٧).

ما يفعله من إحسان وعفو وأمر ونهي لرجاء المنفعة وخوف المضرة. فقال: «يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا»، إذ ملكه هو قدرته على التصرف. فلا تزداد بطاعتهم ولا تنقص بمعصيتهم، كما تزداد قدرة الملوك بكثرة المطيعين لهم، وتنقص بقلة المطيعين لهم؛ فإن ملكه متعلق بنفسه، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه، وهو الذي يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء.

والملك قد يراد به القدرة على التصرف والتدبير، ويراد به نفس التدبير والتصرف، ويراد به المملوك نفسه الذي هو محل التدبير، ويراد به ذلك كله. وبكل حال: فليس بر الأبرار وفجور الفجار موجبًا لزيادة شيء من ذلك ولا نقصه؛ بل هو بمشيئته وقدرته يخلق ما يشاء، فلو شاء أن يخلق مع فجور الفجار ما شاء؛ لم يمنعه من ذلك مانع؛ كما يمنع الملوك فجور رعاياهم التي تعارض أوامرهم عما يختارونه من ذلك. ولو شاء أن لا يخلق مع بر الأبرار شيئًا مما خلقه لم يكن برهم محوجًا له إلى ذلك، ولا معينًا له كما يحتاج الملوك ويستعينون بكثرة الرعايا المطيعين»[1].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٩٤-١٩٥).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قال ابن جرير: هذا من تمام قول موسى لقومه. يعني: وتذكيره إياهم بأيام اللّه، بانتقامه من الأمم المكذبة للرسل. وفيما قال ابن جرير نظر؛ والظاهر أنه خبر مستأنف من اللّه تعالى لهذه الأمة، فإنه قد قيل: إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقصصه عليهم ذلك فلا شك أن تكون هاتان القصتان في «التوراة»، واللّه أعلم. وبالجملة فاللّه تعالى قد قص علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل، مما لا يحصي عددهم إلا اللّه ﷻ جاءتهم رسلهم بالبينات؛ أي: بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات.

وقال ابن إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد اللّه أنه قال في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ كذب النسابون. وقال عروة بن الزبير: ما وجدنا أحدا يعرف ما بعد معد بن عدنان.

وقوله: ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ اختلف المفسرون في معناه، قيل: معناه: أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرونهم بالسكوت عنهم، لما دعوهم إلى اللّه، ﷻ.

وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيبًا لهم.

وقيل: بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل.

وقال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة: معناه: أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم...

قلت: ويؤيد قول مجاهد تفسير ذلك بتمام الكلام: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ فكأن هذا والله أعلم تفسير لمعنى رَدِّ أيديهم في أفواههم.

وقال سفيان الثوري وإسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص، عن عبد الله في قوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ قال: عضوا عليها غيظا.

وقال شعبة عن أبي إسحاق، عن هُبَيْرة بن مريم، عن عبد الله أنه قال ذلك أيضًا. وقد اختاره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ووجهه ابن جرير مختارًا له، بقوله تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾[(١)].

وقال العوفي عن ابن عباس: لما سمعوا كلام الله عَجبوا، ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم. وقالوا: ﴿إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ الآية. يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به؛ فإن عندنا فيه شكًّا قويًّا»[(٢)].

وقال ابن عاشور: «والاستفهام إنكاري لأنهم قد بلغتهم أخبارهم، فأما قوم نوح فقد تواتر خبرهم بين الأمم بسبب خبر الطوفان، وأما عاد وثمود فهم من العرب ومساكنهم في بلادهم وهم يمرون عليها ويخبر بعضهم بعضًا بها، قال تعالى: ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ﴾[(٣)] وقال: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[(٤)].

﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ﴾ يشمل أهل مدين وأصحابَ الرس وقومَ تُبّع وغيرَهم من أمم انقرضوا وذهبت أخبارهم فلا يعلمهم إلا الله. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا﴾[(٥)]»[(٦)].

وقال الزمخشري: «﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ غيظًا وضجرًا مما جاءت به الرسل، كقوله: ﴿عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾ أو ضحكًا واستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه. أو أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ أي هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره، إقناطًا لهم

---

(١) آل عمران: الآية (١١٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١١١-١١٢).
(٣) إبراهيم: الآية (٤٥).
(٤) الصافات: الآيتان (١٣٧-١٣٨).
(٥) الفرقان: الآية (٣٨).
(٦) التحرير والتنوير (١٣/ ١٩٦).

من التصديق. ألا ترى إلى قوله: ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ وهذا قول قوي. أو وضعوها على أفواههم يقولون للأنبياء: أطبقوا أفواهكم واسكتوا. أو ردّوها في أفواه الأنبياء يشيرون لهم إلى السكوت. أو وضعوها على أفواههم يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلمون»[(١)].

وقال ابن عاشور: «ومعنى ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ يحتمل عدة وجوه أنهاهَا في «الكشاف» إلى سبعة وفي بعضها بُعدٌ، وأولاها بالاستخلاص أن يكون المعنى: أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم إخفاء لشدة الضحك من كلام الرسل كراهية أن تظهر دواخل أفواههم. وذلك تمثيل لحالة الاستهزاء بالرسل»[(٢)].

قال القاسمي: «قال في (العناية): فإن قلت: قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرۡنَا﴾ جزم بالكفر لا سيما وقد أكد (إن)، فقولهم: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ﴾ ينافيه. قلت: أجيب بأن الواو بمعنى أو؛ أي: أحد الأمرين لازم وهو: كفرنا جزمًا فإن لم نجزم فلا أقل من أن نكون شاكين فيه. وأيا ما كان، فلا سبيل إلى الإقرار. وقيل: إن الكفر عدم الإيمان عمن هو من شأنه، فكفرنا بمعنى لم نصدق، وذلك لا ينافي الشك، أو متعلق الكفر الكتب والشرائع، ومتعلق الشك ما يدعونهم إليه من التوحيد مثلًا. انتهى. أي: فلا ينافي شكهم في ذلك كفرهم القطعي بالأول»[(٣)].

وقال المراغي: «أي ألم يأتكم خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل التي غاب عن الناس علمها، وعند الله إحصائها.

ثم فصل هذا النبأ وفسره بقوله: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي جاءتهم رسلهم بالمعجزات الظاهرة، والبينات الباهرة، وبين كل رسول لأمته طريق الحق، ودعاهم إليه، ليخرجهم من الظلمات إلى النور.

﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓا۟﴾ أي: عضوا بنان الندم غيظًا لما جاءهم به الرسل، وضجر لنفرتهم من استماع كلامهم، إذ سفهوا أحلامهم، وشتموا أصنامهم، وقد فعلت العرب مثل ذلك مع النبي ﷺ كما قال سبحانه: ﴿عَضُّوا۟ عَلَيۡكُمُ

(١) الكشاف (٢/ ٣٦٩).
(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ١٩٦).
(٣) محاسن التأويل (١٠/ ١٤).

﴿ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾(١).

وقال أبو عبيدة والأخفش - ونعما قالا - هو مثل، والمراد أنهم لم يؤمنوا ولم يجيبوا، والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت، قد رد يده في فيه.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي إنا كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم به، من البيانات التي أظهرتموها حجة على صحة رسالتكم، وإنما يقصدون من الكفر بها الكفر بدلالتها على صدق رسالتهم.

﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي: وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه من الإيمان بالله ووحدانيته، وجملة ما جئتم به من الشرائع.

وخلاصة مقالهم -إنهم جاحدون نبوته، قاطعون بعدم صحتها؛ لأن ما جاءوا به من التعاليم والشرائع مما يشك في صدقه، وأن الله سبحانه يدعو إلى مثله. فرد الرسل عليهم منكرين متعجبين من تلك المقالة الحمقاء»(٢).

وقال شيخ الإسلام: «إنما يرسل من اصطفاه لرسالته واختاره لها كما قال الله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾(٣) وكما قال لموسى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾(٤) وأنه إذا أبلغ الرسالة وقام بالواجب، وصبر على تكذيب المكذبين وأذاهم، كما مضت به سنته في الرسل؛ قال: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾(٥) وقال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾(٦) وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ

---

(١) آل عمران: الآية (١١٩).
(٢) تفسير المراغي (١٣/ ١٣٢-١٣٣).
(٣) الحج: الآية (٧٥).
(٤) طه: الآية (١٣).
(٥) الذاريات: الآيتان (٥٢-٥٣).
(٦) فصلت: الآية (٤٣).

عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾[1] إلى سائر ما أخبر به من أحوال الرسل، والرسل صادقون مصدقون على اللَّه يخبرون بالحق، ويأمرون بالعدل، ويدعون إلى عبادة اللَّه وحده لا شريك له، وأهل الكذب المدعون للنبوة ضد هؤلاء، كاذبون تأتيهم الشياطين، الكاذبون يأمرون بما نهى اللَّه عنه، وينهون عما أمر اللَّه به، فإنهم لا بد أن يأمروا بتصديقهم واعتقاد نبوتهم وطاعتهم، وذلك مما نهى اللَّه عنه، ولا بد أن ينهوا عن متابعة من يكذبهم ويعاديهم، وذلك مما أمر اللَّه به، فإنه يمتنع في حكمة الرب وعدله أن يسوي بين هؤلاء خيار الخلق، وبين هؤلاء شرار الخلق، لا في سلطان العلم وبراهينه وأدلته، ولا في سلطان النصر والتأييد، بل يجب في حكمته أن يظهر الآيات والبراهين الدالة على صدق هؤلاء، وينصرهم ويؤيدهم ويعزهم ويبقي لهم لسان الصدق، ويفعل ذلك بمن اتبعهم، وأن يظهر الآيات المبينة لكذب أولئك، ويذلهم ويخزيهم، ويفعل ذلك بمن اتبعهم، كما قد وقع في هؤلاء وهؤلاء، وقد دل القرآن على الاستدلال بهذا في غير موضع. والأدلة والبراهين كما تقدم نوعان: نوع يدل بمجرده بحيث يمتنع وجوده غير دال كدلالة حدوث الحادث على محدث، فهذا يدل بمجرده، وإن قدر أن أحدًا لم يقصد الدلالة به لكن الرب بكل شيء عليم، وهو مريد لخلق ما خلقه ولصفاته، لكن لا يشترط في الاستدلال بهذا أن يعلم أن دالا قصد أن يدل به. والنوع الثاني: ما هو دليل بقصد الدال وجعله، فهذا لولا القصد وجعله دليلا لم يكن دليلًا، فهو إنما قصد به الدلالة، فهذا مقصوده مجرد الدلالة، وذلك بمجرده هو الدليل، وهذا كالكلام الذي يدل بقصد المتكلم وغير ذلك، مثل الإشارة بالرأس والعين والحاجب واليد، ومثل الكتابة ومثل

---

(١) إبراهيم: الآيات (٩-١٧).

العقد، ومثل الأعلام التي نصبت على الطرق وجعلت علامة على حدود الأرض وغير ذلك، ومن ذلك العلامات التي يبعثها الشخص مع رسوله ووكيله إلى أهله، سواء كان قد تواطأ معهم عليها، مثل أن يقول علامته أن يضع يده على ترقوته، أو يضع خنصره في خنصره، ونحو ذلك، أو كانت علامة قصد بها الإعلام من غير تقدم مواطأة، مثل إعطائه عمامته ونعليه، كما أعطى النبي ﷺ عمامته علامة على ولاية قيس بن سعد، وعزل أبيه سعد عن الإمارة يوم الفتح، وكما أعطى أبا هريرة نعليه علامة على ما أرسله به، وكما يعطي الرجل لرسوله خاتمه ونحو ذلك، فهذه الدلائل دلت بالقصد والجعل، وقد كان يمكن أن لا تجعل دليلا، فإذا كانت آيات الأنبياء من هذا الجنس فهي إنما تدل مع قصد الرب إلى جعلها دليلا، وجعله لها دليلا بأن يجعل المدلول لازما لها فكل من ظهرت على يده كان نبيًّا صادقًا، فإن الدليل لا يكون دليلًا إلا مع كونه مستلزما للمدلول، فيمتنع أن يكون دليلا إذا وجد معه عدم المدلول، أو وجد ضد المدلول، فآيات الأنبياء الدالة على صدقهم يمتنع وجودها بدون صدق النبي، ووجودها مع مدعي النبوة كاذبًا أعظم استحالة، فإنها إذا كانت ممتنعة مع عدم نبوة صادقة وإن لم تكن هناك نبوة كاذبة، فمع الكاذبة أشد امتناعا، فهي مستلزمة للنبوة لا تكون مع عدم النبوة البتة، والكاذب قد عدمت في حقه النبوة، ووجد في حقه ضدها وهو الكذب في دعواها، يمتنع كونه نبيا صادقا فيمتنع أن يخلق الرب ما يدل على صدق الأنبياء بدون صدقهم، لامتناع وجود الملزوم دون لازمه، ومع كذبهم لامتناع وجود الشيء مع ضده، والكذب ضد الصدق فيمتنع أن يكون قوله أنا نبي صدقا وكذبا فإذا استلزم الصدق امتنع وجود الكذب، وخلق دليل الصدق مع عدم الصدق ممتنع غير مقدور، لكن الممكن المقدور أن ما جعله دليلا على الصدق يخلقه بدون الصدق، فيكون قد خلقه وليس بدليل حينئذ ويمكن أن يخلق على يد الكاذب ما يدل أنه دليل على صدقه وليس بدليل، مثل خوارق السحرة والكهان كما كان يجري لمسيلمة والعنسي وغيرهما.

لكن هذه ليست دليلا على النبوة لوجودها معتادة لغير الأنبياء، وليست خارقة لعادة غير الأنبياء، بل هي معتادة للسحرة والكهان، فالتفريط ممن ظنها دليلا لاسيما ولا بد أن يكون دليلا على كذب صاحبها، فإن الشياطين لا تقترن إلا بكاذب، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ

أَثِيمٍ﴾[1] ولا يجوز أن يظهر الرب ما جعله دليلًا للنبوة مع عدم النبوة، كما أنه لا يجوز أن يتكلم بالكلام الذي جعله لبيان معان بدون إرادة تلك المعاني، بل ذلك ممتنع من وجوه: من جهة حكمته، ومن جهة عادته، ومن جهة عدله ورحمته، ومن جهة علمه وإعلامه، وغير ذلك كما قد بسط في مواضع، ومن جهة قدرته أيضًا فإنه قادر على هدي عباده وتعريفهم، وذلك إنما يكون بتخصيص الصادق بما يستلزم صدقه، فإذا ما سوي بين الصادق والكاذب فإنه يمتنع التعريف والممتنع ليس بمقدور، فقدرته تقتضي خلق الفرق، وقد يقال هو قادر لكن لا يفعل مقدوره فيقال فعله له ممكن ولا يمكن إلا على هذا الوجه، فيكون قادرًا على هذا الوجه، فإن قيل هو قادر ولكن لا يفعله قيل إن أريد أنه يمتنع فهذا باطل، وإن أريد أنه يمكن فعله ولكن لا يفعله لم يكن على هذا النفي دليل بل وجوده يدل على أنه فعله، وأيضًا فأفعال الرب إما واجبة وإما ممتنعة، وإذا لم يكن ممتنعا تعين أنه واجب وأنه قد فعله وهذا قد فعله، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع. والمقصود هنا أن هذا كله يستلزم أن الرب منزه عن أن يفعل بعض الأمور الممكنة المقدورة لكون ذلك يستلزم أمرًا يناقض حكمته، ولكون فعل الشيء لا يكون إلا مع لوازمه، وانتفاء أضداده فيمتنع فعله بدون لوازمه، أو مع ضده، كما يمتنع جعل الدليل دليلًا مع وجوده بلا مدلول، أو مع وجود ضد المدلول معه»[2].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان كذب النسابين

* عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقرؤها: ﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ ثم يقول: «كذب النسابون»[3].

⋆ فوائد الحديث:

قال القرطبي رحمه الله: «والنسابون وإن نسبوا إلى آدم فلا يدعون إحصاء جميع الأمم، وإنما ينسبون البعض، ويمسكون عن البعض، وقد روي عن عروة بن

---

(١) الشعراء: الآيتان (٢٢١-٢٢٢).

(٢) النبوات (٢/ ٩٤٤/ ٦٥١).

(٣) أخرجه ابن جرير [شاكر] (١٦/ ٥٣٠/ ٢٠٥٩٢) وقال محمود شاكر: «إسناد هذا الخبر صحيح».

الزبير: أنه قال: ما وجدنا أحدًا يعرف ما بين عدنان وإسماعيل. وقال ابن عباس: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون»[١].

قال ابن سيد الناس: «ولا خلاف أن عدنان من ولد إسماعيل نبي اللَّه بن إبراهيم خليل اللَّه ﷺ، وإنما الخلاف في عدد من بين عدنان وإسماعيل من الآباء، فمقل ومكثر، وكذلك من إبراهيم إلى آدم ﷺ، لا يعلم ذلك على حقيقته إلا الله»[٢].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٣٤٤-٣٤٥).
(٢) عيون الأثر (١/ ٢٩).

قوله تعالى: ﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قالت رُسل الأمم التي أتتها رسُلها: ﴿أَفِي ٱللَّهِ﴾، أنه المستحق عليكم، أيها الناس، الألوهة والعبادة دون جميع خلقه ﴿شَكٌّ﴾ وقوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، يقول: خالق السماوات والأرض ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، يقول: يدعوكم إلى توحيده وطاعته ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، يقول: فيستر عليكم بعضَ ذنوبكم بالعفو عنها، فلا يعاقبكم عليها، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ﴾ يقول: وينسئ في آجالكم، فلا يعاقبكم في العاجل فيهلككم، ولكن يؤخركم إلى الوقت الذي كتبَ في أمّ الكتاب أنه يقبضكم فيهِ، وهو الأجل الذي سمَّى لكم. فقالت الأمم لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾، أيها القوم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، في الصورة والهيئة، ولستم ملائكة، وإنما تريدون بقولكم هذا الذي تقولون لنا ﴿أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، يقول: إنما تريدون أن تصرِفونا بقولكم عن عبادة ما كان يعبدُه من الأوثان آباؤنا ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ يقول: فأتونا بحجة على ما تقولون تبين لنا حقيقته وصحته، فنعلم أنكم فيما تقولون محقون»[1].

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له قالت الرسل: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ وهذا يحتمل شيئين: أحدهما: أفي وجوده شك؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في

(١) جامع البيان (١٦/ ٥٣٦-٥٣٧).

الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما، فلا بد لهما من صانع وهو اللَّه لا إله إلا هو خالق كل شيء وإلهه ومليكه. والمعنى الثاني: في قولهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أي: أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك، وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من اللَّه زلفى، وقالت لهم رسلهم: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: في الدنيا كما قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾[1] الآية، فقالت لهم الأمم محاجين في مقام الرسالة بعد تقدير تسليمهم المقام الأول وحاصل ما قالوه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي: كيف نتبعكم بمجرد قولكم ولم نر منكم معجزة ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: خارق نقترحه عليكم»[2].

وقال ابن القيم: «أي: أيشك في اللَّه حتى يطلب إقامة الدليل على وجوده، وأي دليل أصح وأظهر من هذا المدلول؟ فكيف يستدل على الأظهر بالأخفى؟ ثم نبهوا على الدليل بقولهم: فاطر السموات والأرض، وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية قدس اللَّه روحه يقول: كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء، وكان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت:

وليس يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفطر من وجود النهار، ومن لم ير ذلك في عقله وفطرته فليتهمها»[3].

وقال: «ثم تأمل هذا الفلك الدوار بشمسه وقمره ونجومه وبروجه وكيف يدور على هذا العالم هذا الدوران الدائم، إلى آخر الأجل على هذا الترتيب والنظام،

(١) هود: الآية (٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١١٢-١١٣).
(٣) مدارج السالكين (١/ ٦٠).

وما في طي ذلك من اختلاف الليل والنهار، والفصول والحر والبرد وما في ضمن ذلك من مصالح ما على الأرض من أصناف الحيوان والنبات.

وهل يخفى على ذي بصيرة أن هذا إبداع المبدع الحكيم وتقدير العزيز العليم؟ ولهذا خاطب الرسل أمتهم مخاطبة من لا شك عنده في اللَّه، وإنما دعوهم إلى عبادته وحده لا إلى الإقرار به، فقالت لهم: أفي اللَّه شك فاطر السموات والأرض، فوجوده سبحانه وربوبيته وقدرته أظهر من كل شيء على الإطلاق، فهو أظهر للبصائر من الشمس للأبصار، وأبين للعقول من كل ما تعقله وتقر بوجوده، فما ينكره إلا مكابر بلسانه وقلبه وعقله وفطرته، وكلها تكذبه قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾[١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٢]»[٣].

وقال: «لقد قامت أدلة ربوبيته وبراهين إلهيته وشواهد حكمته وآيات قدرته فلا يستطيع العقل لها جحودا، إن هي إلا مكابرة باللسان من كل جحود كفور، ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وإنما يكون الشك فيما تخفى أدلته وتشكل براهينه، فأما من له في كل شيء محسوس أو معقول آية -بل آيات مؤدية عنه شاهدة له بأنه اللَّه الذي لا اله إلا هو رب العالمين- فكيف يكون فيه شك»[٤].

وقال الخطيب: «أي إذا كنتم تشكون فينا، فهل تشكون في اللَّه، وفي وجوده، وهو الذي خلق السموات والأرض؟.. إن الشك فينا هو شك في اللَّه، إذ أن دعوتنا هي دعوة إلى الإيمان باللَّه، والإقرار بوحدانيته.. وأنه إذا لم يكن لكم في الآيات التي بين أيدينا ما يدعوكم إلى صدقنا، ففي هذه الآيات الكونية، وفي خلق السموات والأرض ما يدلكم على وجود الخالق، وعلى تفرده بهذا الوجود.. ومن ثم فليس من العقل أن تنكروا دعوتنا.. هذا إذا كانت لكم عقول تعقل وتتدبر.

---

(١) الرعد: الآيات (٢-٤).
(٢) آل عمران: الآية (١٩٠).
(٣) مفتاح دار السعادة (٢/ ٦٤-٦٥).
(٤) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٣٢).

وفي قوله تعالى: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو إغراء لهؤلاء المكذبين بالرسل أن يستجيبوا لله، وأن يقبلوا دعوته التي يحملها إليهم رسله، فإنه -سبحانه- لا يدعوهم إلا إلى خير. إنه يدعوهم ليغفر لهم من ذنوبهم، وليؤخرهم إلى أجل مسمى فلا يعجل لهم العذاب، الذي لابد هو واقع بالمكذبين في غير مهل، إن هم أصروا على ما هم عليه من كفر وضلال، بعد أن جاءهم من الله هذا البلاغ المبين..

وفي قوله تعالى: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ إشارة إلى أن هؤلاء المدعوين، هم كتل متضخمة من الذنوب، وأنهم لن يستجيبوا جميعا لدعوة الرسل، وإنما الذي يستجيب منهم هو بعض قليل، وهم الذين يغفر الله لهم ذنوبهم.. فالذي سيغفر من ذنوب هؤلاء الأقوام، هو بعض من هذه الذنوب.. وعلى هذا، فليبادر كل واحد منهم إلى الإيمان بالله، ليكون فيمن يغفر الله لهم، وألا يكون في المتخلفين الضالين..

﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ هي قولة من فم واحد، تلقاها القوم خلفا عن سلف: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ﴾ فهذه أول تهمة يتهم بها الرسل من أقوامهم، وإنهم لن يكونوا إلا بشر مثلهم كما يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾[1].

﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ﴾ وتلك هي التهمة الثانية، وهي أن الرسل يريدون أن يخرجوا بالقوم، عما كان عليه آباؤهم من ضلال وكفر.. وتلك هي قاصمة الظهر عندهم.. وفي هذا يقول الله تعالى على لسان قوم صالح: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ ويقول سبحانه على لسان أصحاب مدين: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾[2].

﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.. وبعد هذا الاتهام، يجئ التحدي، بطلب المهلكات التي أنذروا بها، واستعجال العذاب الذي حذروا منه.

والسلطان المبين هو الحجة القاطعة، التي تسقط أمامها كل حجة»[3].

---

(١) إبراهيم: الآية (٤).

(٢) هود: الآية (٨٧).

(٣) التفسير القرآني (٧/ ١٥٦-١٥٨).

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «سلموا لهم في أنهم يماثلونهم في البشرية وحدها، وأما ما سوى ذلك من الأوصاف التي اختصوا بها فلم يكونوا مثلهم، ولم يذكروا ما هم عليه من الوصف الذي تميزوا به تواضعًا منهم، ونسبة ذلك إلى اللَّه. ولم يصرحوا بمنّ اللَّه عليهم وحدهم، ولكن أبرزوا ذلك في عموم من يشاء من عباده. والمعنى: يمن بالنبوة على من يشاء تنبئته. ومعنى بإذن الله: بتسويغه وإرادته؛ أي: الآية التي اقترحتموها ليس لنا الإتيان بها، ولا هي في استطاعتنا، ولذلك كان التركيب: وما كان لنا، وإنما ذلك أمر متعلق بالمشيئة. ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ أمر منهم للمؤمنين بالتوكل، وقصدوا به أنفسهم قصدًا أوليًا وأمروها به كأنهم قالوا: ومن حقنا أن نتوكل على اللَّه في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم، وما يجري علينا منكم. ألا ترى إلى قولهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ومعناه: وأي عذر لنا في أنْ لا نتوكل على اللَّه وقد هدانا، فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه، وهو التوفيق لهداية كل واحد منا سبيله الذي يوجب عليه سلوكه في الدين. والأمر الأول وهو قوله: فليتوكل المؤمنون لاستحداث التوكل، والثاني للثبات على ما استحدثوا من توكيلهم»[1].

وقال ابن عاشور: «قول الرسل: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ جواب بطريق القول بالموجَب في علم آداب البحث، وهو تسليم الدليل مع بقاء النزاع ببيان محل الاستدلال غيرُ تام الإنتاج، وفيه إطماع في الموافقة. ثم كرّ على استدلالهم

(١) البحر المحيط (٥/ ٤٠٠).

المقصود بالإبطال بتبيين خطئهم.

ونظيره قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١). ذا النوع من القوادح في علم الجدل شديد الوقع على المناظر، فليس قول الرسل: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ تقريرًا للدليل ولكنه تمهيد لبيان غلط المستدل في الاستنتاج من دليله. ومحل البيان هو الاستدراك في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾(٢). والمعنى: أن المماثلة فِي البشرية لا تقتضي المماثلة في زائد عليها فالبشر كلهم عباد اللَّه، واللَّه يمُنّ على من يشاء من عباده بنِعَم لم يعطها غيرهم.

فالاستدراك رفع لما توهموه من كون المماثلة في البشرية مقتضى الاستواء في كل خصلة.

وأورد الشيخ محمّد بن عرفة في التفسير وجهًا للتفرقة بين هذه الآية إذ زيد فيها كلمة ﴿لَهُمْ﴾ في قوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ وبين الآية التي قبلها إذ قال فيها قالت رسلهم بوجهين:

أحدهما: أن هذه المقالة خاصة بالمكذّبين من قومهم يقولونها لغيرهم إذ هو جواب عن كلام صدر منهم، والمقالة الأولى يقولونها لهم ولغيرهم؛ أي: للمصدقين والمكذبين.

وثانيهما: أن وجود اللَّه أمر نظري، فكان كلام الرسل في شأنه خطابًا لعموم قومهم، وأما بعْثة الرسل فهي أمر ضروري ظاهر لا يحتاج إلى نظر، فكأنه قال: ما قَالوا هذا إلا للمكذبين لغباوتهم وجهلهم لا لغيرهم.

وأجاب الأبي أن ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ خطاب لمن عاند في أمر ضروري، فكأنّ المجيب عن ذلك يجيب به من حيث الجملة، ولا يُقبل بالجواب على المخاطب لمعاندته فيجيب وهو مُعْرض عنه بخلاف قولهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فإنه تقرير لمقالتهم فهم يُقبلون عليهم بالجواب؛ لأنهم لم يبطلوا كلامهم بالإطلاق بل يقررونه ويزيدون فيه. اهـ.

---

(١) المنافقون: الآية (٨).

(٢) إبراهيم: الآية (١١).

والحاصل أن زيادة ﴿لَهُمْ﴾ تؤذن بالدلالة على توجه الرسل إلى قومهم بالجواب لما في الجواب عن كلامهم من الدقة المحتاجة إلى الاهتمام بالجواب بالإقبال عليهم إذ اللامُ الداخلة بعد فعل القول في نحو: أقول لك، لام تعليل؛ أي: أقول قولي لأجلك.

ثم عطفوا على ذلك تبيين أن ما سأله القوم من الإتيان بسلطان مبين ليس ذلك إليهم، ولكنه بمشيئة اللَّه وليس اللَّه بمكرَه على إجابة من يتحداه.

وجملة: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أمر لمَن آمن من قومهم بالتوكل على اللَّه، وقصدوا به أنفسهم قصدًا أوليًا؛ لأنهم أول المؤمنين بقرينة قولهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ﴾ إلى آخره. ولما كان حصول إذن اللَّه تعالى بتأييد الرسل بالحجة المسؤولة غيرَ معلوم الميقات، ولا متعيّنَ الوقوع، وكانت مدة ترقب ذلك مظنة لتكذيب الذين كفروا رسلَهم تكذيبًا قاطعًا، وتَوَقَّعَ الرسلُ أذاه قومهم إياهم شأن القاطع بكذب من زَعم أنه مرسل من اللَّه، ولأنهم قد بدأوهم بالأذى كما دل عليه قولهم: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾. أظهر الرسل لقومهم أنهم غير غافلين عن ذلك، وأنهم يتلقون ما عسى أن يواجهَهُم به المكذّبون من أذى بتوكّلهم على اللَّه هم ومن آمن معهم؛ فابتدأوا بأن أمروا المؤمنين بالتوكل تذكيرًا لهم لئلا يتعرّض إيمانهم إلى زعزعة الشك حرصًا على ثبات المؤمنين، كقول النبي ﷺ لعمر ﷺ: «أفي شك أنت يابنَ الخطّاب»[1]. وفي ذلك الأمر إيذان بأنهم لا يعبئون بما يضمره لهم الكافرون من الأذى، كقول السحرة لفرعون حين آمنوا ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾[2].

وتقديم المجرور في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ مؤذن بالحصر وأنهم لا يرجون نصرًا من غير اللَّه تعالى لضعفهم وقلة ناصرهم. وفيه إيماء إلى أنهم واثقون بنصر الله»[3].

وقال المراغي: «وبعد أن حكى عن الكفار شبهاتهم في الطعن في النبوة حكى

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٣-٣٤)، ومسلم (٢/ ١١١١-١١١٣/ ١٤٧٩[٣٤]).

(٢) الشعراء: الآية (٥٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٠١-٢٠٣).

عن الأنبياء جوابهم عنها فأجابوا عن الأولى والثانية بالتسليم، لكن التماثل لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة؛ لأن هذا منصب يمن الله به على من يشاء من عباده، كما لا يمتنع من أن يخص بعض عباده بالتمييز بين الحق والباطل والصدق والكذب، وأن يحرم الجمع العظيم منه، وهذا ما أشار إليه بقوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وأجابوا عن الشبهة الثالثة بأن ما جئنا به حجة قاطعة وبينة ظاهرة على صدق رسالتنا، وما اقترحتموه من الآيات فأمره إلى الله إن شاء أظهره وهو زائد على قدر الكفاية، وذلك ما أومئوا إليه بقولهم: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بمشيئته وإرادته، وليس ذلك في قدرتنا.

وبعد أن أجابهم الأنبياء عن شبهاتهم أخذ المشركون يخوفونهم ويتوعدونهم بالانتقام منهم وإيذائهم قدر ما يستطيعون، فقال لهم الأنبياء: إنا لا نخاف تهديدكم ولا وعيدكم، بل نتوكل على الله ونعتمد عليه، ولا نقيم لما تقولون وزنا ولا نأبه به، وهذا ما أشار إليه سبحانه بقوله حكاية عنهم: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ في دفع شرور أعدائهم عنهم، وفي الصبر على معاداتهم.

ثم زادوا أمر التوكل توثيقًا وتوكيدًا فقالوا: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ أي وكيف لا نتوكل على الله وقد هدانا إلى سبل المعرفة، وأوجب علينا سلوك طريقها، وأرشدنا إلى طريق النجاة، ومن أنعم الله عليه بنعمة فليشكره عليها بالعمل بها.

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ أي: ولنصبرن على إيذائكم بالعناد واقتراح الآيات ونحو ذلك مما لا خير فيه، وندعوكم لعبادة الله وحده، ليكون ذلك منا شكرًا على نعمة الهداية.

ثم ختموا كلامهم بمدح التوكل وبيان أن إيذاءهم لا يثنيهم عن تبليغ رسالة ربهم فقالوا: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: وعلى الله وحده فليثبت المتوكلون على توكلهم، وليحتملوا كل أذى في جهادهم، ولا يبالوا بما يصيبهم من أذى ولا بما يلاقون من صعاب وعقبات.

ومن عنده مال أو علم فلينفع به الناس، وليكن كالنهر يسقي الزرع، والشمس

تضئ العباد، وليصبر على أذى الناس كما صبر الأنبياء وأوذوا، فالهداة ما خلقوا إلا ليعملوا فهم هداة بطباعهم، ولذاتهم في قلوبهم، ومنهم تنتقل إلى الناس»[١].

وقال ابن القيم: «قالت الرسل لقومهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ فعجبوا من تركهم التوكل على اللّه وقد هداهم، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبدا، وهذا دليل على أن الهداية والتوكل متلازمان، فصاحب الحق لعلمه بالحق ولثقته بأن اللّه ولي الحق وناصره، مضطر إلى توكله على اللّه، لا يجد بدًّا من توكله، فإن التوكل يجمع أصلين: علم القلب وعمله، أما علمه فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك، وأما عمله فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه وتفويضه وتسليمه أمره إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه، فبهذين الأصلين يتحقق التوكل، وهما جماعه، وإن كان التوكل دخل في عمل القلب من علمه»[٢].

وقال السعدي: «﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مجيبين عن اقتراحهم واعتراضهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: صحيح وحقيقة أنا بشر مثلكم، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ ليس في ذلك ما يدفع ما جئنا به من الحق فإن ﴿ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ فإذا من اللّه علينا بوحيه ورسالته، فذلك فضله وإحسانه، وليس لأحد أن يحجر على اللّه فضله ويمنعه من تفضله.

فانظروا ما جئناكم به فإن كان حقا فاقبلوه وإن كان غير ذلك فردوه ولا تجعلوا حالنا حجة لكم على رد ما جئناكم به، وقولكم: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ فإن هذا ليس بأيدينا وليس لنا من الأمر شيء.

﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ فهو الذي إن شاء جاءكم به، وإن شاء لم يأتكم به وهو لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته ورحمته، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فيعتمدون عليه في جلب مصالحهم ودفع مضارهم لعلمهم بتمام كفايته وكمال قدرته وعميم إحسانه، ويثقون به في تيسير ذلك وبحسب ما معهم من الإيمان يكون توكلهم.

(١) تفسير المراغي (١٣/ ١٣٥-١٣٦).

(٢) طريق الهجرتين (ص ٢٥٧).

فعلم بهذا وجوب التوكل، وأنه من لوازم الإيمان، ومن العبادات الكبار التي يحبها اللَّه ويرضاها، لتوقف سائر العبادات عليه، ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ أي: أي شيء يمنعنا من التوكل على اللَّه والحال أننا على الحق والهدى، ومن كان على الحق والهدى فإن هداه يوجب له تمام التوكل، وكذلك ما يعلم من أن اللَّه متكفل بمعونة المهتدي وكفايته، يدعو إلى ذلك، بخلاف من لم يكن على الحق والهدى، فإنه ليس ضامنا على اللَّه، فإن حاله مناقضة لحال المتوكل.

وفي هذا كالإشارة من الرسل -عليهم الصلاة والسلام- لقومهم بآية عظيمة، وهو أن قومهم -في الغالب- أن لهم القهر والغلبة عليهم، فتحدتهم رسلهم بأنهم متوكلون على اللَّه، في دفع كيدكم ومكركم، وجازمون بكفايته إياهم، وقد كفاهم اللَّه شرهم مع حرصهم على إتلافهم وإطفاء ما معهم من الحق، فيكون هذا كقول نوح لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾[1].

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ﴾ أي: ولنستمرن على دعوتكم ووعظكم وتذكيركم ولا نبالي بما يأتينا منكم من الأذى، فإنا سنوطن أنفسنا على ما ينالنا منكم من الأذى، احتسابا للأجر ونصحا لكم، لعل اللَّه أن يهديكم مع كثرة التذكير. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وحده لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فإن التوكل عليه مفتاح لكل خير.

واعلم أن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- توكلهم في أعلى المطالب وأشرف المراتب، وهو التوكل على اللَّه في إقامة دينه ونصره وهداية عبيده وإزالة الضلال عنهم، وهذا أكمل ما يكون من التوكل»[2].

قلت: هذه الآية من أوضح الأدلة في الدعوة إلى اللَّه، وأنها تنطلق من الفطرة السليمة ومن العقل السليم، فالدعاة إلى اللَّه الذين خصهم اللَّه بالفهم الصحيح، وجبلهم في خلقتهم على مواجهة الباطل بالحجج القاطعة، والبراهين الساطعة؛ لم تغيرهم وساوس وسبل الشياطين من الجن والإنس، فقد واجه الرسل -الذين هم

(١) يونس: الآية (٧١).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤/١٢٨-١٣٠).

قدوة الدعاة- هؤلاء المخذولين بوضوح وبيان لما هم عليه، فاللَّه -تبارك وتعالى- جعل في هذا الكون من الأدلة والبراهين ما لو فكر فيه أقل الناس عقلًا لوجد برهانه واضحًا على موجده، وإذا كان ذلك كذلك فلماذا تصرف العبادة إلى غير الله؟ هذا من جهة، ومن جهة ثانية؛ فإن الداعية إلى اللَّه يملأ ثقة كاملة بتوحيد خالقه، وأنه لا مرية عنده ولا شك في هذا، وهو لا شك من البشر مثله مثل هؤلاء المدعوين، وكونه مثلهم من نعمة اللَّه عليهم، ولكن صاحب الباطل يحاول أن يدفع الحق أحيانًا بشبهة تكون حجة عليه، فالبشرية التي أجمع المبطلون جميعًا على طرحها شبهة على الرسل كلهم فهي في حقيقة أمرها حجة عليهم، فبشر مثلهم يأتيهم بما تعجز عنه عقولهم، وينفرد بالدلالة على هدايتهم دليل على صحة نبوته ورسالته، فلو فكروا قليلًا فيما هم عليه من الباطل الذي هو عبارة عن انتكاسة عقلية وفطرية، وما جاءهم به من استقامة وتوجيه إلى إفراد الواحد الأحد بما يستحقه من عبادة لكان في هذا الدليل كفاية، والإنسان إذا وضع الشيء في غير موضعه يتهم بالحمق والسفه والعبث، وهل يوجد أتفه وأسفه وأعبث وأحمق ممن يتوجه بعمل كبير إلى من لا يجيبه بنفع ولا ضر لا في عاجل ولا في آجل؛ كما قال الشاعر:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى ... مضر كوضع السيف في موضع الندى

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول عزّ ذكره: وقال الذين كفروا بالله لرسلهم الذين أرسلوا إليهم، حين دعوهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، وفراق عبادة الآلهة والأوثان ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾، يعنون: من بلادنا فنطردكم عنها ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾، يعنون: إلا أن تَعُودوا في دِيننا الذي نحن عليه من عبادة الأصنام. . . وقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، الذين ظلموا أنفسهم، فأوجبوا لها عقاب الله بكفرهم. وقد يجوز أن يكون قيل لهم: «الظالمون» لعبادتهم من لا تجوز عبادته من الأوثان والآلهة، فيكون بوضعهم العبادةَ في غير موضعها، إذ كان ظلمًا، سُمُّوا بذلك.

وقوله: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، هذا وعدٌ من الله مَنْ وَعد من أنبيائه النصرَ على الكَفَرة به من قومه. يقول: لما تمادتْ أمم الرسل في الكفر، وتوعَّدوا رسُلهم بالوقوع بهم، أوحى الله إليهم بإهلاك من كَفَر بهم من أممهم ووعدهم النصر. وكلُّ ذلك كان من الله وعيدًا وتهدُّدا لمشركي قوم نبيِّنا محمد ﷺ على كفرهم به، وجُرْأتهم على نبيه، وتثبيتًا لمحمد ﷺ، وأمرًا له بالصبر على ما لقي من المكروه فيه من مشركي قومه، كما صبر من كان قبله من أولي العزم من رسله، ومُعرِّفَه أن عاقبة أمرِ من كفر به الهلاكُ، وعاقبتَه النصرُ عليهم، سُنَّةُ الله في الذين خَلَوْا من قبل»(١).

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم، من الإخراج

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٥٣٩-٥٤١).

من أرضهم، والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾، وكما قال قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾[1] الآية، وقال تعالى إخبارا عن مشركي قريش: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[3]. وكان من صنعه تعالى: أنه أظهر رسوله ونصره، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصارًا وأعوانًا وجندًا، يقاتلون في سبيل اللَّه، ولم يزل يرقيه تعالى من شيء إلى شيء، حتى فتح له مكة التي أخرجته، ومكن له فيها، وأرغم أنوف أعدائهم منهم، من سائر أهل الأرض، حتى دخل الناس في دين اللَّه أفواجًا، وظهرت كلمة اللَّه ودينه على سائر الأديان، في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾[4] كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾[7] الآية، ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[8]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾[9].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي: وعيدي هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة، وخشي من وعيدي، وهو تخويفي وعذابي، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى

---

(١) النمل: الآية (٥٦).
(٢) الإسراء: الآية (٧٦).
(٣) الأنفال: الآية (٣٠).
(٤) إبراهيم: الآيتان (١٣-١٤).
(٥) الصافات: الآيات (١٧١-١٧٣).
(٦) المجادلة: الآية (٢١).
(٧) الأنبياء: الآية (١٠٥).
(٨) الأعراف: الآية (١٢٨).
(٩) الأعراف: الآية (١٣٧).

﴿النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾[(١)]، وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[(٢)]»[(٣)].

وقال ابن العربي: «فيها مسألتان:

المسألة الأولى: قال الطبري: معناه لنخرجنكم من أرضنا، إلا أن تعودوا في ملتنا، وهو غير مفتقر إلى هذا التقدير، فإن (أو) على بابها من التخيير. خير الكفار الرسل بين أن يعودوا في ملتهم أو يخرجوهم من أرضهم؛ وهذه سيرة الله في رسله وعباده.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾[(٤)].

وقال في الصحيح في حديث ورقة بن نوفل وقوله للنبي ﷺ: «**يا ليتني فيها جذعا، يا ليتني أكون حيا حين يخرجك قومك، قال: أومخرجي هم؟ قال له ورقة: نعم، لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي وأخرج، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا**»[(٥)].

المسألة الثانية: فيه إكراه الرسل بالخروج عن أرضهم، وقد تقدم شدة ذلك ووقعه من النفوس في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾[(٦)] فهو من أعظم وجوه الإكراه المبيحة للمحظور، ويأتي ذلك في سورة النحل إن شاء الله تعالى.

وهذه سيرة الله في رسله كما قدمناه؛ فلذلك أخبر عن بعضهم، وهم قوم شعيب في سورة الأعراف، فقال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ﴾[(٧)]. وأخبر هنا عن عموم الأمر، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم﴾ الآية»[(٨)].

قال القاسمي: «يخبر تعالى عما توعد به الكافرون رسلهم، لما رأوهم صابرين متوكلين، لا يهمهم شأنهم من الإخراج عن الأرض، والنفي من بين أظهرهم، أو

---

(١) النازعات: الآيات (٣٧-٤١).
(٢) الرحمن: الآية (٤٦).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١١٤).
(٤) الإسراء: الآية (٧٦).
(٥) أخرجه أحمد (٦/ ٢٣٢-٢٣٣)، والبخاري (٨/ ٧١٥/ ٤٩٥٣-٤٩٥٤)، ومسلم (١/ ١٣٩-١٤٠/ ١٦٠).
(٦) النساء: الآية (٦٦).
(٧) الأعراف: الآية (٨٨).
(٨) أحكام القرآن (٣/ ١١١٦-١١١٧).

العود في ملتهم. والمعنى: ليكونن أحد الأمرين.

والسبب في هذا الوعيد -كما قال الرازي- أن أهل الحق في كل زمان يكونون متعاونين متعاضدين. فلهذه الأسباب قدروا على هذه السفاهة. فإن قيل: يتوهم من لفظ (العود) أنهم كانوا في ملة الكفر قبل. أجيب: بأن (عاد) بمعنى صار. وهو كثير الاستعمال بهذا المعنى، أو الكلام على ظنهم وزعمهم أنهم كانوا من أهل ملتهم قبل إظهار الدعوة. أو الخطاب للرسل ولقومهم، فغلبوا عليهم في نسبة العود إليهم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ الخ وعد صادق للرسل، وبشارة حقة. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ﴾[2] والآيات في ذلك كثيرة. والإشارة في (ذلك) إلى الموحى به وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين. وقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾ إلخ أي: للمتقين لأنهم الموصوفون بما ذكر كقوله: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3]. و(المقام) إما موقف الحساب، فهو اسم مكان، وإضافته إليه سبحانه لكونه بين يديه. أو مصدر ميمي، بمعنى: حفظي وقيامي لأعمالهم يجازوا عليها. أو مقحم للتفخيم والتعظيم كما يقال: المقام العالي»[4].

* * *

(١) الصافات: الآيتان (١٧١-١٧٢).

(٢) الأعراف: الآية (١٣٧).

(٣) الأعراف: الآية (١٢٨).

(٤) محاسن التأويل (١٠/ ١٧-١٨).

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ۝١٥﴾

★ غريب الآية:

استفتحوا: الاستفتاح: طلب الفتح وهو النصر.

خاب: الخيبة: عدم الظفر بالبغية، وفوت الطلب. خلافه النجاح.

جبار: الجبار: المتكبر الذي لا يقبل الحق ولا يذعن له.

عنيد: العنيد: الحائد عن السواء الممتنع عن الحق كبرًا وبغيًا. يقال: رجل عنيد وعاند وعنود.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾ أي: استنصرت الرسل ربها على قومها. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: استفتحت الأمم على أنفسها، كما قالوا: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[1].

ويحتمل أن يكون هذا مرادًا وهذا مرادًا، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول اللَّه ﷺ واستنصر، وقال اللَّه تعالى للمشركين: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾[2]، واللَّه أعلم.

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾ أي: متجبر في نفسه عنيد معاند للحق، كقوله تعالى: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ۝٢٤ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ۝٢٥ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾[3]. وفي الحديث: «**إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة، فتنادي الخلائق فتقول: إني وُكلت بكل جبار عنيد**» الحديث. خاب وخسر حين

---

(١) الأنفال: الآية (٣٢). (٢) الأنفال: الآية (١٩).

(٣) ق: الآيات (٢٤-٢٦).

اجتهد الأنبياء في الابتهال إلى ربها العزيز المقتدر»[١].

قال القاسمي: «﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾ أي: سألوا من اللَّه الفتح على أعدائهم، أو القضاء بينهم وبين أعدائهم. من الفتاحة وهي الحكومة كقوله: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾[٢]؛ فالضمير للرسل، وقيل: للكفرة، وقيل: للفريقين. فإنهم سألوا أن ينصر المحق ويهلك المبطل. وقوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: فنصروا عند استفتاحهم وأفلحوا ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ وهم قومهم. أو استفتح الكفار على الرسل وخابوا ولم يفلحوا. وإنما قيل: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ذمًّا لهم وتسجيلًا عليهم بالتجبر والعناد. أو استفتحوا جميعا فنصر الرسل وأنجز لهم الوعد، وخاب أعداؤهم»[٣].

وقال السعدي: «﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾ أي: الكفار أي: هم الذين طلبوا واستعجلوا فتح اللَّه وفرقانه بين أوليائه وأعدائه فجاءهم ما استفتحوا به، وإلا فاللَّه حليم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: خسر في الدنيا والآخرة من تجبر على اللَّه وعلى الحق، وعلى عباد اللَّه، واستكبر في الأرض وعاند الرسل وشاقهم»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عقوبة المتجبرين

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«تخرج عنق من النار يوم القيامة، لها عينان تبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق، يقول: إني وكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع اللَّه إلهًا آخر، وبالمصورين»**[٥].

* عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«يخرج عنق من النار يتكلم يقول: وكلت اليوم بثلاثة: بكل جبار وبمن جعل مع اللَّه إلهًا آخر وبمن قتل نفسًا**

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١١٤-١١٥).
(٢) الأعراف: الآية (٨٩).
(٣) محاسن التأويل (١٠/ ١٨-١٩).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٣٢).
(٥) أحمد (٢/ ٣٣٦)، والترمذي (٤/ ٦٠٤/ ٢٥٧٤) واللفظ له، وقال: «حسن غريب صحيح»، وذكره الشيخ الألباني في الصحيحة (٥١٢).

بغير نفس فينطوي عليهم فيقذفهم في غمرات جهنم»[١].

⋆ غريب الحديثين:

عنق: الظاهر أن المراد بالعنق الجيد، على ما هو المعروف في اللغة؛ إذ لا صارف عن ظاهره فهو مؤنث. والمعنى أنه تخرج قطعة من النار على هيئة الرقبة الطويلة لها عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق[٢].

الجبار: هو المتمرد العاتي. وقيل: هو الظالم.

العنيد: الجائر عن القصد: الباغي الذي يردّ الحق مع العلم به، وهو المتكبر عن الحق الملازم للباطل.

قال القرطبي: والجبار والعنيد بمعنى واحد، وإن كان اللفظ مختلفًا، وكل متباعد عن الحق جبار وعنيد؛ أي: متكبر[٣].

⋆ فوائد الحديثين:

قوله: «"إني وكلت بثلاثة" أي: وكلني اللَّه بأن أدخل هؤلاء الثلاثة النار، وأعذبهم بالفضيحة على رؤوس الأشهاد... وفي هذا تهديد شديد ووعيد أكيد»[٤].

قال الرازي: «فإذا عرفت هذا فنقول: كونه جبارًا متكبرًا إشارة إلى الخلق النفساني، وكونه عنيدًا إشارة إلى الأثر الصادر عن ذلك الخلق، وهو كونه مجانبًا عن الحق منحرفًا عنه. ولا شك أن الإنسان الذي يكون خلقه هو التجبر والتكبر، وفعله هو العنود وهو الانحراف عن الحق والصدق، كان خائبًا عن كل الخيرات، خاسرًا عن جميع أقسام السعادات»[٥].

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٠) واللفظ له، وابن أبي شيبة (٧/ ٥١/ ٣٤١٤١)، والبزار (كشف الأستار (٤/ ١٨٥/ ٣٥٠٠) بإسنادين عن عطية، وأبو يعلى (٢/ ٣٧٥/ ١١٣٨)، (٢/ ٣٨٠/ ١١٤٦)، والطبراني في الأوسط (٤/ ٣٧٩/ ٣٩٩٣)، كلهم من طريق عطية وهو العوفي «صدوق يخطئ كثيرًا» كما في التقريب. لكن تابعه عند الطبراني في الأوسط (١/ ٢١٦/ ٣٢٠) سعد بن عبيدة «ثقة» كما في التقريب. قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٩٢) وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح، وله شاهد من حديث عائشة ﵂ عند الإمام أحمد (٦/ ١١٠)، ويشهد له حديث أبي هريرة المتقدم قبله.

(٢) المرقاة (٨/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٣٠).

(٤) تحفة الأحوذي (٧/ ٢٤٩)، والمرقاة (٨/ ٢٧٩).

(٥) التفسير الكبير (١٠/ ١٠٩).

قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ١٧﴾

★ **غريب الآية:**

من ورائه: من خلفه. والوراء يقابل الأمام. وقد يأتي بمعنى: قدام.

صديد: الصديد: القيح: الذي يسيل من الجرح. سمي بذلك لكون المرء يَصُدُّ عنه تكرها.

يتجرعه: أي: يشربه بتكلف. يقال: جَرِعَ الماءَ وتَجَرَّعَهُ: إذا شربه بتكلف.

يسيغه: يبتلعه بسهولة ويسر. قال الشاعر:

فساغ لي الشراب وكنت قبلا ... أكاد أغَصُّ بالماء القُراحِ

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ وراء هاهنا بمعنى أمام، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾[(١)]، وكان ابن عباس يقرؤها (وكان أمامهم ملك). أي: من وراء الجبار العنيد جهنم؛ أي: هي له بالمرصاد، يسكنها مخلدا يوم المعاد، ويعرض عليها غدوًا وعشيًا إلى يوم التناد. ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ أي: في النار ليس له شراب إلا من حميم وغساق، فهذا في غاية الحرارة، وهذا في غاية البرد والنتن، كما قال: ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾[(٢)]. وقال مجاهد، وعكرمة: الصديد: من القيح والدم. وقال قتادة هو ما يسيل من لحمه وجلده، وفي رواية عنه: الصديد ما يخرج من جوف الكافر قد خالط القيح والدم»[(٣)].

---

(١) الكهف: الآية (٧٩).
(٢) ص: الآيتان (٥٧-٥٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١١٥).

وقال ابن عطية: «و«الوراء» هنا على بابه؛ أي: هو ما يأتي بعد في الزمان، وذلك أن التقدير في هذه الحوادث بالأمام والوراء إنما هو بالزمان، وما تقدم فهو أمام وهو بين اليد، كما تقول في التوراة والإنجيل إنها بين يدي القرآن، والقرآن وراءهما على هذا، وما تأخر في الزمان فهو وراء المتقدم، ومنه قولهم لولد الولد، الوراء، وهذا الجبار العنيد وجوده وكفره وأعماله في وقت ما، ثم بعد ذلك في الزمان يأتيه أمر جهنم.

قال القاضي أبو محمد: وتلخيص هذا أن يشبه الزمان بطريق تأتي الحوادث من جهته الواحدة متتابعة، فما تقدم فهو أمام، وما تأخر فهو وراء المتقدم، وكذلك قوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾ أي: غصبه وتغلبه يأتي بعد حذرهم وتحفظهم.

وقوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ﴾ وليس بماء لكن لما كان بدل الماء في العرف عندنا عد ماء، ثم نعته بـ ﴿صَدِيدٍ﴾ كما تقول: هذا خاتم حديد، و«الصديد» القيح والدم، وهو ما يسيل من أجساد أهل النار، قاله مجاهد والضحاك»[1].

وقال أبو حيان: «والظاهر إرادة حقيقة الماء. وصديد قال ابن عطية: هو نعت لماء، كما تقول: هذا خاتم حديد وليس بماء، لكنه لما كان بدل الماء في العرف عندنا يعني أطلق عليه ماء. وقيل: هو نعت على إسقاط أداة التشبيه كما تقول: مررت برجل أسد، التقدير: مثل صديد. فعلى قول ابن عطية هو نفس الصديد وليس بماء حقيقة، وعلى هذا القول لا يكون صديدًا ولكنه ما يشبه بالصديد. . وقال مجاهد، وقتادة، والضحاك: هو ما يسيل من أجساد أهل النار. وقال محمد بن كعب والربيع: هو غسالة أهل النار في النار. وقيل: هو ما يسيل من فروج الزناة والزواني. وقيل: صديد بمعنى مصدود عنه أي: لكراهته يصد عنه، فيكون مأخوذًا عنه من الصد»[2].

وقال المراغي: «أي: ومن وراء الجبار العنيد جهنم؛ أي: هي له بالمرصاد تنتظره، ليسكنها مخلدا فيها أبدا، ويعرض عليها في الدنيا غدوا وعشيا إلى يوم التناد.

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٣٣٠-٣٣١).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٤٠٢).

ثم بين شرابه فيها فقال: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ أي: ليس له في النار شراب إلا ماء يخرج من جوفه وقد خالطه القيح والدم، وخص بالذكر لأنه آلم أنواع العذاب»[١].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ أي: يتغصصه ويتكرهه؛ أي: يشربه قهرا وقسرا، لا يضعه في فمه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾[٢].

﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي: يزدرده لسوء طعمه ولونه وريحه، وحرارته أو برده الذي لا يستطاع. ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه. قال عمرو بن ميمون بن مِهْرَان: من كل عظم، وعصب، وعرق. وقال عكرمة: حتى من أطراف شعره. وقال إبراهيم التيمي: من موضع كل شعرة؛ أي: من جسده، حتى من أطراف شعره. وقال ابن جرير: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: من أمامه وخلفه، وفي رواية: وعن يمينه وشماله، ومن فوقه ومن تحت أرجله ومن سائر أعضاء جسده.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال: أنواع العذاب الذي يعذبه اللَّه بها يوم القيامة في نار جهنم، ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه لو كان يموت، ولكن لا يموت؛ لأن اللَّه تعالى قال: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾[٣]. ومعنى كلام ابن عباس رضي الله عنه: أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال؛ ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

وقوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: وله من بعد هذا الحال عذاب آخر غليظ؛ أي: مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمر. وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ

---

(١) تفسير المراغي (١٣/ ١٣٩).
(٢) الحج: الآية (٢١).
(٣) فاطر: الآية (٣٦).

ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾[1]، فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم، وتارة في شرب حميم، وتارة يردون إلى جحيم عياذا بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾[3]، وقال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾[5]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكاله، مما لا يحصيه إلا الله، ﷻ، جزاء وفاقًا، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[6]»[7].

وقال القرطبي: «﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال ابن عباس: أي: يأتيه أسباب الموت من كل جهة عن يمينه وشماله، ومن فوقه وتحته ومن قدامه وخلفه، كقوله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾[8] وقال إبراهيم التيمي: يأتيه من كل مكان من جسده حتى من أطراف شعره، للآلام التي في كل مكان من جسد. وقال الضحاك: إنه ليأتيه الموت من كل ناحية ومكان حتى من إبهام رجليه.

وقال الأخفش: يعني البلايا التي تصيب الكافر في النار سماها موتا، وهي من أعظم الموت.

وقيل: إنه لا يبقى عضو من أعضائه إلا وكل به نوع من العذاب، لو مات سبعين مرة لكان أهون عليه من نوع منها في فرد لحظة، إما حية تنهشه، أو عقرب تلسبه، أو نار تسفعه، أو قيد برجليه، أو غل في عنقه، أو سلسلة يقرن بها، أو تابوت يكون فيه، أو زقوم أو حميم، أو غير ذلك من العذاب، . .

---

(١) الصافات: الآيات (٦٤-٦٨).
(٢) الرحمن: الآيتان (٤٣-٤٤).
(٣) الدخان: الآيتان (٤٣-٥٠).
(٤) الواقعة: الآيات (٤١-٤٤).
(٥) ص: الآيات (٥٥-٥٨).
(٦) فصلت: الآية (٤٦).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١١٥-١١٦).
(٨) الزمر: الآية (١٦).

قال الضحاك: لا يموت فيستريح. وقال ابن جريج: تعلق روحه في حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة، ونظيره قوله: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[١].

وقيل: يخلق الله في جسده آلاما كل واحد منها كألم الموت.

وقيل: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ لتطاول شدائد الموت به، وامتداد سكراته عليه، ليكون ذلك زيادة في عذابه.

قلت: ويظهر من هذا أنه يموت، وليس كذلك، لقوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾[٢] وبذلك وردت السنة، فأحوال الكفار أحوال -من استولى عليه سكرات الموت دائما، والله أعلم»[٣].

وقال الخطيب: «في هذا إشارة إلى أن العذاب الذي يساق إلى الكافرين، إنما يساق إليهم فردا فردا، حتى لكأن كل ما في جهنم من بلاء ونكال، هو للفرد الواحد من أهل جهنم: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ فهنا يجد هذا الجبار العنيد نفسه وقد أفرد وحده في جهنم، يتجرع صديدها، ويحترق بنارها، ويشوى على جمرها، من غير أن يكون معه أحد، يشاركه هذا البلاء، ويقتسم معه هذا العذاب الغليظ.. وهذا مالا تتحقق صورته لو جاء النظم القرآني هكذا: «وخاب الجبارون المعاندون، من ورائهم جهنم ويسقون من ماء صديد، يتجرعونه ولا يكادون يسيغونه ويأتيهم الموت من كل مكان وما هم بميتين ومن ورائهم عذاب غليظ».. فشتان بين نظم ونظم، وبين قول وقول، وتصوير وتصوير»[٤].

وقال السعدي: «﴿مِّن وَرَائِهِ﴾ أي: الجبار العنيد ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: قوي شديد لا يعلم وصفه وشدته إلا الله تعالى»[٥].

---

(١) طه: الآية (٧٤).
(٢) فاطر: الآية (٣٦).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٣٥٣).
(٤) التفسير القرآني (٧/ ١٦٢).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٣٣).

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذكر بعض من يعاقب بالصديد

* عن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من شرب الخمر وسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا، وإن مات دخل النار، فإن تاب تاب اللَّه عليه، وإن عاد فشرب فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا، فإن مات دخل النار، فإن تاب تاب اللَّه عليه، وإن عاد فشرب فسكر لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا، فإن مات دخل النار، فإن تاب تاب اللَّه عليه، وإن عاد كان حقًّا على اللَّه أن يسقيه من رَدَغَة الخبال يوم القيامة». قالوا: يا رسول اللَّه وما ردغة الخبال؟ قال: «عُصارة أهل النار»[1].

★ فوائد الحديث:

قوله: «كان حقًّا على اللَّه أن يسقيه من ردغة الخبال»: قال المباركفوري: «والمعنى أن صديد أهل النار لكثرته يصير جاريًا كالأنهار»[2].

وقال القرطبي: «وقيل: هو ما يسيل من أجسام أهل النار من القيح والدم. وقال محمد بن كعب القرظي والربيع بن أنس: هو غسالة أهل النار، وذلك ماء يسيل من فروج الزناة والزواني. وقيل: هو من ماء كرهته تَصدّ عنه»[3].

* * *

(١) رواه أحمد (٢/ ١٧٦، ١٨٩)، وابن ماجه (٢/ ١١٢٠-١١٢١/ ٣٣٧٧) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٣/ ٢٣٠/ ٥١٨٠)، وصححه الحاكم (٤/ ١٤٥-١٤٦) ووافقه الذهبي، قال الهيثمي في المجمع (٥/ ٦٩) رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح خلا نافع ابن عاصم وهو ثقة.

(٢) تحفة الأحوذي (٥/ ٤٨٩).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٣٥١).

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا مثل ضربه اللَّه تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا مع اللَّه غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح؛ فانهارت وعَدِمُوها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ أي: مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من اللَّه تعالى؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء، فلم يجدوا شيئًا، ولا ألفوا حاصلا إلا كما يتحصَّل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾ أي: ذي ريح شديدة عاصفة قوية، فلم يقدروا على شيء من أعمالهم التي كسبوها في الدنيا إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(٣).

وقوله في هذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ أي: سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾»(٤).

---

(١) الفرقان: الآية (٢٣).

(٢) آل عمران: الآية (١١٧).

(٣) البقرة: الآية (٢٦٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١١٧).

وقال ابن عاشور: «﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ . . ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ تمثيل لحال ما عمله المشركون من الخيرات حيث لم ينتفعوا بها يوم القيامة. وقد أثار هذا التمثيل ما دلّ عليه الكلام السابق من شدة عذابهم، فيخطر ببالهم أو ببال من يسمع من المسلمين أن يسأل نفسه أن لهم أعمالًا من الصلة والمعروف من إطعام الفقراء، ومن عتق رقاب، وقِرى ضيوف، وحمالة ديات، وفداء أسارى، واعتمار، ورفادة الحجيج، فهل يجدون ثواب ذلك؟ وأن المسلمين لما علموا أن ذلك لا ينفع الكافرين تطلبت نفوسهم وجه الجمع بين وجود عمل صالح وبين عدم الانتفاع به عند الحاجة إليه، فضُرب هذا المثل لبيان ما يكشف جميع الاحتمالات.

والمثل: الحالة العجيبة؛ أي: حال الذين كفروا العجيبة أن أعمالهم كرماد الخ. فالمعنى: حال أعمالهم، بقرينة الجملة المخبر عنها لأنه مهما أطلق مَثَل كذا إلا والمراد حال خاصة من أحواله يفسرها الكلام، فهو من الإيجاز الملتزم في الكلام . . . شبهت أعمالهم المتجمعة العديدة برماد مكدّس فإذا اشتدت الرياح بالرماد انتثر وتفرق تفرقًا لا يُرجى معه اجتماعُه. ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من اضمحلال شيء كثير بعد تجمعه، والهيئة المشبهة معقولة . . . ومن لطائف هذا التمثيل أن اختير له التشبيه بهيئة الرماد المتجمع؛ لأن الرماد أثرٌ لأفضل أعمال الذين كفروا وأشيعِها بينهم وهو قِرى الضيف حتى صارت كثرة الرماد كناية في لسانهم عن الكرم . . . وجملة: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ بيان لجملة التشبيه؛ أي: ذهبت أعمالهم سدى فلا يقدرون أن ينتفعوا بشيء منها.

وجملة: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ تذييل جامع لخلاصة حالهم، وهي أنها ضلال بعيد.

والمراد بالبعيد البالغ نهاية ما تنتهي إليه ماهيتُه؛ أي: بعيد في مسافات الضلال، فهو كقولك: أقصى الضلال أو جِدَّ ضَلال»(١).

وقال القرطبي: «فضرب الله هذه الآية مثلا لأعمال الكفار في أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف. والعصف شدة الريح، وإنما كان ذلك

(١) التحرير (١٣/ ٢١٢-٢١٣).

لأنهم أشركوا فيها غير اللَّه تعالى»[١].

وقال الخطيب: «وفي تشبيه أعمال الذين كفروا بالرماد، دون التراب مثلا، الذي هو أكثر شيء تحمله الريح - في هذا التشبيه إشارة إلى أن الأعمال التي يجدها الكافرون يوم القيامة، هي مخلفات تلك الأعمال التي كانوا يعدونها من الأعمال الصالحة.. وأنها وإن كانت صالحة في ذاتها، إلا أن كفرهم باللَّه قد أكلها كما تأكل النار الحطب، ولم يبق منها إلا هذا الرماد، الذي ذهبت به العاصفة كل مذهب.. فلم يبق منها حتى مجرد رماد ينتفع به على أي: وجه من وجوه النفع، ولكنه صار هباء معلقا في أذيال الرياح العاصفة.

فانظر كيف حمل هذا التشبيه من روعة التصوير، ودقة المطابقة بين المشتبه والمشتبه به، حتى لكأن روحا واحدة تلبس جسدين»[٢].

وقال ابن القيم: «فشبه تعالى أعمال الكفار في بطلانها وعدم الانتفاع بها؛ برماد مرت عليه ريح شديدة في يوم عاصف، فشبه سبحانه أعمالهم في حبوطها وذهابها باطلا كالهباء المنثور؛ لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان، وكونها لغير اللَّه عز وجل، وعلى غير أمره برماد طيرته الريح العاصف، فلا يقدر صاحبه على شيء منه وقت شدة حاجته إليه، فلذلك قال: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾، لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء فلا يرون له أثرا من ثواب ولا فائدة نافعة، فإن اللَّه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، موافقا لشرعه، والأعمال أربعة: فواحد مقبول، وثلاثة مردودة، فالمقبول الخالص الصواب، فالخالص أن يكون لله لا لغيره، والصواب أن يكون مما شرعه اللَّه على لسان رسوله، والثلاثة مردودة ما خالف ذلك.

وفي تشبيهها بالرماد سر بديع، وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم وبين الرماد في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا، فكانت الأعمال التي لغير اللَّه وعلى غير مراده طعمة للنار، وبها تسعر النار على أصحابها، وينشئ اللَّه سبحانه لهم من أعمالهم الباطلة نارًا وعذابًا، كما ينشئ لأهل الأعمال الموافقة لأمره ونهيه التي

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٣٥٣).
(٢) التفسير القرآني (٧/ ١٦٤-١٦٥).

هي خالصة لوجهه من أعمالهم نعيمًا وروحًا، فأثرت النار في أعمال أولئك حتى جعلتها رمادا، فهم وأعمالهم وما يعبدون من دون الله وقود النار»(١).

وقال الشنقيطي: «ضرب الله تعالى لأعمال الكفار مثلًا في هذه الآية الكريمة برماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف؛ أي: شديد الريح، فإن تلك الريح الشديدة العاصفة تطير ذلك الرماد ولم تبق له أثرا، فكذلك أعمال الكفار، كصلات الأرحام وقري الضيف والتنفيس عن المكروب وبر الوالدين ونحو ذلك، يبطلها الكفر ويذهبها كما تطير تلك الريح ذلك الرماد، وضرب أمثالًا أخر في آيات أخر لأعمال الكفار بهذا المعنى كقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾(٢) وقوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾(٣) الآية وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(٤) وقوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾(٥) إلى غير ذلك من الآيات.

وبين في موضع آخر أن الحكمة في ضربه للأمثال أن يتفكر الناس فيها فيفهموا الشيء بنظيره وهو قوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٦) ونظيره قوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٧) وبين في موضع آخر أن الأمثال لا يعقلها إلا أهل العلم وهو قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾(٨) وبين في موضع آخر أن المثل المضروب بجعله الله سبب هداية لقوم فهموه وسبب ضلال لقوم لم يفهموا حكمته وهو قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾(٩) وبين

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٧١).
(٢) النور: الآية (٣٩).
(٣) آل عمران: الآية (١١٧).
(٤) البقرة: الآية (٢٦٤).
(٥) الفرقان: الآية (٢٣).
(٦) الحشر: الآية (٢١).
(٧) إبراهيم: الآية (٢٥).
(٨) العنكبوت: الآية (٤٣).
(٩) البقرة: الآية (٢٦).

في موضع آخر أنه تعالى لا يستحي أن يضرب مثلًا ما، ولو كان المثل المضروب بعوضة فما فوقها. قيل: فما هو أصغر منها لأنه يفوقها في الصغر. وقيل: فما فوقها أي: فما هو أكبر منها وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[١] ولذلك ضرب المثل بالعنكبوت في قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[٢] وضربه بالحمار في قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾[٣] الآية وضربه بالكلب في قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ﴾[٤] إلى غير ذلك والعلم عند اللَّه تعالى»[٥].

* * *

(١) البقرة: الآية (٢٦).
(٢) العنكبوت: الآية (٤١).
(٣) الجمعة: الآية (٥).
(٤) الأعراف: الآية (١٧٦).
(٥) الأضواء (٣/ ١٠٩-١١٠).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، أفليس الذي قدر على خلق هذه السموات، في ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات، والحركات المختلفات، والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد، وبراري وصحاري وقفار، وبحار وأشجار، ونبات وحيوان، على اختلاف أصنافها ومنافعها، وأشكالها وألوانها؛ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2].

وقوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: بعظيم ولا ممتنع، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره، أن يذهبكم ويأتي بآخرين على غير صفتكم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾[3]، وقال: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾[4]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ

---

(١) الأحقاف: الآية (٣٣).
(٢) يس: الآيات (٧٧-٨٣).
(٣) فاطر: الآيات (١٥-١٧).
(٤) محمد: الآية (٣٨).

مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[1]، وقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾[2]»[3].

وقال أبو السعود: «﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خطابٌ للرسول ﷺ والمرادُ به أمتُه، وقيل: لكل أحد من الكفرة لقوله تعالى: ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ والرؤية رؤية القلب، وقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ سادٌّ مسدَّ مفعوليها؛ أي: ألم تعلمْ أنه تعالى خلقهما بالحق ملتبسةً بالحكمة والوجهِ الصحيح الذي يحِق أن تخلَقَ عليه، وقرئ: (خالقُ السموات والأرض). ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يُعدمْكم بالمرة ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: يخلُق بدلكم خلقًا آخرَ مستأنَفًا لا علاقة بينكم وبينهم، رتب قدرتَه تعالى على ذلك على قدرته تعالى على خلق السموات والأرض على هذا النمط البديعِ إرشادًا إلى طريق الاستدلالِ، فإن من قدَر على خلق مثلِ هاتيك الأجرامِ العظيمةِ كان على تبديل خلق آخرَ بهم أقدر ولذلك قال: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ أي: إذهابُكم والإتيانُ بخلق جديد مكانكم ﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بمتعذر أو متعسر فإنه قادرٌ لذاته على جميع الممكِنات لا اختصاصَ له بمقدور دون مقدورٍ، ومَنْ هذا شأنُه حقيقٌ بأن يؤمَنَ به ويرجى ثوابُه ويُخشى عقابه»[4].

وقال ابن عاشور: «﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ استئناف بياني ناشئ عن جملة: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[5] فإن هلاك فئة كاملة شديدة القوة والمرة أمر عجيب يثير في النفوس السؤال: كيف تهلك فئة مثل هؤلاء؟ فيجاب بأن اللَّه الذي قدر على خلق السماوات والأرض في عظمتها قادر على إهلاك ما هو دونها، فمبدأ الاستئناف هو قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

وموقع جملة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ موقع التعليل لجملة الاستئناف، قدم عليها كما تجعل النتيجة مقدمة في الخطابة والجِدال على دليلها. . . ومناسبة موقع هذا الاستئناف ما سبقه من تفرق الرماد في يوم عاصف.

والخطاب في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لكل من يصلح للخطاب غير معيّن، وكل مَن يظن به

---

(١) المائدة: الآية (٥٤).
(٢) النساء: الآية (١٣٣).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١١٧-١١٨).
(٤) تفسير أبي السعود (٥/ ٤٠-٤١).
(٥) إبراهيم: الآية (١٣).

التساؤل عن إمكان إهلاك المشركين.

والرؤية: مستعملة في العلم الناشئ عن النظر والتأمل؛ لأن السماوات والأرض مشاهدة لكل ناظر، وأما كونها مخلوقة لله فمحتاج إلى أقل تأمل لسهولة الانتقال من المشاهدة إلى العلم، وأما كون ذلك ملتبسًا بالحق فمحتاج إلى تأمل عميق. فلمّا كان أصل ذلك كله رؤية المخلوقات المذكورة؛ علق الاستدلال على الرؤية، كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(١)]. والحق هنا: الحكمة؛ أي: ضد العبث، بدليل مقابلته به في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(٢)] والخطاب في: ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ لجماعة من جملتهم المخاطب بـ﴿أَلَمْ تَرَ﴾. والمقصود: التعريض بالمشركين خاصة، تأكيدًا لوعيدهم الذي اقتضاه قوله: ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾[(٣)] أي: إن شاء أعدم الناس كلهم وخلق ناسًا آخرين.

وقد جيء في الاستدلال على عظيم القدرة بالحكم الأعم إدماجًا للتعليم بالوعيد وإظهارًا لعظيم القدرة. وفيه إيماء إلى أنه يذهب الجبابرة المعاندين، ويأتي في مكانهم في سيادة الأرض بالمؤمنين ليمكنهم من الأرض. وجملة: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ عطف على جملة: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ مؤكد لمضمونها، وإنما سلك بهذا التأكيد مسلك العطف لما فيه من المغايرة للمؤكد في الجملة بأنه يفيد أن هذا المَشيء سهل عليه هين، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[(٤)]»[(٥)].

* * *

(١) يونس: الآية (١٠١).
(٢) الدخان: الآيتان (٣٨-٣٩).
(٣) إبراهيم: الآيتان (١٣-١٤).
(٤) الروم: الآية (٢٧).
(٥) التحرير والتنوير (١٣/٢١٣-٢١٥).

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾

★ غريب الآية:

برزوا: البروز: الظهور والكشف. ومنه البراز: الأرض الواسعة المكشوفة.

استكبروا: الاستكبار: التكبر والتجبر بعدم قبول الحق والإذعان له.

محيص: أي: مهرب ومحيد.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وظهر هؤلاء الذين كفروا به يوم القيامة من قبورهم، فصاروا بالبَراز من الأرض ﴿جَمِيعًا﴾ يعني: كلهم ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾، يقول: فقال التُّبّاع منهم للمتبوعين، وهم الذين كانوا يستكبرون في الدنيا عن إخلاص العبادة للَّه واتباع الرسل الذين أرسلوا إليهم ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في الدنيا .. وإنما عنوا بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أنهم كانوا أتباعهم في الدنيا يأتمرون لما يأمرونهم به من عبادة الأوثان والكفر باللَّه، وينتهون عما نهوهم عنه من اتّباع رسل اللَّه ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾، يعنون: فهل أنتم دافعون عنّا اليوم من عذاب اللَّه من شيء...

وقوله: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾، يقول -عزَّ ذكره-: قالت القادةُ على الكفر باللَّه لتُبّاعها: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾، يعنون: لو بيّن اللَّه لنا شيئًا ندفع به عَذابَه عنا اليوم ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾، لبيَّنا ذلك لكم حتى تدفعوا العذابَ عن أنفسكم، ولكنا قد جزعنا من العذاب، فلم ينفعنا جزعُنا منه وصَبْرُنا عليه ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾، يعنون: ما لهم من مَراغٍ يرُوغون عنه»[1].

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٥٥٧-٥٥٨) شاكر.

وقال ابن كثير: «والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[3]. وأما تخاصمهم في المحشر، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[4]»[5].

وقال أبو السعود: «﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: يبرُزون يوم القيامة، وإيثارُ صيغة الماضي للدَّلالة على تحقق وقوعِه كما في قوله سبحانه: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾[6] أو لأنه لا مُضِيَّ ولا استقبالَ بالنسبة إليه سبحانه، والمرادُ بروزُهم من قبورهم لأمر اللَّه تعالى ومحاسبته، أو لله على ظنهم فإنهم كانوا يظنون عند ارتكابِهم الفواحشَ سرًا أنها تخفى على اللَّه سبحانه، فإذا كان يومُ القيامة انكشفوا لله عند أنفسِهم ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ الأتباعُ جمع ضعيف، والمرادُ ضعفُ الرأي، وإنما كتب بالواو على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ لرؤسائهم الذين استتبعوهم واستغوَوْهم ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿لَكُمْ تَبَعًا﴾ في تكذيب الرسل ﷺ والإعراضِ عن نصائحهم، وهو جمعُ تابع كغيب في جمع

---

(١) غافر: الآيتان (٤٧-٤٨).

(٢) الأعراف: الآيتان (٣٨-٣٩).

(٣) الأحزاب: الآيات (٦٦ - ٦٨).

(٤) سبأ: الآيات (٣١-٣٣).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١١٨-١١٩).

(٦) الأعراف: الآية (٤٤).

غائب، أو مصدر نُعت به مبالغةً، أو على إضمار أي: ذوي تبع ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ دافعون ﴿عَنَّا﴾ والفاء للدِلالة على سببية الاتباعِ للإغناء، والمرادُ التوبيخُ والعتابُ والتقريعُ والتبكيت ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ منَ الأولى للبيان واقعةٌ موقعَ الحال، والثانية للتبعيض واقعةٌ موقعَ المفعول؛ أي: بعضُ الشيء الذي هو عذابُ اللَّه تعالى، ويجوز كونُهما للتبعيض أي: بعضَ شيءٍ هو بعضُ عذاب اللَّه والإعراب كما سبق، ويجوز أن تكون الأولى مفعولًا والثانية مصدرًا؛ أي: فهل أنتم مغنون عنا بعضَ العذاب بعضَ الإغناء، ويعضُد الأولَ قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾.

﴿قَالُوٓا۟﴾ أي: المستكبرون جوابًا عن معاتبة الأتباعِ واعتذارًا عما فعلوا بهم ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي: للإيمان ووفّقنا له ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ ولكن ضَلَلْنا فأضللناكم أي: اخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا، أو لو هدانا اللَّه طريقَ النجاة من العذاب لهديناكم وأغنينا عنكم كما عرّضناكم له، ولكن سُدّ دوننا طريقُ الخلاص ولاتَ حينَ مناص ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ﴾ مما لقِينا ﴿أَمْ صَبَرْنَا﴾ على ذلك؛ أي: مستوٍ علينا الجزَعُ والصبرُ في عدم الإنجاء، والهمزةُ وأم لتأكيد التسويةِ كما في قوله تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾[١] وإنما أسندوهما ونسبوا استواءَهما إلى ضمير المتكلم المنتظِمِ للمخاطبين أيضًا مبالغةً في النهي عن التوبيخ بإعلام أنهم شركاءُ لهم فيها ابتُلوا به وتسليةً لهم، ويجوز أن يكون قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾ الخ، من كلام الفريقين على مِنوال قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ﴾[٢] .. ولما كان عتابُ الأتباعِ من باب الجزَعِ ذيّلوا جوابَهم ببيان أن لا جدوى في ذلك فقالوا: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ من منجى ومهربٍ من العذاب»[٣].

وقال الشنقيطي: «هذه المحاجة التي ذكرها اللَّه هنا عن الكفار بينها في مواضع أخر كقوله: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾[٤]»[٥].

(١) البقرة: الآية (٦).
(٢) يوسف: الآية (٥٢).
(٣) تفسير أبي السعود (٥/ ٤١-٤٢).
(٤) غافر: الآيتان (٤٧-٤٨).
(٥) أضواء البيان (٣/ ١١١).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما ذكر محاورة الأتباع لرؤسائهم الكفرة، ذكر محاورة الشيطان وأتباعه من الإنس، وذلك لاشتراك الرؤساء والشياطين في التلبس بالإضلال. والشيطان هنا إبليس، وهو رأس الشياطين»[(١)].

وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عما خطب به إبليس أتباعه، بعدما قضى اللَّه بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس -لعنه اللَّه- يومئذ خطيبا ليزيدهم حزنا إلى حزنهم وغبنا إلى غبنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: على ألسنة رسله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعدا حقا، وخبرا صدقا، وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم، كما قال اللَّه تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[(٢)].

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه دليل ولا حجة فيما وعدتكم به، ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه، ﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ اليوم، ﴿وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ فإن الذنب لكم، لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل، ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه، ﴿وَمَآ أَنتُم

(١) البحر المحيط (٥/٤٠٨).
(٢) النساء: الآية (١٢٠).

بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي: بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال، ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ قال قتادة: أي: بسبب ما أشركتمون من قبل. وقال ابن جرير: يقول: إني جحدت أن أكون شريكا لله، ﷻ. وهذا الذي قال هو الراجح كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾[1] وقال: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[2].

وقوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والظاهر من سياق الآية: أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار»[3].

وقال ابن عاشور: «أفضت مجادلة الضعفاء وسادتهم في تغريرهم بالضلالة إلى نطق مصدر الضلالة وهو الشيطان؛ إما لأنهم بعد أن اعتذر إليهم كبراؤهم بالحرمان من الهدى علموا أن سبب إضلالهم هو الشيطان لأن نفي الاهتداء يرادفه الضلال، وإما لأن المستكبرين انتقلوا من الاعتذار للضعفاء إلى ملامة الشيطان الموسوس لهم ما أوجب ضلالهم، وكل ذلك بعلم يقع في نفوسهم كالوجدان. على أن قوله: ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ يظهر منه أنه توجه إليه ملام صريح، ويحتمل أنه توقّعه فدفعه قبل وقوعه وأنه يتوجه إليه بطريقة التعريض، فجملة: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ عطف على جملة فقال الضعفاء.

والمقصود من وصف هذا الموقف: إثارة بغض الشيطان في نفوس أهل الكفر ليأخذوا حذرهم بدفاع وسواسه لأن هذا الخطاب الذي يخاطبهم به الشيطان مليء بإضماره الشر لهم فيما وعدهم في الدنيا مما شأنه أن يستفز غضبهم من كيده لهم وسخريته بهم، فيورثهم ذلك كراهية له وسوء ظنهم بما يتوقعون إتيانه إليهم من قِبَله. وذلك أصل عظيم في الموعظة والتربية.

ومعنى ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ تُمّم الشأن؛ أي: إذن الله وحكمه. ومعنى إتمامه:

(١) الأحقاف: الآيتان (٥-٦).

(٢) مريم: الآية (٨٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/١١٩-١٢٠).

ظهوره، وهو أمره تعالى بتمييز أهل الضلالة وأهل الهداية، قال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[١]، وذلك بتوجيه كل فريق إلى مقره الذي استحقه بعمله، فيتصدى الشيطان للتخفيف عن الملام عن نفسه بتشريك الذين أضلهم معه في تبعة ضلالهم، وقد أنطقه اللَّه بذلك لإعلان الحق، وشهادة عليهم بأن لهم كسبًا في اختيار الانصياع إلى دعوة الضلال دون دعوة الحق. فهذا شبيه شهادة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون وقولها لهم: ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ إظهارًا للحقيقة وتسجيلًا على أهل الضلالة وقمعًا لسفسطتهم.

وأخبر اللَّه بها الناس استقصاء في الإبلاغ ليحيط الناس علمًا بكل ما سيحل بهم، وإيقاظًا لهم ليتأملوا الحقائق الخفية فتصبح بينة واضحة. فقول الشيطان ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ إبطال لإفراده باللوم أو لابتداء توجيه الملام إليه في حين أنهم أجدر باللوم أو بابتداء توجيهه. وأما وقع كلام الشيطان من نفوس الذين خاطبهم فهو موقع الحسرة من نفوسهم زيادة في عذاب النفس»[٢].

قال القاسمي: «قال القاشاني: لما ظهر سلطان الحق على شيطان الوهم وتنور بنوره، أسلم وأطاع وصار محقا بأن الحجة لله في دعوته للخلق إلى الحق، لا له. ودعوته إلى الباطل بتسويل الحطام وتزيين الحياة الدنيا عليهم -واهية فارغة عن الحجة. وأقر بأن وعده تعالى بالبقاء بعد خراب البدن والثواب والعقاب عند البعث، حق قد وفى به. ووعدى بأن ليس إلا الحياة الدنيا باطل اختلقته. فاستحقاق اللوم ليس إلا لمن قبل الدعوة الخالية عن الحجة فاستجاب لها. وأعرض عن الدعوة المقرونة بالبرهان فلم يستجب لها»[٣].

وقال الشوكاني: «﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ بما وقعتم فيه بسبب وعدي لكم بالباطل وإخلافي لهذا الموعد ﴿وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ لي بمجرّد الدعوة التي لا سلطان عليها ولا حجة، فإن من قبل المواعيد الباطلة والدعاوي الزائغة عن طريق الحق فعلى نفسه جنى، ولمارنه قطع، ولاسيما ودعوتي هذه الباطلة، وموعدي الفاسد وقعا معارضين لوعد اللَّه لكم وعد الحق، ودعوته لكم إلى الدار السلام، مع قيام الحجة

(١) يس: الآية (٥٩).
(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٢١٨-٢١٩).
(٣) محاسن التأويل (١٠/ ٢٤-٢٥).

التي لا تخفى على عاقل، ولا تلتبس إلاّ على مخذول، وقريب من هذا من يقتدي بآراء الرجال المخالفة لما في كتاب اللَّه سبحانه، ولما في سنّة رسوله ﷺ ويؤثرها على ما فيهما، فإنه قد استجاب للباطل الذي لم تقع عليه حجة، ولا دلّ عليه برهان، وترك الحجة والبرهان خلف ظهره، كما يفعله كثير من المقتدين بالرجال المتنكبين طريق الحق بسوء اختيارهم، اللهم غفرًا.. ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ لما كشف لهم القناع بأنه لا يغني عنهم من عذاب اللَّه شيئًا، ولا ينصرهم بنوع من أنواع النصر، صرح لهم بأنه كافر بإشراكهم له مع اللَّه في الرّبوبية، من قبل هذا الوقت الذي قال لهم الشيطان فيه هذه المقالة، وهو ما كان منهم في الدنيا من جعله شريكًا. ولقد قام لهم الشيطان في هذا اليوم مقامًا يقصم ظهورهم ويقطع قلوبهم، فأوضح لهم أولًا أن مواعيده التي كان يعدهم بها في الدنيا باطلة معارضة لوعد الحق من اللَّه سبحانه وأنه أخلفهم ما وعدهم من تلك المواعيد ولم يف لهم بشيء منها، ثم أوضح لهم ثانيًا بأنهم قبلوا قوله بما لا يوجب القبول، ولا ينفق على عقل عاقل لعدم الحجة التي لا بدّ للعاقل منها في قبول قول غيره، ثم أوضح ثالثًا بأنه لم يكن منه إلاّ مجرّد الدعوة العاطلة عن البرهان، الخالية عن أيسر شيء مما يتمسك به العقلاء، ثم نعى عليهم رابعًا ما وقعوا فيه، ودفع لومهم له وأمرهم بأن يلوموا أنفسهم؛ لأنهم هم الذين قبلوا الباطل البحت، الذي لا يلتبس بطلانه على من له أدنى عقل، ثم أوضح لهم خامسًا بأنه لا نصر عنده ولا إغاثة، ولا يستطيع لهم نفعًا، ولا يدفع عنهم ضرًّا، بل هو مثلهم في الوقوع في البلية والعجز عن الخلوص عن هذه المحنة، ثم صرح لهم سادسًا بأنه قد كفر بما اعتقدوه فيه وأثبتوه له، فتضاعفت عليهم الحسرات وتوالت عليهم المصائب»[(١)].

وقال القرطبي: «وفي هذه الآيات رد على القدرية والمعتزلة والإمامية ومن كان على طريقهم، انظر إلى قول المتبوعين: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾[(٢)] وقول إبليس: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ كيف اعترفوا بالحق في صفات اللَّه تعالى وهم في دركات النار، كما قال في موضع آخر: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ

---

(١) فتح القدير (٣/ ١٤٧-١٤٨).

(٢) إبراهيم: الآية (٢١).

سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[١] واعترافهم في دركات لظى بالحق ليس بنافع، وإنما ينفع الاعتراف صاحبه في الدنيا، قال اللَّه ﷻ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾[٢] و﴿عَسَى﴾من اللَّه واجبة»[٣].

وقال السعدي: «أي: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الذي هو سبب لكل شر يقع ووقع في العالم، مخاطبًا لأهل النار ومتبرئًا منهم ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ على ألسنة رسله فلم تطيعوه، فلو أطعتموه لأدركتم الفوز العظيم، ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ الخير ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ أي: لم يحصل ولن يحصل لكم ما منيتكم به من الأماني الباطلة.

﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: من حجة على تأييد قولي، ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ أي: هذا نهاية ما عندي أني دعوتكم إلى مرادي وزينته لكم، فاستجبتم لي اتباعا لأهوائكم وشهواتكم، فإذا كانت الحال بهذه الصورة ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ فأنتم السبب وعليكم المدار في موجب العقاب، ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بمغيثكم من الشدة التي أنتم بها ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ كل له قسط من العذاب.

﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي: تبرأت من جعلكم لي شريكًا مع اللَّه فلست شريكًا للَّه ولا تجب طاعتي، ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنفسهم بطاعة الشيطان ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ خالدين فيه أبدًا.

وهذا من لطف اللَّه بعباده، أن حذرهم من طاعة الشيطان وأخبر بمداخله التي يدخل منها على الإنسان ومقاصده فيه، وأنه يقصد أن يدخله النيران، وهنا بين لنا أنه إذا دخل النار هو وجنده أنه يتبرأ منهم هذه البراءة، ويكفر بشركهم ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾»[٤].

---

(١) الملك: الآيات (٨-١١).

(٢) التوبة: الآية (١٠٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٣٥٨).

(٤) فاطر: الآية (١٤).

واعلم أن اللَّه ذكر في هذه الآية أن الشيطان ليس له سلطان، وقال في آية أخرى ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾[١] فالسلطان الذي نفاه عنه هو سلطان الحجة والدليل، فليس له حجة أصلا على ما يدعو إليه، وإنما نهاية ذلك أن يقيم لهم من الشبه والتزيينات ما به يتجرؤون على المعاصي.

وأما السلطان الذي أثبته فهو التسلط بالإغراء على المعاصي لأوليائه يؤزّهم إلى المعاصي أزّا، وهم الذين سلطوه على أنفسهم بموالاته والالتحاق بحزبه، ولهذا ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون»[٢].

وقال الشنقيطي: «بين في هذه الآية أن اللَّه وعدهم وعد الحق وأن الشيطان وعدهم فأخلفهم ما وعدهم وبين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله في وعد اللَّه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[٣] وقوله في وعد الشيطان ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[٤] ونحو ذلك من الآيات»[٥].

وقال شيخ الإسلام: «قول الشيطان لأتباعه ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ أي: بمغيثكم وما أنتم بمغيثي، فهذا ينفي وجود الإغاثة، ولو كانت واقعة؛ لم يكن فعل الشيطان وأتباعه دليلا على جواز ذلك في الشرع، وإن سمي ذلك في اللغة استغاثة»[٦].

* * *

---

(١) النحل: الآية (١٠٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٣٦-١٣٧).

(٣) آل عمران: الآية (٩).

(٤) النساء: الآية (١٢٠).

(٥) أضواء البيان (٣/ ١١١).

(٦) تلخيص كتاب الاستغاثة (١/ ٢٨٢).

قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنَّكال. وأن خطيبهم إبليس؛ عطف بمآل السعداء فقال: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين أبدًا لا يحولون ولا يزولون، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾[٣]، وقال: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٤]»[٥].

وقال ابن عاشور: «﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ عطف على جملة ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[٦]، وهو انتقال لوصف حال المؤمنين يومئذٍ بمناسبة ذكر حال المشركين لأن حال المؤمنين يومئذٍ من جملة الأحوال المقصودة بالوصف إظهارًا لتفاوت الأحوال، فلم يدخل المؤمنون يومئذٍ في المنازعة والمجادلة تنزيهًا لهم عن الخوض في تلك الغمرة، مع التنبيه على أنهم حينئذٍ في سلامة ودعة»[٧].

وقال المراغي: «ولما جمع سبحانه فريقي السعداء والأشقياء في قوله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ وبالغ في وصف حال الأشقياء من وجوه كثيرة- ذكر حال

---

(١) الزمر: الآية (٧٣).
(٢) الرعد: الآيتان (٢٣-٢٤).
(٣) الفرقان: الآية (٧٥).
(٤) يونس: الآية (١٠).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٢١).
(٦) إبراهيم: الآية (٢١).
(٧) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٢٢).

السعداء وما أعد لهم من نعيم مقيم في ذلك اليوم فقال: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: وأدخل الذين صدقوا اللَّه ورسوله، فأقروا بوحدانيته تعالى ورسالته ورسله، وعملوا بطاعته، فانتهوا إلى أمره ونهيه، بساتين تجري من تحتها الأنهار ماكثين فيها أبدا، لا يتحولون عنها ولا يزولون منها.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بتوفيقه تعالى، إذ وجه نفوسهم في الدنيا لكسب الخيرات، والميل إلى العمل بما يرضيه ويرضي رسوله، وأنار بصائرهم للاعتقاد بأن يوم الجزاء آت لا ريب فيه، فأعدوا له العدة، فكان اللَّه بمقتضى وعده أن يدخلهم جناته كِفاء ما جدوا في رضاه، ونصبوا في طاعته، خوفًا من هول ذلك اليوم العصيب.

﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي: تحييهم الملائكة بالسلام بإذن ربهم، تعظيما لشأنهم وعناية بأمرهم، وجاء في هذا المعنى قوله تعالى في وصف دخولهم الجنة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾[1] وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾[2] وقوله: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾[3] كما يحييهم ربهم جلت قدرته إظهارا لرضاه عنهم، وإجلالًا وإكبارا لهم كما قال: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[4]»[5].

وقال الخطيب: «وفي الجانب الآخر من مشهد النار وأهلها هذا المشهد، تفتح أبواب الجنة للذين آمنوا وعملوا الصالحات، فيجدون فيها النعيم والرضوان، ويلقون فيها التحية والسلام.

وفي قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ إشارة إلى أن هذا الرضوان، وذلك النعيم الذي صار إليه الذين آمنوا وعملوا الصالحات، إنما هو من فضل اللَّه عليهم، ومشيئته فيهم، وليس ذلك لما كان منهم من الإيمان، وعمل صالح، وحسب، إذ أن هذا النعيم لا يعدله عمل، ولا يؤدي حقه إنسان.. وهذا ما يشير إليه الحديث

(١) الزمر: الآية (٧٣).
(٢) الرعد: الآيتان (٢٣-٢٤).
(٣) الفرقان: الآية (٧٥).
(٤) يس: الآية (٥٩).
(٥) تفسير المراغي (١٣/ ١٤٦-١٤٧).

الشريف، إذ يقول النبي -صلوات اللَّه وسلامه عليه-: «**لا يدخل أحدكم الجنة بعمله..**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله! قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني اللَّه برحمته**»[1].

فالإيمان باللَّه، والعمل الصالح طريق إلى جنة اللَّه ورضوانه، ولكنهما لا يوصلان إليها إلا بإذن اللَّه، وعونه، وتوفيقه.. إنهما أشبه بالطرقات التي يستأذن بها على رب الدار لدخول داره، وإنه لا يأذن إلا لمن يشاء ويرضى»[2].

* * *

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٤٤)، والبخاري (١١/ ٣٥٥/ ٦٤٦٣)، ومسلم (٤/ ٢١٦٩/ ٢٨١٦)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٥/ ٤٢٠١)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) التفسير القرآني (٧/ ١٦٩-١٧٠).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشوكاني: «لما ذكر سبحانه مثل أعمال الكفار، وأنها كرماد اشتدّت به الريح، ثم ذكر نعيم المؤمنين، وما جازاهم اللَّه به من إدخالهم الجنة خالدين فيها، وتحية الملائكة لهم؛ ذكر تعالى هاهنا مثلًا للكلمة الطيبة، وهي كلمة الإسلام؛ أي: لا إله إلاّ اللَّه، أو ما هو أعمّ من ذلك من كلمات الخير، وذكر مثلًا للكلمة الخبيثة، وهي كلمة الشرك، أو ما هو أعم من ذلك من كلمات الشرّ، فقال مخاطبًا لرسول اللَّه ﷺ، أو مخاطبًا لمن يصلح للخطاب: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أي: اختار مثلًا وضعه في موضعه اللائق به.. ثم وصف الشجرة بقوله: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي: راسخ آمن من الانقلاع بسبب تمكنها من الأرض بعروقها ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: أعلاها ذاهب إلى جهة السماء مرتفع في الهواء.

ثم وصفها سبحانه بأنها ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ﴾ كل وقت ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ﴾ بإرادته ومشيئته، قيل: وهي النخلة. وقيل غيرها. وقيل: والمراد بكونها ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ﴾ أي: كل ساعة من الساعات من ليل أو نهار في جميع الأوقات من غير فرق بين شتاء وصيف. وقيل: المراد في أوقات مختلفة من غير تعيين... ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتفكرون أحوال المبدأ والمعاد. وبدائع صنعه سبحانه الدالة على وجوده ووحدانيته، وفي ضرب الأمثال زيادة تذكير وتفهيم وتصوير للمعاني. ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ قد تقدّم تفسيرها. وقيل: هي الكافر نفسه، والكلمة الطيبة: المؤمن نفسه. ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ أي: كمثل شجرة خبيثة، قيل: هي شجرة الحنظل. وقيل: هي شجرة الثوم. وقيل: الكمأة؛ وقيل:

الطحلبة. وقيل: هي الكشوث بالضم وآخره مثلثة، وهي شجرة لا ورق لها ولا عروق في الأرض»(١).

وقال أبو حيان: «وقد شبه الرسول المؤمن الذي يقرأ القرآن بالأترجة(٢)، فلا يبعد أن يشبه أيضًا بشجرتها. أصلها ثابت أي: في الأرض ضارب بعروقه فيها. وقرأ أنس بن مالك: كشجرة طيبة ثابت أصلها، أجريت الصفة على الشجرة لفظًا وإن كانت في الحقيقة للسببي. وقراءة الجماعة فيها إسناد الثبوت إلى السببي لفظًا ومعنى، وفيها حسن التقسيم، إذ جاء أصلها ثابت وفرعها في السماء، يريد بالفرع أعلاها ورأسها، وإن كان المشبه به ذا فروع، فيكون من باب الاكتفاء بلفظ الجنس. ومعنى في السماء: جهة العلو والصعود لا المظلة. وفي الحديث: «خلق اللَّه آدم طوله في السماء ستون ذراعًا»(٣) ولما شبهت الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة كانت الكلمة أصلها ثابت في قلوب أهل الإيمان، وما يصدر عنها من الأفعال الزكية والأعمال الصالحة هو فرعها يصعد إلى السماء إلى اللَّه تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾(٤) وما يترتب على ذلك العمل وهو ثواب اللَّه هو جناها، ووصف هذه الشجرة بأربعة أوصاف:

الأول: قوله: طيبة؛ أي: كريمة المنبت، والأصل في الشجرة له لذة في المطعم...

الثاني: رسوخ أصلها، وذلك يدل على تمكنها، وأنّ الرياح لا تقصفها، فهي بطيئة الفناء، وما كان كذلك حصل الفرح بوجدانه.

والثالث: علو فرعها، وذلك يدل على تمكن الشجرة ورسوخ عروقها، وعلى بعدها عن عفونات الأرض، وعلى صفائها من الشوائب.

---

(١) فتح القدير (٣/ ١٥٠-١٥١).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٧٧) والبخاري (٩/ ٦٩٣/ ٥٤٢٧) ومسلم (١/ ٥٤٩/ ٧٩٧) وأبو داود (٥/ ١٦٦-١٦٧/ ٤٨٣٠) والترمذي (٥/ ١٣٨/ ٢٨٦٥) والنسائي (٨/ ٤٩٩/ ٥٠٥٣) وابن ماجه (١/ ٧٧/ ٢١٤) من حديث أبي موسى ﷺ.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٥) والبخاري (٦/ ٤٤٦/ ٣٣٢٦) ومسلم (٤/ ٢١٨٣-٢١٨٤/ ٢٨٤١) والترمذي (٥/ ٤٢٢-٤٢٣/ ٣٣٦٨) والنسائي في الكبرى (٦/ ٦٣-٦٤/ ١٠٠٤٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) فاطر: الآية (١٠).

الرابع: ديمومة وجود ثمرتها وحضورها في كل الأوقات. . .

والمعنى: تعطي جناها كل وقت وقته اللَّه له. وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن: أي: كل سنة، ولذلك قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحكم وحماد وجماعة من الفقهاء: من حلف أنْ لا يفعل شيئًا حينًا فإنه لا يفعله سنة، واستشهدوا بهذه الآية. وقيل: ثمانية أشهر قاله علي. ومجاهد: ستة أشهر وهي مدة بقاء الثمر عليها. . .

والتذكر المرجو بضرب المثل هو التفهم والتصور للمعاني المدركة بالعقل، فمتى أبرزت مشبهة بالمحسوسات لم ينازع فيها الحس والخيال والوهم، وانطبق المعقول على المحسوس، فحصل الفهم والوصول إلى المطلوب. والكلمة الخبيثة هي كلمة الكفر على قول الجمهور. وقال مسروق: الكذب، وقال: أن تجر دعوة الكفر وما يعزى إليه الكافر. وقيل: كل كلام لا يرضاه اللَّه تعالى»[1].

وقال ابن عاشور: «فضرب اللَّه مثلًا لكلمة الإيمان وكلمة الشرك. فقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ إيقاظ للذهن ليترقب ما يرد بعد هذا الكلام، وذلك مثل قولهم: ألم تعلم. ولم يكن هذا المثَل مما سبق ضربه قبل نزول الآية بل الآية هي التي جاءت به، فالكلام تشويق إلى علم هذا المثل. وصوغ التشويق إليه في صيغة الزمن الماضي الدال عليها حرف لَمْ التي هي لنفي الفعل في الزمن الماضي والدالّ عليها فعل ﴿ضَرَبَ﴾ بصيغة الماضي لقصد الزيادة في التشويق لمعرفة هذا المثل وما مثل به»[2].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ﴾ قيل: غُدوة وعَشيا. وقيل: كل شهر. وقيل: كل شهرين. وقيل: كل ستة أشهر. وقيل: كل سبعة أشهر. وقيل: كل سنة.

والظاهر من السياق: أن المؤمن مثله كمثل شجرة، لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء، أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين.

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٤١١).

(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٢٣).

﴿بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾ أي: كاملا حسنا كثيرا طيبا، ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾

وقوله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هذا مثل كفر الكافر، لا أصل له ولا ثبات، وشبه بشجرة الحنظل ويقال لها: الشريان. . وقوله: ﴿ٱجۡتُثَّتۡ﴾ أي: استؤصلت ﴿مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يتقبل منه شيء»[١].

وقال السعدي: «يقول تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ﴾ وهي شهادة أن لا إله إلا اللّٰه وفروعها ﴿كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ﴾ وهي النخلة ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾ في الأرض ﴿وَفَرۡعُهَا﴾ منتشر ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وهي كثيرة النفع دائما.

﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا﴾ أي: ثمرتها ﴿كُلَّ حِينِۢ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾ فكذلك شجرة الإيمان، أصلها ثابت في قلب المؤمن، علما واعتقادا. وفرعها من الكلم الطيب والعمل الصالح والأخلاق المرضية، والآداب الحسنة في السماء دائما يصعد إلى اللّٰه منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان ما ينتفع به المؤمن وينفع غيره. ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ما أمرهم به ونهاهم عنه، فإن في ضرب الأمثال تقريبا للمعاني المعقولة من الأمثال المحسوسة، ويتبين المعنى الذي أراده اللّٰه غاية البيان، ويتضح غاية الوضوح، وهذا من رحمته وحسن تعليمه. فلله أتم الحمد وأكمله وأعمه، فهذه صفة كلمة التوحيد وثباتها، في قلب المؤمن.

ثم ذكر ضدها وهي كلمة الكفر وفروعها فقال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ المأكل والمطعم وهي: شجرة الحنظل ونحوها، ﴿ٱجۡتُثَّتۡ﴾ هذه الشجرة ﴿مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: من ثبوت فلا عروق تمسكها، ولا ثمرة صالحة، تنتجها، بل إن وجد فيها ثمرة، فهي ثمرة خبيثة، كذلك كلمة الكفر والمعاصي، ليس لها ثبوت نافع في القلب، ولا تثمر إلا كل قول خبيث وعمل خبيث يستضر به صاحبه، ولا ينتفع، فلا يصعد إلى اللّٰه منه عمل صالح ولا ينفع نفسه، ولا ينتفع به غيره»[٢].

وقال شيخ الإسلام: «والكلمة: أصل العقيدة. فإن الاعتقاد هو الكلمة التي

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٢٢-١٢٣).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٣٨-١٣٩).

يعتقدها المرء، وأطيب الكلام والعقائد: كلمة التوحيد واعتقاد أن لا إله إلا اللَّه. وأخبث الكلام والعقائد: كلمة الشرك وهو اتخاذ إله مع اللَّه. فإن ذلك باطل لا حقيقة له، ولهذا قال سبحانه: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ ولهذا كان كلما بحث الباحث وعمل العامل على هذه الكلمات والعقائد الخبيثة؛ لا يزداد إلا ضلالًا وبعدًا عن الحق وعلمًا ببطلانها كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[1] »[2].

وقال: «وقد ضرب اللَّه مثل الكلمة الطيبة التي في قلوب المؤمنين ومثل الكلمة الخبيثة التي في قلوب الكافرين، والكلمة هي قضية جازمة وعقيدة جامعة، ونبينا ﷺ أوتي فواتح الكلام وخواتمه وجوامعه، فبعث بالعلوم الكلية والعلوم الأولية والآخرية على أتم قضية، فالكلمة الطيبة في قلوب المؤمنين -وهي العقيدة الإيمانية التوحيدية- كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء، فأصل أصول الإيمان ثابت في قلب المؤمن كثبات أصل الشجرة الطيبة وفرعها في السماء، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ واللَّه سبحانه مثل الكلمة الطيبة أي: كلمة التوحيد بشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

فبين بذلك أن الكلمة الطيبة لها أصل ثابت في قلب المؤمن، ولها فرع عال، وهي ثابتة في قلب ثابت، كما قال: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾[3] فالمؤمن عنده يقين وطمأنينة، والإيمان في قلبه ثابت مستقر، وهو في نفسه ثابت على الإيمان مستقر لا يتحول عنه، والكلمة الخبيثة ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ استؤصلت واجتثت كما يقطع الشيء يجتث من فوق الأرض ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ لا مكان تستقر فيه، ولا استقرار في المكان، فإن القرار يراد به مكان الاستقرار كما قال تعالى: ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾[4] وقال: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾[5] ويقال: فلان ما له قرار: أي: ثبات وقد فسر القرار في

---

(١) النور: الآيتان (٣٩-٤٠).
(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٧٤-٧٥).
(٣) إبراهيم: الآية (٢٧).
(٤) إبراهيم: الآية (٢٩).
(٥) غافر: الآية (٦٤).

الآية بهذا وهذا، فالمبطل ليس قوله ثابتًا في قلبه، ولا هو ثابت فيه ولا يستقر، كما قال تعالى في المثل الآخر: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(١) فإنه وإن اعتقده مدة فإنه عند الحقيقة يخونه، كالذي يشرك بالله، فعند الحقيقة يضل عنه ما كان يدعو من دون الله. وكذلك الأفعال الباطلة التي يعتقدها الإنسان عند الحقيقة تخونه ولا تنفعه، بل هي كالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فمن كان معه كلمة طيبة أصلها ثابت؛ كان له فرع في السماء يوصله إلى الله فإنه سبحانه إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه، ومن لم يكن معه أصل ثابت فإنه يحرم الوصول؛ لأنه ضيع الأصول، ولهذا تجد أهل البدع والشبهات لا يصلون إلى غاية محمودة، كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾(٢).

والله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب، بأن يكون هو المعبود وحده لا شريك له، وإنما يعبد بما أمر به على ألسن رسله. وأصل عبادته معرفته بما وصف به نفسه في كتابه، وما وصفه به رسله، ولهذا كان مذهب السلف أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وما وصفه به رسله، من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، والذين ينكرون بعض ذلك ما قدروا الله حق قدره، وما عرفوه حق معرفته، ولا وصفوه، حق صفته، ولا عبدوه حق عبادته»(٣).

وقال البغوي: «والحكمة في تمثيل الإيمان بالشجرة هي: أن الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء: عرق راسخ، وأصل قائم، وفرع عال، كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء: تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالأبدان»(٤).

قال القاسمي: «تنبيه: لحظ في الممثل به -أعني: الشجرة- أوصاف جليلة لتلحظ في جانب الممثل له. فمنها: كونها طيبة. أعم من طيب المنظر والصورة والشكل ومن طيب الريح. وطيب الثمرة وطيب المنفعة. وكون أصلها ثابتا أي:

(١) الرعد: الآية (١٧).
(٢) الرعد: الآية (١٤).
(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ١٥٨-١٦٠).
(٤) تفسير البغوي (٤/ ٣٤٧).

راسخا باقيا من أمن من الانتفاع والانقطاع والزوال والفناء ليعظم الفرح به والسرور. وكون فرعها في السماء فدل على كمال حال تلك الشجرة من جهة ارتفاع أغصانها وقوتها في التصاعد، مما يبرهن على ثبات الأصل ورسوخ العروق، وجهة بعدها عن العفونات والأقذار فتكون ثمرتها نقية طاهرة طيبة عن جميع الشوائب. وكون ثمرتها تجتنى كل حين فلا تنقطع بركاتها وخيراتها. ولا ريب أن وجود هذه الأوصاف مما يدل على فخامة الموصوف وإنافة فضله. ولا تخفى مطابقة هذا الممثل به للممثل له -أعني الحق- وهو الإسلام الذي جاء به خاتم الأنبياء ﷺ»[1].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل النخلة وأنها الشجرة الطيبة

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كنا عند رسول اللَّه ﷺ فقال: **أخبروني بشجرة تشبه أو كالرجل المسلم لا يتحات ورقها ولا ولا ولا، تؤتي أكلها كل حين**. قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم. فلما لم يقولوا شيئًا قال رسول اللَّه ﷺ: **هي النخلة**. فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، واللَّه لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة. فقال: ما منعك أن تكلم؟ قال: لم أركم تكلمون فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئًا. قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا»[2].

* عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ في قوله: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: «**هي التي لا تنفض ورقها**». وظننت أنها النخلة[3].

* عن أنس رضي الله عنه قال: «أتي رسول اللَّه ﷺ بقناع عليه رطب، فقال: **مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. قال: هي النخلة، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من**

(١) محاسن التأويل (١٠/ ٢٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٥٧)، والبخاري (٨/ ٤٨١/ ٤٦٩٨) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢١٦٤-٢١٦٥/ ٢٨١١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧١/ ١١٢٦١).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٩١) وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٤٤) وقال «رواه أحمد ورجاله ثقات» وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناد صحيح».

قرار. قال: هي الحنظل»[١].

★ غريب الأحاديث:

بقناع: بكسر القاف وخفة النون، هو: الطبق الذي يؤكل عليه.

لا تنفض: بالفاء والضاد المعجمة؛ أي: لا تزيله فلا يتساقط منها.

★ فوائد الأحاديث:

قال القاضي: «وفيه فضل الشجر والثمر الذي لايسقط ورقه. ويشبهها بالمسلم لكثرة خيرها ودوام ظلها، وطيب ثمرها، ووجوده على الدوام. وأما في رؤوسها فمن حين تطلع إلى أن تيبس تؤكل أنواعا، ثم بعد هو مما يدخر فلا ينقطع نفعها، قال اللَّه تعالى: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝٢٤ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾. ثم في جميعها منافع من استعمال جذوعها في البناء والآلات، وجرائدها حطبا وعصيا ومخاصر ومشاجب وحصرا، واستعمال ليفها حبالا وخطما وحشو الوسائد والمرافق والبراذع وغير ذلك، واستعمال خوصها مكاتل وحبالا وحصرا. ثم في جمال بنائها واعتدال قيامها واستدارة جذوعها وثمرها، ثم تؤكل رطبة وجمارة، فهي منفعة كلها وخير وجمال، وهذا أولى الوجوه. كما أن المؤمن منفعة كله وخير كله؛ لاتصافه بأفعال الخير؛ من المواظبة على الصلوات كل يوم وليلة»[٢].

وقال القرطبي: «وتشبيه المسلم بالنخلة صحيح، وهو من حيث إن أصل دينه وإيمانه ثابت، وأن ما يصدر عنه من العلم والخير قوت للأرواح مستطاب، وأنه لا يزال مستورا بدينه لا يسقط من دينه شيء، وأنه ينتفع بكل ما يصدر عنه، ولا يكره منه شيء. وكذلك النخلة»[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٧٥/ ٣١١٩)، ثم ساق إسنادًا آخر من طريق أبي بكر بن شعيب بن الحبحاب عن أبيه عن أنس بن مالك موقوفًا ثم قال «هذا أصح من حديث حماد بن سلمة»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧١/ ١١٢٦٢)، وأبو يعلى (٧/ ١٨٢-١٨٣/ ٤١٦٥) وصححه، وابن حبان (الإحسان ٢/ ٢٢٢-٢٢٣/ ٤٧٥)، والحاكم (٢/ ٣٥٢) ووافقه الذهبي.

(٢) إكمال المعلم (٨/ ٣٤٥-٣٤٦).

(٣) المفهم (٦/ ٧٠١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «شبّه سبحانه الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع. وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين الذين يقولون: الكلمة الطيبة: هي شهادة أن لا إله إلا الله؛ فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة، الظاهرة والباطنة. فكل عمل صالح مرضي لله ثمرة هذه الكلمة.

وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾: شهادة أن لا إله إلا اللَّه، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾: وهو المؤمن، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾: قول (لا إله إلا الله) في قلب المؤمن، ﴿وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء.

وقال الربيع بن أنس: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾: هذا مثل الإيمان. فالإيمان الشجرة الطيبة، وأصلها الثابت الذي لا يزول: الإخلاص فيه. ﴿وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: خشية اللَّه. والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن؛ فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل، الباسقة الفرع في السماء علوًا، التي لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين.

وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقًا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب التي فروعها من الأعمال الصالحة صاعدة إلى السماء. ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت، بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حق رعايتها. فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة اللَّه التي لا أحسن صبغة منها. فعرف حقيقة الإلهيته التي يثبتها قلبه لله، ويشهد بها لسانه، وتصدقها جوارحه، ونفى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى اللَّه وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سبل ربه ذللًا غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلًا. كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلًا. فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى اللَّه كل وقت. فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى.

وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلمًا كثيرًا طيبًا، يقارنه عمل صالح، فيرفع العمل

الصالح الكلم الطيب، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[1] فأخبر سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملًا صالحًا كل وقت.

والمقصود: أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفًا بمعناها وحقيقتها نفيًا وإثباتًا، ومتصفًا بموجبها، قائمًا قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته؛ فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد أصلها ثابت راسخ في قلبه، وفروعها متصلة بالسماء، وهي مخرجة لثمرتها كل وقت.

ومن السلف من قال: إن الشجرة الطيبة هي النخلة. ويدل عليه حديث ابن عمر الصحيح.

ومنهم من قال: هي المؤمن نفسه. كما قال محمد بن سعيد: حدثني أبي حدثني عمي حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ يعني بالشجرة الطيبة: المؤمن، ويعني بالأصل الثابت في الأرض، والفرع في السماء: يكون المؤمن يعمل في الأرض ويتكلم، فيبلغ عمله وقوله السماء، وهو في الأرض.

وقال عطية العوفي في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قال: ذلك مثل المؤمن، لا يزال يخرج منه كلام طيب وعمل صالح يصعد إلى الله.

وقال الربيع بن أنس: أصلها ثابت وفرعها في السماء، قال: ذلك المؤمن ضرب مثله في الإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له، أصلها ثابت قال: أصل عمله ثابت في الأرض، وفرعها في السماء قال: ذكره في السماء.

ولا اختلاف بين القولين.

والمقصود بالمثل: المؤمن، والنخلة مشبهة به، وهو مشبه بها. وإذا كانت النخلة شجرة طيبة فالمؤمن المشبه بها أولى أن يكون كذلك.

ومن قال من السلف: إنها شجرة في الجنة؛ فالنخلة من أشرف أشجار الجنة.

---

(١) فاطر: الآية (١٠).

وفي هذا المثل من الأسرار والعلوم والمعارف ما يليق به، ويقتضيه علم الذي تكلم به، وحكمته.

فمن ذلك: أن الشجرة لا بد لها من عروق وساق وفروع وورق وثمر. فكذلك شجرة الإيمان والإسلام ليطابق المشبه المشبه به. فعروقها: العلم والمعرفة واليقين. وساقها: الإخلاص. وفروعها: الأعمال. وثمرتها: ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة، والصفات الممدوحة، والأخلاق الزكية، والسّمت الصالح والهدى والدَّلّ المرضيّ. فيستدل على غرس هذه الشجرة في القلب وثبوتها فيه بهذه الأمور.

فإذا كان العلم صحيحًا مطابقًا لمعلومه الذي أنزل اللّه كتابه به، والاعتقاد مطابقًا لما أخبر به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله، والإخلاص قائم في القلب، والأعمال موافقة للأمر، والهدى والدّلّ والسمت مشابه لهذه الأصول مناسب لها: علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وإذا كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة، التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

ومنها: أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميها. فإذا قطع عنها السقي أوشك أن تيبس. فهكذا شجرة الإسلام في القلب، إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح، والعود بالتذكر على التفكر، والتفكر على التذكر، وإلا أوشك أن تيبس.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**إن الإيمان يَخلَق في القلب كما يخلق الثوب، فجددوا إيمانكم**»[1].

وبالجملة: فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك.

ومن هاهنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر اللّه به من العبادات على تعاقب الأوقات، وعظيم رحمته، وتمام نعمته وإحسانه إلى عباده: أن وظفها عليها

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٤)، وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ٥٢)، وقال: رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن، وأخرجه أحمد بلفظ: «جددوا إيمانكم. قيل: يا رسول اللّه وكيف نجدد إيماننا؟ قال: أكثروا من قول لا إله إلا اللّه».

وجعلها مادة لسقي غراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم.

ومنها: أن الغرس والزرع النافع قد أجرى اللَّه سبحانه العادة أنه لا بد أن يخالطه دغل ونبت غريب، ليس من جنسه. فإن تعاهده ربه ونقاه وقلعه كمل الغرس والزرع، واستوى وتم نباته، وكان أوفر لثمرته وأطيب، وأزكى. وإن تركه أوشك أن يغلب على الغرس والزرع، ويكون الحكم له أو يضعف الأصل ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة بحسب كثرته وقلته.

ومن لم يكن له فقه نفس في هذا ومعرفة به، فإنه يفوته ربح كبير. وهو لا يشعر.

فالمؤمن دائمًا سعيه في شيئين: سقي هذه الشجرة، وتنقية ما حولها. فبسقيها تبقى وتدوم، وبتنقية ما حولها تكمل وتتم. واللَّه المستعان وعليه التكلان.

فهذا بعض ما تضمنه هذا المثل العظيم الجليل من الأسرار والحكم. ولعلها قطرة من بحر، بحسب أذهاننا الواقفة، وقلوبنا المخطئة، وعلومنا القاصرة، وأعمالنا التي توجب التوبة والاستغفار، وإلا فلو طهرت منا القلوب، وصفت الأذهان، وزكت النفوس، وخلصت الأعمال، وتجردت الهمم للتلقي عن اللَّه ورسوله لشاهدنا من معاني كلام اللَّه وأسراره وحكمه ما تضمحل عنده العلوم، وتتلاشى عنده معارف الخلق.

وبهذا تعرف قدر علوم الصحابة ومعارفهم، وأن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل. واللَّه أعلم حيث يجعل مواقع فضله، ومن يختص برحمته.

ثم ذكر سبحانه مثل الكلمة الخبيثة. فشبهها بالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض، ما لها من قرار، فلا عرق ثابت، ولا فرع عال، ولا ثمرة زاكية. فلا ظل، ولا جنى، ولا ساق قائم، ولا عرق في الأرض ثابت. فلا أسفلها مغدق، ولا أعلاها مونق ولا جنى لها، ولا تعلو، بل تُعلى.

وإذا تأمل اللبيب أكثر كلام هذا الخلق في خطابهم وكسبهم، وجده كذلك. فالخسران الوقوف معه، والاشتغال به عن أفضل الكلام وأنفعه.

قال الضحاك: ضرب اللَّه مثلا للكافر بشجرة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار. يقول: ليس لها أصل ولا فرع. وليس لها ثمرة، ولا فيها منفعة. كذلك الكافر لا يعمل خيرًا، ولا يقوله، ولا يجعل اللَّه فيه بركة ولا منفعة.

وقال ابن عباس: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾: وهي الشرك، ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾: يعني الكافر. ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾، يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر، ولا برهان. ولا يقبل اللَّه مع الشرك عملًا، فلا يقبل عمل المشرك ولا يصعد إلى اللَّه، فليس له أصل ثابت في الأرض، ولا فرع في السماء، يقول: ليس له عمل صالح في السماء ولا في الأرض.

وقال الربيع بن أنس: مثل الشجرة الخبيثة مثل الكافر، ليس لقوله ولا لعمله أصل ولا فرع، ولا يستقر قوله ولا عمله على الأرض، ولا يصعد إلى السماء.

وقال سعيد عن قتادة في هذه الآية: إن رجلًا لقي رجلًا من أهل العلم، فقال له: ما تقول في الكلمة الخبيثة؟ قال: ما أعلم لها في الأرض مستقرًّا، ولا في السماء مصعدًا، إلا أن تلزم عنق صاحبها، حتى يوافيَ بها القيامة»[١].

وقال: «تأمل هذه النخلة التي هي إحدى آيات اللَّه تجد فيها من الآيات والعجائب ما يبهرك، فإنه لما قدر أن يكون فيه إناث تحتاج إلى اللقاح؛ جعلت فيها ذكور تلقحها بمنزلة الحيوان وإناثه، ولذلك اشتد شبهها من بين سائر الأشجار بالإنسان؛ خصوصا بالمؤمن -كما مثله النبي ﷺ- وذلك من وجوه كثيرة: أحدها ثبات أصلها في الأرض واستقراره فيها، وليست بمنزلة الشجرة التي اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار. الثاني: طيب ثمرتها وحلاوتها وعموم المنفعة بها، كذلك المؤمن طيب الكلام طيب العمل، فيه المنفعة لنفسه ولغيره. الثالث: دوام لباسها وزينتها فلا يسقط عنها صيفا ولا شتاء، كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوى وزينتها حتى يوافي ربه تعالى. الرابع: سهولة تناول ثمرتها وتيسره، أما قصيرها فلا يحوج المتناول أن يرقاها وأما باسقها فصعوده سهل بالنسبة إلى صعود الشجر الطوال وغيرها، فتراها كأنها قد هيئت منها المراقي والدرج إلى أعلاها، وكذلك المؤمن خيره سهل قريب لمن رام تناوله لا بالغر ولا باللئيم. الخامس: أن ثمرتها من أنفع ثمار العالم، فإنه يؤكل رطبه فاكهة وحلاوة، ويابسه يكون قوتًا وأدمًا وفاكهة، ويتخذ منه الخل والناطف والحلوى، ويدخل في الأدوية والأشربة، وعموم المنفعة به وبالعنب فوق كل الثمار»[٢].

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٧١-١٧٦).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ١١٦-١١٧).

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال شيخ الإسلام: «التثبت جعل الإنسان ثابتا لا مرتابا، وذلك بإلقاء ما يثبته من التصديق بالحق والوعد بالخير، كما قال ابن مسعود: «لمة الملك وعد بالخير، وتصديق بالحق»، فمتى علم القلب أن ما أخبر به الرسول حق صدقه، وإذا علم أن اللَّه قد وعده بالتصديق وثق بوعد اللَّه فثبت، فهذا يثبت بالكلام كما يثبت الإنسان الإنسان في أمر اضطرب فيه بأن يخبره بصدقه، ويخبره بما يبين له أنه منصور فيثبت، وقد يكون التثبت بالفعل، بأن يمسك القلب حتى يثبت كما يمسك الإنسان الإنسان حتى يثبت»[١].

وقال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يحقق اللَّه أعمالَهم وإيمانهم ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾، يقول: بالقول الحق، وهو فيما قيل: شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وأنّ محمدًا رسول اللَّه. وأما قوله: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فإن أهل التأويل اختلفُوا فيه، فقال بعضهم: عنى بذلك أن اللهَ يثَبتهم في قبورهم قبلَ قيام الساعة..

وقال آخرون: معنى ذلك: يثبت اللَّه الذين آمنوا بالإيمان في الحياة الدنيا، وهو (القول الثابت) (وفي الآخرة) المسألةُ في القبر.. والصواب من القول في ذلك ما ثبتَ به الخبر عن رسول اللَّه ﷺ في ذلك، وهو أنّ معناه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وذلك تثبيته إياهم في الحياة الدنيا بالإيمان باللَّه وبرسوله محمد ﷺ ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بمثل الذي ثبَّتهم به في الحياة الدنيا، وذلك في قبورهم حين يُسْألون عن الذي هم عليه من التوحيد والإيمان

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٢٤).

برسوله ﷺ. . وقوله: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾، يعني -تعالى ذكره- بذلك: وبيدِ اللَّه الهداية والإضلال، فلا تنكروا أيها الناس قدرتَه ولا اهتداءَ من كان منكم ضالا ولا ضلالَ من كان منكم مهتديًا، فإنّ بيده تصريفَ خلقه وتقليبَ قلوبهم، يفعل فيهم ما يشاء»[1].

وقال أبو حيان: «والقول الثابت هو الذي ثبت بالحجة والبرهان في قلب صاحبه، وتمكن فيه واطمأنت إليه نفسه. وتثبيتهم به في الدنيا كونهم لو فتنوا عن دينهم في الدنيا لثبتوا عليه وما زلوا، كما جرى لأصحاب الأخدود، والذين نشروا بالمناشير، وكشطت لحومهم بأمشاط الحديد، كما ثبت جرجيس وشمعون وبلال حتى كان يعذب بالرمضاء وهو يقول: أحد أحد. وتثبيتهم في الآخرة كونهم إذا سئلوا عند توافق الإشهاد عن معتقدهم ولم يتلعثموا، ولم يبهتوا، ولم تحيرهم أهوال الحشر. والذين آمنوا عام من لدن آدم إلى يوم القيامة. وقال طاووس وقتادة وجمهور من العلماء: إن تثبيتهم في الدنيا هو مدة حياة الإنسان، وفي الآخرة هو وقت سؤاله في قبره، ورجح هذا القول الطبري. وقال البراء بن عازب وجماعة: في الحياة الدنيا هي وقت سؤاله في قبره، ورواه البراء عن النبي ﷺ[2]، وفي الآخرة هو يوم القيامة عند العرض. وقيل: معنى تثبيته في الحياة الدنيا وفي الآخرة هو حياته على الإيمان، وحشره عليه. وقيل: التثبيت في الدنيا الفتح والنصر، وفي الآخرة الجنة والثواب. وما صح عن الرسول ﷺ في حديث البراء من تلاوته عند إيعاد المؤمن في قبره، وسئل وشهد شهادة الإخلاص. قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية، لا يظهر منه يعني: أن الحياة الدنيا هي حياة الإنسان، وأن الآخرة في القبر، ولا أن الحياة الدنيا هي في القبر، وأن الآخرة هي يوم القيامة، بل اللفظ محتمل. ومعنى يثبت: يديمهم عليه، ويمنعهم من الزلل. ومنه قول عبد اللَّه بن رواحة:

فثبت اللَّه ما آتاك من حسن   تثبيت موسى ونصرًا كالذي نصروا

والظاهر أنّ بالقول الثابت متعلق بقوله: يثبت. وقيل: يتعلق بآمنوا. وسؤال

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٥٨٢-٦٠٣). شاكر.

(٢) سيأتي تخريجه في: الآية نفسها.

العبد في قبره معتقد أهل السنة. ويضل اللَّه الظالمين أي: الكافرين لمقابلتهم بالمؤمنين، وإضلالهم في الدنيا كونهم لا يثبتون في مواقف الفتن، وتزل أقدامهم وهي الحيرة التي تلحقهم، إذ ليسوا متمسكين بحجة. وفي الآخرة هو اضطرابهم في جوابهم. ولما تقدم تشبيه الكلمة الطيبة على تشبيه الكلمة الخبيثة، تقدم في هذا الكلام من نسبت إليه الكلمة الطيبة وتلاه من نسبت إليه الكلمة الخبيثة. ولما ذكر تعالى ما فعل بكل واحد من القسمين ذكر أنه لا يمكن اعتراض فيما خص به كل واحد منهما، إذ ذاك راجع إلى مشيئته تعالى، إنّ اللَّه يفعل ما يشاء، لا يسئل عما يفعل»[١].

وقال ابن عطية: «﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في هذه الآية: الكافرين، بدليل أنه عادل بهم المؤمنين، وعادل التثبيت بالإضلال، وقوله: ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ تقرير لهذا التقسيم المتقدم، كأن امرأً رأى التقسيم فطلب في نفسه علته، فقيل له: ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ بحق الملك. وفي هذه الآية رد على القدرية. وذكر الطبري في صفة مساءلة العبد في قبره أحاديث، منها ما وقع في الصحيح. وهي من عقائد الدين، وأنكرت ذلك المعتزلة. ولم تقل بأن العبد يسأل في قبره، وجماعة السنة تقول: إن اللَّه يخلق له في قبره إدراكات وتحصيلًا، إما بحياة كالمتعارفة، وإما بحضور النفس وإن لم تتلبس بالجسد كالعرف، كل هذا جائز في قدرة اللَّه تعالى، غير أن في الأحاديث: «إنه يسمع خفق النعال»[٢]، ومنها: «إنه يرى الضوء كأن الشمس دنت للغروب»[٣].. وفيها: «فيعاد روحه إلى جسده»[٤]، وهذا كله يتضمن الحياة؛ فسبحان رب هذه القدرة»[٥].

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بين أن صفة الكلمة الطيبة أن يكون أصلها ثابتًا، وصفة الكلمة الخبيثة أن لا يكون لها أصل ثابت، بل تكون منقطعة ولا يكون لها قرار ذكر أن ذلك القول الثابت الصادر عنهم في الحياة الدنيا يوجب ثبات كرامة اللَّه لهم، وثبات ثوابه عليهم، والمقصود: بيان أن الثبات في المعرفة والطاعة يوجب الثبات في الثواب والكرامة من اللَّه تعالى فقوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾ أي: على

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٤١٢).

(٢) سيأتي تخريجه من حديث البراء بن عازب.

(٣) سيأتي تخريجه من حديث أبي هريرة.

(٤) سيأتي تخريجه من حديث البراء بن عازب.

(٥) المحرر الوجيز (٣/ ٣٣٧).

الثواب والكرامة، وقوله: ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: بالقول الثابت الذي كان يصدر عنهم حال ما كانوا في الحياة الدنيا.

ثم قال: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني كما أن الكلمة الخبيثة ما كان لها أصل ثابت ولا فرع باسق، فكذلك أصحاب الكلمة الخبيثة وهم الظالمون، يضلهم اللَّه عن كراماته، ويمنعهم عن الفوز بثوابه، وفي الآية قول آخر -وهو القول المشهور-: أن هذه الآية وردت في سؤال الملكين في القبر، وتلقين اللَّه المؤمن كلمة الحق في القبر عند السؤال، وتثبيته إياه على الحق. وعن النبي ﷺ أنه قال في قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال: «حين يقال له في القبر: من ربك وما دينك ومن نبيك فيقول ربي اللَّه وديني الإسلام ونبي محمدﷺ»[١] والمراد في الباء في قوله: ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ هو أن اللَّه تعالى إنما ثبتهم في القبر بسبب مواظبتهم في الحياة الدنيا على هذا القول، ولهذا الكلام تقرير عقلي، وهو أنه كلما كانت المواظبة على الفعل أكثر كان رسوخ تلك الحالة في العقل والقلب أقوى، فكلما كانت مواظبة العبد على ذكر لا إله إلا اللَّه وعلى التأمل في حقائقها ودقائقها أكمل وأتم، كان رسوخ هذه المعرفة في عقله وقلبه بعد الموت أقوى وأكمل. قال ابن عباس: من داوم على الشهادة في الحياة الدنيا يثبته اللَّه عليها في قبره ويلقنه إياها، وإنما فسر الآخرة هاهنا بالقبر؛ لأن الميت انقطع بالموت عن أحكام الدنيا، ودخل في أحكام الآخرة، وقوله: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني أن الكفار إذا سئلوا في قبورهم قالوا: لا ندري وإنما قال ذلك لأن اللَّه أضله، وقوله: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ يعني إن شاء هدى وإن شاء أضل، ولا اعتراض عليه في فعله البتة»[٢].

وقال ابن القيم: «فأخبر أنه يثبت الذين آمنوا بإيمانهم بالقول الثابت أحوج ما يكونون إليه في الدنيا والآخرة، وأنه يضل الظالمين وهم المشركون عن القول الثابت، فأضل هؤلاء -بعدله- لظلمهم، وثبت المؤمنين -بفضله- لإيمانهم.

وتحت قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي

---

(١) سيأتي تخريجه في هذه: الآية.

(٢) التفسير الكبير (١٩/ ١٢٩-١٣٠).

ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ كنز عظيم، من وفق لمظنته وأحسن استخراجه واقتناءه وأنفق منه فقد غنم، ومن حرمه فقد حرم، وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت اللَّه له طرفة عين، فإن لم يثبته وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما، وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾[(١)]، وقال تعالى لأكرم خلقه: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾[(٢)] وفي الصحيحين من حديث التجلي قال: «وهو يسألهم ويثبتهم»[(٣)]، وقال تعالى لرسوله: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾[(٤)] فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت، ومادة التثبيت أصله ومنشؤه من القول الثابت، وفعل ما أمر به العبد، فبهما يثبت اللَّه عبده، فكل من كان أثبت قولا وأحسن فعلا كان أعظم تثبيتا، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا﴾[(٥)] فأثبت الناس قلبا أثبتهم قولًا، والقول الثابت هو القول الحق والصدق وهو ضد القول الباطل الكذب، فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له، وأثبت القول كلمة التوحيد ولوازمها، فهي أعظم ما يثبت اللَّه بها عبده في الدنيا والآخرة، ولهذا ترى الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلبا، والكاذب من أمهن الناس وأخبثهم وأكثرهم تلونا وأقلهم ثباتا، وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الإخبار وشجاعته ومهابته، ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك، ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة»[(٦)].

وقال: «فأخبر سبحانه أن تثبيت المؤمنين وإضلال الظالمين فعله، فإنه يفعل ما يشاء، وأما الثبات والضلال فمحض أفعالهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[(٧)] فأخبر أنه هو الذي قسى قلوبهم حتى صارت قاسية، فالقساوة وصفها وفعلها، وهي أثر

---

(١) الإسراء: الآية (٧٤). (٢) الأنفال: الآية (١٢).

(٣) لم أقف على هذا اللفظ وإنما أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٨-٣٦٩)، والترمذي (٤/ ٥٩٦-٥٩٧/ ٢٥٥٧)، بلفظ: «وهو يأمرهم ويثبتهم»، وأخرجه البخاري (١٣/ ٥١٦-٥١٧/ ٧٤٣٧)، ومسلم (١/ ١٦٣-١٦٧/ ١٨٢)، بدون هذا اللفظ كلهم أخرجوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) هود: الآية (١٢٠). (٥) النساء: الآية (٦٦).

(٦) أعلام الموقعين (٢/ ١٧٦-١٧٧).

(٧) المائدة: الآية (١٣).

فعله وهو جعلها قاسية، وذلك أثر معاصيهم ونقضهم ميثاقهم وتركهم بعض ما ذكروا به، فالآية مبطلة لقول القدرية والجبرية»[١].

وقال: «فهو الهادي والعبد المهتدي، قال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِۖ﴾[٢] ولا سبيل إلى وجود الأثر إلا بمؤثره التام، فإن لم يحصل فعله لم يحصل فعل العبد، ولهذا قال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّۖ﴾[٣] وهذا صريح في أن هذا الهدى ليس له ﷺ، ولو حرص عليه ولا إلى أحد غير اللَّه، وأن اللَّه سبحانه إذا أضل عبدًا لم يكن لأحد سبيل إلى هدايته، كما قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٥] وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ﴾[٦] وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۗ﴾[٨] وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾[٩] وقال: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ﴾[١٠] وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[١١]. وأمر سبحانه عباده كلهم أن يسألوه هدايتهم الصراط المستقيم، كل يوم وليلة في الصلوات الخمس، وذلك يتضمن الهداية إلى الصراط والهداية فيه، كما أن الضلال نوعان: ضلال عن الصراط فلا يهتدي إليه، وضلال فيه، فالأول ضلال عن معرفته، والثاني ضلال عن تفاصيله أو بعضها»[١٢].

---

(١) شفاء العليل (١/ ٥٩).
(٢) الإسراء: الآية (٩٧).
(٣) النحل: الآية (٣٧).
(٤) الأعراف: الآية (١٨٦).
(٥) الأنعام: الآية (٣٩).
(٦) فاطر: الآية (٨).
(٧) الجاثية: الآية (٢٣).
(٨) البقرة: الآية (٢٧٢).
(٩) السجدة: الآية (١٣).
(١٠) الرعد: الآية (٣١).
(١١) إبراهيم: الآية (٢٧).
(١٢) شفاء العليل (١/ ٨٠-٨١).

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في عذاب القبر ونعيمه

* عن البراء بن عازب رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «**إذا أُقعد المؤمن في قبره أُتي ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فذلك قوله سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾**»[1].

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «اطلع النبي ﷺ على أهل القليب فقال: **وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟** فقيل له: تدعو أمواتًا؟ فقال: **ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون**»[2].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إنما قال النبي ﷺ: **إنهم ليعلمون الآن أن ما كنت أقول حق**، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[3]»[4].

* عن عائشة رضي الله عنها «أن يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر. فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر فقال: **نعم، عذاب القبر**. قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر». زاد غندر: «**عذاب القبر حق**»[5].

* عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: «قام رسول الله ﷺ خطيبًا فذكر فتنة القبر التي يفتتن فيها المرء. فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجة»[6].

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه -وإنه ليسمع قرع نعالهم- أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان: ما كنت**

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٢)، البخاري (٣/ ٢٩٧/ ١٣٦٩) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٢٠١/ ٢٨٧١)، وأبو داود (٥/ ١١٢/ ٤٧٥٠)، والترمذي (٥/ ٢٧٦/ ٣١٢٠)، والنسائي (٤/ ٤٠٧/ ٢٠٥٦)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٧/ ٤٢٦٩).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٣١)، والبخاري (٣/ ٢٩٧/ ١٣٧٠)، ومسلم (٢/ ٦٤٣/ ٩٣٢)، والنسائي (٤/ ٤١٦-٤١٧/ ٢٠٧٥).

(٣) النمل: الآية (٨٠).

(٤) أخرجه أحمد بنحوه (٦/ ٢٧٦)، البخاري (٣/ ٢٩٧/ ١٣٧١)، مسلم (٢/ ٦٤٣/ ٩٣٢).

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ١٧٤)، والبخاري (٣/ ٢٩٧-٢٩٨/ ١٣٧٢)، ومسلم (١/ ٤١١/ ٥٨٦)، والنسائي (٣/ ٦٣-٦٤/ ١٣٠٧) مختصرا.

(٦) أخرجه البخاري (٣/ ٢٩٨/ ١٣٧٣)، والنسائي (٤/ ٤٠٩/ ٢٠٦١).

تقول في هذا الرجل؟ لمحمد ﷺ. فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد اللَّه ورسوله. فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك اللَّه به مقعدًا من الجنة، فيراهما جميعًا». قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره. ثم رجع إلى حديث أنس قال: «وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس. فيقال: لا دريت ولا تليت. ويضرب بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين»[1].

★ فوائد الأحاديث:

قال ابن أبي العز: «وقد تواترت الأخبار عن رسول اللَّه ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلًا، وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا تتكلم في كيفيته، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته، لكونه لا عهد له به في هذا الدار، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول، فإن عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا. فالروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق، متغايرة الأحكام:

أحدها: تعلقها به في بطن الأم جنينًا.

الثاني: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

الثالث: تعلقها به في حال النوم، فلها به تعلق من وجه، ومفارقة من وجه.

الرابع: تعلقها به في البرزخ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقًا كليًّا، بحيث لا يبقى لها إليه التفات البتة، فإنه ورد ردها إليه وقت سلام المسلّم، وورد أنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه. وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة.

الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه، إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتًا ولا نومًا

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٦)، والبخاري (٣/ ٢٩٨/ ١٣٧٤) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٢٠٠-٢٢٠١/ ٢٨٧٠)، وأبو داود (٥/ ١١٤/ ٤٧٥٢)، والنسائي (٤/ ٤٠٣/ ٢٠٥٠).

ولا فسادًا، فالنوم أخو الموت. فتأمل هذا يزح عنك إشكالات كثيرة»[١].

وقال: «واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه، قُبر أو لم يُقبر؛ أكلته السباع أو احترق حتى صار رمادًا ونسف في الهواء، أو صُلب أو غرق في البحر؛ وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور. وما ورد من إجلاسه، واختلاف أضلاعه، ونحو ذلك؛ فيجب أن يُفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير، فلا يُحمَّل كلامه ما لا يحتمله، ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان، فكم حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا اللَّه. بل سوء الفهم عن اللَّه ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، وهو أصل كل خطأ في الفروع والأصول، ولاسيما إن أضيف إليه سوء القصد. واللَّه المستعان»[٢].

قال الحافظ: «وهل تختص -أي: فتنة القبر- بهذه الأمة أم وقعت على الأمم قبلها؟ ظاهر الأحاديث الأول وبه جزم الحكيم الترمذي وقال: كانت الأمم قبل هذه الأمة تأتيهم الرسل، فإن أطاعوا فذاك وإن أبوا اعتزلوهم وعوجلوا بالعذاب، فلما أرسل اللَّه محمدًا رحمة للعالمين أمسك عنهم العذاب، وقُبل الإسلام ممن أظهره، سواء أسر الكفر أو لا، فلما ماتوا قيض اللَّه لهم فتاني القبر ليستخرج سرهم بالسؤال، وليميز اللَّه الخبيث من الطيب، ويثبت اللَّه الذين آمنوا ويضل اللَّه الظالمين. انتهى. ويؤيده حديث زيد بن ثابت مرفوعًا: «**إن هذه الأمة تبتلى في قبورها**»[٣]. . ويؤيده أيضًا قول الملكين: «ما تقول في هذا الرجل محمد؟»»[٤].

وقال ابن القيم: «وقال آخرون: لا يدل هذا على اختصاص السؤال بهذه الأمة دون سائر الأمم، فإن قوله: «فإن هذه الأمة» إما أن يراد به أمة الناس كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾[٥] وكل جنس من أجناس الحيوان يسمى أمة. . وإن كان المراد به أمته صلى اللَّه عليه وآله وسلم الذي

---

(١) شرح الطحاوية (ص: ٣٩٩).
(٢) (ص: ٤٠٠).
(٣) سيأتي تخريجه.
(٤) فتح الباري (٣/ ٣٠٧-٣٠٨).
(٥) الأنعام: الآية (٣٨).

بعث فيهم؛ لم يكن فيه ما ينفي سؤال غيرهم من الأمم. بل قد يكون ذكرهم إخبارًا بأنهم مسؤولون في قبورهم، وأن ذلك يختص بمن قبلهم، لفضل هذه الأمة وشرفها على سائر الأمم. وكذلك قوله ﷺ: «أوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم».

وكذلك إخباره عن قول الملكين: «ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟» هو إخبار لأمته بما تمتحن به في قبورها، والظاهر -واللَّه أعلم- أن كل نبي مع أمته كذلك، وأنهم معذبون في قبورهم بعد السؤال لهم وإقامة الحجة عليهم كما يعذبون في الآخرة بعد السؤال وإقامة الحجة. واللَّه سبحانه وتعالى أعلم»[1].

سئل شيخ الإسلام قدس اللَّه روحه وهو بمصر عن عذاب القبر هل هو على النفس والبدن، أو على النفس دون البدن؟

فأجاب: «الحمد لله رب العالمين، بل العذاب والنعيم على النفس، والبدن جميعًا باتفاق أهل السنة والجماعة، تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن، وتعذب متصلة بالبدن والبدن متصل بها، فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعتين، كما يكون للروح منفردة عن البدن.

وهل يكون العذاب والنعيم للبدن بدون الروح؟ هذا فيه قولان مشهوران لأهل الحديث والسنة والكلام، وفي المسألة أقوال شاذة ليست من أقوال أهل السنة والحديث؛ قول من يقول: إن النعيم والعذاب لا يكون إلا على الروح، وأن البدن لا ينعم ولا يعذب. وهذا تقوله الفلاسفة المنكرون لمعاد الأبدان؛ وهؤلاء كفار بإجماع المسلمين. ويقوله كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم الذين يقولون: لا يكون ذلك في البرزخ، وإنما يكون عند القيام من القبور.

وقول من يقول: إن الروح بمفردها لا تنعم ولا تعذب، وإنما الروح هي الحياة، وهذا يقوله طوائف من أهل الكلام من المعتزلة، وأصحاب أبي الحسن الأشعري، كالقاضي أبي بكر، وغيرهم؛ وينكرون أن الروح تبقى بعد فراق البدن. وهذا قول باطل؛ خالفه الأستاذ أبو المعالي الجويني وغيره؛ بل قد ثبت في الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة أن الروح تبقى بعد فراق البدن، وأنها منعمة أو معذبة.

---

(١) الروح (ص: ٨٧).

والفلاسفة الإلهيون يقولون بهذا؛ لكن ينكرون معاد الأبدان، وهؤلاء يقرون بمعاد الأبدان؛ لكن ينكرون معاد الأرواح ونعيمها وعذابها بدون الأبدان؛ وكلا القولين خطأ وضلال، لكن قول الفلاسفة أبعد عن أقوال أهل الإسلام، وإن كان قد يوافقهم عليه من يعتقد أنه متمسك بدين الإسلام، بل من يظن أنه من أهل المعرفة والتصوف، والتحقيق والكلام!!!

والقول الثالث الشاذ: قول من يقول: إن البرزخ ليس فيه نعيم ولا عذاب، بل لا يكون ذلك حتى تقوم القيامة الكبرى، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة، ونحوهم، الذين ينكرون عذاب القبر ونعيمه، بناء على أن الروح لا تبقى بعد فراق البدن، وأن البدن لا ينعم ولا يعذب.

فجميع هؤلاء الطائفتين ضلاّل في أمر البرزخ، لكنهم خير من الفلاسفة؛ لأنهم يقرون بالقيامة الكبرى.

فإذا عرفت هذه الأقوال الثلاثة الباطلة، فليعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات، يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه ولبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانًا، فيحصل له معها النعيم والعذاب»[(١)].

قال ابن أبي العز: «فالحاصل أن الدور ثلاث: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار. وقد جعل اللّه لكل دار أحكامًا تخصها، وركّب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام الدنيا على الأبدان، والأرواح تبع لها، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح، والأبدان تبع لها، فإذا جاء يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم، صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعًا»[(٢)].

قوله في حديث أنس: «وأما المنافق والكافر» **قال الحافظ**: «وهي مجتمعة على أن كلاً من الكافر والمنافق يسأل، ففيه تعقب على من زعم أن السؤال إنما يقع على من يدعي الإيمان إن محقًا وإن مبطلًا، ومستندهم في ذلك ما رواه عبدالرزاق من طريق عبيد بن عمير أحد كبار التابعين قال: (إنما يفتن رجلان: مؤمن ومنافق، وأما

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨٢-٢٨٤).
(٢) شرح الطحاوية (ص: ٤٠٠-٤٠١).

الكافر فلا يسأل عن محمد ولا يعرفه) وهذا موقوف. والأحاديث الناصة على أن الكافر يسأل مرفوعة مع كثرة طرقها الصحيحة، فهي أولى بالقبول»[١].

وقال الحافظ ابن عبدالبر: «الآثار الثابتة في هذا الباب إنما تدل على أن الفتنة في القبر لا تكون إلا لمؤمن أو منافق، ممن كان في الدنيا منسوبًا إلى أهل القبلة ودين الإسلام، ممن حقن دمه بظاهر الشهادة. وأما الكافر الجاحد المبطل فليس ممن يسأل عن ربه ودينه ونبيه، وإنما يسأل عن هذا أهل الإسلام، والله أعلم»[٢].

وقال ابن القيم: «والقرآن والسنة تدل على خلاف هذا القول، وأن السؤال للكافر والمسلم؛ قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾. وقد ثبت في الصحيح أنها نزلت في عذاب القبر حين يسأل من ربك وما دينك ومن نبيك.. واسم الفاجر في عرف القرآن والسنة يتناول الكافر قطعًا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾[٤].. وبالجملة فعامة من روى حديث البراء بن عازب قال فيه: «**وأما الكافر**» بالجزم، وبعضهم قال: «وأما الفاجر»، وبعضهم قال: «وأما المنافق والمرتاب»[٥]. وهذه اللفظة من شك بعض الرواة هكذا في الحديث لا أدري أي: ذلك قال، وأما من ذكر الكافر والفاجر فلم يشك، ورواية من لم يشك مع كثرتهم أولى من رواية من شك مع انفراده، على أنه لا تناقض بين الروايتين، فإن المنافق يسأل كما يسأل الكافر والمؤمن، فيثبت الله أهل الإيمان، ويضل الله الظالمين، وهم الكفار والمنافقون...

وقول أبي عمر رحمه الله: (وأما الكافر الجاحد المبطل فليس ممن يسأل عن ربه ودينه) فيقال له: ليس كذلك، بل هو من جملة المسؤولين، وأولى بالسؤال من غيره، وقد أخبر الله في كتابه أنه يسأل الكافر يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٦] وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ

---

(١) فتح الباري (٣/ ٣٠٥-٣٠٦).
(٢) فتح البر (٢/ ١٣٥).
(٣) الانفطار: الآيتان (١٣و١٤).
(٤) المطففين: الآية (٧).
(٥) سيأتي تخريج هذه الأحاديث في هذه: الآية من حديث البراء بن عازب وأبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهم.
(٦) القصص: الآية (٦٥).

﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾(١) فإذا سئلوا يوم القيامة فكيف لا يسألون في قبورهم؟! فليس لما ذكره أبو عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجه»(٢).

وقد أنكر الملاحدة والزنادقة وكثير من أهل البدع عذاب القبر ونعيمه فرد عليهم الحافظ ابن القيم بقوله: «المسألة السابعة: وهي قول السائل: ما جوابنا للملاحدة والزنادقة المنكرين لعذاب القبر، وسعته وضيقه، وكونه حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنة، وكون الميت لا يجلس ولا يقعد فيه؟ قالوا: فإنا نكشف القبر فلا نجد فيه ملائكة عميًا صمًا يضربون الموتى بمطارق من حديد! ولا نجد هناك حيات ولا ثعابين ولا نيرانًا تأجج! ولو كشفنا حاله في حالة من الأحوال لوجدناه لم يتغير! ولو وضعنا على عينيه الزئبق وعلى صدره الخردل؛ لوجدناه على حاله! وكيف يفسح مد بصره أو يضيق عليه، ونحن نجده بحاله ونجد مساحته على حد ما حفرناها لم يزد ولم ينقص؟! وكيف يسع ذلك اللحد الضيق له وللملائكة وللصورة التي تؤنسه أو توحشه؟! قال إخوانهم من أهل البدع والضلال: وكل حديث يخالف مقتضى العقول والحس يقطع بتخطئة قائله!! قالوا: ونحن نرى المصلوب على خشبة مدة طويلة لا يسأل ولا يجيب، ولا يتحرك ولا يتوقد جسمه نارًا! ومن افترسته السباع ونهشته الطيور وتفرقت أجزاؤه في أجواف السباع وحواصل الطيور وبطون الحيتان ومدارج الرياح؛ كيف تسأل أجزاؤه مع تفرقها؟! وكيف يتصور مسألة الملكين لمن هذا وصفه؟! وكيف يصير القبر على هذا روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار؟! وكيف يضيق عليه حتى تلتئم أضلاعه؟! ونحن نذكر أمورًا يعلم بها الجواب:

الأمر الأول: أن يعلم أن الرسل صلوات اللَّه وسلامه عليهم لم يخبروا بما تحيله العقول وتقطع باستحالته، بل أخبارهم قسمان:

أحدهما: ما تشهد به العقول والفطر.

الثاني: ما لا تدركه العقول بمجردها؛ كالغيوب التي أخبروا بها عن تفاصيل البرزخ واليوم الآخر، وتفاصيل الثواب والعقاب، ولا يكون خبرهم محالًا في

---

(١) الأعراف: الآية (٦).

(٢) الروح (ص ٨٤-٨٦) باختصار وتصرف.

العقول أصلًا، وكل خبر يظن أن العقل يحيله فلا يخلو من أحد أمرين إما يكون الخبر كذبًا عليهم، أو يكون ذلك العقل فاسدًا، وهو شبهة خيالية يظن صاحبها أنها معقول صريح؛ قال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[1] وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾[3] والنفوس لا تفرح بالمحال، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[4] والمحال لا يشفي ولا يحصل به هدى ولا رحمة ولا يفرح به. فهذا أمر من لم يستقر في قلبه خير، ولم يثبت له على الإسلام قدم، وكان أحسن أحواله الحيرة والشك.

الأمر الثاني: أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده؛ من غير غلو ولا تقصير، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله، ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان.

وقد حصل بإهمال ذلك والعدول عنه؛ من الضلال والعدول عن الصواب، ما لا يعلمه إلا اللَّه، بل سوء الفهم عن اللَّه ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، بل هو أصل كل خطأ في الأصول والفروع، ولاسيما إن أضيف إليه سوء القصد، فيتفق سوء الفهم في بعض الأشياء من المتبوع مع حسن قصده، وسوء القصد من التابع، فيا محنة الدين وأهله واللَّه المستعان...

الأمر الثالث: أن اللَّه سبحانه جعل الدور ثلاثًا: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، وجعل لكل دار أحكامًا تختص بها، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان والأرواح تبعًا لها، ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح، وإن أضمرت النفوس خلافه. وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعًا لها، فكما تبعت الأرواح الأبدان في أحكام الدنيا؛ فتألمت بألمها والتذت براحتها، وكانت هي التي باشرت أسباب النعيم والعذاب؛ تبعت الأبدان الأرواح في نعيمها وعذابها، والأرواح

---

(١) سبأ: الآية (٦).

(٢) الرعد: الآية (١٩).

(٣) الرعد: الآية (٣٦).

(٤) يونس: الآيتان (٥٧و٥٨).

حينئذ هي التي تباشر العذاب والنعيم، فالأبدان هنا ظاهرة والأرواح خفية، والأبدان كالقبور لها، والأرواح هناك ظاهرة والأبدان خفية في قبورها، تجري أحكام البرزخ على الأرواح فتسري إلى أبدانها نعيمًا أو عذابًا، كما تجري أحكام الدنيا على الأبدان فتسري إلى أرواحها نعيمًا أو عذابًا. فأحط بهذا الموضع علمًا واعرفه كما ينبغي؛ يزيل عنك كل إشكال يورد عليك من داخل وخارج.

وقد أرانا اللَّه سبحانه بلطفه ورحمته وهدايته من ذلك أنموذجًا في الدنيا من حال النائم؛ فإن ما ينعم به أو يعذب في نومه يجري على روحه أصلًا والبدن تبع له، وقد يقوى حتى يؤثر في البدن تأثيرًا مشاهدًا، فيرى النائم في نومه أنه ضرب فيصبح وأثر الضرب في جسمه، ويرى أنه قد أكل أو شرب فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب في فيه ويذهب عنه الجوع والظمأ.

وأعجب من ذلك: أنك ترى النائم يقوم في نومه ويضرب ويبطش ويدافع كأنه يقظان، وهو نائم لا شعور له بشيء من ذلك، وذلك أن الحكم لما جرى على الروح استعانت بالبدن من خارجه، ولو دخلت فيه لاستيقظ وأحس، فإذا كانت الروح تتألم وتتنعم ويصل ذلك إلى بدنها بطريق الاستتباع؛ فهكذا في البرزخ بل أعظم، فإن تجرد الروح هنالك أكمل وأقوى، وهي متعلقة ببدنها لم تنقطع عنه كل الانقطاع، فإذا كان يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم، صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد ظاهرًا باديًا أصلًا.

ومتى أعطيت هذا الموضع حقه تبين لك أن ما أخبر به الرسول ﷺ من عذاب القبر ونعيمه وضيقه وسعته وضمه، وكونه حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة، مطابق للعقل، وأنه حق لا مرية فيه، وإن من أشكل عليه ذلك فمن سوء فهمه وقلة علمه أُتي، كما قيل:

وكم من عائب قولًا صحيحًا وآفته من الفهم السقيم

وأعجب من ذلك: أنك تجد النائمين في فراش واحد، وهذا روحه في النعيم، ويستيقظ وأثر النعيم على بدنه، وهذا روحه في العذاب، ويستيقظ وأثر العذاب على بدنه وليس عند أحدهما خبر بما عند الآخر، فأمر البرزخ أعجب من ذلك.

الأمر الرابع: أن اللَّه سبحانه جعل أمر الآخرة وما كان متصلًا بها غيبًا،

وحجبها عن إدراك المكلفين في هذه الدار، وذلك من كمال حكمته، وليتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم، فأول ذلك أن الملائكة تنزل على المحتضر، وتجلس قريبًا منه ويشاهدهم عيانًا ويتحدثون عنده، ومعهم الأكفان والحنوط؛ إما من الجنة وإما من النار . . .

ثم يمد الملك يده إلى الروح فيقبضها ويخاطبها، والحاضرون لا يرونه ولا يسمعونه، ثم تخرج فيخرج لها نور مثل شعاع الشمس، ورائحة أطيب من رائحة المسك والحاضرون لا يرون ذلك ولا يشمونه.

ثم تصعد بين سماطين من الملائكة، والحاضرون لا يرونهم . . .

وأما عصرة القبر حتى تختلف بعض أجزاء الموتى؛ فلا يرده حس ولا عقل ولا فطرة، ولو قدر أن أحدًا نبش عن ميت فوجد أضلاعه كما هي لم تختلف؛ لم يمنع أن تكون قد عادت إلى حالها بعد العصرة، فليس مع الزنادقة والملاحدة إلا مجرد تكذيب الرسول . . .

الأمر الخامس: أن النار التي في القبر والخضرة ليست من نار الدنيا ولا من زروع الدنيا، فيشاهده من شاهد نار الدنيا وخضرها، وإنما هي من نار الآخرة وخضرها، وهي أشد من نار الدنيا، فلا يحس به أهل الدنيا، فإن اللَّه سبحانه يحمي عليه ذلك التراب والحجارة التي عليه وتحته؛ حتى يكون أعظم حرًا من جمر الدنيا، ولو مسها أهل الدنيا لم يحسوا بذلك، بل أعجب من هذا أن الرجلين يدفنان أحدهما إلى جنب الآخر، وهذا في حفرة من حفر النار لا يصل حرها إلى جاره، وذلك في روضة من رياض الجنة لا يصل روحها ونعيمها إلى جاره.

وقدرة الرب تعالى أوسع وأعجب من ذلك، وقد أرانا اللَّه من آيات قدرته في هذه الدار ما هو أعجب من ذلك بكثير، ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علمًا، إلا من وفقه اللَّه وعصمه . . .

الأمر السابع[1]: أن اللَّه ﷻ يحدث في هذه الدار ما هو أعجب من ذلك، فهذا جبريل كان ينزل على النبي ﷺ، ويتمثل له رجلًا فيكلمه بكلام يسمعه، ومن إلى

---

(١) كذا بالأصل ولم يذكر السادس.

جانب النبي ﷺ لا يراه ولا يسمعه[١]، وكذلك غيره من الأنبياء، وأحيانًا يأتيه الوحي في مثل صلصلة الجرس[٢]، ولا يسمعه غيره من الحاضرين، وهؤلاء الجن يتحدثون ويتكلمون بالأصوات المرتفعة بيننا ونحن لا نسمعهم، وقد كانت الملائكة تضرب الكفار بالسياط وتضرب رقابهم وتصيح بهم، والمسلمون معهم لا يرونهم ولا يسمعون كلامهم، والله سبحانه قد حجب بني آدم عن كثير مما يحدثه في الأرض وهو بينهم، وقد كان جبريل يقرئ النبي ﷺ ويدارسه القرآن[٣] والحاضرون لا يسمعونه.

وكيف يستنكر من يعرف الله سبحانه ويقر بقدرته؛ أن يحدث حوادث يصرف عنها أبصار بعض خلقه حكمة منه ورحمة بهم؛ لأنهم لا يطيقون رؤيتها وسماعها، والعبد أضعف بصرًا وسمعًا من أن يثبت لمشاهدة عذاب القبر، وكثيرًا ممن أشهده الله ذلك صعق وغشي عليه ولم ينتفع بالعيش زمنًا، وبعضهم كشف قناع قلبه فمات، فكيف ينكر في الحكمة الإلهية إسبال غطاء يحول بين المكلفين وبين مشاهدة ذلك؛ حتى إذا كشف الغطاء رأوه وشاهدوه عيانًا . . .

وسر المسألة: أن هذه السعة والضيق والإضاءة والخضرة والنار؛ ليس من جنس المعهود في هذا العالم، والله سبحانه إنما أشهد بني آدم في هذه الدار ما كان فيها ومنها، فأما ما كان من أمر الآخرة فقد أسبل عليه الغطاء؛ ليكون الإقرار به والإيمان سببًا لسعادتهم، فإذا كشف عنهم الغطاء صار عيانًا مشاهدًا، فلو كان الميت بين الناس موضوعًا؛ لم يمتنع أن يأتيه الملكان ويسألانه من غير أن يشعر الحاضرون بذلك، ويجيبهما من غير أن يسمعوا كلامه، ويضربانه من غير أن يشاهد الحاضرون ضربه. وهذا الواحد منا ينام إلى جنب صاحبه فيعذب في النوم، ويضرب ويألم وليس عند المستيقظ خبر من ذلك البتة. وقد سرى أثر الضرب والألم إلى جسده.

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٦/ ٢٤٥١).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٥٨)، والبخاري (٢٣-٢٤/ ٢)، ومسلم (٤/ ١٨١٦-١٨١٧/ ٢٣٣٣)، والترمذي (٥/ ٥٥٧-٥٥٨/ ٣٦٣٤)، والنسائي (٢/ ٤٨٥-٤٨٦/ ٩٣٣).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٢٨٨)، والبخاري (٦/ ٣٧٥/ ٣٢٢٠)، ومسلم (٤/ ١٨٠٣/ ٢٣٠٨)، والنسائي (٤/ ٤٣٠/ ٢٠٩٤).

ومن أعظم الجهل استبعاد شق الملك الأرض والحجر، وقد جعلهما اللَّه سبحانه له كالهواء للطير، ولا يلزم من حجبها للأجسام الكثيفة أن تتولج حجبها للأرواح اللطيفة. وهل هذا إلا من أفسد القياس، وبهذا وأمثاله كذبت الرسل صلوات اللَّه وسلامه عليهم. . .

الأمر الثامن: أنه غير ممتنع أن ترد الروح إلى المصلوب والغريق والمحرق ونحن لا نشعر بها؛ لأن ذلك الرد نوع آخر غير المعهود، فهذا المغمى عليه والمسكوت والمبهوت أحياء وأرواحهم معهم ولا تشعر بحياتهم، ومن تفرقت أجزاؤه لا يمتنع على من هو على كل شيء قدير أن يجعل للروح اتصالًا بتلك الأجزاء على تباعد ما بينها وقربه، ويكون في تلك الأجزاء شعور بنوع من الألم واللذة.

الأمر التاسع: أنه ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر ونعيمه اسم لعذاب البرزخ ونعيمه، وهو ما بين الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1] وهذا البرزخ يشرف أهله فيه على الدنيا والآخرة، وسمى عذاب القبر ونعيمه، وأنه روضة أو حفرة نار باعتبار غالب الخلق، فالمصلوب والحرق والغرق وأكيل السباع والطيور؛ له من عذاب البرزخ ونعيمه قسطه الذي تقتضيه أعماله، وإن تنوعت أسباب النعيم والعذاب وكيفياتهما، فقد ظن بعض الأوائل أنه إذا حرق جسده بالنار وصار رمادًا، وذرى بعضه في البحر وبعضه في البر في يوم شديد الريح؛ أنه ينجو من ذلك، فأوصى بنيه أن يفعلوا به ذلك. فأمر اللَّه البحر فجمع ما فيه، وأمر البر فجمع ما فيه، ثم قال: قم، فإذا هو قائم بين يدي اللَّه، فسأله: ما حملك على ما فعلت؟ فقال: خشيتك يا رب وأنت أعلم، فما تلافاه أن رحمه[2].
فلم يفت عذاب البرزخ ونعيمه لهذه الأجزاء التي صارت في هذه الحال؛ حتى لو علق الميت على رؤوس الأشجار في مهاب الرياح لأصاب جسده من عذاب البرزخ حظه ونصيبه، ولو دفن الرجل الصالح في أتون من النار لأصاب جسده من نعيم البرزخ وروحه نصيبه وحظه، فيجعل اللَّه النار على هذا بردًا وسلامًا، والهواء على

---

(١) المؤمنون: الآية (١٠٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٩)، والبخاري (٦/ ٦٣٨/ ٣٤٨١)، ومسلم (٤/ ٢١١٠/ ٢٧٥٦)، والنسائي (٤/ ٤١٨/ ٢٠٧٨)، وابن ماجه (٢/ ٤٢١/ ٤٢٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ذلك نارًا وسمومًا، فعناصر العالم ومواده منقادة لربها وفاطرها وخالقها، يصرفها كيف يشاء، ولا يستعصي عليه منها شيء أراده، بل هي طوع مشيئته مذللة منقادة لقدرته، ومن أنكر هذا فقد جحد رب العالمين، وكفر به وأنكر ربوبيته»[١].

وقال القرطبي: «وقوله: «**فيراهما جميعًا**» يدل على أن رؤيته لهما حقيقة بالعين، وعلى هذا فيحيى الميت في قبره حياة محققة، بحيث يرى ويسمع ويسأل ويتكلم، وعلى هذا تدل أدلة الكتاب والسنة في غيرما موضع، والحكمة في أن اللَّه تعالى يريه إياهما ليعلم قدر نعمة اللَّه، فيما صرف عنه من عذاب جهنم وفيما أوصل إليه من كرامة الجنة»[٢].

* عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول اللَّه ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول اللَّه ﷺ وجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه، فقال: «**استعيذوا باللَّه من عذاب القبر**» -مرتين أو ثلاثًا-، زاد في حديث جرير هاهنا وقال: «**وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حين يقال له: يا هذا! من ربك وما دينك ومن نبيك؟**» قال هناد: قال: «**ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي اللَّه. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول اللَّه ﷺ. فيقولان: وما يدريك؟ فيقول: قرأت كتاب اللَّه فآمنت به وصدقت**». زاد في حديث جرير: «**فذلك قول اللَّه عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾** الآية»، ثم اتفقا. قال: «**فينادي منادٍ من السماء: أن قد صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة، وألبسوه من الجنة**». قال: «**فيأتيه من روحها وطيبها**». قال: «**ويفتح له فيها مد بصره**». قال: «**وإن الكافر**» فذكر موته. قال: «**وتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه،**

---

(١) الروح (ص ٦١-٧٣) باختصار وتصرف.

(٢) المفهم (٧/ ١٤٧).

لا أدري. فينادي مناد من السماء: أن كذب، فأفرشوه من النار، وألبسوه من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار». قال: «فيأتيه من حرها وسمومها». قال: «ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه». زاد في حديث جرير قال: «ثم يقيض له أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو ضرب بها جبل لصار ترابًا». قال: «فيضربه بها ضربة يسمعها ما بين المشرق والمغرب إلا الثقلين، فيصير ترابًا». قال: «ثم تعاد فيه الروح»[(١)].

★ غريب الحديث:

ينكت: النكت: أن تضرب في الأرض بقضيب فيؤثر فيها.

خفق نعالهم: أي: يسمع صوت نعالهم على الأرض إذا مشوا.

مد بصره: أي: قدره ومداه.

هاه هاه: هذه كلمة تقال في الإبعاد، وفي حكاية الضحك. وقد تقال للتوجع، فتكون الهاء الأولى مبدلة من همزة آه، وهو الأليق بهذا الحديث، يقال: تأوه وتهوه آهة وهاهة.

مرزبة: المِرزَبَة بالتخفيف: المطرقة الكبيرة التي تكون للحداد. ويقال لها الإرزبّة بالهمز والتشديد.

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: شهدت مع رسول اللَّه ﷺ جنازة فقال رسول اللَّه ﷺ: «يا أيها الناس! إن هذه الأمة تبتلى في قبورها؛ فإذا الإنسان دفن فتفرق عنه أصحابه؛ جاءه ملك في يده مطراق فأقعده قال: ما تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمنًا قال: أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا عبده ورسوله. فيقول: صدقت. ثم يفتح له باب إلى النار فيقول: هذا كان منزلك لو كفرت بربك، فأما إذ آمنت فهذا منزلك، فيفتح له باب إلى الجنة، فيريد أن ينهض إليه فيقول له: اسكن ويفسح له في قبره. وإن كان كافرًا أو منافقًا، يقول له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري سمعت الناس يقولون شيئًا. فيقول: لا دريت ولا تليت ولا اهتديت، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقول: هذا منزلك لو آمنت بربك، فأما إذ

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٨٧-٢٨٨)، وأبو داود (٥/ ١١٤/ ٤٧٥٣) واللفظ له، والنسائي (٤/ ٣٨١/ ٢٠٠٠)، وابن ماجه (١/ ٤٩٤/ ١٥٤٩) مختصرًا، والحاكم (١/ ٣٧-٣٨) وصححه ووافقه الذهبي.

كفرت به؛ فإن اللَّه ﷻ أبدلك به هذا. ويفتح له باب إلى النار، ثم يقمعه قمعة بالمطراق يسمعها خلق اللَّه كلهم غير الثقلين». فقال بعض القوم: يا رسول اللَّه، ما أحد يقوم عليه ملك في يده مطراق إلا هيل عند ذلك. فقال رسول اللَّه ﷺ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾[١].

★ **غريب الحديث:**

ولا تليت: قال ابن الأثير: المحدثون يروونه «لا دريت ولا تليت» والصواب: ولا ائتليت: أي: ولا استطعت أن تدري. يقال: ما آلوه؛ أي: ما أستطيعه. وهو افتعلت منه[٢].

يقمعه: قمعه ضربه بالمقمعة، وهي عمود من حديد، أو خشبة يضرب بها الإنسان على رأسه، جمع مقامع.

هيل: من هاله هولا: أفزعه. والهول: المخافة من الأمر لا يدري ما هجم عليه معه، جمع أهوال.

❋ عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار، على بغلة له ونحن معه، إذ حادت به فكادت تلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة -قال: كذا كان يقول الجريري- فقال: **من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟** فقال رجل: أنا. قال: **فمتى مات هؤلاء؟** قال: ماتوا في الإشراك. فقال: **إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت اللَّه أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه**. ثم أقبل علينا بوجهه، فقال: **تعوذوا باللَّه من عذاب النار**. قالوا: نعوذ باللَّه من عذاب النار. فقال: **تعوذوا باللَّه من عذاب القبر**. قالوا: نعوذ باللَّه من عذاب القبر. قال: **تعوذوا باللَّه من الفتن، ما ظهر منها وما بطن**. قالوا: نعوذ باللَّه من الفتن، ما ظهر منها وما بطن. قال: **تعوذوا باللَّه من فتنة الدجال**. قالوا: نعوذ باللَّه من فتنة الدجال»[٣].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣-٤)واللفظ له، والبزار (كشف الأستار ١/ ٤١٢-٤١٣/ ٨٧٢)، والبيهقي في عذاب القبر (٤١)، وذكره الهيثمي في المجمع (٣/ ٤٧-٤٨) وقال: «رواه أحمد، والبزار وزاد ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ ورجاله رجال الصحيح».

(٢) النهاية (١/ ٦٢-٦٣).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٠)، ومسلم (٤/ ٢١٩٩-٢٢٠٠/ ٢٨٦٧).

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: «إن الميت إذا وضع في قبره، إنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، فإذا كان مؤمنًا، كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه، وكانت الزكاة عن شماله. وفعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه. فيؤتى من قبل رأسه، فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى عن يمينه، فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى عن يساره، فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من قبل رجليه، فتقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس: ما قبلي مدخل، فيقال له: اجلس فيجلس، وقد مثلت له الشمس وقد أدنيت للغروب، فيقال له: أرأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه، وما تشهد به عليه؟ فيقول: دعوني حتى أصلي، فيقولون: إنك ستفعل، أخبرنا عما نسألك عنه؛ أرأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه؟ وماذا تشهد عليه؟ قال: فيقول: محمد، أشهد أنه رسول اللَّه، وأنه جاء بالحق من عند اللَّه. فيقال له: على ذلك حييت، وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث إن شاء اللَّه. ثم يفتح له باب من أبواب الجنة، فيقال له: هذا مقعدك منها، وما أعد اللَّه لك فيها، فيزداد غبطة وسرورًا، ثم يفتح له باب من أبواب النار، فيقال له: هذا مقعدك منها، وما أعد اللَّه لك فيها لو عصيته، فيزداد غبطة وسرورًا، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعًا، وينور له فيه، ويعاد الجسد لما بدأ منه، فتجعل نسمته في النسم الطيب؛ وهي طير يعلق في شجر الجنة، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ إلى آخر الآية. وإن الكافر إذا أتي من قبل رأسه، لم يوجد شيء، ثم أتي عن يمينه، فلا يوجد شيء، ثم أتي عن شماله، فلا يوجد شيء، ثم أتي من قبل رجليه، فلا يوجد شيء، فيقال له: اجلس، فيجلس خائفًا مرعوبًا. فيقال له: أرأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم ماذا تقول فيه؟ وما تشهد به عليه؟ فيقول: أي رجل؟ فيقال: الذي كان فيكم، فلا يهتدي لاسمه حتى يقال له: محمد. فيقول: ما أدري! سمعت الناس قالوا قولًا، فقلت كما قال الناس، فيقال له: على ذلك حييت، وعلى ذلك مت، وعلى ذلك تبعث إن شاء اللَّه. ثم يفتح له باب من أبواب النار، فيقال له: هذا مقعدك من النار، وما أعد اللَّه لك فيها، فيزداد حسرة وثبورًا، ثم يفتح له باب من أبواب

الجنة، فيقال له: ذلك مقعدك من الجنة، وما أعد اللَّه لك فيه لو أطعته. فيزداد حسرة وثبورًا، ثم يضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، فتلك المعيشة الضنكة التي قال الله: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[(١)]»[(٢)].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا قبر الميت -أو قال: أحدكم-؛ أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما: المنكر، والآخر النكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: ما كان يقول: هو عبد اللَّه ورسوله، أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا عبده ورسوله. فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا. ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعًا في سبعين، ثم ينور له فيه، ثم يقال له: نم. فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم. فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه، حتى يبعثه اللَّه من مضجعه ذلك.

فإن كان منافقًا قال: سمعت الناس يقولون فقلت مثله، لا أدري. فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك. فيقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه فيها، فلا يزال فيها معذبًا حتى يبعثه اللَّه من مضجعه ذلك»[(٣)].

* عن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما: «أن رسول اللَّه ﷺ ذكر فتاني القبور، فقال عمر رضي الله عنه: أترد علينا عقولنا يا رسول الله؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: نعم؛ كهيئتكم اليوم. فقال عمر: بفيه الحجر»[(٤)].

---

(١) طه: الآية (١٢٤).

(٢) أخرجه ابن جرير [شاكر] (١٦/ ٥٩٦-٥٩٧/ ٢٠٧٧٠)، وعبد الرزاق (٣/ ٥٦٧-٥٦٩/ ٦٧٠٣)، وابن أبي شيبة (٣/ ٥٦/ ١٢٠٦٢)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٣٠٠-٣٠٢/ ٢٦٥١)، وذكره الهيثمي في المجمع (٣/ ٥١-٥٢) وقال «رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن». وصححه ابن حبان (الإحسان ٧/ ٣٨٠-٣٨٢/ ٣١١٣)، والحاكم (١/ ٣٧٩-٣٨٠) ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه الترمذي (٣/ ٣٨٣/ ١٠٧١) وقال: «حسن غريب» واللفظ له، وابن حبان (الإحسان ٧/ ٣٨٦/ ٣١١٧)، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٤١٦-٤١٧/ ٨٦٤)، والآجري في الشريعة (٢/ ١٨٧/ ٩١٣)، والبيهقي في إثبات عذاب القبر (٦٨)، وصححه الشيخ الألباني (الصحيحة ١٣٩١).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٢)، وابن حبان (الإحسان ٧/ ٣٨٤/ ٣١١٥)، والآجري في الشريعة (٢/ ١٨٩/ ٩١٧)، والطبراني (قطعة من الجزء ١٣ ١٠٦)، وابن عدي في الكامل (٢/ ٤٥٠)، وذكره الهيثمي في المجمع (٣/ ٤٧) وقال «رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجال أحمد رجال الصحيح». وقال الشيخ أحمد شاكر «إسناده صحيح». وتعقب كلام الهيثمي بقوله «الحديث لم يروه الإمام أحمد إلا في هذا الموضع فنسي الهيثمي أن يعله بضعف ابن لهيعة كما أعل الإسناد السابق ونسي أن حيي بن عبداللَّه لم يرو له أحد من الشيخين».

★ **غريب الحديث:**

فتاني القبر: يريد مسألة منكر ونكير، من الفتنة وهي: الامتحان والاختبار.

★ **فوائد الأحاديث:**

قال القرطبي: «جاء في حديث البخاري ومسلم: سؤال الملكين، وكذلك في حديث الترمذي، ونص على اسميهما ونعتهما. وجاء في حديث أبي داود سؤال ملك واحد، وفي حديثه الآخر: سؤال ملكين. ولا تعارض في ذلك والحمد لله؛ بل كل ذلك صحيح المعنى بالنسبة إلى الأشخاص، فرب شخص يأتيانه جميعا ويسألانه جميعا في حال واحد عند انصراف الناس؛ ليكون السؤال عليه أهون، والفتنة في حقه أشد وأعظم، وذلك بحسب ما اقترف من الآثام، واجترح من سيئ الأعمال، وآخر يأتيه قبل انصراف الناس عنه، وآخر يأتيه أحدهما على الانفراد، فيكون ذلك أخف في السؤال، وأقل في المراجعة والعتاب، لما عمله من صالح الأعمال.

وقد يحتمل حديث أبي داود وجهًا آخر وهو؛ أن الملكين يأتيان جميعا، ويكون السائل أحدهما، وإن تشاركا في الإتيان، فيكون الراوي اقتصر على الملك السائل، وترك غيره لأنه لم يقل في الحديث أنه لا يأتيه إلى قبره إلا ملك واحد، ولو قاله هكذا صريحا لكان الجواب عنه ما قدمناه من أحوال الناس والله أعلم، وقد يكون من الناس من يوقى فتنتهما، ولا يأتيه أحد منهما على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

واختلفت الأحاديث أيضًا في كيفية السؤال والجواب، وذلك بحسب اختلاف أحوال الناس، فمنهم من يقتصر على سؤاله عن بعض اعتقاداته، ومنهم من يسأل عن كلها فلا تناقض، ووجه آخر هو: أن يكون بعض الرواة اقتصر على بعض السؤال، وأتى به غيره على الكمال، فيكون الإنسان مسؤولا عن الجميع»[1].

قوله: «ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا»: قال القرطبي أبو العباس: «أي: يوسع له فيه سبعون ذراعًا، فيحتمل البقاء على ظاهره، ويكون معناه: أنه ترفع الموانع عن بصره، فيبصر ما يجاوره مقدار سبعين ذراعا، حتى لا تناله ظلمة القبر

---

(١) التذكرة (ص ١١٨-١١٩).

ولا ضيقه متى رد روحه فيه إليه، ويحتمل أن يكون ذلك كله استعارة عن سعة رحمة اللَّه تعالى له وإكرامه إياه؛ والأول أولى، واللَّه أعلم»[١].

وقال أبو عبد اللَّه القرطبي: وهذا إنما يكون بعد ضيق القبر والسؤال، وأما الكافر فلا يزال قبره عليه ضيقًا. فنسأل اللَّه العفو والعافية، في الدنيا والآخرة»[٢].

وقال أبو العباس القرطبي: «قوله: «لولا ألا تدافنوا لدعوت اللَّه أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه» قد تقدم القول على عذاب القبر، وأنه مما يجب الإيمان به، وقد صح الإخبار عنه في الكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة. ولا يلتفت لاستبعاد المبتدعة، فإن الإمكانات متسعة، والقدرة صالحة، وامتناع التدافن لو سمع عذاب القبر يحتمل أن يكون سببه: غلبة الخوف عند سماعه؛ فيغلب الخوف على الحي، فلا يقدر على قرب القبر للدفن، أو يهلك الحي عند سماعه؛ إذ لا يطاق سماع شيء من عذاب اللَّه في هذه الدار، بل: بنفس سماعه يهلك السامع؛ لضعف هذه القوى في هذه الدار. ألا ترى أنه إذا سمع الناس صعقة الرعد القاصف، أو الزلازل الهائلة هلك كثير من الناس؟ أو أين صعقة الرعد من صيحة الذي تضربه الملائكة بمطارق الحديد؛ التي يسمعها كل من يليه إلا الثقلين؟ وقد قال ﷺ: «**ولو سمعها إنسان لصعق**»[٣]»[٤].

وقال: «﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي: يثبتهم في هذه الدار على التوحيد والإيمان بالنبي ﷺ حتى يميتهم عليه، وفي الآخرة عند المساءلة في القبر، كما فسرها النبي ﷺ فإن كان النبي ﷺ قاله؛ فهو المقصود، وإن كان من قول البراء؛ فهذا لا يقوله أحد من قبل نفسه ورأيه، فهو محمول على أن النبي ﷺ قاله، وسكت البراء عن رفعه لعلم المخاطب بذلك، واللَّه تعالى أعلم»[٥].

قال أحمد عبد الرحمن البنا في قول عمر: (بفيه الحجر): «هذا القول من عمر رضي الله عنه كناية عن أنه إذا ردت عليه روحه يستطيع أن يدافع عن إيمانه بالجواب الذي

---

(١) المفهوم (٧/ ١٤٧-١٤٨). (٢) التذكرة (ص ١٣٢).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤١) والبخاري (٣/ ٢٣٤/ ١٣١٤) والنسائي (٤/ ٣٤٢/ ١٩٠٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. (٤) المفهم (٧/ ١٤٥-١٤٦).

(٥) المفهم (٧/ ١٤٨-١٤٩).

يسكت الفتان ويقنعه، وإنما صدر ذلك منه ﷺ؛ لرسوخ الإيمان في نفسه وثباته في قلبه. ويستعمل العرب هذا اللفظ دائمًا كناية عن الجواب المسكت، والله أعلم»[١].

* عن عثمان بن عفان ﷺ قال: «كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: **استغفروا لأخيكم، وسلوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل**»[٢].

★ فوائد الحديث:

قال صاحب العون: «فيه مشروعية الاستغفار للميت عند الفراغ من دفنه، وسؤال التثبيت له؛ لأنه يسأل في تلك الحال.. وفيه دليل على ثبوت حياة القبر وقد وردت بذلك أحاديث كثيرة.. وفيه أيضًا دليل على أن الميت يسأل في قبره. وقد وردت به أيضًا أحاديث صحيحة في الصحيحين وغيرهما»[٣].

قال المناوي: «وقال المظهر: وفيه دليل على أن الدعاء نافع للميت، وليس فيه دلالة على التلقين عند الدفن كما هو العادة»[٤].

وقال ابن القيم: «وكان إذا فرغ من دفن الميت قام على قبره هو وأصحابه وسأل له التثبيت وأمرهم أن يسألوا له التثبيت.

ولم يكن يجلس يقرأ عند القبر، ولا يلقن الميت كما يفعله الناس اليوم. وأما الحديث الذي رواه الطبراني .. - فذكره-؛ فهذا حديث لا يصح رفعه»[٥].

وقال الصنعاني: «ويتحصل من كلام أئمة التحقيق أنه حديث ضعيف، والعمل به بدعة، ولا يغتر بكثرة من يفعله»[٦].

وقال الشيخ الألباني: «ويعجني منه قوله: «والعمل به بدعة» وهذه حقيقة طالما ذهل عنها كثير من العلماء، فإنهم يشرعون بمثل هذا الحديث كثيرا من الأمور، ويستحبونها اعتمادا منهم على قاعدة «يعمل بالحديث الضعيف في فضائل

---

(١) بلوغ الأماني (٨/ ١٠٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٣/ ٥٥٠/ ٣٢٢١)، والحاكم (١/ ٣٧٠) وقال «حديث صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي، والبيهقي (٤/ ٥٦).

(٣) عون المعبود (٩/ ٤٢).

(٤) الفيض (٥/ ١٥١-١٥٢).

(٥) زاد المعاد (١/ ٥٢٢-٥٢٣).

(٦) سبل السلام (٣/ ٨٣).

الأعمال» ولم يتنبهوا إلى أن محلها فيما ثبت بالكتاب والسنة مشروعيته، وليس بمجرد الحديث الضعيف»[١].

* عن راشد بن سعد رضي الله عنه أن رجلًا قال: يا رسول اللَّه، ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد!؟ فقال: «**كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة**»[٢].

⋆ غريب الحديث:

بارقة السيوف: أي: لمعانها. يقال: بَرَقَ بسيفه وأَبْرَقَ: إذا لَمَع به.

⋆ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «اعلم رحمك اللَّه أن هذا الباب يعارض ما تقدم من الأبواب، بل يخصصها ويبين من لا يسأل في قبره ولا يفتن فيه ممن يجري عليه السؤال ويقاسي تلك الأهوال، وهذا كله ليس فيه مدخل للقياس، ولا مجال للنظر فيه، وإنما فيه التسليم والانقياد لقول الصادق المرسل إلى العباد»[٣].

قال المناوي: «لا يفتن -يعني: الشهيد- في قبره ولا يسأل: إذ لو كان فيه نفاق لفرّ عند التقاء الجمعين، فلما ربط نفسه لله في سبيله؛ ظهر صدق ما في ضميره. وظاهره اختصاص ذلك بشهيد المعركة، لكن أخبار الرباط تؤذن بالتعميم»[٤].

قال القرطبي: «قوله ﷺ في الشهيد «**كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة**»: معناه: أنه لو كان في هؤلاء المفتونين نفاق؛ كان إذا التقى الزحفان، وبرقت السيوف فروا؛ لأن من شأن المنافق الفرار والروغان عند ذلك، ومن شأن المؤمن البذل والتسليم لله نفسا، وهيجان حمية اللَّه، والتعصب له إعلاء كلمته، فهذا قد أظهر صدق ما في ضميره؛ حيث برز للحرب والقتل، فلماذا يعاد عليه السؤال؟ قاله الترمذي الحكيم»[٥].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**إذا حضر المؤمن أتته ملائكة الرحمة**

---

(١) أحكام الجنائز (ص ١٩٨) هامش.

(٢) أخرجه النسائي (٤/ ٤٠٤-٤٠٥/ ٢٠٥٢)، وقال الشيخ الألباني في أحكام الجنائز (ص ٥٠) «وسنده صحيح».

(٣) التذكرة (ص ١٥١).

(٤) فيض القدير (٥/ ٤).

(٥) التذكرة (ص ١٥٢).

بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي راضية مرضيًا عنك إلى روح اللَّه وريحان، ورب غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح المسك، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضا، حتى يأتون به باب السماء، فيقولون: ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض! فيأتون به أرواح المؤمنين، فلهم أشد فرحًا به من أحدكم بغائبه يقدم عليه، فيسألونه: ماذا فعل فلان؟ ماذا فعل فلان؟ فيقولون: دعوه، فإنه كان في غم الدنيا. فإذا قال: أما أتاكم؟ قالوا: ذهب به إلى أمه الهاوية. وإن الكافر إذا احتضر أتته ملائكة العذاب بمسح، فيقولون: اخرجي ساخطة مسخوطًا عليك إلى عذاب اللَّه ﷻ، فتخرج كأنتن ريح جيفة، حتى يأتون به باب الأرض، فيقولون: ما أنتن هذه الريح حتى يأتون به أرواح الكفار»[١].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: «إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدانها». قال حماد: فذكر من طيب ريحها، وذكر المسك. قال: «ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض، صلى اللَّه عليك وعلى جسد كنت تعمرينه. فينطلق به إلى ربه ﷻ، ثم يقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل». قال: «وإن الكافر إذا خرجت روحه -قال حماد: وذكر من نتنها، وذكر لعنًا- ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قبل الأرض. قال فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل». قال أبو هريرة: «فرد رسول اللَّه ﷺ ريطة كانت عليه على أنفه هكذا»[٢].

★ غريب الحديث:

ريطة: الرَّيْطَة: كل ملاءة ليست بِلِفْقَين. وقيل: كل ثوب رقيق ليّن. والجمع: رَيْطٌ ورِيَاطٌ.

★ فوائد الحديث:

قال الطيبي: «رد -صلوات اللَّه عليه- الريطة على الأنف، لما كوشف له وشم من نتن ريح روح الكافر، كما أنه ﷺ غطى رأسه حين مرّ بالحجر لما شاهد من عذاب أهلها»[٣].

---

(١) أخرجه النسائي (٤/ ٣٠٦-٣٠٧/ ١٨٣٢)، وصححه ابن حبان (الإحسان ٧/ ٢٨٤-٢٨٥/ ٣٠١٤)، والحاكم (١/ ٣٥٢-٣٥٣) وأقره الذهبي.

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٠٢/ ٢٨٧٢).

(٣) شرح المشكاة (٤/ ١٣٧٨).

قال أحمد البنا : «أحاديث الباب تدل على أن الصالح سواء أكان ذكرًا أم أنثى، إذا احتضر حضرته ملائكة الرحمة، وبشّرته بالجنة قبل قبض روحه، وتخرج روحه بسهولة، وتصعد إلى الملأ الأعلى، فتحوز القبول والرضا عند اللَّه ﷻ، ثم ترجع إلى جسدها في القبر، فيجيب على سؤال الملكين بأحسن جواب، ويوسع له في قبره، ويفتح له باب إلى الجنة، فيأتيه من ريحها وطيبها، وتكون روحه في عليين إلى يوم البعث. وفيها أن الكافر سواء أكان ذكرًا أم أنثى، وكذلك المنافق والفاجر؛ إذا احتضر رأى من العذاب ألوانًا، ومن الإهانة أنواعًا، سواء عند خروج روحه أم عند صعودها إلى السماء، فتغلق دونها السماوات، وترجع إلى جسدها مزودة بالمقت والغضب واللعنات من رب البريات، فيسأله الملكان فلا يجيب، وحينئذ يذيقانه من أصناف العذاب ما يشيب لهوله الطفل الصغير، ويضيق عليه قبره، ويفرش له من النار ويفتح له باب من جهنم، وتكون روحه في سجين إلى يوم الدين ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾[1] ولا خلاف بين العلماء في ذلك»[2].

* * *

---

(١) النبأ: الآية (٤٠).

(٢) بلوغ الأماني (٧/ ٨٤).

قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «لما ذكر حال المؤمنين وهداهم، وحال الكافرين وإضلالهم، ذكر السبب في إضلالهم. والذين بدلوا ظاهره أنه عام في جميع المشركين قاله الحسن، بدلوا بنعمة الإيمان الكفر. وقال مجاهد: هم أهل مكة، أنعم اللَّه تعالى عليهم ببعثه رسولًا منهم يعلمهم أمر دينه وشرفهم به، وأسكنهم حرمه، وجعلهم قوام بيته، فوضعوا مكان شكر هذه النعمة كفرًا. وسأل ابن عباس عمر عنهم فقال: هما الأعراب من قريش أخوالي أي: بني مخزوم، واستؤصلوا ببدر. وأعمامك أي: بني أمية، ومتعوا إلى حين. وعن علي نحو من ذلك. وقال قتادة: هم قادة المشركين يوم بدر. وعن علي: هم قريش الذين تحزبوا يوم بدر. وعلى أنهم قريش جماعة من الصحابة والتابعين. وعن علي أيضًا: هم منافقو قريش أنعم عليهم بإظهار علم الإسلام بأن صان دماءهم وأموالهم وذراريهم، ثم عادوا إلى الكفر. وعن ابن عباس: في جبلة بن الأيهم، ولا يريد أنها نزلت فيه؛ لأن نزول الآية قبل قصته، وقصته كانت في خلافة عمر، وإنما يريد ابن عباس أنها تخص من فعل فعل جبلة إلى يوم القيامة. و﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ على حذف مضاف أي: بدلوا شكر نعمة اللَّه كقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[1] أي: شكر رزقكم، كأنه وجب عليهم الشكر فوضعوا مكانه كفرًا، وجعلوا مكان شكرهم التكذيب.

قال الزمخشري: ووجه آخر وهو أنهم بدلوا نفس النعمة بالكفر حاصلًا لهم الكفر بدل النعمة، وهم أهل مكة أسكنهم اللَّه حرمه، وجعلهم قوام بيته، وأكرمهم

---

(١) الواقعة: الآية (٨٢).

بمحمد ﷺ، فكفروا نعمة اللَّه بدل ما ألزمهم من الشكر العظيم، أو أصابهم اللَّه بالنعمة والسعة لإيلافهم الرحلتين، فكفروا نعمته، فضربهم اللَّه بالقحط سبع سنين، فحصل لهم الكفر بدل النعمة، وبقي الكفر طوقًا في أعناقهم انتهى[(١)].
ونعمة اللَّه هو المفعول الثاني؛ لأنه هو الذي يدخل عليه حرف الجر أي: بنعمة اللَّه، وكفرًا هو المفعول الأول كقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾[(٢)] أي: بسيئاتهم حسنات. فالمنصوب هو الحاصل، والمجرور بالباء أو المنصوب على إسقاطها هو الذاهب، على هذا لسان العرب، وهو على خلاف ما يفهمه العوام، وكثير ممن ينتمي إلى العلم. وقد أوضحنا هذه المسألة في قوله في البقرة: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[(٣)] وإذا قدرت مضافًا محذوفًا وهو شكر نعمة اللَّه، فهو الذي دخلت عليه الباء ثم حذفت، وإذا لم يقدر مضاف محذوف فالباء دخلت على نعمة ثم حذفت. وأحلوا قومهم أي: من تابعهم على الكفر»[(٤)].

وقال ابن كثير: «قال البخاري: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾[(٥)] ألم تعلم؟ كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾[(٦)]. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟﴾[(٧)]. البوار: الهلاك، بار يبور بورًا، ﴿قَوْمًۢا بُورًا﴾[(٨)].

حدثنا علي بن عبد اللَّه، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عطاء سمع ابن عباس: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: هم كفار أهل مكة.

وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية: هو جبلة بن الأيهم، والذين اتبعوه من العرب، فلحقوا بالروم. والمشهور الصحيح عن ابن عباس هو القول الأول، وإن كان المعنى يعم جميع الكفار؛ فإن اللَّه تعالى بعث محمدا ﷺ رحمة للعالمين، ونعمة للناس، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردها وكفرها دخل النار. وقد روي عن علي نحو قول ابن عباس الأول»[(٩)].

وقال الرازي: «ثم إنه تعالى حكى عنهم أنواعًا من الأعمال القبيحة. النوع

---

(١) الكشاف (٢/ ٣٧٧).
(٢) الفرقان: الآية (٧٠).
(٣) البقرة: الآية (١٠٨).
(٤) البحر المحيط (٥/ ٤١٣).
(٥) إبراهيم: الآية (٢٨).
(٦) إبراهيم: الآية (٢٤).
(٧) البقرة: الآية (٢٤٣).
(٨) الفتح: الآية (١٢).
(٩) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٣٧).

الأول: قوله: ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ والنوع الثاني: ما حكى الله تعالى عنهم قوله: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ وهو الهلاك.. النوع الثالث: من أعمالهم القبيحة قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾[1][2].

وقال الشوكاني: «ثم هددهم سبحانه فقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ بما أنتم فيه من الشهوات، وما زينته لكم أنفسكم من كفران النعم وإضلال الناس ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ﴾ أي: مردكم ومرجعكم إليها ليس إلا. ولما كان هذا حالهم وقد صاروا لفرط تهالكهم عليه وانهماكهم فيه لا يقلعون عنه ولا يقبلون فيه نصح الناصحين، جعل الأمر بمباشرته مكان النهي عن قربانه إيضاحًا لما تكون عليه عاقبتهم، وأنهم لا محالة صائرون إلى النار، فلا بد لهم من تعاطي الأسباب المقتضية لذلك، فجملة: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ تعليل للأمر بالتمتع، وفيه من التهديد ما لا يقادر قدره، كأنه قيل: فإن دمتم على ذلك فإن مصيركم إلى النار، والأول أولى والنظم القرآني عليه أدل، وذلك كما يقال لمن يسعى في مخالفة السلطان: اصنع ما شئت من المخالفة فإن مصيرك إلى السيف»[3].

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾. هذا تهديد منه تعالى لهم بأن مصيرهم إلى النار وذلك المتاع القليل في الدنيا لا يجدي من مصيره إلى النار. وبين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾[4] وقوله: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[5] وقوله: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[6] وقوله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[7] إلى غير ذلك من الآيات»[8].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في كفران النعمة

* عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ قال: «هم والله كفار قريش».

---

(١) إبراهيم: الآية (٣٠).
(٢) التفسير الكبير (١٩/ ١٣٠).
(٣) فتح القدير (٣/ ١٥٥).
(٤) الزمر: الآية (٨).
(٥) لقمان: الآية (٢٤).
(٦) يونس: الآية (٧٠).
(٧) آل عمران: الآيتان (١٩٦-١٩٧).
(٨) أضواء البيان (٣/ ١١١).

قال عمرو: هم قريش، ومحمد ﷺ نعمة اللَّه ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ قال: النار يوم بدر»[١].

* عن أبي الطفيل سمع عليًا رضي الله عنه وسأله ابن الكواء عن هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾؛ قال: «هم كفار قريش يوم بدر»[٢].

★ فوائد الحديثين:

قال الحافظ: «وروى الطبري من طريق أخرى عن ابن عباس أنه سأل عمر عن هذه الآية فقال: من هم؟ قال: هم الأفجران من بني مخزوم وبني أمية أخوالي وأعمامك، فأما أخوالي فاستأصلهم اللَّه يوم بدر، وأما أعمامك فأملى اللَّه لهم إلى حين. ومن طريق علي قال: هم الأفجران: بنو أمية وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فقطع اللَّه دابرهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين. وهو عند عبد الرزاق أيضًا والنسائي وصححه الحاكم. قلت: المراد بعضهم لا جميع بني أمية وبني مخزوم، فإن بني مخزوم لم يستأصلوا يوم بدر، بل المراد بعضهم، كأبي جهل من بني مخزوم، وأبي سفيان من بني أمية»[٣].

وقال: «قوله: (ومحمد ﷺ نعمة الله) هذا موقوف على عمرو بن دينار، وكذا (دار البوار) النار يوم بدر، وهكذا رويناه في تفسير ابن عيينة رواية سعيد بن عبد الرحمن المخزومي عنه عن عمرو بن دينار في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ﴾ قال: هم كفار قريش، ومحمد النعمة، ودار البوار النار يوم بدر انتهى. وقوله: «يوم بدر» ظرف لقوله: ﴿وَأَحَلُّواْ﴾ أي: أنهم أهلكوا قومهم يوم بدر فأدخلوا النار، والبوار الهلاك وسميت جهنم دار البوار لإهلاكها من يدخلها، وعند الطبراني من طريق ابن جريج عن ابن عباس قال: البوار الهلاك. ومن طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: قد فسرها اللَّه تعالى فقال: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٧/ ٣٨٢/ ٣٩٧٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٢-٣٧٣/ ١١٢٦٨).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٢/ ١١٢٦٧)، وصححه الحاكم (٢/ ٣٥٢) ووافقه الذهبي، وعبد الرزاق في التفسير (١/ ٢٩٦/ ١٤١٠).

(٣) فتح الباري (٨/ ٤٨٢).

(٤) فتح الباري (٧/ ٣٨٥).

قلت: ومهما قيل في تفسير الآية؛ فإن الذي يبدل الهدى بالضلال، والتوفيق بالخذلان، وصحبة الأخيار بصحبة الأشرار، واتباع الأنبياء والرسل باتباع الكفرة والضلال، واتباع السنة والتوحيد باتباع الشرك والبدعة في وقتنا الحاضر وقبله، فكل هذا لا شك من البوار، وإذا لم تكن البدعة والشرك ومحاذاة الكفار من البوار فما هو البوار؟! فالبوار هو العدول والانحراف عن الهدى المستقيم إلى طرق إبليس الغاوية الهالكة، فنرجو اللَّه أن يهدينا سنته وتوحيده وصراطه المستقيم بمنه وكرمه.

* * *

قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «لما ذكر تعالى حال الكفار وكفرهم نعمته، وجعلهم له أندادًا وتهددهم؛ أمر المؤمنين بلزوم الطاعة والتيقظ لأنفسهم، وإلزام عمودي الإسلام الصلاة والزكاة قبل مجيء يوم القيامة»[١].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى آمرًا العباد بطاعته والقيام بحقه، والإحسان إلى خلقه، بأن يقيموا الصلاة وهي عبادة اللَّه وحده لا شريك له، وأن ينفقوا مما رزقهم اللَّه بأداء الزكوات، والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب.

والمراد بإقامتها هو: المحافظة على وقتها وحدودها، وركوعها وخشوعها وسجودها.

وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق في السر؛ أي: في الخفية، والعلانية وهي: الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ أي: ولا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[٢].

وقوله: ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ **قال ابن جرير**: «يقول: ليس هناك مُخَالَّة خليل، فيصفح عمن استوجب العقوبة، عن العقاب لمُخَالَّته، بل هنالك العدل والقسط.. وقال قتادة: إن اللَّه قد علم أن في الدنيا بيوعا وخلالا يتخالون بها في الدنيا، فينظر الرجل من يخالل وعلام يصاحب؟، فإن كان لله فليداوم، وإن كان لغير اللَّه فسيقطع عنه.

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٤١٤).

(٢) الحديد: الآية (١٥).

قلت: والمراد من هذا أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحدا بيع ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهبا لو وجده، ولا تنفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقي اللَّه كافرا، قال اللَّه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[2]»[3].

وقال ابن عاشور: «ولما كان المؤمنون يقيمون الصلاة من قبل، وينفقون من قبل، تعين أن المراد الاستزادة من ذلك، ولذلك اختير المضارع مع تقدير لام الأمر دون صيغة فعل الأمر لأن المضارع دال على التجدد، فهو مع لام الأمر يلاقي حال المتلبس بالفعل الذي يؤمر به بخلاف صيغة (افعل) فإن أصلها طلب إيجاد الفعل المأمور به من لم يكن ملتبسًا به، فأصل يقيموا الصلاة ليقيموا، فحذفت لام الأمر تخفيفًا.

وهذه هي نكتة ورود مثل هذا التركيب في مواضع وروده، كما في هذه الآية وفي قوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[4]؛ أي: قل لهم ليقيموا وليقولوا، فحكي بالمعنى.

وعندي: أن منه قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[5]؛ أي: ذرهم ليأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل. فهو أمر مستعمل في الإملاء والتهديد، ولذلك نوقن بأن الأفعال هذه معمولة للام أمر محذوفة»[6].

وقال: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ حالان من ضمير ﴿وَيُنفِقُوا﴾.. والمقصود تعميم الأحوال في طلب الإنفاق لكيلا يظنوا أن الإعلان يجر إلى الرياء كما كان حال الجاهلية، أو أن الإنفاق سرًّا يفضي إلى إخفاء الغني نعمة اللَّه فيجر إلى كفران النعمة، فربما توخى المرء أحد الحالين فأفضى إلى ترك الإنفاق في الحال الآخر فتعطل نفع كثير وثواب جزيل، فبين اللَّه للناس أن الإنفاق بِرّ لا يكدره ما يحف به من الأحوال، وإنما الأعمال بالنيات»[7].

---

(١) البقرة: الآية (١٢٣).
(٢) البقرة: الآية (٢٥٤).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٣٨-١٣٩).
(٤) الإسراء: الآية (٥٣).
(٥) الحجر: الآية (٣).
(٦) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٣٢).
(٧) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٣٣).

وقال الزمخشري: «فإن قلت: كيف طابق الأمر بالإنفاق وصف اليوم بأنه ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ قلت: من قبل أنّ الناس يخرجون أموالهم في عقود المعاوضات، فيعطون بدلًا ليأخذوا مثله، وفي المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستجروا بهداياهم أمثالها أو خيرًا منها. وأمّا الإنفاق لوجه اللّه خالصًا كقوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1].

فلا يفعله إلا المؤمنون الخلص، فبعثوا عليه ليأخذوا بدله في يوم لا بيع فيه ولا خلال؛ أي: لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالة، ولا بما ينفقون فيه أموالهم من المعاوضات والمكارمات، وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله»[2].

وقال أبو السعود: «والأحبُّ في الإنفاق إخفاءُ المتطوَّع به وإعلانُ الواجب، والمرادُ حث المؤمنين على الشكر لنعم اللّه سبحانه بالعبادة البدنية والماليةِ وتركِ التمتعِ بمتاع الدنيا والركونِ إليها كما هو صنيعُ الكفرة ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ فيبتاعَ المقصِّر ما يتلافى به تقصيرَه أو يفتدي به نفسَه، والمقصودُ نفيُ عقدِ المعاوضة بالمرة، وتخصيصُ البيعِ بالذكر للإيجاز مع المبالغة في نفي العقدِ، إذ انتفاءُ البيع يستلزم انتفاءَ الشراء على أبلغ وجهٍ، وانتفاؤُه ربما يتصور مع تحقق الإيجابِ من قبل البائع، ﴿وَلَا خِلَٰلٌ﴾ ولا مخالّةٌ فيشفعَ له خليلٌ أو يسامحَه بمال يفتدي به نفسه أو من قبل أن يأتي يومٌ لا أثرَ فيه لما لهَجوا بتعاطيه من البيع والمخالّة ولا انتفاعَ بذلك، وإنما الانتفاعُ والارتفاقُ فيه بالإنفاق لوجه اللّه سبحانه، والظاهرُ أن (من) متعلقة بأنفقوا، وتذكيرُ إتيانِ ذلك اليوم لتأكيد مضمونِه كما في سورة البقرة من حيث إن كلاً من فقدان الشفاعةِ وما يُتدارك به التقصير معاوضةً وتبرعًا، وانقطاعُ آثار البيع والخِلالِ الواقعَيْن في الدنيا وعدمُ الانتفاع بهما من أقوى الدواعي إلى الإتيان بما تبقى عوائدُه وتدوم فوائدُه من الإنفاق في سبيل اللّه ﷻ، أو من حيث إن ادخارَ المال وتركَ إنفاقِه إنما يقع غالبًا للتجارات والمُهاداة، فحيث لا يمكن ذلك في الآخرة فلا وجهَ لادّخاره إلى وقت الموت، وتخصيصُ التأكيد بذلك لميل الطباعِ إلى المال، وكونها مجبولةً على حبه والضّنةِ به، ولا يبعُد أن يكون تأكيدًا لمضمون الأمرِ بإقامة الصلاة أيضًا من حيث إن تركَها كثيرًا ما يكون بالاشتغال

(١) الليل: الآيتان (١٩-٢٠).

(٢) الكشاف (٢/ ٣٧٨-٣٧٩).

بالبياعات والمُخالاّت كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا﴾[(١)]»[(٢)].

وقال الشوكاني: «والمعنى: أن يوم القيامة لا بيع فيه حتى يفتدي المقصر في العمل نفسه من عذاب اللَّه بدفع عوض عن ذلك، وليس هناك مخاللة حتى يشفع الخليل لخليله، وينقذه من العذاب، فأمرهم سبحانه بالإنفاق في وجوه الخير مما رزقهم اللَّه، ما داموا في الحياة الدنيا قادرين على إنفاق أموالهم من قبل أن يأتي يوم القيامة؛ فإنهم لا يقدرون على ذلك، بل لا مال لهم إذ ذاك، فالجملة، أعني: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾، لتأكيد مضمون الأمر بالإنفاق مما رزقهم اللَّه، ويمكن أن يكون فيها أيضًا تأكيد لمضمون الأمر بإقامة الصلاة؛ وذلك لأن تركها كثيرًا ما يكون سبب الاشتغال بالبيع، ورعاية حقوق الأخلاء»[(٣)].

وقال السعدي: «فكل امرئ له شأن يغنيه، فليقدم العبد لنفسه، ولينظر ما قدمه لغد، وليتفقد أعماله، ويحاسب نفسه، قبل الحساب الأكبر»[(٤)].

* * *

(١) الجمعة: الآية (١١).
(٢) تفسير أبي السعود (٣/ ٤٦-٤٧).
(٣) فتح القدير (٣/ ١٥٦).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٤٢).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه لما أطال الكلام في وصف أحوال السعداء وأحوال الأشقياء، وكان العمدة العظمى والمنزلة الكبرى في حصول السعادات معرفة اللَّه تعالى بذاته وبصفاته، وفي حصول الشقاوة فقدان هذه المعرفة، لا جرم ختم اللَّه تعالى وصف أحوال السعداء والأشقياء بالدلائل الدالة على وجود الصانع وكمال علمه وقدرته، وذكر ههنا عشرة أنواع من الدلائل. أولها: خلق السموات. وثانيها: خلق الأرض، وإليهما الإشارة بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾. وثالثها: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾. ورابعها: قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ وخامسها: قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾. وسادسها وسابعها: قوله: ﴿وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾. وثامنها وتاسعها: قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾. وعاشرها: قوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾»(١).

وقال أبو السعود: «لمّا ذكر أحوالَ الكافرين لنعم اللَّه تعالى، وأمرَ المؤمنين بإقامة مراسم الطاعةِ شكرًا لنعمه؛ شرَع في تفصيل ما يستوجب على كافة الأنامِ، والمثابرةِ على الشكر والطاعة من النعم العِظام والمنن الجِسام، حثًا للمؤمنين عليها، وتقريعًا للكفرة المُخلّين بها، الواضعين موضعَها الكفرَ والمعاصيَ، وفي

---

(١) التفسير الكبير (١٩/ ١٣٣).

جعل المبتدإ الاسمَ الجليلَ، والخبرَ الاسمَ الموصولَ بتلك الأفاعيلِ العظيمة، من خلق هذه الأجرامِ العظام، وإنزال الأمطارِ وإخراجِ الثمرات، وما يتلوها من الآثار العجيبةِ؛ ما لا يخفى من تربية المهابةِ والدِلالة على قوة السلطان»[1].

وقال ابن كثير: «يعدد تعالى نعمه على خلقه، بأن خلق لهم السماوات سقفا محفوظًا والأرض فراشًا، وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجًا من نبات شتى، ما بين ثمار وزروع، مختلفة الألوان والأشكال، والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر، تجري عليه بأمر اللَّه تعالى، وسخر البحر يحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر، لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر، رزقا للعباد من شرب وسقي وغير ذلك من أنواع المنافع.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِۖ﴾. أي: يسيران لا يفتران ليلا ولا نهارا، ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[2]، ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3]، فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتقارضان، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر، ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾[4]، وقوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ﴾ يقول: هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم وقالكم.

وقال بعض السلف: (من كل ما سألتموه وما لم تسألوه).

وقرأ بعضهم: (وأتاكم من كل ما سألتموه).

وقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ﴾ يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلا عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ: إن حق اللَّه أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم اللَّه أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين وأمسُوا توابين. وفي صحيح البخاري: أن رسول اللَّه ﷺ كان يقول: «اللهم، لك

---

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ٤٧).
(٢) يس: الآية (٤٠).
(٣) الأعراف: الآية (٥٤).
(٤) الزمر: الآية (٥).

الحمد غير مَكْفِيّ ولا مودَع، ولا مستغنى عنه ربَّنا»[(١)]»[(٢)].

وقال الشوكاني: «﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ أي: وإن تتعرّضوا لتعداد نعم اللَّه التي أنعم بها عليكم إجمالًا فضلًا عن التفصيل لا تطيقوا إحصاءها بوجه من الوجوه، ولا تقوموا بحصرها على حال من الأحوال، وأصل الإحصاء: أن الحاسب إذا بلغ عقدًا معينًا من عقود الأعداد، وضع حصاة ليحفظه بها، ومعلوم أنه لو رام فرد من أفراد العباد أن يحصي ما أنعم اللَّه به عليه في خلق عضو من أعضائه، أو حاسة من حواسه؛ لم يقدر على ذلك قط، ولا أمكنه أصلًا، فكيف بما عدا ذلك من النعم في جميع ما خلقه اللَّه في بدنه، فكيف بما عدا ذلك من النعم الواصلة إليه في كل وقت على تنوعها، واختلاف أجناسها»[(٣)].

وقال شيخ الإسلام: «فإن قيل: فالعبد في بعض الأحيان قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبوبه، فأي شيء يحرك القلوب؟ قلنا: يحركها شيئان:

أحدهما: كثرة الذكر للمحبوب؛ لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به، ولهذا أمر اللَّه ﷻ بالذكر الكثير فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[(٤)].

والثاني: مطالعة آلائه ونعمائه قال اللَّه تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[(٥)] وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[(٦)] وقال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾. فإذا ذكر العبد ما أنعم اللَّه به عليه من تسخير السماء والأرض، وما فيها من الأشجار والحيوان، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره؛ فلابد أن يثير ذلك عنده باعثا، وكذلك الخوف تحركه مطالعة آيات الوعيد والزجر والعرض والحساب ونحوه، وكذلك الرجاء يحركه مطالعة الكرم والحلم والعفو»[(٧)].

وقال ابن القيم: «وكان بعض العلماء يقول في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾. سبحان من لم يجعل لحد معرفة نعمه إلا العلم بالتقصير عن معرفتها، كما لم يجعل لحد إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدرك، فجعل معرفة نعمه

---

(١) سيأتي تخريجه في هذه: الآية.
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٣٩-١٤٠).
(٣) فتح القدير (٣/ ١٥٧).
(٤) الأحزاب: الآيتان (٤١-٤٢).
(٥) الأعراف: الآية (٦٩).
(٦) النحل: الآية (٥٣).
(٧) مجموع الفتاوى (١/ ٩٥-٩٦).

بالتقصير عن معرفتها شكرا، كما شكر علم العالمين أنهم لا يدركونه فجعله إيمانا، علما منه أن العباد لا يتجاوزون ذلك»[١].

وقال: «المفرد المضاف يراد به ما هو أكثر من واحد كقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[٢].

وقوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾[٣] وقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾[٤]»[٥].

وقال: «فالإفراد هنا أكمل وأكثر معنى من الجمع، وهذا بديع جدا أن يكون مدلول المفرد أكثر من مدلول الجمع، ولهذا كان قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[٦] أعم وأتم معنى من أن يقال: فلله الحجج البوالغ وكان قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ أتم معنى من أن يقال وإن تعدوا نعم اللّٰه لا تحصوها، وقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأٓخِرَةِ حَسَنَةً﴾[٧] أتم معنى من أن يقال حسنات، وكذا قوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾[٨] ونظائره كثيرة جدا»[٩].

وقَيْدُ جميع النعم يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو: «(الشكر) وهو مبني على ثلاثة أركان: الاعتراف بها باطنا، والتحدث بها ظاهرًا، وتصريفها في مرضاة وليها ومسديها ومعطيها، فإذا فعل ذلك فقد شكرها مع تقصيره في شكرها»[١٠].

وقال: «فكم لله على عبده من نعمة سابغة في هذه الأعضاء والجوارح والقوى والمنافع التي فيه، فهو لا يلتفت إليها ولا يشكر اللّٰه عليها، ولو فقد شيئًا منها لتمنى أنه له بالدنيا وما عليها، فهو يتقلب في نعم اللّٰه بسلامة أعضائه وجوارحه وقواه وهو عار من شكرها، ولو عرضت عليه الدنيا ما فيها بزوال واحدة منها، لأبى المعاوضة وعلم أنها معاوضة غبن ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾»[١١].

وقال: «فالسائر في معرفة آلاء اللّٰه وتأمل حكمته وبديع صفاته؛ أطول باعا،

---

(١) عدة الصابرين (ص ٢٤٤-٢٤٥).
(٢) النحل: الآية (١٨).
(٣) التحريم: الآية (١٢).
(٤) البقرة: الآية (١٨٧).
(٥) الصواعق المرسلة (١/ ٢٤٦).
(٦) الأنعام: الآية (١٤٩).
(٧) البقرة: الآية (٢٠١).
(٨) آل عمران: الآية (١٧١).
(٩) بدائع الفوائد (٢/ ١٨٢).
(١٠) الوابل الصيب (ص: ١٧).
(١١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٢٠٩).

وأملأ صواعا من اللصيق بمكانه المقيم في بلد عادته وطبعه، راضيا بعيش بني جنسه، لا يرضى لنفسه إلا أن يكون واحدا منهم، يقول: لي أسوة بهم: وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر وليست نفائس البضائع إلا لمن امتطى غارب الاغتراب، وطوف في الآفاق حتى رضي من الغنيمة بالإياب، فاستلان ما استوعره البطالون، وأنس بما استوحش منه الجاهلون»[(١)].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في شكر النعمة وهو تحقيق العبودية

* عن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا رفع مائدته قال: «**الحمد لله كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، غير مكفي ولا مودع ولا مستغنىً عنه ربنا**». وفي لفظ: أن النبي ﷺ كان إذا فرغ من طعامه - وقال مرة إذا رفع مائدته - قال: «**الحمد لله الذي كفانا وأروانا غير مكفي ولا مكفور**»، وقال مرة: «**الحمد لله ربنا غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى ربنا**»[(٢)].

★ غريب الحديث:

مكفي: أي: غير محتاج إلى الطعام فيكفى لكنه يطعم ويكفي. ويحتمل أن يكون من (كَفَأت) الإناءَ، فالمعنى: غير مردود عليه إنعامه. ويحتمل أن يكون من الكفاية؛ أي: أن اللّه غير مكفي رزق عباده لأنه لا يكفيهم أحد غيره[(٣)].

مودع: أي: غير مستغنىً عنه ولا متروك الطلب إليه والرغبة فيما عنده، وكل من استغنى عن شيء تركه[(٤)].

ولا مكفور: أي: مجحود فضله ونعمته.

★ فوائد الحديث:

قال القاري: «فيه فائدة.. وهي أنه لا استغناء لأحد عن الحمد لوجوبه على كل مكلف، إذ لا يخلو أحد من نعمة؛ بل نعمه لا تحصى، وهو في مقابلة النعم واجب

---

(١) مفتاح در السعادة (٢/ ٢٠٢).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٢)، والبخاري (٩/ ٧٢٣/ ٥٤٥٨-٥٤٥٩)، وأبو داود (٤/ ١٨٦-١٨٧/ ٣٨٤٩)، والترمذي (٥/ ٤٧٣/ ٣٤٥٦)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٢٠١/ ٦٨٩٦)، وابن ماجه (٢/ ١٠٩٢-١٠٩٣/ ٣٢٨٤).

(٣) أعلام الحديث (٣/ ٢٠٥).

(٤) أعلام الحديث (٣/ ٢٠٥٦).

كما صرحوا به، لكن ليس المراد بوجوبه أن من تركه لفظًا يأثم، بل معناه أن من أتى به بالمعنى الأعم في مقابلة النعم، أثيب عليه ثواب الواجب، ومن أتى به لا في مقابلة شيء؛ أثيب عليه ثواب المندوب. وأما شكر المنعم بمعنى امتثال أوامره واجتناب زواجره؛ فهو واجب شرعًا على كل مكلف يأثم بتركه إجماعًا»[١].

وقال أيضًا: «فائدة: الحمد بعد الطعام أداء شكر المنعم، وطلب زيادة النعمة، لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٢]. وفيه استحباب تجديد حمد اللَّه عند تجدد النعمة؛ من حصول ما كان الإنسان يتوقع حصوله، واندفاع ما كان يخاف وقوعه. ثم لما كان الباعث هنا هو الطعام ذكره أولًا لزيادة الاهتمام به، وكان السقي من تتمته لكونه مقارنًا له في التحقيق غالبًا، ثم استطرد من ذكر النعمة الظاهرة إلى النعم الباطنة فذكر ما هو أشرفها، وختم به لأن المدار على حسن الخاتمة، مع ما فيه من الإشارة إلى كمال الانقياد في الأكل والشرب وغيرهما؛ قدرًا ووصفًا، وقتًا واحتياجًا واستغناءً، بحسب ما قدره وقضاه»[٣].

قوله: «قال الحمد لله» قال في منار القاري: «ومعناه: أن الثناء والشكر كله في الحقيقة لله وحده دون سواه، «حمدا كثيرا» أي: ثناء كثيرا يليق بجلاله وجماله وكماله، وشكرًا جزيلا يوازي نعمه التي لا تحصى، ومنته التي لا تستقصى ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾»[٤].

* * *

(١) المرقاة (٨/ ٣٤).

(٢) إبراهيم: الآية (٧).

(٣) (٨/ ٣٩-٤٠).

(٤) منار القاري (٥/ ١٥٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر التعجيب من الذين بدلوا نعمة اللَّه كفرًا، وجعلوا لله أندادًا وهم قريش ومن تابعهم من العرب الذين اتخذوا آلهة من دون اللَّه، وكان من نعم اللَّه عليهم إسكانه إياهم حرمه؛ أردف ذلك بذكر أصلهم إبراهيم، وأنه صلوات اللَّه عليه دعا اللَّه تعالى أن يجعل مكة آمنة، ودعا بأن يجنب بنيه عبادة الأصنام، وأنه أسكنه وذريته في بيته ليعبدوه وحده بالعبادة التي هي أشرف العبادة وهي الصلاة، لينظروا في دين أبيهم، وأنه مخالف لما ارتكبوه من عبادة الأصنام، فيزدجروا ويرجعوا عنها»[(١)].

قال ابن كثير: «يذكر تعالى في هذا المقام محتجا على مشركي العرب، بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة اللَّه وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه، آهلة تبرأ ممن عبد غير اللَّه، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ وقد استجاب اللَّه له، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾[(٣)]، وقال في هذه القصة: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ فعرفه لأنه دعا به بعد بنائها؛ ولهذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾[(٤)] ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة، فإنه دعا أيضًا فقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾[(٥)].

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٤١٩).
(٢) العنكبوت: الآية (٦٧).
(٣) آل عمران: الآيتان (٩٦-٩٧).
(٤) إبراهيم: الآية (٣٩).
(٥) إبراهيم: الآية (٣٥).

وقال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾ ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته»[1].

وقال أبو السعود: «واذكر وقتَ قوله عليه الصلاة والسلام، والمقصودُ من تذكيره تذكيرُ ما وقع فيه من مقالاته ﷺ على نهج التفصيل، والمرادُ به تأكيدُ ما سلف من تعجيبه ﷺ ببيان فنٍ آخرَ من جناياتهم حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم بعدما كفروا بالنعم العامة وعصَوا أباهم إبراهيمَ ﷺ حيث أسكنهم بمكة شرفها اللّٰه تعالى لإقامة الصلاةِ والاجتنابِ عن عبادة الأصنام والشكر لنعم اللّٰه تعالى، وسأله تعالى أن يجعله بلدًا آمنًا ويرزقَهم من الثمرات، وتهويَ قلوبُ الناس إليهم من كل أَوب سحيقٍ، فاستجاب اللّٰه تعالى دعاءَه وجعله حرمًا آمنًا تجبى إليه ثمراتُ كل شيء فكفروا بتلك النعم العظام واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار وجعلوا لله أندادًا وفعلوا ما فعلوا ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ﴾ يعني مكةَ شرفها اللّٰه سبحانه ﴿ءَامِنٗا﴾ أي: ذا أمْنٍ أو آمنًا أهلُه بحيث لا يُخاف فيه، على ما مر في سورة البقرة، والفرق بينه وبين ما فيها من قوله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾ أن المسؤولَ هناك البلديةُ والأمنُ معًا، وهاهنا الأمنُ فقط حيث جُعل هو المفعولَ الثانيَ للجعل، وجُعل البلدَ صفةً للمفعول الأول، فإن حُمل على تعدد السؤال فلعله ﷺ سأل أولًا كِلا الأمرين فاستُجيب له في أحدهما وتأخر الآخرُ إلى وقته المقدّر لما يقتضيه من الحكمة الداعيةِ إليه، ثم كَرّر السؤالَ كما هو المعتاد في الدعاء والابتهالِ، أو كان المسؤولُ أولًا مجردَ الأمنِ المصحِّح للسكن كما في سائر البلاد وقد أجيب إليه، وثانيًا الأمنَ المعهودَ أو كان هو المسؤولَ فيهما وقد أجيب إليه أيضًا لكن السؤالَ الثانيَ للاستدامة، والاقتصارُ على ذلك لأنه المقصودُ الأصلي أو لأن المعتادَ في البلدية الاستمرارُ بعد التحقق بخلاف الأمن، وإن حمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادرُ فالظاهرُ أن المسؤول كِلا الأمرين، وقد حكي أولًا واقتُصر هاهنا على حكاية سؤال الأمنِ لا لمجرد أن نعمةَ الأمن أدخلُ في استيجاب الشكر فذِكرُه أنسبُ بمقام تقريعِ الكفرة على إغفاله كما قيل بل لأن سؤال البلدية قد حكي بقوله تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾[2] إذ المسؤولُ هُوِيّتُها إليهم للمساكنة

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٤١).

(٢) إبراهيم: الآية (٣٧).

معهم لا للحج فقط وهو عينُ سؤال البلدية قد حكي بعبارة أخرى وكان ذلك أولَ ما قدِم ﷺ مكة»[١].

وقال أبو حيان: «ودعا إبراهيم أولًا بما هو على طاعة اللَّه تعالى، وهو كون محل العابد أمنًا لا يخاف فيه، إذ يتمكن فيه من عبادة اللَّه تعالى، ثم دعا ثانيًا بأن يجنب هو وبنوه من عبادة الأصنام. ومعنى واجنبني وبني: أدمني وإياهم على اجتناب عبادة الأصنام. وأراد بقوله: وبنيَّ أولاده، من صلبه الأقرباء. وأجابه اللَّه تعالى فجعل الحرم آمنًا، ولم يعبد أحد من بنيه الأقرباء لصلبه صنمًا. قال سفيان بن عيينة: وقد سئل، كيف عبدت العرب الأصنام؟ قال: ما عبد أحد من ولد إسماعيل صنمًا وكانوا ثمانية، إنما كانت لهم حجارة ينصبونها ويقولون: حجر، فحيث ما نصبوا حجرًا فهو بمعنى البيت، فكانوا يدورن بذلك الحجر ويسمونه الدوار»[٢].

وقال أبو السعود: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ﴾ بعِّدني وإياهم ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ واجعلنا منها في جانب بعيد أي: ثبتنا على ما كنا عليه من التوحيد وملة الإسلام والبعد عن عبادة الأصنام،..

وفيه دليل على أن عصمةَ الأنبياء ﷺ بتوفيق اللَّه تعالى، والظاهرُ أن المراد ببنيه أولاده الصلبية، فلا احتجاجَ به لابن عيينة رضي الله عنه على أن أحدًا من أولاد إسماعيلَ ﷺ لم يعبُد الصنم، وإنما كان لكل قومٍ حجرٌ نصبوه، وقالوا: هو حجرٌ والبيتُ حجر، فكانوا يدورون به ويسمونه الدوار، فاستُحب أن يقال: طاف بالبيت، ولا يقال: دار بالبيت، وليت شعري كيف ذهب عليه ما في القرآن العظيم من قوارعَ تنعي على قريش عبادةَ الأصنام، على أن فيما ذكره كرٌّ على ما فر منه»[٣].

وقال ابن عطية: «وأراد إبراهيم بني صلبه، وكذلك أجيبت دعوته فيهم، وأما باقي نسله فعبدوا الأصنام، وهذا الدعاء من الخليل ﷺ يقتضي إفراط خوفه على نفسه ومن حصل في رتبته، فكيف يخاف أن يعبد صنمًا؟! لكن هذه الآية ينبغي أن يقتدى بها في الخوف وطلب الخاتمة»[٤].

وقال ابن عاشور: «وأراد ببنيه أبناء صلبه، وهم يومئذٍ إسماعيل وإسحاق، فهو

---

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ٥٠).
(٢) البحر المحيط (٥/ ٤٢٠).
(٣) تفسير أبي السعود (٥/ ٥١).
(٤) المحرر الوجيز (٣/ ٣٤١).

من استعمال الجمع في التثنية، أو أراد جميع نسله تعميمًا في الخير فاستجيب له في البعض»[(١)].

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ الآية لم يبين هنا هل أجاب دعاء نبيه إبراهيم هذا، ولكنه بين في مواضع أخر أنه أجابه في بعض ذريته دون بعض كقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾[(٢)] وقوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾[(٣)]»[(٤)].

وقال السعدي: «فاستجاب اللَّه دعاءه شرعا وقدرا، فحرمه اللَّه في الشرع، ويسر من أسباب حرمته قدرا ما هو معلوم، حتى إنه لم يرده ظالم بسوء إلا قصمه اللَّه كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم. ولما دعا له بالأمن دعا له ولبنيه بالأمن فقال: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ أي: اجعلني وإياهم جانبا بعيدا عن عبادتها والإلمام بها»[(٥)].

وقال ابن القيم: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ فها هنا أمران: تجنيب عبادتها واجتنابه، فسأل الخليل ربه أن يجنبه وبنيه عبادتها؛ ليحصل منهم اجتنابها، فالاجتناب فعلهم والتجنيب فعله، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله. ونظير ذلك قول يوسف الصديق: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[(٦)] وصرف كيدهن هو صرف دواعي قلوبهن ومكرهن بألسنتهن وأعمالهن، وتلك أفعال اختيارية، وهو سبحانه الصارف لها، فالصرف فعله، والانصراف أثر فعله، وهو فعل النسوة»[(٧)].

وقال: «وبالجملة فأكثر أهل الأرض مفتونون بعبادة الأصنام والأوثان، ولم يتخلص منها إلا الحنفاء أتباع ملة إبراهيم، وعبادتها في الأرض من قبل نوح، كما تقدم. وهياكلها ووقوفها وسدنتها وحجابها والكتب المصنفة في شرائع عبادتها طبق الأرض. قال إمام الحنفاء: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۞ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٣٨).

(٢) الصافات: الآية (١١٣).

(٣) الزخرف: الآية (٢٨).

(٤) أضواء البيان (٣/ ١١٢).

(٥) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٤٤-١٤٥).

(٦) يوسف: الآيتان (٣٣و٣٤).

(٧) شفاء العليل (١/ ٥٩).

كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ والأمم التي أهلكها اللَّه بأنواع الهلاك كلهم وكانوا يعبدون الأصنام كما قص اللَّه تعالى ذلك عنهم في القرآن، وأنجى الرسل وأتباعهم من الموحدين. ويكفي في معرفة كثرتهم وأنهم أكثر أهل الأرض: ما صح عن النبي ﷺ: «أن بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون»[١] وقد قال تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[٢] وقال: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾[٣] وقال: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾[٤] وقال: ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ﴾[٥] ولو لم تكن الفتنة بعبادة الأصنام عظيمة لما أقدم عبادها على بذل نفوسهم وأموالهم وأبنائهم دونها، فهم يشاهدون مصارع إخوانهم وما حل بهم، ولا يزيدهم ذلك إلا حبا لها وتعظيما ويوصي بعضهم بعضا بالصبر عليها، وتحمل أنواع المكاره في نصرتها وعبادتها وهم يسمعون أخبار الأمم التي فتنت بعبادتها وما حل بهم من عاجل العقوبات ولا يثنيهم ذلك عن عبادتها»[٦].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في التخويف من الشرك

* عن محمود بن لبيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: **الرياء، يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة إذا جُزِيَ الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً**»[٧].

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣)، والبخاري (٦/ ٤٧١/ ٣٣٤٨)، ومسلم (١/ ٢٠١/ ٢٢٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٠٩/ ١١٣٣٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٢) الفرقان: الآية (٥٠). والإسراء: الآية (٨٩).
(٣) الأنعام: الآية (١١٦). (٤) يوسف: الآية (١٠٣).
(٥) الأعراف: الآية (١٠٢).
(٦) إغاثة اللهفان (٢/ ٣١٩-٣٢١).
(٧) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨)، والبغوي (١٤/ ٣٢٣-٣٢٤/ ٤١٣٥)، والبيهقي في الشعب (٥/ ٣٣٣/ ٦٨٣١)، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٠٢) «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح»، وصححه ابن خزيمة (٢/ ٦٧/ ٩٣٧).

★ **فوائد الحديث:**

تقدّم شرحه في سورة يوسف، الآية ١٠٦: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

* عن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مات يشرك بالله شيئًا دخل النار**». **وقلت أنا: «من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة»**[1].

* عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: «أتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله ما الموجبتان؟ فقال: «**من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئًا دخل النار**»[2].

★ **فوائد الحديثين:**

قال القرطبي: «قوله: «من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة» أي: من مات لا يتّخذ معه شريكًا في الإلهية، ولا في الخلق، ولا في العبادة، ومن المعلوم من الشرع المُجمَع عليه من أهل السنة: أن من مات على ذلك فلا بد له من دخول الجنة؛ وإن جرت عليه قبل ذلك أنواع من العذاب والمحنة، وأن من مات على الشرك لا يدخل الجنة، ولا يناله من الله تعالى رحمة، ويخلد في النار أبد الآباد، من غير انقطاع عذاب ولا تصرّم آباد، وهذا معلوم ضروري من الدين، مُجمَع عليه من المسلمين»[3].

قال النووي: «وأما حكمه ﷺ على من مات يشرك بدخول النار، ومن مات غير مشرك بدخوله الجنة؛ فقد أجمع عليه المسلمون. فأما دخول المشرك النار فهو على عمومه، فيدخلها ويخلد فيها، ولا فرق فيه بين الكتابي اليهودي والنصراني، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عنادًا وغيره، ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره بجحده ما يكفر بجحده وغير ذلك»[4].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٤٣)، والبخاري (٣/ ١٤٣/ ١٢٣٨)، ومسلم (١/ ٩٤/ ٩٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٩٣-٢٩٤/ ١١٠١١).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٩١)، ومسلم (١/ ٩٤/ ٩٣).

(٣) المفهم (١/ ٢٩٠).

(٤) شرح مسلم (٢/ ٨٤).

قال في «تيسير العزيز الحميد»: «فتبين بهذا أن الشرك أعظم الذنوب؛ لأن اللَّه تعالى أخبر أنه لا يغفره؛ أي: إلا بالتوبة منه، وما عداه، فهو داخل تحت مشيئة الله؛ إن شاء غفره بلا توبة، وإن شاء عذب به. وهذا يوجب للعبد شدة الخوف من هذا الذنب الذي هذا شأنه عند اللَّه، وإنما كان كذلك؛ لأنه أقبح القبح وأظلم الظلم؛ إذ مضمونه تنقيص رب العالمين، وصرف خالص حقه لغيره، وعدل غيره به، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[1] ولأنه مناقض للمقصود بالخلق والأمر، منافٍ له من كل وجه، وذلك غاية المعاندة لرب العالمين، والاستكبار عن طاعته والذل له، والانقياد لأوامره الذي لا صلاح للعالم إلا بذلك. فمتى خلا منه خرب وقامت القيامة، كما قال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض اللَّه الله**»[2] رواه مسلم، ولأن الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى وتقدس في خصائص الإلهية؛ من ملك الضر والنفع، والعطاء والمنع، الذي يوجب تعلق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل وأنواع العبادة كلها باللَّه وحده. فمن علق ذلك لمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل من لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا فضلًا عن غيره؛ شبيهًا بمن له الخلق كله، وله الملك كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله. فأزمّة الأمور كلها بيديه سبحانه، ومرجعها إليه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، الذي إذا فتح للناس رحمة؛ فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده، وهو العزيز الحكيم.

فأقبح التشبيه تشبيه العاجز الفقير بالذات؛ بالقادر الغني بالذات، ومن خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والتوبة والاستعانة وغاية الحب مع غاية الذل؛ كل ذلك يجب عقلًا وشرعًا وفطرة أن يكون لله وحده، ويمتنع عقلًا وشرعًا وفطرة أن يكون لغيره، فمن فعل شيئًا من ذلك لغيره، فقد شبه ذلك الغير بمن

(١) الأنعام: الآية (١).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٧)، ومسلم (١/ ١٣١/ ١٤٨)، والترمذي (٤/ ٤٢٦-٤٢٧/ ٢٢٠٧).

لا شبيه له، ولا مثل له ولا ند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، فلهذه الأمور وغيرها أخبر سبحانه أنه لا يغفره، مع أنه كتب على نفسه الرحمة»[١].

قال ابن القيم: «والمقصود أن الشرك لما كان أظلم الظلم، وأقبح القبائح، وأنكر المنكرات، كان أبغض الأشياء إلى اللَّه وأكرهها له، وأشدها مقتًا لديه. ورتّب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه، وأخبر أنه لا يغفره، وأن أهله نجَس، ومنعهم من قربان حرمه، وحرّم ذبائحهم ومناكحتهم، وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين، وجعلهم أعداء له سبحانه ولملائكته ورسله وللمؤمنين، وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم، وأن يتخذوهم عبيدًا، وهذا لأن الشرك هضم لحق الربوبية، وتنقيص لعظمة الإلهية، وسوء ظن برب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[٢]، فلم يجمع على أحد من الوعيد والعقوبة ما جمع على أهل الإشراك؛ فإنهم ظنوا به ظن السوء، حتى أشركوا به، ولو أحسنوا به الظن لوحّدوه حق توحيده، ولهذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره في ثلاث مواضع من كتابه. وكيف يقدره حق قدره من جعل له عدلًا وندًّا، يحبه، ويخافه، ويرجوه، ويذل له، ويخضع له، ويهرب من سخطه، ويؤثر مرضاته؟ قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[٤] أي: يجعلون له عدلًا في العبادة والمحبة والتعظيم. وهذه هي التسوية التي أثبتها المشركون بين اللَّه وبين آلهتهم، وعرفوا -وهم في النار- أنها كانت ضلالًا وباطلًا، فيقولون لآلهتهم وهم في النار معهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٥] ومعلوم أنهم ما ساووهم به في الذات والصفات والأفعال، ولا قالوا: إن آلهتهم خلقت السماوات والأرض، وأنها تحيي وتميت،

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ١٠٦-١٠٧).
(٢) الفتح: الآية (٦).
(٣) البقرة: الآية (١٦٥).
(٤) الأنعام: الآية (١).
(٥) الشعراء: الآيتان (٩٧و٩٨).

وإنما ساووها به في محبتهم لها، وتعظيمهم لها، وعبادتهم إياها»[١].

قال النووي: «وأما دخول من مات غير مشرك الجنة؛ فهو مقطوع له به، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصرًّا عليها؛ دخل الجنة أولًا، وإن كان صاحب كبيرة مات مصرًّا عليها؛ فهو تحت المشيئة، فإن عفي عنه دخل الجنة أولًا، وإلا عُذب ثم أُخرج من النار وخُلد في الجنة، واللَّه أعلم»[٢].

وقال أيضًا: «واعلم أن مذهب أهل السنة وما عليه أهل الحق من السلف والخلف؛ أن من مات موحدًا دخل الجنة قطعًا على كل حال، فإن كان سالمًا من المعاصي كالصغير والمجنون والذي اتصل جنونه بالبلوغ، والتائب توبة صحيحة من الشرك أو غيره من المعاصي إذا لم يحدث معصية بعد توبته، والموفق الذي لم يبتل بمعصية أصلًا، فكل هذا الصنف يدخلون الجنة ولا يدخلون النار أصلًا، لكنهم يردونها على الخلاف المعروف في الورود، والصحيح أن المراد به المرور على الصراط، وهو منصوب على ظهر جهنم، أعاذنا اللَّه منها ومن سائر المكروه.

وأما من كانت له معصية كبيرة ومات من غير توبة؛ فهو في مشيئة اللَّه تعالى، فإن شاء عفا عنه وأدخله الجنة أولًا، وجعله كالقسم الأول، وإن شاء عذبه القدر الذي يريده سبحانه وتعالى، ثم يدخله الجنة. فلا يخلد في النار أحد مات على التوحيد؛ ولو عمل من المعاصي ما عمل، كما أنه لا يدخل الجنة أحد مات على الكفر؛ ولو عمل من أعمال البر ما عمل. هذا مختصر جامع لمذهب أهل الحق في هذه المسألة، وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة، وإجماع من يعتد به من الأمة على هذه القاعدة، وتواترت بذلك نصوص تحصل العلم القطعي»[٣].

* * *

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٩٩-١٠٠).
(٢) شرح مسلم (٢/ ٨٤).
(٣) شرح مسلم (١/ ١٩٢-١٩٣).

قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: يا ربِّ إن الأصنام أضللن؛ يقول: أزلن كثيرا من الناس عن طريق الهُدى وسبيل الحق حتى عبدوهنّ، وكفروا بك وقوله: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ يقول: فمن تبعني على ما أنا عليه من الإيمان بك، وإخلاص العبادة لك، وفراق عبادة الأوثان، فإنه مني؛ يقول: فإنه مستنّ بسنَّتِي، وعامل بمثل عملي ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقول: ومن خالف أمري فلم يقبل مني ما دعوته إليه، وأشرك بك، فإنه غفور لذنوب المذنبين الخَطائين بفضلك، ورحيم بعبادك تعفو عمن تشاء منهم»[1].

وقال ابن كثير: «ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس وأنه برئ ممن عبدها، ورد أمرهم إلى اللَّه، إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم كقول عيسى ﷺ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2]، وليس في هذا أكثر من الرد إلى مشيئة اللَّه تعالى، لا تجويز وقوع ذلك»[3].

وقال أبو حيان: «وكرر النداء استعطافًا لربه تعالى، وذكر سبب طلبه: أن يجنب هو وبنوه عبادة الأصنام بقوله: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، إذ قد شاهد أباه وقومه يعبدون الأصنام. ومعنى أضللنا: كنا سببا لإضلال كثير من الناس، والمعنى: أنهم ضلوا بعبادتها، كما تقول: فتنتهم الدنيا أي: افتتنوا بها، واغتروا بسببها. . . فمن تبعني أي: على ديني وما أنا عليه، فإنه مني. جعله لفرط الاختصاص به وملابسته له كقوله: **«من غشنا فليس منا»**[4] أي: ليس بعض المؤمنين، تنبيها على تعظيم

---

(١) جامع البيان (١٣/ ٢٢٨-٢٢٩).
(٢) المائدة: الآية (١١٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٤١).
(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٢)، ومسلم (١/ ٩٩/ ١٠١)، وأبو داود (٣/ ٢٩٤/ ٣٤٥٢)، والترمذي (٣/ ٦٠٦/ ١٣١٥)، وابن ماجه (٢/ ٧٤٩/ ٢٢٢٤).

الغش بحيث هو يسلب الغاش الإيمان، والمعنى: أن الغش ليس من أوصاف أهل الإيمان. ومن عصاني، هذا فيه طباق معنوي؛ لأن التبعية طاعة، فقوله: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال مقاتل: ومن عصاني فيحادون الشرك. وقال الزمخشري: تغفر لي ما سلف من العصيان إذا بدا لي فيه واستحدث الطاعة. قال ابن عطية: ومن عصاني ظاهره بالكفر لمعادلة قوله: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾، وإذا كان كذلك فقوله: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ معناه حين يؤمنوا؛ لأنه أراد أن الله يغفر لكل كافر، لكنه حمله على هذه العبارة ما كان يأخذ نفسه به من القول الجميل والنطق الحسن وجميل الأدب ﷺ. وكذلك قال نبي الله عيسى عليه السلام: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾»[1].

وقال أبو السعود: « ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾ أي: الأصنامَ، ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: تسبّبن له كقوله تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، وهو تعليلٌ لدعائه، وإنما صدّره بالنداء إظهارًا لاعتنائه به ورغبةً في استجابته ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ منهم فيما أدعو إليه من التوحيد وملةِ الإسلام ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ أي: بعضي قاله عليه السلام مبالغةً في بيان اختصاصِه به، أو متصلٌ بي لا ينفك عني في أمر الدين ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ أي: لم يتبعْني، والتعبيرُ عنه بالعصيان للإيذان بأنه عليه السلام مستمرٌ على الدعوة، وأن عدم اتباعِ من لم يتبعْه إنما هو لعصيانه لا لأنه لم يبلُغْه الدعوة ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قادر على أن تغفِرَ له وترحَمه ابتداءً أو بعد توبتِه. وفيه أن كل ذنبٍ فلله تعالى أن يغفرَه حتى الشركُ، خلا أن الوعيدَ قضى بالفرق بينه وبين غيره»[2].

وقال ابن عاشور: «وجملة: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ تعليل للدعوة بإجنابه عبادتها بأنها ضلال راج بين كثير من الناس، فحق للمؤمن الضنين بإيمانه أن يخشى أن تجترفه فتنتها، فافتتاح الجملة بحرف التوكيد لما يفيده حرف (إنّ) في هذا المقام من معنى التعليل. وذلك أن إبراهيم عليه السلام خرج من بلده أُور الكلدانيين إنكارًا على عبدة الأصنام، فقال: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[3] وقال لقومه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[4]. فلما مر بمصر وجدهم يعبدون الأصنام ثم دخل

(١) البحر المحيط (٥/ ٤٢٠).
(٢) تفسير أبي السعود (٥/ ٥١).
(٣) الصافات: الآية (٩٩).
(٤) مريم: الآية (٤٨).

فلسطين فوجدهم عبدة أصنام، ثم جاء عَرَبَةَ تهامة فأسكن بها زوجه، فوجدها خالية، ووجد حولها جُرْهمَ قومًا على الفطرة والسذاجة، فأسكن بها هاجر وابنه إسماعيل ﷺ. ثم أقام هنالك مَعلَم التوحيد. وهو بيت اللَّه الكعبة بناه هو وابنه إسماعيل، وأراد أن يكون مأوى التوحيد، وأقام ابنه هنالك ليكون داعية للتوحيد. فلا جرم سأل أن يكون ذلك بلدًا آمنًا حتى يسلم ساكنوه وحتى يأوي إليهم من إذا آوى إليهم لقنوه أصول التوحيد.

ففرع على ذلك قوله: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ أي: فمن تبعني من الناس فتجنب عبادة الأصنام فهو مني، فدخل في ذلك أبوه وقومه، ويدخل فيه ذريته لأن الشرط يصلح للماضي والمستقبل . . .

وقوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تأدب في مقام الدعاء، ونفع للعصاة من الناس بقدر ما يستطيعه. والمعنى: ومن عصاني أفوّض أمره إلى رحمتك وغفرانك. وليس المقصود الدعاء بالمغفرة لمن عصى. وهذا من غلبة الحلم على إبراهيم ﷺ، وخشية من استئصال عصاة ذريته. ولذلك متعهم اللَّه قليلًا في الحياة الدنيا، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[1] وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾[2]. وسوق هذه الدعوة هنا للتعريض بالمشركين من العرب بأنهم لم يبروا بأبيهم إبراهيم ﷺ.

وإذ كان قوله: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تفويضًا لم يكن فيه دلالة على أن اللَّه يغفر لمن يشرك به»[3].

وقال الخطيب: «في هذه الآية: أولًا: خطاب الأصنام خطاب العقلاء: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ وفي هذا ما يكشف عن سفه المشركين الذين يعبدون هذه الأصنام، وخفة أحلامهم، وأنهم يتعاملون مع هذه الأحجار كما يتعاملون مع

---

(١) البقرة: الآية (١٢٦).

(٢) الزخرف: الآيات (٢٦-٢٩).

(٣) التحرير (١٣/ ٢٣٩-٢٤٠).

الآدميين العقلاء.. وهذا لا يكون إلا عن سفاهة أحلام، وسخف عقول، وصغار نفوس.. إن هؤلاء الرجال الذين يشمخون بآنافهم، ويطاولون السماء بأعناقهم، ليسوا إلا أطفالا في مساليخ رجال. فكما يتلهى الأطفال بالدمى، ويخلعون عليها من مشاعرهم أسماء يخاطبونها بها، كما يخاطب بعضهم بعضا، كذلك يفعل هؤلاء المشركون بتلك الدمى التي يشكلونها من الأحجار، والأخشاب، ويزينونها بالملابس والحلي، كما يزين الأطفال العرائس والدمى.

وثانيًا: في قول إبراهيم: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إشارة إلى ما عند إبراهيم من علم بما لله في عباده من حكمة.. وأن ذرية إبراهيم لن تكون جميعها على طريق سواء.. فهم بين مؤمن يتبعه، وكافر يخرج عن الدين الذي دعا إليه..

وثالثا: في قول إبراهيم: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تظهر عاطفة الأبوة، كما تتجلى تلك الصفة الكريمة التي حلى اللَّه سبحانه وتعالى بها إبراهيم، والتي ذكرها سبحانه في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[1].. فهو عليه السلام يدع العاصين من ذريته لمغفرة اللَّه ورحمته.. وفي مغفرة اللَّه ورحمته، متسع للعاصين ورجاء للمذنبين»[2].

قلت: صدق الخطيب في هذا الوصف؛ فإنني رأيت المسيحيين في كنائسهم يقبلون تمثالًا من الحديد صنعه الحداد، وضرب مساميره، يقبلون رجليه بشفاههم، ويضعون عليه خدودهم على أنه إله معبود! ورأيتهم يوقدون أطول الشموع، وكأنهم يضيئون الظلام بإناراتهم، والكنيسة تشتكي من كثرة نور الكهرباء، وهكذا تجدهم يعبثون بعقولهم وأموالهم، وكما قال الرسول ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر**»[3] فترى عباد القبور من المسلمين كحال أولئك النصارى في تقبيلهم لأشجارها وأحجارها، وبناياتهم عليها، ونصب التوابيت، وتغطيتها بأنواع الكُسى ولو كانت من حرير كما يغطى بيت اللَّه الحرام! وهكذا تجدهم يعبثون بالشموع

---

(١) التوبة: الآية (١١٤).
(٢) التفسير القرآني (٧/ ١٩١).
(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٨٤)، والبخاري (٦/ ٦١٣/ ٣٤٥٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٤/ ٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

والأموال، ويتحدثون مع السدنة وكأن الميت بيده الملك وهو على كل شيء قدير، فالمرأة العقيم تضع حزامها لطلب الأولاد، والفقير يضع طاقيته لطلب المال، وهكذا لو رأيتهم في واقع الأضرحة والكنائس لرأيت مطابقة تامة؛ ما يجري في الكنيسة يجري في القبور والمشاهد؛ حتى إن النصارى ليشدون الرحال إلى بعض كنائسهم على الركب والأقدام حافين حاسرين عن رؤوسهم قربةً إلى تلك الكنائس، ومثله عند المسلمين في مواسمهم وعند قبورهم، فالمسلمون والنصارى واليهود يتشابهون تمامًا في عبادة الأوثان والقبور، ولا شك أن معلمهم واحد، وهو الذي أقسم لرب العزة كما حكى الله تعالى عنه قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[(١)].

وقال السعدي: ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ على ما جئت به من التوحيد والإخلاص لله رب العالمين ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ لتمام الموافقة، ومن أحب قوما وتبعهم التحق بهم.

﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا من شفقة الخليل -عليه الصلاة والسلام- حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله، والله -تبارك وتعالى- أرحم منه بعباده لا يعذب إلا من تمرد عليه»[(٢)].

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن نبيه إبراهيم قال: إن من تبعه فإنه منه، وأنه رد من لم يتبعه إلى مشيئة الله تعالى إن شاء غفر له لأنه هو الغفور الرحيم، وذكر نحو هذا عن عيسى ابن مريم في قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[(٣)] وذكر عن نوح وموسى التشديد في الدعاء على قومهما فقال عن نوح إنه قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[(٤)] وقال عن موسى إنه قال: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[(٥)] والظاهر أن نوحًا وموسى عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام ما دعوا ذلك الدعاء على قومهما إلا بعد أن علما من الله أنهم أشقياء في علم الله لا يؤمنون أبدًا، أما نوح فقد صرح الله

---

(١) ص: الآيتان (٨٢و٨٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٤٥).

(٣) المائدة: الآية (١١٨).

(٤) نوح: الآيتان (٢٦-٢٧).

(٥) يونس: الآية (٨٨).

تعالى له بذلك في قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾[١] وأما موسى فقد فهم ذلك من قول قومه له: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[٢] فإنهم قالوا هذا القول بعد مشاهدة تلك الآيات العظيمة المذكورة في الأعراف وغيرها»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم

* عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ تلا قول اللَّه عز وجل في إبراهيم ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ الآية وقال عيسى عليه السلام ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فرفع يديه وقال: **اللهم أمتي أمتي وبكى، فقال اللَّه عز وجل: يا جبريل اذهب إلى محمد، وربك أعلم فسله ما يبكيك؟** فأتاه جبريل عليه السلام فسأله، فأخبره رسول اللَّه ﷺ بما قال وهو أعلم، فقال الله: **يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك**»[٤].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «اللهم أمتي أمتي» قال النووي: «هذا الحديث مشتمل على أنواع من الفوائد، منها: بيان كمال شفقة النبي ﷺ على أمته، واعتنائه بمصالحهم، واهتمامه بأمرهم»[٥].

وقال القاري: «أي: اللهم اغفر لأمتي، اللهم ارحم أمتي. ولعل هذا وجه التكرار، أو أريد به التأكيد، أو قصد به الأولون والآخرون «وبكى» لأنه تذكر النبي ﷺ الشفاعة الصادرة عن الخليل وروح اللَّه فرق لأمته « **فقال اللَّه عز وجل: يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم**» جملة معترضة حالية دفعًا لما يوهمه قوله: «فاسأله» بالهمز والنقل «ما يبكيك فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول اللَّه ﷺ بما

(١) هود: الآية (٣٦). (٢) الأعراف: الآية (١٣٢).
(٣) أضواء البيان (٣/ ١١٢-١١٣).
(٤) أخرجه مسلم (١/ ١٩١/ ٢٠٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٣/ ١١٢٦٩).
(٥) شرح مسلم (٣/ ٦٦).

قال» أي: بشيء قال النبي ﷺ من سبب البكاء وهو الخوف لأجل أمته. « فقال الله: لجبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا» أي: بعظمتنا: «سنرضيك» أي: سنجعلك راضيًا «في أمتك» أي: في حقهم «ولا نسوؤك» أي: ولا نحزنك في حق الجميع بل ننجيهم، ولأجل رضاك نرضيهم وهو في المعنى تأكيد، إذ ربما يتوهم من سنرضيك في حق البعض، ولذا قال بعضهم: لا يرضى محمد وأحد من أمته في النار.

قال الطيبي رحمه الله: «لعله -عليه الصلاة والسلام- أتى بذكر الشفاعة التي صدرت عن النبيين عن الخليل بتقدير الشرط والصيغة الشرطية؛ لأن المعنى أن الأصنام أضللن كثيرا من الناس فمن تاب من عبادتها وتبعني في التوحيد؛ فإنه متصل بي فاقبل شفاعتي فيهم، فلا بد من تقدير تاب لأنه مصحح الشفاعة في حق المشركين. قلت: إنما يحتاج تقدير تاب في الشرطية الثانية، وهي قوله ومن عصاني. قال: وعن روح الله كذلك؛ لأن الضمير في تغفر لهم راجع إلى من اتخذه وأمه إلاهين من دون الله، فيكون التقدير: إن تغفر لهم بعدما تابوا عن ذلك، فإنك غفور رحيم. قلت: لا يلائمه ما قبله وهو قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾[1] مع أن هذا الكلام يصدر عنه يوم القيامة، ولا يمكن تقدير التوبة هناك ثم الجزاء في الآية إنما هو قوله: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ في كلام عيسى -عليه الصلاة والسلام-. وأما قوله فإنك غفور رحيم جزاء للشرطية الواقعة في كلام إبراهيم: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾»[2].

وانظر تتمة الموضوع في سورة الضحى.

* * *

(١) المائدة: الآية (١١٨).

(٢) المرقاة (٩/ ٥٢٨-٥٢٩).

قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾

★ **غريب الآية:**

أفئدة: جمع فؤاد، وهي القلوب، وقد يعبّر عن القلب بالفؤاد. وقيل: جمع وفود من الناس.

تهوي: أي: تريد، كما تقول: رأيت فلانًا يهوي نحوك، معناه: يريدك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «كرر النداء رغبة في الإجابة وإظهارًا للتذلل، والالتجاء إلى اللَّه تعالى. وأتى بضمير جماعة المتكلمين؛ لأنه تقدم ذكره. وذكر بنيه في قوله: واجنبني وبنيَّ، ومن ذريتي هو إسماعيل ومن ولد منه»[1].

وقال ابن كثير: «وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه، تأكيدًا ورغبة إلى اللَّه ﷻ؛ ولهذا قال: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾، وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال ابن جرير: هو متعلق بقوله: المحرم أي: إنما جعلته محرما ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده. ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير وغيره: لو قال: أفئدة الناس لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فاختص به المسلمون.

وقوله: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: ليكون ذلك عونًا لهم على طاعتك، وكما أنه ﴿بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ فاجعل لهم ثمارا يأكلونها. وقد استجاب اللَّه ذلك، كما

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٥٢٠).

قال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾[1] وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته: أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة، وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها، استجابة لدعاء الخليل عليه السلام»[2].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ يخبر اللَّه -تعالى ذكره- عن خليله إبراهيم أنه سأله في دعائه أن يجعل قلوب بعض خلقه تنزع إلى مساكن ذريته الذين أسكنهم بواد غير ذي زرع عند بيته المحرّم، وذلك منه دعاء لهم بأن يرزقهم حج بيته الحرام»[3].

وقال ابن عطية: «وهذه الآية تقتضي أن إبراهيم عليه السلام قد كان علم من اللَّه تعالى أنه لا يضيع هاجر وابنها في ذلك الوادي، وأنه يرزقهما الماء، وإنما نظر النظر البعيد للعاقبة فقال: ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾، ولو لم يعلم ذلك من اللَّه لقال: غير ذي ماء على ما كانت عليه حال الوادي عند ذلك. وقوله: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ إما أن يكون البيت قد كان قديمًا - على ما روي قبل الطوفان، وكان علمه عند إبراهيم - وإما أن يكون قالها لما كان قد أعلمه اللَّه تعالى أنه سيبني هنالك بيتًا لله تعالى، فيكون محرمًا. ومعنى المحرم على الجبابرة وأن تنتهك حرمته ويستخف بحقه - قاله قتادة وغيره.

وجمعه الضمير في قوله: ﴿لِيُقِيمُوا۟﴾ يدل على أن اللَّه قد أعلمه أن ذلك الطفل سيعقب هنالك ويكون له نسل. واللام في قوله: ﴿لِيُقِيمُوا۟﴾ هي لام كي هذا هو الظاهر فيها - على أنها متعلقة بأسكنت، والنداء اعتراض، ويصح أن تكون لام أمر، كأن رغب إلى اللَّه أن يوفقهم بإقامة الصلاة، ثم ساق عبارة ملزمة لهم إقامة الصلاة، وفي اللفظ على هذا التأويل بعض تجوز يربطه المعنى ويصلحه»[4].

وقال الزمخشري: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مع سكناهم واديًا ما فيه شيء منها، بأن تجلب إليهم من البلاد ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ النعمة في أن يرزقوا أنواع الثمرات حاضرة في واد يباب ليس فيه نجم ولا شجر ولا ماء، لا جرم أن اللَّه عز وجل أجاب

(١) القصص: الآية (٥٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٤٢).
(٣) جامع البيان (٩/ ٢٣٣).
(٤) المحرر الوجيز (٣/ ٣٤١-٣٤٢).

دعوته، فجعله حرمًا آمنًا تجبى إليه. ثمرات كل شيء رزقًا من لدنه، ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثمارًا، وفي أي بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التي يريكها اللَّه بواد غير ذي زرع، وهي اجتماع البواكير والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد، وليس ذلك من آياته بعجيب»[١].

وقال أبو السعود: «﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ متوجّهين إليه متبرّكين به، وهو متعلقٌ بأسكنتُ وتخصيصُها بالذكر من بين سائر شعائرِ الدينِ لفضلها، وتكريرُ النداءِ وتوسيطُه لإظهار كمالِ العنايةِ بإقامة الصلاةِ والاهتمامِ بعرضِ أن الغرضَ من إسكانهم بذلك الوادي البلقعِ ذلك المقصدُ الأقصى والمطلَب الأسنى، وكلُّ ذلك لتمهيد مبادئ إجابة دعائِه وإعطاء مسؤولِه الذين لا يتسنى ذلك المرامُ إلا به، ولذلك أُدخل عليه الفاء فقال: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ﴾: أفئدةً من أفئدتهم، فمن للتبعيض، ولذلك قيل: لو قال: أفئدةَ الناسِ لازدحمت عليهم فارسُ والروم، وأما ما زيد عليه من قولهم: ولَحجّت اليهودُ والنصارى فغيرُ مناسب للمقام إذ المسؤولُ توجيهُ القلوب إليهم للمساكنة معهم لا توجيهُها إلى البيت للحج، وإلا لقيل: تهوي إليه، فإنه عينُ الدعاء بالبلدية قد حكي بعبارة أخرى كما مر، أو لابتداء الغاية كقولك: القلبُ منّي سقيمٌ...

﴿تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ تسرع إليهم شوقًا ووِدادًا.. وأولُ آثارِ هذه الدعوة ما روي أنه مرت رِفقةٌ من جُرهُم تريد الشامَ فرأوا الطيرَ تحوم على الجبل فقالوا: إن هذا الطائر لعائف على الماء فأشرفوا فإذا هم بهاجرَ، فقالوا لها: إن شئت كنا معك وآنسناك والماءُ ماؤك فأذِنت لهم، وكانوا معها إلى أن شبّ إسماعيلُ عليه السلام وماتت هاجرُ فتزوج إسماعيلُ منهم كما هو المشهور.

﴿وَارْزُقْهُم﴾ أي: ذريتي الذين أسكنتُهم هناك أو مع من ينحاز إليهم من الناس. وإنما لم يخصَّ الدعاء بالمؤمنين منهم كما في قوله: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ الثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[٢] اكتفاءً بذكر إقامة الصلاة ﴿مِّنَ الثَّمَرَٰتِ﴾ من أنواعها بأن يَجعلَ

(١) الكشاف (٢/ ٣٨٠).
(٢) البقرة: الآية (١٢٦).

بقرب منه قُرىً يحصُل فيها ذلك أو يجبى إليه من الأقطار الشاسعةِ وقد حصل كلاهما حتى إنه يجتمع فيه الفواكهُ الربيعيةُ والصيفيةُ والخريفيةُ في يوم واحد. . . ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ تلك النعمةَ بإقامة الصلاةِ وأداءِ سائر مراسمِ العبودية، وقيل: اللامُ في ليقيموا لامُ الأمرِ والمرادُ أمرُهم بإقامة الصلاة والدعاء من اللّه تعالى بتوفيقهم لها ولا يناسبه الفاء في قوله تعالى: فاجعل الخ، وفي دعائه ﷺ من مراعاة حسنِ الأدبِ والمحافظة على قوانين الضَّراعةِ وعرضِ الحاجة واستنزالِ الرحمةِ واستجلابِ الرأفة ما لا يخفى، فإنه ﷺ بذكر كونِ الوادي غيرَ ذي زرعٍ بيّن كمالَ افتقارِهم إلى المسؤول، وبذكر كونِ إسكانِهم عند البيت المحرم أشار إلى أن جِوارَ الكريم يستوجب إفاضةَ النعيم، وبعرض كونِ ذلك الإسكانِ مع كمال إعوازِ مرافقِ المعاش لمحض إقامةِ الصلاةِ وأداء حقوقِ البيت مهّد جميعَ مبادي إجابةِ السؤال، ولذلك قُرنت دعوتُه ﷺ بحُسنِ القبول»[1].

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾:

فيه ست مسائل:

الأولى: - بعد أن ذكر حديث ابن عباس ﷺ الآتي قال: - لا يجوز لأحد أن يتعلق بهذا في طرح ولده وعياله بأرض مضيعة، اتكالا على العزيز الرحيم، واقتداء بفعل إبراهيم الخليل، كما تقول غلاة الصوفية في حقيقة التوكل، فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر اللّه لقوله في الحديث: آلله أمرك بهذا ؟ قال: نعم

الثانية: لما أراد اللّه تأسيس الحال، وتمهيد المقام، وخط الموضع للبيت المكرم، والبلد المحرم، أرسل الملك فبحث عن الماء وأقامه مقام الغذاء، وفي الصحيح: أن أبا ذر ﷺ اجتزأ به ثلاثين بين يوم وليلة، قال أبو ذر: ما كان لي طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عكني، وما أجد على كبدي سخفة جوع، وذكر الحديث[2] عن عكرمة قال: كان ابن عباس إذا شرب من زمزم قال: (اللهم

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ٥٢-٥٣).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٥-٣١٦)، ومسلم (٤/ ١٩١٩-١٩٢٢/ ١٤٧٣).

إني أسألك علما نافعا، ورزقا واسعا، وشفاء من كل داء)[١].

قال ابن العربي: وهذا موجود فيه إلى يوم القيامة لمن صحت نيته، وسلمت طويته، ولم يكن به مكذبًا، ولا يشربه مجربًا، فإن اللَّه مع المتوكلين، وهو يفضح المجربين. . .

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ للتبعيض أي: أسكنت بعض ذريتي، يعني إسماعيل وأمه؛ لأن إسحاق كان بالشام. وقيل: هي صلة؛ أي: أسكنت ذريتي.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ يدل على أن البيت كان قديما على ما روي قبل الطوفان، وقد مضى هذا المعنى في سورة «البقرة» وأضاف البيت إليه لأنه لا يملكه غيره، ووصفه بأنه محرم؛ أي: يحرم فيه ما يستباح في غيره من جماع واستحلال.

وقيل: محرم على الجبابرة، وأن تنتهك حرمته، ويستخف بحقه، قاله قتادة وغيره. . .

الخامسة: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خصها من جملة الدين لفضلها فيه، ومكانها منه، وهي عهد اللَّه عند العباد، قال ﷺ: «خمس صلوات كتبهن اللَّه على العباد» الحديث[٢] . . .

السادسة: تضمنت هذه الآية أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها؛ لأن معنى ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أسكنتهم عند بيتك المحرم ليقيموا الصلاة فيه.

وقد اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل أو في مسجد النبي ﷺ؟ فذهب عامة أهل الأثر إلى أن الصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجد الرسول ﷺ بمائة صلاة، واحتجوا بحديث عبداللَّه بن الزبير، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٥/ ١١٣/ ٩١١٢)، والدارقطني (٢/ ٢٨٨)، وضعف إسناده الشيخ الألباني في الإرواء (٤/ ٣٣٣).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٥)، وأبو داود (٢/ ١٣٠/ ١٤٢٠)، والنسائي (١/ ٢٤٨/ ٤٦٠)، وابن ماجه (١/ ٤٤٨-٤٤٩/ ١٤٠١)، وصححه ابن حبان (٦/ ١٧٤-١٧٥/ ٢٤١٧)، وقال ابن عبد البر في التمهيد كما في فتح البر (٦/ ٩٢)، «حديث صحيح ثابت».

وصلاة في المسجد الحرام أفضل من صلاة في مسجدي هذا بمائة صلاة»[١] . . .

عن جابر بن عبد اللَّه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف فيمن سواه**»[٢] . . .

عن ابن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة في غيره من المساجد إلا المسجد الحرام فإن الصلاة فيه أفضل**»[٣].

قال أبو عمر: وهذا كله نص في موضع الخلاف قاطع له عند من ألهم رشده، ولم تمل به عصبيته.

وذكر ابن حبيب عن مطرف وعن أصبغ عن ابن وهب أنهما كانا يذهبان إلى تفضيل الصلاة في المسجد الحرام على الصلاة في مسجد النبي ﷺ على ما في هذا الباب.

وقد اتفق مالك وسائر العلماء على أن صلاة العيدين يبرز لهما في كل بلد إلا مكة فإنها تصلى في المسجد الحرام. وكان عمر وعلي وابن مسعود وأبو الدرداء وجابر يفضلون مكة ومسجدها وهم أولى بالتقليد ممن بعدهم، وإلى هذا ذهب الشافعي. وهو قول عطاء والمكيين والكوفيين»[٤].

ستأتي -إن شاء اللَّه تتمة- لهذا في أول الشورى الآية (٧).

وقال السعدي: «﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: اجعلهم موحدين مقيمين الصلاة لأن إقامة الصلاة من أخص وأفضل العبادات الدينية، فمن أقامها كان مقيما لدينه، ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: تحبهم وتحب الموضع الذي هم ساكنون فيه.

فأجاب اللَّه دعاءه فأخرج من ذرية إسماعيل محمدا ﷺ حتى دعا ذريته إلى الدين

---

(١) أحمد (٤/ ٥) والبزار الكشف (١/ ٢١٤/ ٤٢٥) والطيالسي (١٣٦٧) وصححه ابن حبان الإحسان (٤/ ٤٩٩/ ١٦٢٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٤٣) وابن ماجه (١/ ٤٥٠-٤٥١/ ١٤٠٦) وقال البوصيري إسناده صحيح ورجاله ثقات. وصححه الشيخ الألباني في الإرواء (١١٢٩).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٦) ومسلم (٢/ ١٠١٣/ ١٣٩٥) وابن ماجه (١/ ٤٥٠/ ١٤٠٥).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٣٦٨-٣٧٢).

الإسلامي وإلى ملة أبيهم إبراهيم، فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة.

وافترض اللَّه حج هذا البيت الذي أسكن به ذرية إبراهيم، وجعل فيه سرا عجيبا جاذبا للقلوب، فهي تحجه ولا تقضي منه وطرا على الدوام، بل كلما أكثر العبد التردد إليه ازداد شوقه وعظم ولعه وتوقه، وهذا سر إضافته تعالى إلى نفسه المقدسة.

﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ فأجاب اللَّه دعاءه، فصار يجبى إليه ثمرات كل شيء، فإنك ترى مكة المشرفة كل وقت، والثمار فيها متوفرة، والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب»[1].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في قصة أم إسماعيل

* عن سعيد بن جبير، قال ابن عباس: «أول ما اتخذ النساء المِنْطَق من قِبَل أم إسماعيل، اتخذت منطقًا لتعفّي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل -وهي ترضعه- حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفّى إبراهيم منطلقًا، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا! وجعل لا يلتفت إليها. فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ -حتى بلغ- ﴿يَشۡكُرُونَ﴾. وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوّى -أو قال: يتلبّط-، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٤٦).

الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**فذلك سعي الناس بينهما**». فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا، فقالت: صهٍ! -تريد نفسها- ثم تسمّعت أيضًا، فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غَواث، فإذا هي بالملَك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه -أو قال: بجناحه- حتى ظهر الماء، فجعلت تُحَوِّضه، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**يرحم اللَّه أم إسماعيل، لو تركت زمزم -أو قال: لو لم تغرف من الماء- لكانت زمزم عينًا مَعينًا**». قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة، فإن هاهنا بيت اللَّه يبني هذا الغلام وأبوه، وإن اللَّه لا يضيع أهله. وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول، فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك، حتى مرت بهم رفقة من جُرهم -أو أهل بيت من جرهم- مقبلين من طريق كَداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائرًا عائفًا، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لَعهدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جَريًّا أو جريّين، فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا -قال: وأم إسماعيل عند الماء- فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندكِ؟ فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء. قالوا: نعم. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**فألفى ذلك أمَّ إسماعيل وهي تحب الأنس**». فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأَنفَسَهُم وأعجبَهم حين شبّ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم. وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم، بعدما تزوج إسماعيل، يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا. ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشرّ! نحن في ضيق وشدة! فشكت إليه! قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنا في جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم؛ أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك. قال: ذاك أبي، قد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك. فطلقها وتزوج منهم أخرى.

فلبث عنهم إبراهيم ما شاء اللَّه، ثم أتاهم بعد، فلم يجده، فدخل على امرأته، فسألها عنه؟ فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم؟ فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على اللَّه ﷻ. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء. قال النبي ﷺ: «**ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ**»، ولو كان لهم دعا لهم فيه. قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم؛ أتانا شيخ حسن الهيئة -وأثنت عليه- فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنَّا بخير. قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم. هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك. ثم لبث عنهم ما شاء اللَّه، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلًا له تحت دوحة قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد. ثم قال: يا إسماعيل، إن اللَّه أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك ربك. قال: وتعينني؟ قال: وأعينك. قال: فإن اللَّه أمرني أن أبني هاهنا بيتًا -وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها- قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1] قال: فجعلا يبنيان، حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾»[2].

★ غريب الحديث:

المِنطَق: بكسر الميم وسكون النون وفتح الطاء: ما تشده المرأة على وسطها عند الشغل لئلا تعثر في ذيلها.

---

(١) البقرة: الآية (١٢٧).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٤٧-٣٤٨)، والبخاري (٦/ ٤٨٨-٤٩٠/ ٣٣٦٤)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٠٠-١٠١/ ٨٣٧٩).

لتعفي: بضم الفوقية وفتح العين المهملة وتشديد الفاء المكسورة: لِتخفيأثرها وتمحوه على سارة.

عند دوحة: بفتح المهملة وسكون الواو ثم مهملة: الشجرة الكبيرة.

جرابًا: بكسر الجيم، من جلد؛ ما يجعل فيه الزاد.

سقاء: بكسر أوله: قربة صغيرة.

الثنية: بالمثلثة وكسر النون وتشديد التحتية بأعلى مكة حيث دخل النبي ﷺ مكة.

يتلوّى: يتقلب ظهرًا لبطن.

يتلبط: بالموحدة المشددة بعد اللام آخره طاء مهملة أي: يتمرغ ويضرب بنفسه على الأرض، من لبط به إذا صرع.

رفعت طرف درعها: أي: قميصها لئلا تعثر في ذيله.

صه: بفتح الصاد وسكون الهاء وبكسرها منونة، كأنها خاطبت نفسها، فقالت لها اسكتي.

تسمعت: أي: تكلفت السماع واجتهدت فيه.

غَواث: قال العيني: «بفتح الغين المعجمة في رواية الأكثرين وتخفيف الواو وفي آخره ثاء مثلثة، قيل: وليس في الأصوات (فَعال) بفتح أوله غيره، وحكى ابن الأنباري ضم أوله، وحكى ابن قرقول كسر أوله أيضًا، وفي رواية أبي ذر الضم، والفتح للأصيلي، وضبطه الدمياطي بالضم، وضبطه ابن التين بالفتح، وعلى كل حال هو مشتق من الغوث، وجزاء الشرط محذوف تقديره: إن كان عندك غواث أغثني»[1].

تحوّضه: أي: تجعله كالحوض لئلا يذهب الماء.

وتقول بيدها هكذا: هو حكاية فعلها، وهذا من إطلاق القول على الفعل.

الضيعة: أي: الهلاك.

---

(١) عمدة القاري (١١/ ٧٤).

الرابية: المكان المرتفع.

جُرْهُم: حي من اليمن، وكانت جرهم يومئذ قريبًا من مكة.

من طريق كَداء: بفتح الكاف والمد، وهو أعلى مكة.

طائرًا عائفًا: هو الذي يحوم على الماء ويتردد ولا يمضي عنه.

جَرِيًّا: أي: رسولًا لينظر هل هناك ماء أم لا. والجَرِيُّ كغني: الوكيل، والرسول، والأجير، والضامن.

الأنس: بضم الهمزة ضد الوحشة. وبكسرها أبناء جنسها.

ألفى: بهمزة مفتوحة وسكون اللام وفتح الفاء؛ أي: وجد.

أَنْفَسَهُم: من النفاسة؛ أي: أشرفهم وأعزهم.

يطالع تَرِكَتَه: أي: يتفقّد حال ما تركه هناك.

لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه: قال ابن القوطية: خلوت بالشيء واختليت: إذا لم أخلط به غيره. ويقال: خلى الرجل اللبن: إذا لم يشرب غيره.

يبري نبلًا: أي: ينحتها ويصلحها.

أَكَمَة: بفتحتين؛ أي: رابية، وهي ما ارتفع من الأرض.

★ فوائد الحديث:

قال القنوجي: «فيه دعاء للمؤمنين بأن يرزقهم حج البيت، ودعاء لسكان مكة من ذريته بأنهم ينتفعون بمن يأتي إليهم من الناس لزيارة البيت، فقد جمع إبراهيم في هذا الدعاء من أمر الدين والدنيا ما ظهر بيانه وعمت بركته»[1].

وقال شيخ الإسلام: «وأقسم بالبلد الأمين وهي مكة وهو البلد الذي أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل وأمه، وهو الذي جعله الله حرما آمنا، ويتخطف الناس من حولهم خلقا وأمرا، قدرا وشرعا، فإن إبراهيم حرمه ودعا لأهله فقال: ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون.

---

(١) فتح البيان (٧/ ١٢٦).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[1] فأخبر اللّه تعالى أن إبراهيم دعا اللّه بأن يجعل مكة بلدا آمنا، واستجاب اللّه دعاء إبراهيم، وذكر ذلك في غير موضع، وبها بنى إبراهيم البيت كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾[6]»[7].

وقال: «وكان لإبراهيم ولآل إبراهيم من محبة اللّه وعبادته والإيمان به وطاعته؛ ما لم يكن لغيرهم، فخصهم اللّه بأن جعل لبيته الذي بنوه له خصائص لا توجد لغيره، وجعل ما جعله من أفعالهم قدوة للناس وعبادة يتبعونهم فيها، ولا ريب أن اللّه شرع لإبراهيم السعي، ورمي الجمار، والوقوف بعرفات، بعد ما كان من أمر هاجر وإسماعيل، وقصة الذبح وغير ذلك ما كان، كما شرع لمحمد الرمل في الطواف حيث أمره أن ينادي في الناس بحج البيت، والحج مبناه على الذل والخضوع لله»[8].

---

(١) البقرة: الآيتان (١٢٥-١٢٦).
(٢) البقرة: الآيات (١٢٧-١٢٩).
(٣) آل عمران: الآيتان (٩٦-٩٧).
(٤) قريش: الآيات (١-٤).
(٥) القصص: الآية (٥٧).
(٦) العنكبوت: الآية (٦٧).
(٧) الجواب الصحيح (٥/ ٢٠٤-٢٠٦).
(٨) مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٨٣).

وقال: « فإنها بيت من حجارة بواد غير ذي زرع، ليس عندها أحد يحفظها من عدو، ولا عندها بساتين وأمور يرغب الناس فيها، فليس عندها رغبة ولا رهبة، ومع هذا فقد حفظها بالهيبة والعظمة، فكل من يأتيها يأتيها خاضعا ذليلا، متواضعا في غاية التواضع، وجعل فيها من الرغبة أن يأتيها الناس من أقطار الأرض محبة وشوقا، من غير باعث دنيوي، وهي على هذه الحال من ألوف من السنين، وهذا مما لا يعرف في العالم لبنية غيرها، والملوك يبنون القصور العظيمة فتبقى مدة ثم تهدم، لا يرغب أحد في بنائها ولا يرهبون من خرابها، وكذلك ما بني للعبادات قد يتغير حاله على طول الزمان، وقد يستولي العدو عليه كما استولى على بيت المقدس، والكعبة لها خاصة ليست لغيرها، وهذا مما حير الفلاسفة ونحوهم، فإنهم يظنون أن المؤثر في هذا العالم هو حركات الفلك، وأن ما بني وبقي فقد بني بطالع سعيد، فحاروا في طالع الكعبة إذ لم يجدوا في الأشكال الفلكية ما يوجب مثل هذه السعادة والعزة والعظمة والدوام والقهر والغلبة»[١].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لو كان إبراهيم عليه السلام قال: (فاجعل أفئدة الناس تهوي إليهم)، لحجه اليهود والنصارى والناس كلهم، ولكنه قال: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم معددًا بعض فضائل هذا البيت: «ومن هذا اختياره سبحانه من الأماكن والبلاد خيرَها وأشرفها، وهي البلد الحرام، فإنه سبحانه وتعالى اختاره لنبيه ﷺ، وجعله مناسك لعباده، وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد من كل فج عميق، فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين متذللين، كاشفي رؤوسهم، متجردين عن لباس أهل الدنيا، وجعله حرمًا آمنًا، لا يُسفك فيه دم، ولا تُعضد به شجرة، ولا يُنفّر له صيد، ولا يُختلى خلاه؛ ولا تُلتقط لُقطته للتمليك بل للتعريف ليس إلا، وجعل قصده مكفرًا لما سلف من الذنوب، ماحيًا للأوزار،

---

(١) النبوات (١/ ٥١٠-٥١١).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٣/ ٢٣٤)، والبيهقي في الشعب (٣/ ٤٣٨-٤٣٩/ ٣٩٩٦)، وابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٥٠)، وذكره السيوطي في الدر وزاد نسبته لابن المنذر وقال «بسند حسن».

حاطًا للخطايا»[١].

وقال: «وقد ظهر سر هذا التفضيل والاختصاص في انجذاب الأفئدة، وهوى القلوب وانعطافها ومحبتها لهذا البلد الأمين، فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد، فهو الأولى بقول القائل:

محاسنُهُ هَيُولَى كلِّ حسنٍ ومغناطيسُ أفئدةِ الرِّجالِ

ولهذا أخبر سبحانه أنه مثابة للناس؛ أي: يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار، ولا يقضون منه وطرًا، بل كلما ازدادوا له زيارة، ازدادوا له اشتياقًا.

لا يرجع الطرْفُ عنها حينَ ينظرها حتى يعود إليها الطرف مشتاقًا

فلله كم لها من قتيل وسليب وجريح! وكم أُنفق في حبها من الأموال والأرواح! ورضي المحب بمفارقة فِلَذ الأكباد والأهل، والأحباب والأوطان، مقدِّمًا بين يديه أنواع المخاوف والمتالف، والمعاطف والمشاق، وهو يستلذ ذلك كله ويستطيبه، ويراه -لو ظهر سلطان المحبة في قلبه- أطيب من نِعَم المتحلية وترفهم ولذاتهم.

وليس محِبًّا من يَعدّ شقاءَهُ عذابًا إذا ما كان يرضى حبيبُهُ»[٢].

* * *

(١) زاد المعاد (١/ ٤٦-٤٧).

(٢) زاد المعاد (١/ ٥١-٥٢).

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا خبر من اللَّه -تعالى ذكره- عن استشهاد خليله إبراهيم إياه على ما نوى، وقصد بدعائه وقيله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾[1] الآية، وأنه إنما قصد بذلك رضا اللَّه عنه في محبته أن يكون ولده من أهل الطاعة لله، وإخلاص العبادة له على مثل الذي هو له، فقال: ربنا إنك تعلم ما تخفي قلوبنا عند مسألتنا ما نسألك، وفي غير ذلك من أحوالنا، وما نعلن من دعائنا، فنجهر به وغير ذلك من أعمالنا، وما يخفى عليك يا ربنا من شيء يكون في الأرض ولا في السماء؛ لأن ذلك كله ظاهر لك متجل باد؛ لأنك مدبره وخالقه، فكيف يخفى عليك»[2].

وقال أبو حيان: «كرر النداء للتضرع والالتجاء، ولا يظهر تفاوت بين إضافة رب إلى ياء المتكلم، وبين إضافته إلى جمع المتكلم، وما نخفي وما نعلن عام فيما يخفونه وما يعلنونه. وقيل: ما نخفي من الوجد لما وقع بيننا من الفرقة، وما نعلن من البكاء والدعاء. وقيل: ما نخفي من كآبة الافتراق، وما نعلن مما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع: إلى من تكلنا؟ قال: إلى اللَّه أكلكم. قالت: آللّه أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: لا نخشى تركتنا إلى كاف. والظاهر أنّ قوله: وما يخفى على اللَّه من شيء في الأرض ولا في السماء، من كلام إبراهيم لاكتناف ما قبله وما بعده بكلام إبراهيم. لما ذكر أنه تعالى عمم ما يخفي هو ومن كنى عنه، تمم جميع الأشياء، وأنها غير خافية عنه تعالى. وقيل: وما يخفى الآية من كلام اللَّه ﷻ تصديقًا لإبراهيم عليه السلام كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾[3]»[4].

---

(١) إبراهيم: الآية (٣٥).
(٢) جامع البيان (١٣/ ٢٣٥).
(٣) النمل: الآية (٣٤).
(٤) البحر المحيط (٥/ ٤٢٢).

وقال الزمخشري: «والمعنى: أنك أعلم بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا منا، وأنت أرحم بنا وأنصح لنا منا بأنفسنا ولها، فلا حاجة إلى الدعاء والطلب، وإنما ندعوك إظهارًا للعبودية لك، وتخشعًا لعظمتك، وتذللا لعزتك، وافتقارًا إلى ما عندك، واستعجالًا لنيل أياديك، وولهًا إلى رحمتك، وكما يتملق العبد بين يدي سيده، رغبة في إصابة معروفه، مع توفر السيد على حسن الملكة»[1].

وقال ابن عطية: «مقصد إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ التنبيه على اختصاره في الدعاء، وتفويضه إلى ما علم الله من رغائبه وحرصه على هداية بنيه والرفق بهم وغير ذلك، ثم انصرف إلى الثناء على الله تعالى بأنه علام الغيوب، وإلى حمده على هباته، وهذه من الآيات المعلمة أن علم الله تعالى بالأشياء هو على التفصيل التام»[2].

وقال ابن عاشور: «جاء بهذا التوجه إلى الله جامعًا لما في ضميره، وفذلكةً للجمل الماضية لِما اشتملت عليه من ذكر ضلال كثير من الناس، وذكر من اتبع دعوته ومن عصاه، وذكر أنه أراد من إسكان أبنائه بمكة رجاء أن يكونوا حراس بيت الله، وأن يقيموا الصلاة، وأن يشكروا النعم المسؤولة لهم. وفيه تعليم لأهله وأتباعه بعموم علم الله تعالى حتى يراقبوه في جميع الأحوال ويخلصوا النية إليه.

وجملة ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ تذييل لجملة ﴿إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾؛ أي: تعلم أحوالنا وتعلم كل شيء. ولكونها تذييلًا أظهر فيها اسم الجلالة ليكون التذييل مستقلًا بنفسه بمنزلة المَثل والكلام الجامع»[3].

وقال الشوكاني: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ أي: ما نكتمه وما نظهره؛ لأن الظاهر والمضمر بالنسبة إليه سبحانه سيان. قيل: والمراد هنا بما نخفي ما يقابل ما نعلن، فالمعنى: ما نظهره وما لا نظهره، وقدّم ما نخفي على ما نعلن للدلالة على أنهما مستويان في علم الله سبحانه. وظاهر النظم القرآني عموم كل ما لا يظهر وما يظهر من غير تقييد بشيء معين من ذلك. وقيل: المراد ما يخفيه إبراهيم

(١) الكشاف (٢/ ٣٨١).
(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٣٤٢-٣٤٣).
(٣) التحرير (١٣/ ٢٤٢-٢٤٣).

من وجده بإسماعيل وأمه، حيث أسكنهما بوادٍ غير ذي زرع، وما يعلنه من ذلك. وقيل: ما يخفيه إبراهيم من الوجد ويعلنه من البكاء والدعاء. والمجيء بضمير الجماعة يشعر بأن إبراهيم لم يرد نفسه فقط، بل أراد جميع العباد، فكأن المعنى: أن اللَّه سبحانه يعلم بكل ما يظهره العباد وبكل ما لا يظهرونه. وأما قوله: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فقال جمهور المفسرين: هو من كلام اللَّه سبحانه تصديقًا لما قاله إبراهيم من أنه سبحانه يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه، فقال سبحانه ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأشياء الموجودة كائنًا ما كان. وإنما ذكر السموات والأرض لأنها المشاهدة للعباد، وإلَّا فعلمه سبحانه محيط بكل ما هو داخل في العالم، وكل ما هو خارج عنه لا تخفى عليه منه خافية. قيل: ويحتمل أن يكون هذا من قول إبراهيم تحقيقًا لقوله الأوّل، وتعميمًا بعد التخصيص»[1].

* * *

(١) فتح القدير (٣/ ١٦٠).

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ثم حمد ربه ﷻ، على ما رزقه من الولد بعد الكبر، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي: إنه ليستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد»[1].

وقال أبو حيان: «والظاهر أن هذه الجمل التي تكلم بها إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم تقع منه في زمان واحد، وإنما حكى اللَّه عنه ما وقع في أزمان مختلفة، يدل على ذلك أن إسحاق لم يكن موجودًا حالة دعائه، إذ ترك هاجر والطفل بمكة. فالظاهر أنّ حمده اللَّه تعالى على هبة ولديه له كان بعد وجود إسحاق، وعلى الكبر يدل على مطلق الكبر، ولم يتعرض لتعيين المدة التي وهب له فيها ولداه. وروي أنه ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسحاق وهو ابن مائة وثنتي عشرة سنة. وقيل: إسماعيل لأربع وستين، وإسحاق لتسعين. وعن ابن جبير: لم يولد له إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة. وإنما ذكر حال الكبر لأنّ المنة فيها بهبة الولد أعظم من حيث أنّ الكبر مظنة اليأس من الولد، فإنّ مجيء الشيء بعد الإياس أحلى في النفس وأبهج لها. وعلى الكبر في موضع الحال لأنه قال: وأنا كبير، وعلى على بابها من الاستعلاء لكنه مجاز، إذ الكبر معنى لا جرم يتكون، وكأنه لما أسنّ وكبر صار مستعليًا على الكبر»[2].

وقال ابن عاشور: «لما دعا اللَّه لأَهَمّ ما يهمه وهو إقامة التوحيد وكان يرجو إجابة دعوته، وأن ذلك ليس بِعجبٍ في أمر اللَّه خطر بباله نعمة اللَّه عليه بما كان يسأله وهو أن وهب له ولدَيْن في إبان الكِبَر، وحين اليأس من الولادة فناجى اللَّه

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٤٢).

(٢) البحر المحيط (٥/ ٤٢٢).

فحمده على ذلك وأثنى عليه بأنه سميع الدعاء؛ أي: مجيب؛ أي: متصف بالإجابة وصفًا ذاتيًا، تمهيدًا لإجابة دعوته هذه كما أجاب دعوتَه سلفًا. فهذا مناسبة مَوقع هذه الجملة بعد ما قبلها بقرينة قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾»[١].

وقال أبو السعود: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ ومالكَ أمري ﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ لمجيبُه، من قولهم: سمِع الملكُ كلامَه إذا اعتدّ به.. وهو مع كونه من تتمة الحمدِ والشكر إذ هو وصفٌ له تعالى بأن ذلك الجميلَ سنّته المستمرّةُ تعليلٌ على طريقة التذييل للهبة المذكورة. وفيه إيذانٌ بتضاعف النعمة فيها حيث وقعت بعد الدعاءِ بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فاقترنت الهبةُ بقبول الدعوةِ، وتوحيدُ ضمير المتكلم وإن كان عَقيبَ ذكرِ هبتهما ؛لما أن نعمةَ الهبةِ فائضةٌ عليه خاصة، وهما من النعم لا من المنعَم عليهم»[٢].

وقال ابن القيم: «وأما قول إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾؛ فالمراد بالسمع هنا: السمع الخاص، وهو سمع الإجابة والقبول، لا السمع العام؛ لأنه سميع لكل مسموع، وإذا كان كذلك فالدعاء هنا يتناول دعاء الثناء ودعاء الطلب، وسمع الرب -تبارك وتعالى- له إثابته على الثناء، وإجابته للطلب؛ فهو سميع لهذا وهذا»[٣].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة السمع لله ﷻ

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «ما أذن الله لشيء ما أذن للنبي أن يتغنى بالقرآن»[٤].

★غريب الحديث:

قال البغوي: «قوله: «ما أذن الله لشيء» يعني: ما استمع لشيء كاستماعه. والله لا يشغله سمع عن سمع»[٥].

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٤٣).
(٢) تفسير أبي السعود (٥/ ٥٤).
(٣) بدائع الفوائد (٣/ ٤).
(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٧١)، البخاري (٩/ ٨٣-٨٤/ ٥٠٢٤)، ومسلم (١/ ٥٤٥/ ٧٩٢)، وأبو داود (٢/ ١٥٧/ ١٤٧٣)، والنسائي (٢/ ٥٢٢/ ١٠١٧).
(٥) شرح السنة (٤/ ٤٨٤-٤٨٥).

قال القرطبي: «وأصله: أن المستمع يميل بأذنه إلى جهة المستمع. تقول العرب: أَذِن بكسر الذال، يأذَن بفتحها في المستقبل، أَذَنًا بفتح الهمزة والذال في المصدر: إذا أصغى واستمع»(١).

★ فوائد الحديث:

قال ابن كثير: «معناه: أن اللَّه ما استمع لشيء كاستماعه لقراءة نبي يجهر بقراءته ويحسنها، وذلك أنه يجتمع في قراءة الأنبياء طيب الصوت؛ لكمال خلقهم وتمام الخشية، وذلك هو الغاية في ذلك.

وهو ﷻ يسمع أصوات العباد كلهم برهم وفاجرهم، كما قالت عائشة ﵂: «سبحان اللَّه الذي وسع سمعه الأصوات»(٢). ولكن استماعه لقراءة عباده المؤمنين أعظم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾(٣)، ثم استماعه لقراءة أنبيائه أبلغ؛ كما دل عليه هذا الحديث العظيم، ومنهم من فسر الأذن هاهنا بالأمر، والأول أولى؛ لقوله: «ما أذن اللَّه لشيء ما أذن لنبي أن يتغنى بالقرآن» أي: يجهر به، والأذن: الاستماع؛ لدلالة السياق عليه، وكما قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾(٤) أي: وحق لها أن تستمع أمره وتطيعه، فالأذن هو الاستماع»(٥).

* * *

---

(١) المفهم (٢/ ٤٢١).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤٦)، والبخاري (١٣/ ٤٦٠)، معلقا تحت باب (وكان اللَّه سميعا بصيرا) من كتاب التوحيد، والنسائي (٦/ ٤٨٠/ ٣٤٦٠) وابن ماجه (١/ ٦٧/ ١٨٨) وصححه الحاكم (٢/ ٤٨١) ووافقه الذهبي.

(٣) يونس: الآية (٦١).

(٤) الانشقاق: الآيات (١-٥).

(٥) فضائل القرآن (١/ ٥٩)، تفسير ابن كثير.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: محافظا عليها مقيما لحدودها ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ أي: واجعلهم كذلك مقيمين لها ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ أي: فيما سألتك فيه كله.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ قرأ بعضهم: «ولوالدي»، بالإفراد، وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله ﷻ، ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: كلهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ أي: يوم تحاسب عبادك فتجزيهم بأعمالهم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر»[1].

وقال ابن جرير: «﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ يقول: ربنا وتقبل عملي الذي أعمله لك وعبادتي إياك. وهذا نظير الخبر الذي رُوي عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**إنَّ الدُّعاءَ هُوَ العبادَةُ**»[2] ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[3]»[4].

وقال الشوكاني: «ثم سأل اللَّه سبحانه أن يتقبل دعاءه على العموم، ويدخل في ذلك دعاؤه في هذا المقام دخولًا أوّليًا. قيل: والمراد بالدعاء هنا: العبادة، فيكون المعنى: وتقبل عبادتي التي أعبدك بها، ثم طلب من اللَّه سبحانه أن يغفر له ما وقع منه، مما يستحق أن يغفره اللَّه وإن لم يكن كبيرًا، لما هو معلوم من عصمة الأنبياء

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٤٢-١٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٧)، وأبو داود (٢/ ١٦١/ ١٤٧٩)، والترمذي (٥/ ١٩٤-١٩٥/ ٢٩٦٩)، وقال: «حديث حسن صحيح» وابن ماجه وابن ماجه (٢/ ٢١٨/ ٣٨٢٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٥٠/ ١١٤٦٤)، وصححه ابن حبان (٣/ ١٧٢/ ٨٩٠)، والحاكم (١/ ٤٩٢) ووافقه الذهبي.

(٣) غافر: الآية (٦٠).

(٤) جامع البيان (١٣/ ٢٣٥/ ٢٣٦).

عن الكبائر. ثم طلب من اللَّه سبحانه أن يغفر لوالديه، وقد قيل: إنه دعا لهما بالمغفرة قبل أن يعلم أنهما عدوان لله سبحانه كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[1]. وقيل: كانت أمه مسلمة.. ثم استغفر للمؤمنين. وظاهره شمول كل مؤمن سواء كان من ذرّيته أو لم يكن منهم: وقيل: أراد المؤمنين من ذرّيته فقط. ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ أي: يوم يثبت حساب المكلفين في المحشر، استعير له لفظ يقوم الذي هو حقيقته في قيام الرجل للدلالة على أنه في غاية الاستقامة. وقيل: إن المعنى: يوم يقوم الناس للحساب. والأول أولى»[2].

وقال أبو حيان: «والظاهر أنّ إبراهيم سأل المغفرة لأبويه القريبين، وكانت أمه مؤمنة، وكان والده لم ييأس من إيمانه ولم تتبين له عداوة اللَّه، وهذا يتمشى إذا قلنا: إن هذه الأدعية كانت في أوقات مختلفة، فجمع هنا أشياء مما كان دعا بها. وقيل: أراد أمه ونوحًا عليه السلام. وقيل: آدم وحواء. والأظهر القول الأول. وقد جاء نصًا دعاؤه لأبيه بالمغفرة في قوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾»[3].

وقال أبو السعود: «واعلم أن ما حكي عنه عليه السلام من الأدعية والأذكار، وما يتعلق بها ليس بصادر عنه على الترتيب المَحْكيّ، ولا على وجه المعيّة، بل صدر عنه في أزمنة متفرّقةٍ، حُكي مرتبًا للدِلالة على سوء حال الكفرةِ بعد ظهور أمرِه في الملة وإرشادِ الناس إليها، والتضرّعِ إلى اللَّه تعالى لمصالحهم الدينية والدنيوية»[4].

وقال السعدي: «فاستجاب اللَّه له في ذلك كله، إلا أن دعاءه لأبيه إنما كان عن موعدة وعده إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه»[5].

* * *

(١) التوبة: الآية (١١٤).
(٢) فتح القدير (٣/ ١٦١).
(٣) البحر المحيط (٥/ ٤٢٣).
(٤) تفسير أبي السعود (٥/ ٥٤).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٤٧-١٤٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ يا محمد ﴿غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ أي: لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك عليهم ويعده عدا، ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: من شدة الأهوال يوم القيامة.

ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر فقال: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين، كما قال تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِۖ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾[(٣)] وقوله: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد: رافعي رءوسهم. ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ﴾ أي: أبصارهم طائرة شاخصة، يديمون النظر لا يطرفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم، عياذًا باللَّه العظيم من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾.

أي: وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجل والخوف. ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنة أفئدتهم خالية لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف. وقال بعضهم: هي خراب لا تعي شيئًا. ولشدة ما أخبر اللَّه تعالى به عنهم»[(٤)].

---

(١) القمر: الآية (٨).

(٢) طه: الآيات (١٠٨-١١١).

(٣) المعارج: الآية (٤٣).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٤٣).

وقال ابن عاشور: «﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ . . ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ عطف على الجمل السابقة، وله اتصال بجملة ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾(١) الذي هو وعيد للمشركين وإنذار لهم بأن لا يغتروا بسلامتهم وأمنهم تنبيهًا لهم على أن ذلك متاع قليل زائل، فأكد ذلك الوعيد بهذه الآية، مع إدماج تسلية الرسول -عليه الصلاة والسلام- على ما يتطاولون به من النعمة والدعة، كما دل عليه التفريع في قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾(٢). وفي معنى الآية قوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾(٣).

وباعتبار ما فيه من زيادة معنى التسلية وما انضم إليه من وصف فظاعة حال المشركين يوم الحشر حسن اقتران هذه الجملة بالعاطف ولم تفصل»(٤).

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه يؤخر عقاب الكفار إلى يوم تشخص فيه الأبصار من شدة الخوف، وأوضح ذلك في قوله تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾(٥) الآية. ومعنى شخوص الأبصار أنها تبقى منفتحة لا تغمض من الهول وشدة الخوف. قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ﴾الآية. الإهطاع في اللغة: الإسراع، وقد بين تعالى في مواضع أخر أنهم يوم القيامة يأتون مهطعين أي: مسرعين إذا دعوا للحساب كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ۝٧ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾(٦) الآية. وقوله: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾(٧) وقوله: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾(٨)»(٩).

وقال السعدي: «هذا وعيد شديد للظالمين، وتسلية للمظلومين، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ حيث أمهلهم وأدرَّ عليهم الأرزاق، وتركهم يتقلبون في البلاد آمنين مطمئنين، فليس في هذا ما يدل على حسن حالهم فإن الله يملي للظالم ويمهله ليزداد إثما، حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ

(١) إبراهيم: الآية (٣٠).
(٢) إبراهيم: الآية (٤٧).
(٣) المزمل: الآية (١١).
(٤) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٤٥).
(٥) الأنبياء: الآية (٩٧).
(٦) القمر: الآيتان (٧-٨).
(٧) المعارج: الآية (٤٣).
(٨) ق: الآية (٤٤).
(٩) أضواء البيان (٣/ ١١٤).

إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[١] والظلم هاهنا يشمل الظلم فيما بين العبد وربه وظلمه لعباد اللَّه. ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: لا تطرف من شدة ما ترى من الأهوال وما أزعجها من القلاقل.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي اللَّه للحساب لا امتناع لهم ولا محيص ولا ملجأ، ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رافعيها قد غُلَّتْ أيديهم إلى الأذقان، فارتفعت لذلك رءوسهم، ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ أي: أفئدتهم فارغة من قلوبهم قد صعدت إلى الحناجر لكنها مملوءة من كل هم وغم وحزن وقلق»[٢].

وقال القاسمي: «والمعنى: أن القلوب يومئذ زائلة عن أماكنها، والأبصار شاخصة، والرؤوس مرفوعة إلى السماء من هول ذلك اليوم وشدته، وخوف ما يقع فيه»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الصراط

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ قال: **«إذا خَلَص المؤمنون من النار حُبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، فيتقاصّون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا نُقّوا وهُذّبوا أُذن لهم بدخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده، لأحدهم بمسكنه في الجنة أَدَلّ بمنزله كان في الدنيا»**[٤].

★ **غريب الحديث:**

إذا خلص المؤمنون من النار: أي: نجوا من السقوط فيها بعد ما جازوا على الصراط.

حبسوا بقنطرة: قال الحافظ: «الذي يظهر أنها طرق الصراط مما يلي الجنة، ويحتمل أن تكون من غيره بين الصراط والجنة»[٥].

---

(١) هود: الآية (١٠٢).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٤٨).
(٣) محاسن التأويل (١٠/ ٣٧).
(٤) أخرجه أحمد (٣/ ١٣)، البخاري (٥/ ١٢١/ ٢٤٤٠).
(٥) فتح الباري (٥/ ١٢٢).

فيتقاصون: بتشديد المهملة: يتفاعلون من القصاص، المراد تتبع ما بينهم من المظالم وإسقاط بعضها ببعض.

حتى إذا نقوا وهذبوا: بضم النون وبضم الهاء وهما بمعنى التمييز والتخليص من السيئات.

أدل: من الدلالة؛ أي: الهداية والإرشاد.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «الصراط جسر موضوع على متن جهنم، وأن الجنة وراء ذلك، فيمر عليه الناس بحسب أعمالهم، فمنهم الناجي وهو من زادت حسناته على سيئاته، أو استويا أو تجاوز اللَّه عنه، ومنهم الساقط وهو من رجحت سيئاته على حسناته، إلا من تجاوز اللَّه عنه، فالساقط من الموحدين يعذب ما شاء اللَّه، ثم يخرج بالشفاعة وغيرها، والناجي قد يكون عليه تبعات وله حسنات توازيها أو تزيد عليها، فيؤخذ من حسناته ما يعدل تبعاته فيخلص منها. واختلف في القنطرة المذكورة، فقيل: هي من تتمة الصراط، وهي طرفه الذي يلي الجنة. وقيل، إنهما صراطان وبهذا الثاني جزم القرطبي»[(١)].

وقال القرطبي: «اعلم -رحمك اللَّه- أن في الآخرة صراطين: أحدهما مجاز لأهل المحشر كلهم ثقيلهم وخفيفهم، إلا من دخل الجنة بغير حساب، أو من يلتقطه عنق النار، فإذا خلص من خلص هذا الصراط الأكبر الذي ذكرناه، ولا يخلص منه إلا المؤمنون الذين علم اللَّه منهم أن القصاص لا يستنفذ حسناتهم، حبسوا على آخر خاص لهم، ولا يرجع إلى النار من هؤلاء أحد إن شاء الله؛ لأنهم قد عبروا ا الصراط الأول المضروب على متن جهنم، الذي يسقط فيها من أوبقه ذنبه، وأربى على الحسنات بالقصاص جرمه...

قلت: معنى «**يخلص المؤمنون من النار**» أي: يخلصون من الصراط المضروب على النار، ودل هذا الحديث على أن المؤمنين في الآخرة مختلفو الحال، قال مقاتل: إذا قطعوا جسر جهنم حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم

(١) فتح الباري (١١/ ٤٨٦).

من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا وطيبوا قال لهم رضوان وأصحابه: سلام عليكم -بمعنى التحية- طبتم فادخلوها خالدين.

وقد ذكر الدراقطني حديثا ذكر فيه: أن الجنة بعد الصراط. قلت: ولعله أراد بعد القنطرة بدليل حديث البخاري والله أعلم. أو يكون ذلك في حق من دخل النار وخرج بالشفاعة، فهؤلاء لا يحبسون بل إذا خرجوا بثوا على أنهار الجنة على ما يأتي بيانه...

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**أصحاب الجنة محبوسون على قنطرة بين الجنة والنار يسألون عن فضول أموال كانت بأيديهم**»[١] ولا تعارض بين هذا وبين حديث البخاري، فإن الحديثين مختلفا المعنى لاختلاف أحوال الناس»[٢].

* * *

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٦٣)، والبخاري (١١/ ٤٨١-٤٨٢/ ٦٥٣٥)، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.
(٢) التذكرة (٢/ ٥٤-٥٥).

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن قيل الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ الآيتين[1]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ﴾ الآيتين[2]، وقال تعالى مخبرًا عنهم في حال محشرهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾[3]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ الآيتين[4]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾[5]. قال تعالى رادًّا عليهم في قولهم هذا: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي: أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء، فذوقوا هذا بذلك.

قال مجاهد وغيره: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أي: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كقوله أخبر عنهم تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ﴾[6].

---

(١) المؤمنون: الآيتان (٩٩-١٠٠).
(٢) المنافقون: الآيتان (٩-١٠).
(٣) السجدة: الآية (١٢).
(٤) الأنعام: الآيتان (٢٧-٢٨).
(٥) فاطر: الآية (٣٧).
(٦) النحل: الآية (٣٨).

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾[١]. . وروى العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ يقول: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال. وكذا قال الحسن البصري، ووجهه ابن جرير بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله وكفرهم به، ما ضر ذلك شيئًا من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبال ذلك عليهم.

قلت: ويشبه هذا إذا قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[٢]. والقول الثاني في تفسيرها: ما رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ يقول شركهم، كقوله: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ الآيتين[٣]، وهكذا قال الضحاك وقتادة»[٤].

وقال أبو حيان: «هذا خطاب للرسول ﷺ. ويوم منصوب على أنه مفعول ثان لـ(أنذر)، ولا يصح أن يكون ظرفًا؛ لأنّ ذلك اليوم ليس بزمان للإنذار، وهذا اليوم هو يوم القيامة، والمعنى: وأنذر الناس الظالمين، ويبين ذلك قوله: فيقول الذين ظلموا؛ لأن المؤمنين يبشرون ولا ينذرون. وقيل: اليوم يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، أو يوم موتهم معذبين بشدة السكرات، ولقاء الملائكة بلا بشرى كقوله: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾[٥] ومعنى التأخر إلى أجل قريب الرد إلى الدنيا قاله الضحاك، إذ الإمهال إلى أمد وحد من الزمان قريب قاله السدي؛ أي: لتدارك ما فرطوا من إجابة الدعوة، واتباع الرسل. ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ﴾ هو على إضمار القول والظاهر أنّ التقدير فيقال لهم، والقائل الملائكة، أو القائل الله تعالى. يوبخون بذلك، ويذكرون مقالتهم في إنكار البعث، وإقسامهم على ذلك كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[٦].

ومعنى ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ من الأرض بعد الموت أي: لا نبعث من القبور.

---

(١) القمر: الآية (٥).
(٢) الإسراء: الآية (٣٧).
(٣) مريم: الآيتان (٩٠-٩١).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٤٤-١٤٥).
(٥) المنافقون: الآية (١٠).
(٦) النحل: الآية (٣٨).

وقال محمد بن كعب: إنّ هذا القول يكون منهم وهم في النار، ويرد عليهم: أو لم تكونوا، ومعناه التوبيخ والتقريع..

﴿وَسَكَنتُمْ﴾ إن كان من السكون، فالمعنى: أنهم قروا فيها واطمأنوا طيبي النفوس سائرين بسيرة من قبلهم في الظلم والفساد، لا يحدثونها بما لقي الظالمون قبلهم. وإن كان من السكنى، فإنّ السكنى من السكون الذي هو اللبث، والأصل تعديته بفي كما يقال: أقام في الدار وقر فيها، ولكنه لما أطلق على سكون خاص تصرف فيه، فقيل: سكن الدار كما قيل: تبوأها، ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ بالخبر وبالمشاهدة ما فعلنا بهم من الهلاك والانتقام»[(١)].

وقال الشوكاني: «﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ المراد بالذين ظلموا هاهنا: هم الناس؛ أي: فيقولون. والعدول إلى الإظهار مكان الإضمار للإشعار بأن الظلم هو العلة فيما نزل بهم، هذا إذا كان المراد بالناس: هم الكفار. وعلى تقدير كون المراد بهم: من يعمّ المسلمين، فالمعنى: فيقول الذين ظلموا منهم وهم الكفار ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا﴾ أمهلنا ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ إلى أمد من الزمان معلوم غير بعيد ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ أي: دعوتك لعبادك على ألسن أنبيائك إلى توحيدك ﴿وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ المرسلين منك إلينا فنعمل بما بلغوه إلينا من شرائعك، ونتدارك ما فرط منا من الإهمال، وإنما جمع الرسل؛ لأن دعوتهم إلى التوحيد متفقة؛ فاتباع واحد منهم اتباع لجميعهم، وهذا منهم سؤال للرجوع إلى الدنيا لما ظهر لهم الحق في الآخرة ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[(٢)]»[(٣)].

وقال أبو السعود: «﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: قررتم في مساكنهم مطمئنين سائرين سيرتَهم في الظلم والكفر والمعاصي غيرَ محدّثين لأنفسكم بما لقُوا بسبب ما اجترحوا من الموبقات، وفي إيقاع الظلم على أنفسهم بعد إطلاقِه فيما سلفه إيذانٌ بأن غائلةَ الظلم آئلةٌ إلى صاحبه، والمرادُ بهم إما جميعُ مَنْ تقدّم من الأمم المهلَكة عن تقدير اختصاصِ الاستمهال، والخطابُ السابقُ بالمنذرين، وإما أوائلُهم من قوم نوحٍ وهود على تقدير عمومِهما للكل، وهذا الخطابُ وما يتلوه

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٤٢٤-٤٢٥).

(٢) الأنعام: الآية (٢٨).

(٣) فتح القدير (٣/ ١٦٤).

باعتبار حالِ أواخرهم ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ بمشاهدة الآثار وتواترِ الأخبار ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ من الإهلاك والعقوبة بما فعلوا من الظلم والفساد، . . أي: فعلنا العجيبَ بهم. وفيه من المبالغة ما ليس في أن يقال: ما فعلنا بهم كما مر في قوله تعالى: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ﴾ . . ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: بينا لكم في القرآن العظيم على تقدير اختصاصِ الخطاب بالمنذَرين، أو على ألسنة الأنبياءِ عليهم السلام على تقدير عمومِهِ لجميع الظالمين صفاتِ ما فعلوا وما فُعل بهم من الأمور التي هي في الغرابة كالأمثال المضروبةِ لكل ظالم، لتعتبروا بها وتقيسوا أعمالَكم على أعمالهم، ومآلَكم على مآلهم، وتنتقلوا من حلول العذاب العاجلِ إلى حلول العذابِ الآجل، فترتدعوا عما كنتم فيه من الكفر والمعاصي، أو بيّنا لكم أنكم مثلُهم في الكفر واستحقاقِ العذاب، والجملُ الثلاثُ في موقع الحال من ضمير أقسمتم؛ أي: أقسمتم بالخلود، والحالُ أنكم سكنتم في مساكن المهلَكين بظلمهم، وتبين لكم فعلُنا العجيبُ بهم ونبهناكم على جلية الحال بضرب الأمثالِ»[1].

قال ابن القيم: «وقد مثلت الدنيا بمنام والعيش فيها بالحلم والموت باليقظة، ومثلت بمزرعة والعمل فيها بالبذر والحصاد يوم المعاد، ومثلت بدار لها بابان، باب يدخل منه الناس، وباب يخرجون منه، ومثلت بحية ناعمة الملمس حسنة اللون وضربتها الموت، ومثلت بطعام مسموم لذيذ الطعم طيب الرائحة، من تناول منه بقدر حاجته كان فيه شفاؤه، ومن زاد على حاجته، كان فيه حتفه، ومثلت بالطعام في المعدة إذا أخذت الأعضاء منه حاجتها، فحبسه قاتل أو مؤذ، ولا راحة لصاحبه إلا في خروجه، . . ومثلت بامرأة من أقبح النساء قد انتقبت على عينين فتنت بهما الناس، وهي تدعو الناس إلى منزلها، فإذا أجابوها كشفت لهم عن منظرها وذبحتهم بسكاكينها، وألقتهم في الحفر، وقد سلطت على عشاقها تفعل بهم ذلك قديمًا وحديثًا.

والعجب أن عشاقها يرون إخوانهم صرعى قد حلت بهم الآفات وهم يتنافسون في مصارعهم، ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ

---

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ٥٧-٥٨).

﴿فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ ويكفي في تمثيلها ما مثلها اللَّه سبحانه في كتابه فهو المثل المنطبق عليها. قالوا: وإذا كان هذا شأنها فالتقلل منها والزهد فيها خير من الاستكثار منها والرغبة فيها. قالوا: ومن المعلوم أنه لا تجتمع الرغبة فيها مع الرغبة في اللَّه والدار الآخرة أبدا، ولا تسكن هاتان الرغبتان في مكان واحد إلا وطردت إحداهما الأخرى، واستبدت بالمسكن، ولا تجتمع بنت رسول اللَّه وبنت عدو اللَّه عند رجل واحد أبدا»[١].

وقال السعدي: «﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ ويدخل في هذا كل من مكر من المخالفين للرسل؛ لينصر باطلًا أو يبطل حقًّا، والقصد أن مكرهم لم يغن عنهم شيئًا، ولم يضروا اللَّه شيئًا، وإنما ضروا أنفسهم»[٢].

وقال ابن القيم: «قيل جزاء مكرهم عنده، فمكر بهم كما مكروا برسله، ومكره تعالى بهم إنما كان بسبب مكرهم، فهو مكرهم عاد عليهم، وكيدهم عاد عليهم، فهكذا طيرتهم عادت عليهم، وحلت بهم وسمى جزاء المكر مكرًا، وجزاء الكيد كيدًا، تنبيها على أن الجزاء من جنس العمل»[٣].

وانظر ما سبق في سورة الأعراف الآية (٩٩) عن صفة المكر. وكذا في البقرة الآية (١٥) عن صفة الاستهزاء.

* * *

(١) عدة الصابرين (ص: ٣٨١-٣٨٢).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٥٠).
(٣) مفتاح دار السعادة (٣/ ٢٧٧).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ﴾ الذي وعدهم من كذّبهم، وجحد ما أتَوْهم به من عنده، وإنما قاله -تعالى ذكره- لنبيه تثبيتا وتشديدا لعزيمته، ومعرّفه أنه منزل من سخطه بمن كذّبه وجحد نبوّته، وردّ عليه ما أتاه به من عند اللَّه، مثال ما أنزل بمن سلكوا سبيلهم من الأمم الذين كانوا قبلهم على مثل منهاجهم من تكذيب رسلهم، وجحود نبوّتهم، وردّ ما جاءوهم به من عند اللَّه عليهم.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ يعني بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يمانع منه شيء أراد عقوبته، قادر على كلّ من طلبه، لا يفوتُه بالهَرَب منه. ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ممن كفر برسله وكذّبهم، وجحد نبوتهم، وأشرك به واتخذ معه إلها غيره»[1].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى مقررًا لوعده ومؤكدًا: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ أي: من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أراده، ولا يغالب، وذو انتقام ممن كفر به وجحده ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[2]؛ ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ أي: وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء في الصحيحين، من حديث أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء**

(١) جامع البيان (١٣/ ٢٤٨).

(٢) الطور: الآية (١١).

عفراء، كقرصة النقي، ليس فيها معلم لأحد»[1]»[2].

وقال القاسمي: «﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ وذلك أنه تسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتُسَوَّى، فلا يرى فيها عوج ولا أمت. وتبدل السموات بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبوابا، و﴿يَوْمَ﴾ بدل من (يوم يأتيهم) أو ظرف للانتقام أم مقدر بـ(اذكر) أو (لا يخلف وعده). ﴿وَبَرَزُوا۟﴾ أي: الخلائق أو الظالمون من أجداثهم ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي: لحسابه وجزائه»[3].

وقال القرطبي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي: من أعدائه. ومن أسمائه المنتقم»[4].

وقال أبو السعود: «واعلم أن التبديلَ قد يكون في الذات كما في: بدلتُ الدراهمَ دنانيرَ، وعليه قوله ﷻ: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾[5] وقد يكون في الصفات كما في قولك: بدلتُ الحلْقةَ خاتمًا إذا غيرتَ شكلها، ومنه قوله تعالى: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾[6] على بعض الأقوال، والآية الكريمة ليست بنص في أحد الوجهين. فعن علي رضي الله عنه: «تبدل أرضًا من فضة وسمواتٍ من ذهب»، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «تبدل الأرض بأرض كالفضة بيضاءَ نقيةٍ لم يُسفك فيها دمٌ ولم يعمَلْ عليها خطيئة» وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «هي تلك الأرضُ وإنما تُغيّر صفاتُها» وأنشد:

وما الناسُ بالناس الذين عهِدتهم   وما الدارُ بالدار التي كنت تعلمُ

وتبدّلُ السموات بانتثار كواكبها وكسوفِ شمسِها وخسوفِ قمرِها وانشقاقها وكونها أبوابًا، ويدل عليه ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه -عليه الصلاة والسلام- قال: «تبدل الأرضُ غيرَ الأرض فتبسطُ وتمد مدَّ الأديمِ العُكَاظِيِّ لا ترى فيها عِوجًا ولا أمْتًا»[7] ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ أي: وتبدل السمواتُ غيرَ السموات حسبما مر من

---

(١) سيأتي تخريجه.
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٤٥).
(٣) محاسن التأويل (١٠/ ٣٩-٤٠).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٣٨٢).
(٥) النساء: الآية (٥٦).
(٦) الفرقان: الآية (٧٠).
(٧) جزء من حديث طويل أخرجه إسحاق بن راهويه (١/ ٨٤-٩٥/ ١٠)، وابن جرير (١٣/ ٢٥٢)، كلاهما من طريق إسماعيل بن رافع المدني عن يزيد عن رجل من الأنصار عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال الشيخ الألباني: «وإسناده ضعيف لأنه من طريق إسماعيل بن رافع المدني عن يزيد بن أبي زياد، وكلاهما ضعيف بسندهما عن رجل من الأنصار وهو مجهول لم يسم». شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (ص: ٢٥٦).

التفصيل، وتقديمُ تبديلِ الأرض لقربها منا، ولكون تبديلها أعظمَ أثرًا بالنسبة إلينا.

﴿وَبَرَزُوا﴾ أي: الخلائق أو الظالمون المدلولُ عليهم بمعونة السباق، والمرادُ بروزُهم من أجداثهم التي في بطون الأرضِ أو ظهورُهم بأعمالهم التي كانوا يعملونها سرًّا ويزعُمون أنها لا تظهر، أو يعملون عمل من يزعمُ ذلك، ولعل إسنادَ البروز إليهم مع أنه لأعمالهم للإيذان بتشكّلهم بأشكال تناسبها، وهو معطوفٌ على تبدل، والعدولُ إلى صيغة الماضي للدِلالة على تحقق وقوعِه، أو حالٌ من الأرض بتقدير قد، والرابطُ بينها وبين صاحبِها الواو ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ للحساب والجزاء، والتعرُّضُ للوصفين لتهويل الخطبِ وتربيةِ المهابة وإظهار بطلانِ الشركِ، وتحقيقُ الانتقامِ في ذلك اليوم على تقدير كونِه ظرفًا له، وتحقيقُ إتيان العذاب الموعودِ على تقدير كونِه بدلًا من يوم يأتيهم العذاب، فإن الأمرَ إذا كان لواحد غلاّبٍ لا يعار، وقادر لا يُضارّ ولا يغار كان في غاية ما يكون من الشدة والصعوبة»[1].

وقال ابن جرير: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: يوم تبدل الأرض التي نحن عليها اليوم يوم القيامة غيرَها، وكذلك السماوات اليوم تبدل غيرها، كما قال-جل ثناؤه-؛ وجائز أن تكون المبدلة أرضًا أخرى من فضة، وجائز أن تكون نارًا، وجائز أن تكون خبزًا، وجائز أن تكون غير ذلك، ولا خبر في ذلك عندنا من الوجه الذي يجب التسليم له أيّ ذلك يكون، فلا قول في ذلك يصح إلا ما دل عليه ظاهر التنزيل»[2].

وقال شيخ الإسلام: «فإن السموات وإن طويت وكانت كالمهل، واستحالت عن صورتها؛ فإن ذلك لا يوجب عدمها وفسادها، بل أصلها باق بتحويلها من حال إلى حال، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ وإذا بدلت فإنه لا يزال سماء دائمة وأرض دائمة»[3].

وقال أبو حيان: «وجيء بهذين الوصفين وهما: الواحد، وهو الواحد الذي لا يشركه أحد في ألوهيته، ونبه به على أنّ آلهتهم في ذلك اليوم لا تنفع. والقهار

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ٦٠).
(٢) جامع البيان (١٣/ ٢٥٤).
(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ١١٠).

وهو الغالب لكل شيء، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[(١)][(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عظم قدرة اللَّه في فعله ما يشاء كتبديل الأرض وغيرها

* عن ثوبان مولى رسول اللَّه ﷺ قال: كنت قائمًا عند رسول اللَّه ﷺ فجاء حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يصرع منها فقال: لم تدفعني؟ فقلت ألا تقول: يا رسول اللَّه فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله، فقال رسول اللَّه ﷺ: **«إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي»** فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال له رسول اللَّه ﷺ: **«أينفعك شيء إن حدثتك»** قال: أسمع بأذني، فنكت رسول اللَّه ﷺ بعود معه فقال: **«سل»** فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: **«هم في الظلمة دون الجسر»**[(٣)].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سألت رسول اللَّه ﷺ عن قوله ﷻ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله؟ فقال: **على الصراط»**[(٤)].

* عن سهل بن سعد رضي الله عنه: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: **«يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة النقي ليس فيها معلم لأحد»**[(٥)].

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة، يتكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر، نزلًا لأهل الجنة.** فأتى رجل من اليهود فقال: بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة؟ قال: بلى. قال: تكون الأرض خبزة واحدة

---

(١) غافر: الآية (١٦). (٢) البحر المحيط (٥/ ٤٢٨).

(٣) أخرجه مسلم (١/ ٢٥٢/ ٣١٥)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٣٧/ ٩٠٧٣).

(٤) أخرجه أحمد (٦/ ٣٥)، ومسلم (٤/ ٢١٥٠/ ٣٧٩١)، والترمذي (٥/ ٢٧٦/ ٣١٢١)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٠/ ٤٢٧٩).

(٥) أخرجه البخاري (١١/ ٤٥٢-٤٥٣/ ٦٥٢١)، ومسلم (٤/ ٢١٥٠/ ٢٧٩٠).

كما قال النبي ﷺ. فنظر النبي ﷺ إلينا، ثم ضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: ألا أخبرك بإدامهم؟ قال: **إدامهم بالام ونون**. قالوا: وما هذا؟ قال: **ثور ونون، يأكل من زائدة كبدها سبعون ألفًا**»[١].

★ غريب الحديث:

عفراء: قال الخطابي: «بياض ليس بالناصع، وقال عياض: العفر: بياض يضرب إلى حمرة قليلًا، ومنه سمي عفر الأرض وهو وجهها. وقال ابن فارس: معنى عفراء: خالصة البياض. وقال الداودي: شديدة البياض. كذا قال، والأول هو المعتمد»[٢].

كقرصة النقي: بفتح النون وكسر القاف؛ أي: الدقيق النقي من الغش والنخالة.

بالام: بفتح الموحدة بغير همز: لفظة عبرانية معناها ثور.

نون: أي: حوت.

معلم: قال الخطابي: «يريد أن تلك الأرض مستوية ليس فيها حَدَب يرد البصر ولا بناء يستر ما وراءه، والمَعْلَم: واحد معالم الأرض؛ أي: أعلامها التي يُهتدى بها في الطرق»[٣].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ ابن حجر: «وفيه إشارة إلى أن أرض الدنيا اضمحلت وأعدمت، وأن أرض الموقف تجددت، وقد وقع للسلف في ذلك خلاف في المراد بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ هل معنى تبديلها تغيير ذاتها وصفاتها أو تغيير صفاتها فقط؟»[٤].

قال القرطبي: «واختلف في كيفية تبديل الأرض؟ فقال كثير من الناس: إن تبدل الأرض عبارة عن تغير صفاتها، وتسوية آكامها، ونسف جبالها، ومدّ أرضها»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (١١/ ٤٥٢/ ٦٥٢٠)، ومسلم (٤/ ٢١٥١/ ٢٧٩٢).

(٢) فتح الباري (١١/ ٤٥٦). (٣) أعلام الحديث (٣/ ٢٢٦٨).

(٤) فتح الباري (١١/ ٤٥٧).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٣٨٢-٣٨٣).

وقال ابن كثير: «فإذا قام الناس من قبورهم وجدوا الأرض غير صفة الأرض التي فارقوها، قد دكت جبالها، وزالت تلالها، وتغيرت أحوالها، وانقطعت أنهارها، وبادت أشجارها، وسجرت بحارها، وتساوت مهادها ورباها، وخربت مداينها وقراها، وقد زلزلت زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها، وقال الإنسان مالها، وكذلك السماوات قد بدلت نجومها، قد انكدرت وانتثرت، ونواحيها قد تشققت، وأرجاؤها قد تفطرت، والملائكة على أرجائها قد أحدقت، وشمسها وقمرها مكسوفان بل مخسوفان، في مكان واحد مجموعان، ثم يكوران بعد ذلك ثم يلقيان. قال أبو بكر بن عياش قال ابن عباس: يخرجون فينظرون إلى الأرض غير الأرض التي عهدوا وإلى الناس غير الناس الذين عهدوا قال ثم تمثل ابن عياش:

وما الناسُ بالناس الذين عهِدتهم ولا الدار بالدار التي كنت تعرف»[1].

وقال القرطبي: «الصحيح إزالة هذه الأرض حسب ما ثبت عن النبي ﷺ.. - فذكر أحاديث - ثم قال: فهذه الأحاديث تنص على أن السموات والأرض تبدل وتزال، ويخلق الله أرضا أخرى يكون الناس عليها بعد كونهم على الجسر»[2].

قال الحافظ: «واختلف في السماوات أيضًا؛ فتقدم قول من قال: إنها تصير جفانًا. وقيل: إنها إذا طويت تكور شمسها وقمرها وسائر نجومها؛ وتصير تارة كالمهل وتارة كالدهان. وأخرج البيهقي في «البعث» من طريق السدي عن مرة عن ابن مسعود قال: السماء تكون ألوانًا كالمهل والدهان وواهية، وتشقق فتكون حالًا بعد حال. وجمع بعضهم: بأنها تنشق أولًا فتصير كالوردة وكالدهان وواهية وكالمهل، وتكور الشمس والقمر وسائر النجوم ثم تطوى السماوات وتضاف إلى الجنات، ونقل القرطبي في «التذكرة» عن أبي الحسن ابن حيدرة صاحب «الإفصاح»: أنه جمع بين هذه الأخبار بأن تبديل السماوات والأرض يقع مرتين؛ إحداهما: تبدل صفاتهما فقط، وذلك عند النفخة الأولى فتنتثر الكواكب، وتخسف الشمس والقمر، وتصير السماء كالمهل، وتكشط عن الرؤوس، وتسير الجبال، وتموج الأرض، وتنشق إلى أن تصير الهيئة غير الهيئة، ثم بين النفختين تطوى

(١) النهاية في الفتن والملاحم (٢/ ١٠).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٣٨٣).

السماء والأرض، وتبدل السماء والأرض، إلى آخر كلامه في ذلك، والعلم عند الله تعالى»[١].

ولخص الحافظ كلام ابن أبي جمرة بقوله: «فيه دليل على عظم القدرة، والإعلام بجزئيات يوم القيامة؛ ليكون السامع على بصيرة، فيخلص نفسه من ذلك الهول؛ لأن في معرفة جزئيات الشيء قبل وقوعه رياضة النفس، وحملها على ما فيه خلاصها، بخلاف مجيء الأمر بغتة. وفيه إشارة إلى أن أرض الموقف أكبر من هذه الأرض الموجودة جدًّا، والحكمة في الصفة المذكورة أن ذلك اليوم يوم عدل وظهور حق، فاقتضت الحكمة أن يكون المحل الذي يقع فيه ذلك طاهرًا عن عمل المعصية والظلم، وليكون تجليه سبحانه على عباده المؤمنين على أرض تليق بعظمته، ولأن الحكم فيه إنما يكون لله وحده فناسب أن يكون المحل خالصًا له وحده»[٢].

* * *

(١) فتح الباري (١١/ ٤٥٨-٤٥٩).

(٢) فتح الباري (١١/ ٤٥٧).

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾[1] وتبرز الخلائق لديَّانها، ترى يا محمد يومئذ المجرمين، وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم، ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي: بعضهم إلى بعض، قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم، كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى:

﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾[2]، وقال: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾[3]، وقال: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾[4]، وقال: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾[5]. والأصفاد: هي القيود.. وقوله: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ أي: ثيابهم التي يلبسونها من قطران، وهو الذي تُهنأ به الإبل؛ أي: تطلى. قال قتادة: وهو ألصق شيء بالنار.. وقوله: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ كقوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾[6]»[7].

وقال أبو حيان: «﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ تبدل، وبرزوا مقرنين مشدودين في القرن أي: مقرون بعضهم مع بعض في القيود والأغلال، أو مع شياطينهم، كل كافر مع شيطانه في غل أو تقرن أيديهم إلى أرجلهم مغللين. والظاهر تعلق في الأصفاد بقوله: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي: يقرنون في الأصفاد. ويجوز أن يكون في موضع الصفة لمقرنين، وفي موضع الحال، فيتعلق بمحذوف كأنه قيل:

---

(١) إبراهيم: الآية (٤٨).

(٢) الصافات: الآية (٢٢).

(٣) التكوير: الآية (٧).

(٤) الفرقان: الآية (١٣).

(٥) ص: الآيتان (٣٧-٣٨).

(٦) المؤمنون: الآية (١٠٤).

(٧) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٤٩).

مستقرين في الأصفاد»[١].

وقال الرازي: «في قوله: ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: قال الكلبي: مقرنين كل كافر مع شيطان في غل، وقال عطاء: هو معنى قوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ أي: قرنت فيقرن اللَّه تعالى نفوس المؤمنين بالحور العين، ونفوس الكافرين بقرنائهم من الشياطين، وأقول حظ البحث العقلي منه أن الإنسان إذا فارق الدنيا، فإما أن يكون قد راض نفسه وهذبها ودعاها إلى معرفة اللَّه تعالى وطاعته ومحبته، أو ما فعل ذلك، بل تركها متوغلة في اللذات الجسدانية مقبلة على الأحوال الوهمية والخيالية، فإن كان الأول فتلك النفس تفارق مع تلك البهجة بالحضرة الإلهية، والسعادة بالعناية الصمدانية، وإن كان الثاني فتلك النفس تفارق مع الأسف والحزن والبلاء الشديد، بسبب الميل إلى عالم الجسم، وهذا هو المراد بقوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ وشيطان النفس الكافرة هي الملكات الباطلة، والحوادث الفاسدة، وهو المراد من قول عطاء: إن كل كافر مع شيطانه يكون مقرونًا في الأصفاد.

والقول الثاني: في تفسير قوله: ﴿مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ هو قرن بعض الكفار ببعض، والمراد أن تلك النفوس الشقية والأرواح المكدرة الظلمانية، لكونها متجانسة متشاكلة ينضم بعضها إلى بعض، وتنادي ظلمة كل واحدة منها إلى الأخرى، فانحدار كل واحدة منها إلى الأخرى في تلك الظلمات، والخسارات هي المراد بقوله: ﴿مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾.

والقول الثالث: قال زيد بن أرقم: قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأغلال، وحظ العقل من ذلك أن الملكات الحاصلة في جوهر النفس إنما تحصل بتكرير الأفعال الصادرة من الجوارح والأعضاء، فإذا كانت تلك الملكات ظلمانية كدرة، صارت في المثال كأن أيديها وأرجلها قرنت وغلت في رقابها. وأما قوله: ﴿فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ ففيه وجهان: أحدها: أن يكون ذلك متعلقًا بمقرنين، والمعنى: يقربون بالأصفاد. والثاني: أن لا يكون متعلقًا به، والمعنى: أنهم مقرنون مقيدون، وحظ العقل معلوم مما سلفت الإشارة إليه»[٢].

---

(١) البحر المحيط (٥/٤٢٨). (٢) التفسير الكبير (١٩/١٥٦).

وقال أبو السعود: ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ قُرن بعضهم مع بعض حسب اقترانهم في الجرائم والجرائر، أو قُرنوا مع الشياطين الذين أغوَوْهم أو قرنوا مع ما اقترفوا من العقائد الزائغة والملَكات الردِيّة والأعمال السيئة غِبَّ تصور كلَ منها وتشكلهما بما يناسبهما من الصور الموحشة والأشكال الهائلة، أو قرنت أيديهم وأرجلُهم إلى رقابهم وهو حال من المجرمين في الأصفاد في القيود أو الأغلال، وهو إما متعلقٌ بقوله تعالى: ﴿مُقَرَّنِينَ﴾أو حال من ضميره أي: مصفّدين. ﴿سَرَابِيلُهُم﴾أي: قُمصانهم مّن قَطِرَانٍ.. والقطران ما ينحلب من الأبهل فيطبخ فتُهنأُ به الإبلُ الجربى، فيحرق الجربَ بما فيه من الحِدّة الشديدة، وقد تصل حرارتُه إلى الجوف، وهو أسودُ منتِنٌ يسرع فيه اشتعالُ النار، يطلى به جلودُ أهل النار حتى يعودَ طلاؤُه لهم كالسراويل، ليجتمع عليهم الألوانُ الأربعة من العذاب، لذعُه وحرقتُه وإسراعُ النار في جلودهم واللونُ الموحش والنتَنُ على أن التفاوت بينه وبين ما نشاهده وبين النارين لا يكاد يقادَر قدرُه، فكأن ما نشاهده منهما أسماءُ مسمَّياتِها في الآخرة، فبِكَرمه العميم نعوذ، وبكنفه[1] الواسع نلوذ، ويحتمل أن يكون ذلك تمثيلًا لما يحيط بجوهر النفس من الملكات الرديةِ والهَنات الوحشية، فتجلُب إليها الآلام والغموم، بل وأن يكون القطِرانُ المذكور عينَ ما لابسوه في هذه النشأة، وجعلوا شعارًا لهم من العقائد الباطلة، والأعمال السيئة، المستجلبة لفنون العذاب قد تجسّدت في النشأة الآخرة بتلك الصورة المستتبعةِ لاشتداد العذاب، عصَمنا اللَّه سبحانه عن ذلك بمنه ولُطفه، وقرئ قطر آنٍ أي: نحاس مُذابٍ مُتناهٍ حرُّه.

أي: تعلوها وتحيط بها النارُ التي تمس جسدَهم المسَرْبلَ بالقطِران، وتخصيصُ الوجوه بالحكم المذكورِ مع عمومه لسائر أعضائِهم لكونها أعزَّ الأعضاء الظاهرةِ وأشرفَها، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾[2] الخ، ولكونها مجمعَ

---

(١) صفة الكنف ثابتة لله ﷻ بالحديث الصحيح، فعن ابن عمر ﵄ أن رجلا سأله كيف سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول في النجوى؟ قال: يدنوا أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول: أعملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم، ويقول: عملت كذا وكذا، فيقول: نعم، فيقرره ثم يقول: إني سترت عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم». أخرجه البخاري (١٣/ ٥٨٠/ ٧٥١٤)، ومسلم (٤/ ٢١٢٠/ ٢٧٦٨)، وانظر شرح كتاب التوحيد للغنيمان (٢/ ٣١٦-٣١٧).

(٢) الزمر: الآية (٢٤).

المشاعرِ والحواسّ التي خُلقت لإدراك الحق، وقد أعرضوا عنه ولم يستعملوها في تدبره، كما أن الفؤادَ أشرفُ الأعضاء الباطنةِ ومحلُّ المعرفة وقد ملؤوها بالجهالات، ولذلك قيل: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾[١] أو لخلوّها عن القطِران المغني عن ذكر غشيانِ النار لها، ولعل تخليتَها عنه ليتعارفوا عند انكشافِ اللهب أحيانًا ويتضاعف عذابُهم بالخزي على رؤوس الأشهاد»[٢].

وقال الرازي: «واعلم أن موضع المعرفة والنكرة والعلم والجهل هو القلب، وموضع الفكر والوهم والخيال هو الرأس. وأثر هذه الأحوال إنما تظهر في الوجه. فلهذا السبب خص اللّٰه تعالى هذين العضوين بظهور آثار العقاب فيهما فقال في القلب: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾[٣] وقال في الوجه: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ بمعنى تتغشى»[٤].

وقال السعدي: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ﴾ التي هي أشرف ما في أبدانهم: ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي: تحيط بها وتصلاها من كل جانب، وغير الوجوه من باب أولى وأحرى، وليس هذا ظلما من اللّٰه لهم، وإنما هو جزاء لما قدموا وكسبوا»[٥].

وقوله: ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ يقول ابن جرير: «يقول: فعل اللّٰه ذلك بهم جزاء لهم بما كسبوا من الآثام في الدنيا، كيما يثيب كلّ نفس بما كسبت من خير وشرّ، فيَجْزِي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ يقول: إن اللّٰه عالم بعمل كلّ عامل، فلا يحتاج في إحصاء أعمالهم إلى عقد كفّ ولا معاناة، وهو سريع حسابه لأعمالهم، قد أحاط بها علما، لا يعزب عنه منها شيء، وهو مجازيهم على جميع ذلك صغيره وكبيره»[٦].

وقال ابن عطية: «وقوله: ﴿لِيَجْزِىَ﴾ أي: لكي يجزي، واللام متعلقة بفعل مضمر، تقديره: فعل هذا، وأنفذ هذا العقاب على المجرمين ليكون في ذلك جزاء المسيء على إساءته. وجاء من لفظة الكسب بما يعم المسيء والمحسن، لينبه على أن المحسن أيضًا يجازى بإحسانه خيرًا.

---

(١) الهمزة: الآية (٧).
(٢) تفسير أبي السعود (٥/ ٦١).
(٣) الهمزة: الآيتان (٦-٧).
(٤) التفسير الكبير (١٩/ ١٥٧).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٥٢).
(٦) جامع البيان (١٣/ ٢٥٧-٢٥٨).

وقوله: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: فاصله بين خلقه بالإحاطة التي له بدقيق أمرهم وجليلها. لا إله غيره، وقيل لعلي بن أبي طالب: كيف يحاسب اللَّه العباد في وقت واحد مع كثرتهم؟ قال: كما يرزقهم في وقت واحد»[١].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾[٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾[٣] ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع النَّجاز؛ لأنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[٤]، وهذا معنى قول مجاهد: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إحصاء. ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين، واللَّه أعلم»[٥].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفات أهل النار اعاذنا اللَّه منها

* عن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»**[٦].

★ **غريب الحديث:**

النائحة: من ناحت المرأة على الميت: إذا بكت عليه بجزع وعويل.

سربال: السربال: القميص، ويجمع على سرابيل.

قطران: عصارة شجر الأرز والأبهل، تطبخ ثم تطلى بها الإبل.

جرب: داء جلدي معروف.

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٣٤٨).

(٢) النجم: الآية (٣١).

(٣) الأنبياء: الآية (١).

(٤) لقمان: الآية (٢٨).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٤٩-١٥٠).

(٦) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٤)، ومسلم (٢/ ٦٤٤/ ٩٣٤)، وابن ماجه (١/ ٥٠٣-٥٠٤/ ١٥٨١).

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «يعني: يسلط على أعضائها الجرب والحكة، فتطلى مواقعه بالقطران ليداوى، فيكون الدواء أدوى من الداء؛ لاشتماله على درع القطران، وحرقته، وإسراع النار في الجلود، واللون الوحش، ونتن الريح قال التوربشتي: خصت بدرع الجرب لأنها كانت تخرج بكلماتها المرقة قلوب ذوات المصيبات وتحرك بها بواطنهن، فعوقبت في ذلك المعنى بما يماثله في الصورة، وخصت أيضًا بسرابيل من قطران؛ لأنها كانت تلبس الثياب السود في المآتم، فألبسها اللَّه السرابيل لتذوق وبال أمرها»(١).

قال القرطبي: «ولبس أهل النار لسرابيل من القطران أبلغ لاستعمال النار فيهم»(٢).

* * *

(١) شرح الطيبي (٤/ ١٤١٩).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٥٢).

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: هذا القرآن بلاغ للناس، أبلغ اللَّه به إليهم في الحجة عليهم، وأعذر إليهم بما أنزل فيه من مواعظه وعبره ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ قوله ولينذروا عقاب اللَّه، ويحذروا به نقماته، أنزله إلى نبيه ﷺ ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ يقول: وليعلموا بما احتجّ به عليهم من الحجج فيه أنما هو إله واحد، لا آلهة شتى، كما يقول المشركون باللَّه، وأن لا إله إلا هو الذي له ما في السماوات وما في الأرض، الذي سخر لهم الشمس والقمر والليل والنهار وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لهم، وسخر لهم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لهم الأنهار ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يقول: وليتذكر فيتعظ بما احتجّ اللَّه به عليه من حججه التي في هذا القرآن، فينزجر عن أن يجعل معه إلها غيره، ويُشْرِكَ في عبادته شيئًا سواه أهلُ الحجى والعقول، فإنهم أهل الاعتبار والادّكار دون الذين لا عقول لهم ولا أفهام، فإنهم كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا»[١].

وقال ابن كثير: «هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[٢]؛ أي: هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن، كما قال في أول السورة: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الآية. ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: ليتعظوا به، ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: ذوو العقول»[٣].

وقال ابن عاشور: «وقد رتبت صفات الآيات المشار إليها باسم الإشارة على

---

(١) جامع البيان (١٣/ ٢٥٨).

(٢) الأنعام: الآية (١٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٥٠).

ترتيب عقلي بحسب حصول بعضها عقب بعض، فابتدئ بالصفة العامة وهي حصول التبليغ. ثم ما يعقب حصول التبليغ من الإنذار ثم ما ينشأ عنه من العلم بالوحدانية لما في خلال هذه السورة من الدلائل. ثم بالتذكير في ما جاء به ذلك البلاغ وهو تفاصيل العلم والعمل. وهذه المراتب هي جامع حكمة مما جاء به الرسول ﷺ موزعة على من بَلّغ إليهم. ويختص المسلمون بمضمون قوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾»[1].

وقال أبو حيان: «وناسب مختتم هذه السورة مفتتحها، وكثيرًا ما جاء في سور القرآن، حتى إنّ بعضهم زعم أن قوله: ولينذروا به معطوف على قوله: لتخرج الناس»[2].

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ الآية. بين في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن بلاغ لجميع الناس وأوضح هذا المعنى في قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾[3] ويبين أن من بلغه ولم يؤمن به فهو في النار كائنًا من كان في قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُۚ﴾[4] الآية. قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. بين في هذه الآية الكريمة أن من حكم إنزال القرآن العظيم العلم بأنه تعالى إله واحد، وأن من حكمه أن يتعظ أصحاب العقول. وبين هذا في مواضع أخر فذكر الحكمة الأولى في أول سورة هود في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾[5] الآية، كما تقدم إيضاحه، وذكر الحكمة الثانية في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[6] وهم أصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال»[7].

وقال السعدي: «فلما بين البيان المبين في هذا القرآن قال في مدحه: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: يتبلغون به ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات، لما اشتمل عليه من الأصول والفروع، وجميع العلوم التي يحتاجها

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٥٥).
(٢) البحر المحيط (٥/ ٤٢٩).
(٣) الأنعام: الآية (١٩).
(٤) هود: الآية (١٧).
(٥) هود: الآيتان (١-٢).
(٦) ص: الآية (٢٩).
(٧) أضواء البيان (٣/ ١١٥).

العباد. ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ لما فيه من الترهيب من أعمال الشر، وما أعد اللَّه لأهلها من العقاب، ﴿وَلِيَعۡلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ حيث صرف فيه من الأدلة والبراهين على ألوهيته ووحدانيته، ما صار ذلك حق اليقين، ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: العقول الكاملة ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وبذلك صاروا أولي الألباب والبصائر.

إذ بالقرآن ازدادت معارفهم وآراؤهم، وتنورت أفكارهم لما أخذوه غضًّا طريًّا، فإنه لا يدعو إلا إلى أعلى الأخلاق والأعمال وأفضلها، ولا يستدل على ذلك إلا بأقوى الأدلة وأبينها.

وهذه القاعدة إذا تدرب بها العبد الذكي لم يزل في صعود ورقي على الدوام في كل خصلة حميدة.

والحمد لله رب العالمين»[1].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٥٣-١٥٤).



سورة الحجر

★ **أغراض السورة:**

قال ابن عاشور: «افتتحت بالحروف المقطعة التي فيها تعريض بالتحدي بإعجاز القرآن، وعلى التنويه بفضل القرآن وهديه، وإنذار المشركين بندم يندمونه على عدم إسلامهم، وتوبيخهم بأنهم شغلهم عن الهدى انغماسهم في شهواتهم، وإنذارهم بالهلاك عند حلول إبّان الوعيد الذي عيّنه اللَّه في علمه. وتسلية الرسول ﷺ على عدم إيمان من لم يؤمنوا، وما يقولونه في شأنه، وما يتورَّكون بطلبه منه، وأن تلك عادة المكذبين مع رسلهم، وأنهم لا تجدي فيهم الآيات والنذر لو أسعفوا بمجيء آيات حسب اقتراحهم به. وأن اللَّه حافظ كتابه من كيدهم. ثم إقامة الحجة عليهم بعظيم صنع اللَّه وما فيه من نعم عليهم. وذكر البعث ودلائل إمكانه. وانتقل إلى خلق نوع الإنسان وما شرف اللَّه به هذا النوع. وقصة كفر الشيطان. ثم ذكر قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام، وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر. وختمت بتثبيت الرسول ﷺ وانتظار ساعة النصر، وأن يصفح عن الذين يؤذونه، ويكِل أمرهم إلى اللَّه، ويشتغل بالمؤمنين، وأن اللَّه كافيه أعداءه، مع ما تخلل ذلك من الاعتراض والإدماج من ذكر خلق الجن واستراقهم السمع، ووصف أحوال المتقين، والترغيب في المغفرة، والترهيب من العذاب»[1].

* * *

(١) التحرير والتنوير (١٤/ ٧).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «أما قوله -جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه-: ﴿الٓرۚ﴾، فقد تقدم بيانها فيما مضى قبل. وأما قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فإنه يعني: هذه الآيات، آيات الكتب التي كانت قبل القرآن كالتوراة والإنجيل، ﴿وَقُرْءَانٍ﴾ يقول: وآيات قرآن ﴿مُّبِينٍ﴾ يقول: يُبين من تأمله وتدبَّره رُشدَه وهداه»[1].

* * *

---

(١) جامع البيان (١٤/١).

قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾

★غريب الآية

ربما: ربّ: حرف تقليل. وما: نكرة موصوفة بمعنى شيء. والتقدير: رُبّ شيء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «في تفسير الآية وجوه على مذهب المفسرين؛ فإن كل أحد حمل قوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على محمل آخر، والأصح ما قاله الزجاج؛ فإنه قال: الكافر كلما رأى حالًا من أحوال العذاب، ورأى حالًا من أحوال المسلم؛ ودّ لو كان مسلمًا، وهذا الوجه هو الأصح. وأما المتقدمون فقد ذكروا وجوهًا؛ قال الضحاك: المراد منه ما يكون عند الموت؛ فإن الكافر إذا شاهد علامات العقاب ودّ لو كان مسلمًا. وقيل: إن هذه الحالة تحصل إذا اسودّت وجوههم. وقيل: بل عند دخولهم النار ونزول العذاب، فإنهم يقولون: ﴿أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾[1]. . وعلى هذا القول أكثر المفسرين»[2].

قال الشنقيطي: «ذكر في هذه الآية الكريمة أن الكفار إذا عرفوا حقيقة الأمر؛ تمنوا أنهم كانوا في دار الدنيا مسلمين، وندموا على كفرهم، وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3] وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾[4]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾[5] إلى غير ذلك من الآيات، وأقوال العلماء في هذه الآية راجعة إلى شيء واحد؛ لأن من يقول: إن الكافر إذا احتضر وعاين الحقيقة تمنى أنه كان مسلمًا، ومن يقول: إنه إذا

---

(١) إبراهيم: الآية (٤٤).
(٢) التفسير الكبير (١٩/ ١٦٣).
(٣) الأنعام: الآية (٢٧).
(٤) الأنعام: الآية (٣١).
(٥) الفرقان: الآية (٢٧).

عاين النار ووقف عليها تمنى أنه كان مسلمًا، ومن يقول: إنهم إذا عاينوا إخراج الموحدين من النار تمنوا أنهم كانوا مسلمين؛ كل ذلك راجع إلى أن الكفار إذا عاينوا الحقيقة ندموا على الكفر وتمنوا أنهم كانوا مسلمين»(١).

وقال القاسمي: «﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ تبشير للنبي ﷺ بظهور دينه، وأنه سوف يأتي أيام يتمنى الكافرون بها أن لو سبق لهم الإسلام فكانوا من السابقين، لِما يرون من إعلاء كلمة الدين، وظهوره على رغم الملحدين؛ لأن من تأخر إسلامه منهم وإن ناله من الفضل ما وعد به الحسنى، ولكن لا يلحق السابقين، ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾(٢). وفيه تثبيت للنبي ﷺ على الصدع بالدعوة والصبر عليها لما أن العاقبة له، وإنما جيء بصيغة التقليل جريا على مذهب العرب في قولهم: لعلك ستندم على فعلك، ترفّعًا واستغناء عن التصريح بالغرض بناء على ادعاء ظهوره»(٣).

قال ابن عطية: «ومن العبر في هذه الآية حديث الوابصي(٤) الذي في صدر ذيل الأمالي؛ ومقتضاه أنه ارتدّ ونسي القرآن إلا هذه الآية»(٥).

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان الموطن الذي يودّ فيه الذين كفروا لو كانوا مسلمين

* عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن ناسًا من أمتي يعذبون بذنوبهم، فيكونوا في النار ما شاء الله أن يكونوا، ثم يُعيّرهم أهل الشرك فيقولون: ما نرى ما كنتم تخالفونا فيه من تصديقكم وإيمانكم نفعكم، فلا يبقى موحد إلا أخرجه الله**»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾»(٦).

(١) أضواء البيان (٢/ ٢٥٢).
(٢) الحديد: الآية (١٠).
(٣) محاسن التأويل (١٠/ ٤٦).
(٤) وانظر قصته في تاريخ دمشق (٨/ ٣٨٦)
(٥) المحرر الوجيز (٣/ ٣٥٠).
(٦) أخرجه: الطبراني في الأوسط واللفظ له (٦/ ٦٨/ ٥١٤٢) وقال: «لم يرو هذا الحديث عن بسام الصيرفي إلا حاتم، تفرد به محمد بن عباد»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٣/ ١١٢٧١). وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٧٩) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح غير بسام الصيرفي وهو ثقة». وزاد نسبته السيوطي في الدر لابن مردويه وصحح إسناده.

* عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء اللَّه من أهل القبلة، يقول الكفار: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها، فيَسمع ما قالوا، فأَمر بمن كان من أهل القبلة فأُخرجوا، فلما رأى ذلك أهل النار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين، فنخرج كما خرجوا»، قال: وقرأ رسول اللَّه ﷺ: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾»[1].

★ فوائد الحديثين:

هذان الحديثان يؤيدان قول من قال من المفسرين: إن هذا التمني في الجهنميين إذا رآهم الكفار يخرجون من النار. كما قال القرطبي: «وهذا التمني إنما هو في القيامة إذا رأوا كرامة المؤمنين وذل الكافرين»[2].

والحديثان وإن بيّنا صورة من صور تمنيهم، فلا ينفيان كونهم يتمنون أن لو كانوا مسلمين في كل حال تبينت لهم فيه الحقيقة.

قال الشوكاني: «الظاهر أن هذه الودادة كائنة منهم في كل وقت، مستمرة في كل لحظة بعد انكشاف الأمر لهم»[3].

* * *

---

(١) أخرجه: ابن أبي عاصم واللفظ له (٢/ ٤٠٥/ ٨٤٣)، والحاكم (٢/ ٢٤٢) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، ورواه ابن جرير (١٤/ ٢) عن أبي موسى قال: «بلغنا أنه إذا كان يوم القيامة...» وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ٤٥) وقال: «رواه الطبراني وفيه خالد بن نافع الأشعري قال أبو داود: متروك، قال الذهبي: هذا تجاوز في الحد فلا يستحق الترك فقد حدث عنه أحمد بن حنبل وغيره وبقية رجاله ثقات». وللحديث شواهد منها حديث أنس الطويل في الشفاعة عند: أحمد (٣/ ١٤٤)، والدارمي (١/ ٢٧-٢٨). قال الشيخ الألباني في «ظلال الجنة»: «وسندهم صحيح على شرط الشيخين، وله طريق أخرى عن أنس بنحوه رواه الطبراني كما في تفسير ابن كثير (٤/ ٢٢٥)».

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٤).

(٣) فتح القدير (٣/ ١٧٢).

قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ذر يا محمد هؤلاء المشركين يأكلوا في هذه الدنيا ما هم آكلوه، ويتمتعوا من لذاتها وشهواتهم فيها إلى أجلهم الذي أجلت لهم، ويلههم الأمل عن الأخذ بحظهم من طاعة اللّٰه فيها، وتزوّدهم لمعادهم منها بما يقربهم من ربهم، فسوف يعلمون غدا إذا وردوا عليه، وقد هلكوا على كفرهم باللّٰه وشركهم حين يُعاينون عذاب الله؛ أنهم كانوا من تمتعهم بما كانوا يتمتعون فيها من اللذّات والشهوات كانوا في خسار وتباب»(١).

قال الزمخشري: «﴿ذَرْهُمْ﴾ يعني: اقطع طمعك من ارعوائهم، ودعهم عن النهي عما هم عليه، والصدّ عنه بالتذكرة والنصيحة، وخلهم ﴿يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟﴾ بدنياهم، وتنفيذ شهواتهم، ويشغلهم أملهم وتوقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال، وأن لا يلقوا في العاقبة إلا خيرًا ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ سوء صنيعهم. والغرض الإيذان بأنهم من أهل الخذلان، وأنهم لا يجيء منهم إلا ما هم فيه، وأنه لا زاجر لهم ولا واعظ إلا معاينة ما ينذرون به حين لا ينفعهم الوعظ، ولا سبيل إلى اتعاظهم قبل ذلك، فأمر رسوله بأن يخليهم وشأنهم، ولا يشتغل بما لا طائل تحته، وأن يبالغ في تخليتهم حتى يأمرهم بما لا يزيدهم إلا ندمًا في العاقبة. وفيه إلزام للحجة ومبالغة في الإنذار وإعذار فيه. وفيه تنبيه على أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدّي إليه طول الأمل -وهذه هِجّيرى أكثر الناس- ليس من أخلاق المؤمنين، وعن بعضهم: التمرغ في الدنيا من أخلاق الهالكين»(٢).

قال أبو حيان: «أمر تعالى نبيه بأن ينذرهم، وهو أمر وعيد لهم وتهديد؛ أي:

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٥).
(٢) الكشاف (٢/ ٣٨٦-٣٨٧).

ليسوا ممن يرعوي عن ما هو فيه من الكفر والتكذيب، ولا ممن تنفعه النصيحة والتذكير، فهم إنما حظهم حظ البهائم من الأكل والتمتع بالحياة الدنيا والأمل في تحصيلها، هو الذي يلهيهم ويشغلهم عن الإيمان بالله ورسوله. وفي قوله: ﴿يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾، إشارة إلى أنّ التلذذ والتنعم وعدم الاستعداد للموت والتأهب له ليس من أخلاق من يطلب النجاة من عذاب الله في الآخرة»[1].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من طول الأمل

* عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده لا أعلمه إلا رفعه، قال: «صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلِك آخرها بالبخل والأمل»[2].

★ **غريب الحديث:**

الأَمَل: بفتحتين: رجاء ما تحبه النفس من طول عمر، وزيادة غنى، وهو قريب المعنى من التمنّي. وقيل: الفرق بينهما أن الأمل ما تقدم له سبب، والتمني بخلافه. وقيل: لا ينفك الإنسان من أمل، فإن فاته ما أمله عوَّل على التمني. ويقال: الأمل: إرادة الشخص تحصيل شيء يمكن حصوله، فإذا فاته تمنّاه.

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «طول الأمل داء عضال، ومرض مزمن، ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه، واشتدَّ علاجه، ولم يفارقه داءٌ، ولا نجع فيه دواء، بل أعيا الأطباء، ويئس من برئه الحكماء والعلماء. وحقيقة الأمل: الحرص على الدنيا، والانكباب عليها، والحب لها، والإعراض عن الآخرة. .

قال الحسن: ما أطال عبدٌ الأمل؛ إلا أساء العمل. وصدق ﷺ؛ فالأمل يكسل عن العمل، ويورث التراخي والتواني، ويُعقب التشاغل والتقاعس، ويُخلد

---

(١) البحر المحيط (٥/ ٤٣٣).

(٢) أخرجه: أحمد في الزهد واللفظ له (ص: ١٠)، والطبراني في الأوسط (٨/ ٣١٦/ ٧٦٤٦) وقال: «لم يرو هذه الأحاديث عن زافر بن سليمان إلا عصمة بن المتوكل»، والبيهقي في الشعب (٧/ ٤٢٨/ ١٠٨٤٦) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٨٦): «رواه الطبراني في الأوسط ورجاله وثقوا على ضعف في بعضهم». وقال في (١٠/ ٢٥٥): «رواه الطبراني في الأوسط وفيه عصمة بن المتوكل وقد ضعفه غير واحد ووثقه ابن حبان». وصححه الألباني في الصحيحة (٣٤٢٧).

إلى الأرض ويميل إلى الهوى، وهذا أمر قد شوهد بالعيان، فلا يحتاج إلى بيان، ولا يطلب صاحبه ببرهان. كما أن قصر الأمل؛ يبعث على العمل، ويحيل على المبادرة، ويحثّ على المسابقة»[١].

قال ابن القيم: «اتباع الهوى وطول الأمل مادة كل فساد، فإن اتباع الهوى يُعمي عن الحق معرفة وقصدًا، وطول الأمل يُنسي الآخرة ويصد عن الاستعداد لها»[٢].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قيل: إن قصر الأمل حقيقة الزهد، وليس كذلك بل هو سبب؛ لأن من قصر أمله زهد، ويتولد من طول الأمل الكسل عن الطاعة، والتسويف بالتوبة، والرغبة في الدنيا، والنسيان للآخرة، والقسوة في القلب، لأن رقته وصفاءه إنما يقع بتذكير الموت والقبر، والثواب والعقاب، وأهوال القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٣]. وقيل: من قصر أمله؛ قلّ همه، وتنور قلبه؛ لأنه إذا استحضر الموت اجتهد في الطاعة، وقلّ همه، ورضي بالقليل. وقال ابن الجوزي: الأمل مذموم للناس إلا العلماء، فلولا أملهم لما صنفوا ولا ألفوا. وقال غيره: الأمل مطبوع في جميع بني آدم؛ كما سيأتي في الحديث الذي في الباب بعده «لا يزال قلب الكبير شابًا في اثنين: حب الدنيا وطول الأمل»[٤] وفي الأمل سر لطيف؛ لأنه لولا الأمل ما تهنَّى أحد بعيش، ولا طابت نفسه أن يشرع في عمل من أعمال الدنيا، وإنما المذموم منه الاسترسال فيه، وعدم الاستعداد لأمر الآخرة، فمن سلم من ذلك لم يكلَّف بإزالته»[٥].

* عن أبي سعيد ﷺ: «أن النبي ﷺ غرز بين يديه غرزًا، ثم غرز إلى جنبه آخر، ثم غرز الثالث، فأبعدَهُ، ثم قال: «**هل تدرون ما هذا؟**» قالوا: اللَّه ورسوله أعلم. قال: «**هذا الإنسان، وهذا أجله، وهذا أمله، يتعاطى الأمل، يختلجه دون ذلك**»[٦].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٤).

(٢) الفوائد (ص: ١٣٠).

(٣) الحديد: الآية (١٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٧)، والبخاري (١١/ ٢٨٧/ ٦٤٢٠)، ومسلم (٢/ ٢٧٤/ ١٠٤٦)، والترمذي (٤/ ٤٩٣/ ٢٣٣٨)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٥/ ٤٢٣٣).

(٥) فتح الباري (١١/ ٢٨٤-٢٨٥).

(٦) أخرجه: أحمد (٣/ ١٨)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣١١)، والبغوي في شرح السنة (١٤/ ٢٨٤-٢٨٥/ ٤٠٩١). ذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٥٥) وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير علي بن علي الرفاعي وهو ثقة».

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «خطَّ النبي ﷺ خطوطًا فقال: **«هذا الأمل وهذا أجله، فبينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب»**»[(١)].

* عن عبد اللَّه رضي الله عنه قال: «خط النبي ﷺ خطًّا مربعًا، وخط خطًّا في الوسط خارجًا منه، وخط خُططًا صغارًا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط وقال: **«هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به -أو قد أحاط به- وهذا الذي هو خارجٌ أملُه، وهذه الخُطط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا»**»[(٢)].

★ غريب الأحاديث:

غَرَزَ: غَرَزَ الإبرةَ في الشيء غَرْزًا، وغَرَّزَها: أدخلها.

يختلجه: قال ابن منظور: خَلَجَ: الخلج: الجذب. خَلَجَهُ يَخْلِجُهُ خَلْجًا، وتخلَّجَهُ، واختَلَجَهُ: إذا جبذَهُ وانتزعه.

الأعراض: جمع عَرَض، بفتحتين، وهو ما ينتفع به في الدنيا في الخير وفي الشر. والعَرْض، بالسكون: ضد الطول. ويطلق على ما يقابل النقدين. والمراد هنا الأول.

نهشه: بالنون والشين المعجمة: أي: أصابه.

★ فوائد الأحاديث:

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «وخط خطًّا في الوسط خارجًا منه، وخط خُططًا صغارًا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط»،

---

(١) أخرجه: البخاري (١١/ ٢٨٣/ ٦٤١٨)، من طريق همام بن يحيى عن إسحاق بن عبداللَّه عن أنس بن مالك.
وأخرجه: أحمد (٣/ ١٢٣)، والترمذي (٤/ ٤٩١/ ٢٣٣٤) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٢/ ١٤١٤-١٤١٥/ ٤٢٣٢) من طرق عن عبيداللَّه بن أبي بكر عن أنس بن مالك بلفظ: «هذا ابن آدم وهذا أجله ووضع يده عند قفاه، ثم بسطها فقال: وثم أجله وثم أجله وثم أجله».

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٥)، والبخاري (١١/ ٢٨٣/ ٦٤١٧)، والترمذي (٤/ ٥٤٨/ ٢٤٥٤)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٤/ ٤٢٣١).

قيل هذه صفة الخط:

وقيل صفته:

وقيل صفته:

وقيل صفته:

ورسمه ابن التين هكذا:



والأول المعتمد، وسياق الحديث يتنزل عليه، فالإشارة بقوله: «وهذا الإنسان» إلى النقطة الداخلة، وبقوله: «وهذا أجله محيط به» المربع، وبقوله: «وهذا الذي هو خارج أمله» إلى الخط المستطيل المنفرد، وبقوله: «وهذه» إلى الخطوط، وهي مذكورة على سبيل المثال، لا أن المراد انحصارها في عدد معين، ويؤيده قوله في حديث أنس بعده: «إذ جاءه الخط الأقرب» فإنه أشار به إلى الخط

المحيط به، ولا شك أن الذي يحيط به أقرب إليه من الخارج عنه، وقوله «خُططًا» بضم المعجمة والطاء الأولى للأكثر ويجوز فتح الطاء، وقوله: «هذا إنسان» مبتدأ وخبر؛ أي: هذا الخط هو الإنسان على التمثيل. . .

واستشكلت هذه الإشارات الأربع مع أن الخطوط ثلاثة فقط، وأجاب الكرماني بأن للخط الداخل اعتبارين: فالمقدار الداخل منه هو الإنسان والخارج أمله، والمراد بالأعراض الآفات العارضة له؛ فإن سلم من هذا لم يسلم من هذا، وإن سلم من الجميع ولم تصبه آفة من مرض أو فقد مال أو غير ذلك بغته الأجل. والحاصل أن من لم يمت بالسبب مات بالأجل.

وفي الحديث: إشارة إلى الحض على قصر الأمل، والاستعداد لبغتة الأجل. وعبر بالنهش وهو لدغ ذاتِ السم مبالغة في الإصابة والإهلاك. . . وعند البيهقي في «الزهد» من وجه عن إسحاق، سياق المتن أتم منه ولفظه: «خطّ خطوطًا، وخطّ خطًّا ناحية، ثم قال: هل تدرون ما هذا؟ هذا مثل ابن آدم ومثل التمني، وذلك الخط الأمل، بينما يأمل إذ جاءه الموت»[(١)]. وإنما جمع الخطوط ثم اقتصر في التفصيل على اثنين اختصارًا، والثالث الإنسان، والرابع الآفات. . . والأحاديث متوافقة على أن الأجل أقرب من الأمل»[(٢)].

قال البنا -معلقًا على حديث أبي سعيد الخدري-: «فيه إشارة إلى بعد الأمل وقرب الأجل»[(٣)].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**لا يزال قلب الكبير شابًّا في اثنتين: في حب الدنيا، وطول الأمل**»[(٤)].

* عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يكبَر ابن آدم ويكبَر معه**

---

(١) وأخرجه أيضا في السنن الكبرى (٣/ ٣٦٨).

(٢) فتح الباري (١١/ ٢٨٥-٢٨٦).

(٣) الفتح الرباني (١٩/ ٢٤٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٧)، والبخاري (١١/ ٢٨٧/ ٦٤٢٠)، ومسلم (٢/ ٧٢٤/ ١٠٤٦)، والترمذي (٤/ ٤٩٣/ ٢٣٣٨)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٥/ ٤٢٣٣)، والنسائي في الكبرى (الرقائق ١٠/ ٣٧٨/ ١١٧٦٦) تحقيق الأرناؤوط.

اثنان: حب المال، وطول العُمُر»[١].

★فوائد الحديثين:

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «المراد بالأمل هنا محبة طول العمر، فسره حديث أنس الذي بعده في آخر الباب، وسمّاه شابًّا إشارة إلى قوة استحكام حبه للمال، أو هو من باب المشاكلة والمطابقة»[٢].

وقال القرطبي: «أحاديث هذا الباب كلها متواردة على الإخبار عما جُبل الإنسان عليه من حب المال، والحرص على البقاء في الدنيا، وعلى أن ذينك ليسا بمحمودين بل مذمومين»[٣].

وقال ابن الجوزي: «لما كان أحب الأشياء إلى ابن آدم نفسه أحب بقاءها، فأحب العمر، وأحب سبب بقائها وهو المال. والهَرَم إنما يعمل في بدنه لا غير، فإذا أحس بقرب التلف عند الهرم قوي حبه للبقاء لعلمه بقرب الرحيل وكراهيته له»[٤].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٤-١٢٠-١٦٩)، والبخاري (١١/ ٢٨٧/ ٦٤٢١)، ومسلم (٢/ ٧٢٤/ ١٠٤٧)، والترمذي (٤/ ٤٩٣/ ٢٣٣٩)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٥/ ٤٢٣٤)، والنسائي في الكبرى (الرقائق ١٠/ ٣٧٨/ ١١٧٦٥) تحقيق الأرناؤوط.

(٢) الفتح (١١/ ٢٨٩).

(٣) المفهم (٣/ ٩٢).

(٤) كشف المشكل (٣/ ٢٤١).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى: إنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها، وإنه لا يؤخر أمة حان هلاكها عن ميقاتها، ولا يتقدمون عن مدتهم. وهذا تنبيه لأهل مكة، وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم فيه من الشرك والعناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك»[١].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال هؤلاء المشركون لك من قومك يا محمد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ وهو القرآن الذي ذكر اللَّه فيه مواعظ خلقه؛ ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ في دعائك إيانا إلى أن نتَّبعك ونذَر آلهتنا»(١).

قال الشنقيطي: «قد يقال في هذه الآية الكريمة: كيف يقرّون بأنه أُنزل إليه الذكر وينسبونه للجنون مع ذلك؟ والجواب: أن قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ يعنون في زعمه؛ تهكمًا منهم به، ويوضح هذا المعنى ورود مثله من الكفار، متهكمين بالرسل -عليهم صلوات اللَّه وسلامه- في مواضع أخر؛ كقوله تعالى عن فرعون مع موسى: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾(٢)، وقوله عن قوم شعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾(٣)»(٤).

قوله: ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ قال ابن جرير: «قالوا: هلاّ تأتينا بالملائكة شاهدة لك على صدق ما تقول ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ يعني: إن كنت صادقا في أن اللَّه تعالى بعثك إلينا رسولا وأنزل عليك كتابا؛ فإن الربّ الذي فعل ما تقول بك، لا يتعذّر عليه إرسال ملك من ملائكته معك حجة لك علينا، وآية لك على نبوّتك، وصدق مقالتك»(٥).

قال الشنقيطي: «ومعنى الآية أن الكفار طلبوا من النَّبي ﷺ طلب تخصيص أن

(١) جامع البيان (١٤/٦).
(٢) الشعراء: الآية (٢٧).
(٣) هود: الآية (٨٧).
(٤) أضواء البيان (٦/ ٢٥٣-٢٥٤).
(٥) جامع البيان (١٤/٦).

يأتيهم بالملائكة؛ ليكون إتيان الملائكة معه دليلًا على صدقه أنه رسول اللَّه ﷺ، وبيّن طلب الكفار هذا في آيات أخر كقوله عن فرعون مع موسى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾[1] وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[2]، وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾[3] الآية. وقوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾[4] وقوله: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾[5]. إلى غير ذلك من الآيات»[6].

قوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾:

قال ابن جرير: «فتأويل الكلام: ما ننزل ملائكتنا إلا بالحق، يعني بالرسالة إلى رسلنا، أو بالعذاب لمن أردنا تعذيبه. ولو أرسلنا إلى هؤلاء المشركين على ما يسألون إرسالهم معك آية فكفروا لم يُنظروا فيؤخروا بالعذاب، بل عوجلوا به كما فعلنا ذلك بمن قبلهم من الأمم حين سألوا الآيات فكفروا حين أتتهم الآيات، فعاجلناهم بالعقوبة»[7].

وقال الزمخشري: «﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: تنزّلا متلبّسًا بالحكمة والمصلحة، ولا حكمة في أن تأتيكم عيانًا تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبي ﷺ، لأنكم حينئذ مصدّقون عن اضطرارٍ، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[8]»[9].

قال القاسمي: «أشار إلى جواب مقالهم وردّ مقترحهم بقوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي: عليهم فيأتونهم ويشاهدونهم، ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: الحكمة التي جرت بها السنة الإلهية، وهو العذاب، ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ أي: مؤخرين، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ

---

(١) الزخرف: الآية (٥٣).
(٢) الفرقان: الآية (٢١).
(٣) الأنعام: الآية (٨).
(٤) الفرقان: الآية (٧).
(٥) الإسراء: الآية (٩٢).
(٦) الأضواء (٦/ ٢٥٤).
(٧) جامع البيان (١٤/ ٧).
(٨) الحجر: الآية (٨٥).
(٩) الكشاف (٢/ ٣٨٧).

ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ
حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[1]»[2].

* * *

(١) الفرقان: الآيتان (٢١و٢٢).

(٢) محاسن التأويل (١٠/٤٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ وهو القرآن ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ قال: وإنا للقرآن لحافظون من أن يزاد فيه باطل مًّا ليس منه، أو ينقص منه ما هو منه من أحكامه وحدوده وفرائضه»[(١)].

وقال الشنقيطي: «بين تعالى في هذه الآية الكريمة؛ أنه هو الذي نزل القرآن العظيم، وأنه حافظ له من أن يزاد فيه، أو ينقص، أو يتغير منه شيء أو يبدل، وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[(٢)] وقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾[(٣)] إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[(٤)] وهذا هو الصحيح في معنى هذه الآية أن الضمير في قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ راجع إلى الذكر الذي هو القرآن. وقيل: الضمير راجع إلى النبي ﷺ كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾[(٥)]. والأول هو الحق كما يتبادر من ظاهر السياق»[(٦)].

قال الزمخشري: «﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ رد لإنكارهم واستهزائهم في قولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ ولذلك قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾، فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع والبتات، وأنه هو الذي بعث به جبريل إلى محمد ﷺ وبين يديه ومن خلفه رصَد، حتى نُزّل وبُلّغ محفوظًا من الشياطين، وهو حافظه في كل وقت من كل زيادة ونقصان، وتحريف وتبديل، بخلاف الكتب المتقدمة؛ فإنه لم يتولّ حفظها، وإنما استحفظها الربانيين والأحبار فاختلفوا فيما بينهم بغيا، فكان التحريف، ولم يكِل القرآن إلى غير حفظه»[(٧)].

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٧).
(٢) فصلت: الآيتان (٤١و٤٢).
(٣) القيامة: الآيتان (١٦و١٧).
(٤) القيامة: الآية (١٩).
(٥) المائدة: الآية (٦٧).
(٦) الأضواء (٦/ ٢٥٥-٢٥٦).
(٧) الكشاف (٢/ ٣٨٧).

قال القاسمي: «﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من كل من بغى له كيدًا، فلا يزال نور ذكره يسري، وبحر هداه يجري، وظلال حقّيته في علومه تمتدّ على الآفاق، ودعائم أصوله الثابتة تطاول السبع الطباق، رغمًا عن كيد الكائدين، وإفساد المفسدين، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1]، وفي إيراد الجملة الثانية اسمية دلالة على دوام الحفظ»[2].

قال الرازي: «واعلم أنه لم يتفق لشيء من الكتب مثلُ هذا الحفظ؛ فإنه لا كتاب إلا وقد دخله التصحيف والتحريف والتغيير، إما في الكثير منه أو في القليل، وبقاء هذا الكتاب مصونًا عن جميع جهات التحريف -مع أن دواعي الملاحدة واليهود والنصارى متوفرة على إبطاله وإفساده- من أعظم المعجزات. وأيضًا أخبر اللَّه تعالى عن بقائه محفوظًا عن التغيير والتحريف، وانقضى الآن قريبًا من ستمائة سنة فكان هذا إخبارًا عن الغيب، فكان ذلك أيضًا معجزًا قاهرًا»[3].

قلت: حفظ اللَّه للقرآن يتجلى قبل نزوله وعند نزوله وبعد نزوله، فقبل نزوله سدت الأبواب كلها على الشياطين من استراق السمع ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾[4] وعند نزوله؛ فإن اللَّه تعالى أحاط نبيه بكل عناية وجعل له خاصية الحفظ في ذاته، قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾[5] وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾[6]. وبعد نزوله هيأ اللَّه له خيرة خلقه في الحفظ، فجمعوه في صدورهم ومهروا فيه، قال رسول اللَّه ﷺ في أحدهم: «**من أحب أن يقرأ القرآن غضًّا طريًّا فليقرأه على قراءة ابن أم عبد**»[7] وقال في أبي موسى: «**لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود**»[8] واتسع حفظ القرآن في الصغار والكبار ذكورًا وإناثًا، وأصبح مجتمع الصحابة له دوي بالقرآن كدوي النحل، فلا تجد بيتًا إلا وفيه

---

(١) الصف: الآية (٨).
(٢) محاسن التأويل (١٠/ ٤٨-٤٩).
(٣) التفسير الكبير (١٩/ ١٧٠).
(٤) الجن: الآية (٨).
(٥) القيامة: الآية (١٦).
(٦) الحج: الآية (٥٢).
(٧) أخرجه: أحمد (١/ ٤٤٦-٤٤٧)، وابن ماجه (١/ ٤٩/ ١٣٨)، وصححه ابن حبان (الإحسان ١٥/ ٥٤٣/ ٧٠٦٧) من حديث ابن مسعود ﷺ.
(٨) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٥١)، والبخاري (٩/ ١١٣/ ٥٠٤٨)، ومسلم (٢/ ٥٤٦/ ٧٩٣)، والترمذي (٥/ ٦٥٠/ ٣٨٥٥).

ترداد لكتاب اللَّه، وهكذا بعد وفاة الرسول الكريم -عليه الصلاة والسلام-؛ تولى ذلك أبو بكر وعمر ثم عثمان، ثم اتسعت رقعة الإسلام واتسع حفظ القرآن بقدر اتساعها، وأصبحت أسانيده إلى رسول اللَّه ﷺ محفوظة، وعلى رأس المؤلفات التي ألفت في تاريخ الإسلام نجد أن العلماء قد اعتنوا بكتاب اللَّه عناية بالغة؛ حيث ألفوا في جميع شعبه وتخصصاته؛ في ناسخه ومنسوخه، وخاصه وعامه، وتفسير القرآن بالقرآن، وتفسيره بسنة خير الأنام ﷺ، وضبط قراءاته وتوجيهاتها، وضبط لغاته ومفرداته، وعد آياته وتاريخ نزوله.. وهكذا وجهت العناية لكتاب اللَّه. وقد كانت هناك محاولات كثيرة من أعداء الإسلام والزنادقة لتحريف القرآن لكنها باءت كلها بالفشل، آخرها في وقتنا الحاضر؛ حيث ألفوا قرآنًا سموه: الفرقان الحق! ونشروه بوسائل الإعلام في بعض البلدان، فكان ذلك أضحوكة وسخرية عند كل من سمع بهذه السخافات. ولا تزال المطابع تجدد أجهزتها للعناية بطباعة المصحف الشريف، فكل يوم بفضل اللَّه تطبع ملايين النسخ من كتاب اللَّه، كما تخصصت إذاعات وقنوات فضائية في بث هذا القرآن بالليل والنهار، وعقدت مسابقات محلية وعالمية في حفظه وفنون تجويده في دول مختلفة بل في دول تحاربه.. فلله الفضل والمنة على عنايته بكتابه.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾

★ غريب الآية

شيع: جمع شيعة، وهي الفرقة والطائفة. أصلها من المشايعة وهي المتابعة. يقال: شايع فلان فلانًا على أمره إذا تابعه عليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ولقد أرسلنا يا محمد من قبلك في الأمم الأوّلين رسلًا، وترك ذكر الرسل اكتفاء بدلالة قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ عليه، وعنى بشيع الأوّلين: أمم الأوّلين: واحدتها شيعة، ويقال أيضا لأولياء الرجل: شيعته.. وقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يقول: وما يأتي شيعَ الأولين من رسول من اللّه يرسله إليهم بالدعاء إلى توحيده، والإذعان بطاعته، إلا كانوا به يستهزءون: يقول: إلا كانوا يسخرون بالرسول الذي يرسله اللّه إليهم عتوّا منهم وتمردًا على ربهم»(١).

قال ابن عطية: «وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ الآية. تسلية للنبي ﷺ وعرْضُ أسوة؛ أي: لا يضيق صدرك يا محمد بما يفعله قومك من الاستهزاء في قولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ وغير ذلك، فقد تقدم منا إرسال الرسل في شيع الأولين، وكانت تلك سيرتهم في الاستهزاء بالرسل»(٢).

قال الرازي: «واعلم أن السبب الذي يحمل هؤلاء الجهال على هذه العادة الخبيثة أمور: الأول: أنهم يستثقلون التزام الطاعات والعبادات، والاحتراز عن الطيبات واللذات. والثاني: أن الرسول يدعوهم إلى ترك ما ألفوه من أديانهم

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٨).
(٢) البحر الوجيز (٣/ ٣٥٢).

الخبيثة، ومذاهبهم الباطلة، وذلك شاقّ شديد على الطباع. والثالث: أن الرسول متبوع مخدوم، والأقوام يجب عليهم طاعته وخدمته؛ وذلك أيضًا في غاية المشقة. والرابع: أن الرسول ﷺ قد يكون فقيرًا، ولا يكون له أعوان وأنصار، ولا مال ولا جاه، فالمتنعمون والرؤساء يثقل عليهم خدمة من يكون بهذه الصفة. والخامس: خذلان اللَّه لهم، وإلقاء دواعي الكفر والجهل في قلوبهم، وهذا هو السبب الأصلي؛ فلهذه الأسباب وما يشبهها تقع الجهال والضلال مع أكابر الأنبياء عليهم السلام في هذه الأعمال القبيحة، والأفعال المنكرة»[1].

* * *

(١) التفسير الكبير (١٩/ ١٧١).

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾

★ **غريب الآية**

نسلُكه: ندخله. والسَّلْك: إِدْخَالُ الشيء في الشيء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: كما سلكنا الكفر في قلوب شيع الأولين بالاستهزاء بالرسل، كذلك نفعل ذلك في قلوب مشركي قومك الذين أجرموا بالكفر بالله ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ يقول: لا يصدّقون بالذكر الذي أنزل إليك، والهاء في قوله: ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ من ذكر الاستهزاء بالرسل والتكذيب بهم.. وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: لا يؤمن بهذا القرآن قومك الذين سلكت في قلوبهم التكذيب حتى يروا العذاب الأليم، أخذًا منهم سنة أسلافهم من المشركين قبلهم من قوم عاد وثمود وضربائهم من الأمم التي كذّبت رسلها، فلم تؤمن بما جاءها من عند الله حتى حلّ بها سخط الله فهلكت»[1].

قال القرطبي: «وفي الآية رد على القدرية والمعتزلة»[2].

* * *

---

(١) جامع البيان (١٤/٩-١٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

★ غريب الآية

يعرجون: العروج: الصعود، وعَرَجَ السُّلَّمَ يعرُج فيه: إذا صَعِدَ فيه.

سُكِّرَت أبصارنا: أي غُشِّيَتْ وسُدَّتْ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق: أنه لو فتح لهم بابًا من السماء، فجعلوا يصعدون فيه؛ لما صدّقوا بذلك»[١].

وقال الزمخشري: «والمعنى أن هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم في العناد: أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء، ويسر لهم معراج يصعدون فيه إليها، ورأوا من العيان ما رأوا؛ لقالوا: هو شيء نتخايله لا حقيقة له، ولقالوا: قد سَحَرنا محمد بذلك. وقيل: الضمير للملائكة؛ أي: لو أريناهم الملائكة يصعدون في السماء عيانًا لقالوا ذلك. وذكر الظُّلول ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون. وقال: ﴿إِنَّمَا﴾، ليدل على أنهم يبتّون القول بأنّ ذلك ليس إلا تسكيرًا للأبصار»[٢].

قوله: ﴿لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ قال ابن عطية: «ومعنى هذه المقالة منهم؛ أي: غُيرت أبصارنا عما كانت عليه، فهي لا تَنفُذ وتعطينا حقائق الأشياء كما كانت تفعل»[٣].

قال ابن جرير: «أما أهل التأويل؛ فإنهم اختلفوا في تأويله، فقال بعضهم:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٢٨).

(٢) الكشاف (٢/ ٣٨٩).

(٣) المحرر الوجيز (٣/ ٣٥٤).

معنى ﴿سُكِّرَتْ﴾ سدت. . وقال آخرون: معنى سكرت: أُخذت. . وقال آخرون: هو مأخوذ من السكر ومعناه: غشي على أبصارنا فلا نبصر، كما يفعل السكر بصاحبه، فذلك إذا دير به وغشي بصره كالسمادير[1] فلم يبصر. . وقال آخرون: معنى ذلك عميت»[2].

قال القرطبي: «قال النحاس: وهذه الأقوال، متقاربة والأصل فيها ما قال أبو عمرو بن العلاء -رحمه اللَّه تعالى-، قال: هو من السكر في الشراب. وهذا قول حسن، أي: غشيهم ما غطى أبصارهم كما غشي السكران ما غطى عقله. وسكور الريح سكونها وفتورها، فهو يرجع إلى معنى التحيير»[3].

واختار ابن جرير: «قول: من قال معنى ذلك أخذت أبصارنا وسحرت، فلا تبصر الشيء على ما هو به، وذهب حدّ إبصارها، وانطفأ نوره، كما يقال للشيء الحارّ إذا ذهبت فورته، وسكن حدّ حرّه، قد سكر يسكر»[4].

وقال ابن عطية: «عبر بعض المفسرين عن هذه اللفظة بقوله: غشي على أبصارنا. وقال بعضهم: عميت أبصارنا، وهذا ونحوه تفسير بالمعنى لا يرتبط باللفظ.

ولقال أيضًا هؤلاء المبصرون عروجَ الملائكة، أو عروج أنفسهم، بعد قولهم: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا﴾ بل سحرنا حتى ما نعقل الأشياء كما يجب؛ أي: صرف فينا السحر»[5].

قوله: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ قال الشوكاني: «وفي هذا بيان لعنادهم العظيم، الذي لا يقلعهم عنه شيء من الأشياء كائنًا ما كان؛ فإنهم إذا رأوا آية توجب عليهم الإيمان باللَّه وملائكته وكتبه ورسله؛ نسبوا إلى أبصارهم أن إدراكها غير حقيقي لعارض السكر، أو أن عقولهم قد سحرت، فصار إدراكهم غير صحيح. ومن بلغ في التعنت إلى هذا الحدّ فلا تنفع فيه موعظة، ولا يهتدي بآية»[6].

(١) السمادير: ضَعْفُ البَصَرِ أو شَيْءٌ يَتَرَاءَى للإنسانِ من ضَعْفِ بَصَرِه.
(٢) جامع البيان (١٤/ ١٢-١٣).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٨).
(٤) جامع البيان (١٤/ ١٣).
(٥) المحرر الوجيز (٣/ ٣٥٤).
(٦) فتح القدير (٤/ ١٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨)﴾

★ غريب الآية

بروجًا: جمع بُرْج. أصله الظهور. والبروج: منازل الكواكب السيارة. ومنه تبرج المرأة إذا أظهرت زينتها. والبرج: البناء العالي.

الرجيم: بمعنى المرجوم. وأصل الرجم: الرمي بالحجارة.

استرق: استراق السمع: هو الإنصات للمتكلم في خفية.

شهاب: الشهاب: الشعلة المستوقدة من النار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «لما ذكر تعالى أنهم لو رأوا الآية المذكورة في السماء لعاندوا فيها؛ عقب ذلك بهذه الآية، فكأنه قال: وإن في السماء لعبرًا منصوبة غير هذه المذكورة، وكفرهم بها، وإعراضهم عنها إصرارٌ منهم وعتوّ»[١].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولقد جعلنا في السماء الدنيا منازل للشمس والقمر، وهي كواكب ينزلها الشمس والقمر ﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ يقول: وزينا السماء بالكواكب لمن نظر إليها وأبصرها.. ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وحفظنا السماء الدنيا من كلّ شيطان لعين، قد رجمه الله ولعنه؛ ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ يقول: لكن قد يسترق من الشياطين السمعَ مما يحدث في السماء بعضها، فيتبعه شهاب من النار مبين، يَبين أثره فيه، إما بإخباله وإفساده، أو بإحراقه»[٢].

قال ابن كثير: «يَذْكر تعالى خلقه السماءَ في ارتفاعها، وما زَيَّنَها به من الكواكب

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٣٥٤).

(٢) جامع البيان (١٤/ ١٤).

الثواقب لمن تأملها، وكرر النظر فيها، يرى فيها من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه. ولهذا قال مجاهد وقتادة: البروج ههنا هي: الكواكب.

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾[١] ومنهم من قال: البروج هي: منازل الشمس والقمر. وقال عطية العوفي: البروج ههنا: هي قصور الحرس، وجعل الشُهب حرسًا لها من مَرَدة الشياطين، لئلا يسّمعوا إلى الملأ الأعلى، فمن تمرد منهم وتقدم لاستراق السمع؛ جاءه ﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ فأتلفه، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه، فيأخذها الآخر، ويأتي بها إلى وليه كما جاء مصرّحا به في الصحيح»[٢].

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ صرح تعالى في هذه الآية الكريمة؛ أنه حفظ السماء من كل شيطان رجيم، وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾[٣] وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾[٤] وقوله: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[٥] وقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾[٦] وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾[٧]. إلى غير ذلك من الآيات»[٨].

قال المراغي: «الكتابُ الكريم أخبر بأن الشياطين أرادوا أن يختطفوا شيئا من أخبار الغيب مما لدى الملائكة الكرام، فسُلطت عليهم الشهب المشتعلة، والنجوم المتّقدة، فأحرقتهم، ولا نبحث عن معرفة كُنه ذلك، ولا نُنعِم في النظر لندرك حقيقته، لأنّا لم نؤت من الوسائل والأسباب ما يمكّننا من معرفة ذلك معرفة صحيحة، تجعلنا نؤمن به إيمانًا مبنيًّا على البرهان بوسائله المعروفة، وليس لنا إلا التصديق بما جاء في الكتاب، وأوحي به إلى النبي الكريم، والبحثُ وراء ذلك لا يوقفنا على علم صحيح، بل على حدس وتخمين، لا حاجة للمسلم به للاطمئنان

---

(١) الفرقان: الآية (٦١).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٢٨).
(٣) الصافات: الآية (٧).
(٤) الملك: الآية (٥).
(٥) الجن: الآية (٩).
(٦) الشعراء: الآية (٢١٢).
(٧) الطور: الآية (٣٨).
(٨) الأضواء (٢/ ٢٥٦-٢٥٧).

في دينه، فالأحرى به أن يعرض عنه لئلا يحيد عن القصد، ويضل عن سواء السبيل»[1].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة استراق الشياطين السمع

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء؛ ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعانًا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان ف﴿إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ قالوا: الذي قال: ﴿الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[2] فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض. -وصف سفيان بكفه فحرفها وبدّد بين أصابعه- فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدرك الشهابُ قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سَمِع من السماء»[3].

★ غريب الحديث:

خُضعانًا: مصدر لخَضَعَ كغفران مصدر لغَفَرَ. والمعنى أن الملائكة تخضع لله عند سماع كلامه وتستكين فتضرب بأجنحتها من الخضوع.

صفوان: هو الحجر الأملس الصلب. والسلسلة عليه يكون لها صوت عظيم. وليس المراد بهذا تشبيه صوت الله؛ لأن الله ليس كمثله شيء، بل المراد تشبيه ما يحصل لهم من الفزع عندما يسمعون كلامه بفزع من يسمع سلسلة على صفوان.

فزّع عن قلوبهم: أزيل عنها الفزع.

بدد: أي: خرق بين أصابعه.

★ فوائد الحديث:

قال الشيخ سليمان بن عبد الله: «قوله: «فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته»؛ أي: يسمع المسترق الفوقاني الكلمة من الوحي، فيلقيها إلى الشيطان الذي تحته،

---

(١) تفسير المراغي (١٤/ ١٤). (٢) سبأ: الآية (٢٣).

(٣) أخرجه: البخاري (٨/ ٦٨٩-٦٩٠/ ٤٨٠٠) واللفظ له، وأبو داود (٤/ ٢٨٨-٢٨٩/ ٣٩٨٩) مختصرًا، والترمذي (٥/ ٣٣٧/ ٣٢٢٣)، وابن ماجه (١/ ٦٩-٧٠/ ١٩٤).

ثم يلقيها الآخر من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر والكاهن، وحينئذ يقع الرجم.

قوله: «فربما أدرك الشهاب قبل أين يلقيها». الشهاب: هو النجم الذي يرمى به؛ أي: ربما أدرك المسترقَ الشهابُ إذا رمي به قبل أن يلقي الكلمة إلى من تحته، وربما ألقاها المسترق قبل أن يدركه الشهاب، وهذا يدل على أن الرجم بالنجوم كان قبل المبعث... قال معمر: قلت للزهري: أكان يرمى بها في الجاهلية؟ قال: نعم. قال: أرأيت: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[1]، قال: غُلِّظت، وشُدِّد أمرُها حين بعث رسول اللَّه ﷺ...»[2].

قال القرطبي: «إن الشياطين كانت تصعد إلى السماء، فتقعد للسمع واحدًا فوق واحد، فيتقدم الأجسر نحو السماء، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، فيقضي اللَّه تعالى الأمر من أمر الأرض، فيتحدث به أهل السماء فيسمعه منهم الشيطان الأدنى، فيلقيه إلى الذي تحته فربما أحرقه شهاب، وقد ألقى الكلام، وربما لم يحرقه على ما بيّناه. فتنزل تلك الكلمة إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة، وتُصدّق تلك الكلمة فيصدِّق الجاهلون الجميع... فلما جاء اللَّه بالإسلام حُرست السماء بشدة، فلا يفلت شيطان سمع بتَّةً. والكواكب الراجمة هي التي يراها الناس تنقضّ. قال النقاش ومكي: وليست بالكواكب الجارية في السماء؛ لأن تلك لا ترى حركتها، وهذه الراجمة ترى حركتها؛ لأنها قريبة منا»[3].

* عن عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما قال: «أخبرني رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار، أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول اللَّه ﷺ رمي بنجم فاستنار. فقال لهم رسول اللَّه ﷺ: **«ماذا كنتم تقولون في الجاهلية، إذا رمي بمثل هذا؟»** قالوا: اللَّه ورسوله أعلم. كنا نقول: ولد الليلةَ رجلٌ عظيم، ومات رجلٌ عظيم. فقال رسول اللَّه ﷺ: **«فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته. ولكن ربنا -تبارك وتعالى- اسمه إذا قضى أمرًا سبح حملة العرش. ثم سبح أهل السماء الذي**

(١) الجن: الآية (٩).

(٢) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (ص: ٢٦٦-٢٦٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٤٦).

يلونهم. حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا. ثم قال الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال. قال: «فيستخبر بعض أهل السماوات بعضًا. حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا. فتخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم. ويرمون به. فما جاؤوا به على وجهه فهو حق. ولكنهم يُقرِفون فيه ويزيدون»(١).

★ **غريب الحديث:**

يُقرِفون: معناه: يخلطون فيه الكذب.

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «واختلف: هل كان القذف قبل المبعث، أو بعده لأجل المبعث؛ على قولين. وجاءت الأحاديث بذلك على ما يأتي من ذكرها في سورة (الجن) عن ابن عباس. وقد يمكن الجمع بينهما أن يقال: إن الذين قالوا لم تكن الشياطين ترمى بالنجوم قبل مبعث النبي ﷺ ثم رميت؛ أي لم تكن ترمى رميًا يقطعها عن السمع، ولكنها كانت ترمى وقتًا ولا ترمى وقتًا، وترمى من جانب ولا ترمى من جانب. ولعل الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾(٢) إلى هذا المعنى، وهو أنهم كانوا لا يُقذفون إلا من بعض الجوانب، فصاروا يُرمون واصبًا. وإنما كانوا من قبل كالمتجسسة من الإنس، يَبلغ الواحد منهم حاجته ولا يبلغها غيره، ويَسلَم واحد ولا يَسلَم غيره، بل يقبض عليه ويعاقب وينكّل. فلما بعث النبي ﷺ زيد في حفظ السماء، وأعدت لهم شهب لم تكن من قبل؛ ليدحروا عن جميع جوانب السماء، ولا يُقرّوا في مقعد من المقاعد التي كانت لهم منها؛ فصاروا لا يقدرون على سماع شيء مما يجري فيها، إلا أن يختطف أحد منهم بخفة حركته خطفة، فيتبعه شهاب ثاقب قبل أن ينزل إلى الأرض فيلقيها إلى إخوانه فيحرقه؛ فبطلت من ذلك الكهانة وحصلت الرسالة والنبوة. فإن قيل: إن هذا القذف إن كان لأجل النبوة فلم دام بعد النبي ﷺ؟ فالجواب: أنه دام

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٨)، ومسلم (٤/ ١٧٥٠-١٧٥١/ ٢٢٢٩) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٣٣٧-٣٣٨/ ٣٢٢٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٤/ ١١٢٧٢).

(٢) الصافات: الآيتان (٨و٩).

بدوام النبوة، فإن النبي ﷺ أخبر ببطلان الكهانة فقال: «**ليس منا من تكهن**»[١] فلو لم تحرس بعد موته لعادت الجن إلى تسمعها؛ وعادت الكهانة. ولا يجوز ذلك بعد أن بطل، ولأن قطع الحراسة عن السماء إذا وقع لأجل النبوة، فعادت الكهانة؛ دخلت الشبهة على ضعفاء المسلمين، ولم يؤمن أن يظنوا أن الكهانة إنما عادت لتناهي النبوة، فصح أن الحكمة تقضي دوام الحراسة في حياة النبي ﷺ، وبعد أن توفاه اللَّه إلى كرامته صلى اللَّه عليه وعلى آله»[٢].

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله: «اعلم أن الكُهان الذين يأخذون عن مسترقي السمع موجودون إلى اليوم، لكنهم قليل بالنسبة لما كانوا عليه في الجاهلية؛ لأن اللَّه تعالى حرس السماء بالشهب، ولم يبق من استراقهم إلا ما يخطفه الأعلى، فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب. وأما ما يخبر به الجني مواليه من الإنس بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الإنسان غالبًا؛ فكثير جدًّا في أناس ينتسبون إلى الولاية والكشف، وهم من الكهان إخوان الشياطين، لا من الأولياء»[٣].

* عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن الملائكة تنزل في العَنان -وهو السحاب- فتذكر الأمر قضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون منها مائة كذبة من عند أنفسهم**»[٤].

★ **غريب الحديث:**

العَنان: هو السحاب وزنًا ومعنًى. واحدها: عَنانة، كسحابة كذلك.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «**وفي الحديث بقاء استراق الشياطين السمع، لكنه قلّ وندر حتى كاد يضمحلّ بالنسبة لما كانوا فيه من الجاهلية**»[٥].

---

(١) أخرجه: الطبراني (١٨/ ١٦٢/ ٣٥٥)، والبزار (٣/ ٣٩٩-٤٠٠/ ٣٠٤٤)، وأورده الهيثمي في المجمع (٥/ ١١٧) وقال: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة. وانظر السلسلة الصحيحة للألباني (٢١٩٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ٤٥).

(٣) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (ص: ٤١١).

(٤) أخرجه: البخاري (٦/ ٣٧٣-٣٧٤/ ٣٢١٠) واللفظ له.

(٥) فتح الباري (١٠/ ٢٧١).

وقال أيضًا: «الكَهانة -بفتح الكاف ويجوز كسرها- ادعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب، والأصل فيها استراق السمع من كلام الملائكة، فيلقيه في أذن الكاهن . . . وكانت الكهانة في الجاهلية فاشية خصوصًا في العرب لانقطاع النبوة فيهم. وهي على أصناف: منها ما يتلقونه من الجن؛ فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء فيركب بعضهم بعضًا إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام فيلقيه إلى الذي يليه، إلى أن يتلقاه من يلقيه في أذن الكاهن فيزيد فيه، فلما جاء الإسلام ونزل القرآن حرست السماء من الشياطين، وأرسلت عليهم الشهب، فبقي من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[1]. وكانت إصابة الكهان قبل الإسلام كثيرة جدًّا كما جاء في أخبار شِقّ وسَطيح[2] ونحوهما، وأما في الإسلام فقد ندر ذلك جدًّا حتى كاد يضمحل ولله الحمد. ثانيها: ما يخبر الجني به من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الإنسان غالبًا، أو يطّلع عليه من قرب منه لا من بعُد. ثالثها: ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس، وهذا قد يجعل اللَّه فيه لبعض الناس قوة مع كثرة الكذب فيه. رابعها: ما يستند إلى التجربة والعادة، فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك، ومن هذا القسم الأخير ما يضاهي السحر، وقد يعتضد بعضهم في ذلك بالزجر والطرق والنجوم، وكل ذلك مذموم شرعًا»[3].

وقال الخطابي: «قد بين النبي ﷺ أن إصابة الكاهن أحيانًا في بعض أقواله إنما هو من جهة استراق السمع يأتيه رِبيبه من الجن، فيلقي إليه الكلمة التي سمعها استراقًا من الوحي، فيزيد إليها أكاذيب يقيسها على ما كان سمع، فربما أصاب على وجه الاعتبار لما لم يسمع بما سمع، وربما أخطأ وهو الغالب من أمرهم. وهؤلاء الكهان -فيما عُلم من أمرهم بشهادات الامتحان- قوم لهم أذهان حادّة، ونفوس شرّيرة، وطباع نارية، فألِفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب في هذه الأمور،

(١) الصافات: الآية (١٠).

(٢) كانا من الكهان.

(٣) فتح الباري (١٠/ ٢٦٦).

وساعدتهم بما في وسعهم من القدرة وأُعطوه من التسليط في أوطارهم ومطالبهم، فهم يفزعون إليهم في الأمور ويستفتونهم في الحوادث التي يُتحاكم فيها إليهم، فيُرجِّمون حسب ما تلقّنهم إخوانهم الشياطين، وبذلك وصفهم اللَّه تعالى فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٢٢٢ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾[1]»[2].

وسيأتي بقية ما يتعلق بهذه المباحث في سورة الأحقاف الآية (٢٩)، والجن الآيتان (٨و٩).

* * *

(١) الشعراء: الآيات (٢٢١-٢٢٣).

(٢) أعلام الحديث (٣/ ٢٢١٩).

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾﴾

★ **غريب الآية**

رواسي: أي: جبال ثوابت. واحدها: راسية. من الرَّسْوِ: وهو الثبوت.

موزون: الوزن في الأصل معرفة قدر الشيء.

معايش: جمع معيشة. وهو ما يعاش به من زرع وضرع وغيرهما.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «ذكر تعالى خلقه الأرض ومدَّه إياها وتوسيعها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرواسي، والأودية والأراضي والرمال، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة»[1].

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ والأرض دحوناها فبسطناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ يقول: وألقينا في ظهورها رَوَاسِي، يعني جبالا ثابتة.. وقوله: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ يقول: وأنبتنا في الأرض من كلّ شيء: يقول: من كلّ شيء مقدّر، وبحدّ معلوم.. وكان بعضهم يقول: معنى ذلك: وأنبتنا في الجبال من كلّ شيء موزون: يعني من الذهب والفضة والنحاس والرصاص ونحو ذلك من الأشياء التي توزن.. قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وجعلنا لكم أيها الناس في الأرض ﴿مَعَٰيِشَ﴾، وهي جمع معيشة ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾.

اختلف أهل التأويل في المعنى في قوله: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ فقال بعضهم: عنى به الدواب والأنعام.. وقال آخرون: عنى بذلك الوحش خاصة.. وأولى ذلك

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٤٧).

بالصواب وأحسن؛ أن يقال: عنى بقوله: ﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ من العبيد والإماء والدوابّ والأنعام. فمعنى ذلك: وجعلنا لكم فيها معايش. والعبيدَ والإماء والدواب والأنعام»[١].

قال ابن كثير: «والقصد أن اللَّه تعالى يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب، ووجوه الأسباب، وصنوف المعايش، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء التي يستخدمونها، ورِزْقهُم على خالقهم لا عليهم، فلهم هم المنفعة والرزق على الله»[٢].

* * *

(١) جامع البيان (١٤/ ١٥-١٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٤٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه مالك كل شيء، وأن كل شيء سَهلٌ عليه، يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ كما يشاء وكما يريد، ولما لَهُ في ذلك من الحكمة البالغة، والرحمة بعباده، لا على وجه الوجوب، بل هو كتَبَ على نفسه الرحمة»[(١)].

قال الشوكاني: «﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: ما ننزله من السماء إلى الأرض أو نوجده للعباد إلاّ بقدر معلوم. والقدر: المقدار؛ والمعنى: أن اللَّه سبحانه لا يوجد للعباد شيئًا من تلك الأشياء المذكورة إلاّ متلبسًا ذلك الإيجاد بمقدار معين؛ حسبما تقتضيه مشيئته، على مقدار حاجة العباد إليه؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾[(٢)]»[(٣)].

قال المراغي: «وقد جرت سنة القرآن بأن يسمى ما يصل إلى العباد بفضل اللَّه وَجُوده إنزالاً؛ كما قال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾[(٤)]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[(٥)]»[(٦)].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٤٧).
(٢) الشورى: الآية (٢٧).
(٣) فتح القدير (٤/ ١٧٩-١٨٠).
(٤) الزمر: الآية (٦).
(٥) الحديد: الآية (٢٥).
(٦) تفسير المراغي (١٤/ ١٧).

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

★ غريب الآية

لواقح: جمع لاقح، وهي الريح التي تحمل المطر. خلافها: الريح العقيم، أو التي تلقح الشجر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ أي: تلقّح السحاب فتدر ماء، وتلقح الشجر فتتفتح عن أوراقها وأكمامها.

هذه الرياح ذكرها بصيغة الجمع، ليكون منها الإنتاج، بخلاف الريح العقيم فإنه أفردها، ووصفها بالعقيم، وهو عدم الإنتاج؛ لأنه لا يكون إلا من شيئين فصاعدًا»[(١)].

قال القرطبي: «ومعنى لواقح: حوامل؛ لأنها تحمل الماء والتراب والسحاب والخير والنفع»[(٢)].

قال ابن عطية: «يقال: لقِحت الناقة والشجرة فهي لاقحة: إذا حملت، والرياحُ تلقّح الشجر والسحاب، فالوجه في الريح أنها ملقِّحة لا لاقحة، وتتجه صفة الرياح بـ﴿لَوَٰقِحَ﴾ على أربعة أوجه:

أولها وأولاها: أن نجعلها لاقحة حقيقية، وذلك أن الرياح منها ما فيها عذاب أو حر ونار، ومنها ما فيه رحمة ومطر أو نصر أو غير ذلك، فإذا بها تحمل ما حمّلتها القدرة، أو ما علِقته من الهواء أو التراب أو الماء الذي مرت عليه، فهي لاقحة بهذا الوجه، وإن كانت أيضًا تُلقّح غيرها وتُصيّر إليه نفعها. والعرب تسمي الجنوب

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٤٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٢).

الحامل واللاقحة، وتسمي الشمال الحايل والعقيم ومحوة؛ لأنها تمحو السحاب.

والثاني: أن يكون وصفها بـ﴿لَوَٰقِحَ﴾ من باب قولهم: ليل نائم؛ أي: فيه نوم ومعه، ويوم عاصف ونحوه؛ فهذا على طريق المجاز.

والثالث: أن توصف الرياح بـ﴿لَوَٰقِحَ﴾ على جهة النسب؛ أي: ذات لقح..

والرابع: أن تكون ﴿لَوَٰقِحَ﴾ جمع ملقِّحة على حذف زوائده فكأنه لَقِحة، فجمعها كما تجمع لاقحة»[1].

قال ابن جرير: «والصواب من القول في ذلك عندي أن الرياح لواقح، كما وصفها به -جل ثناؤه- من صفتها، وإن كانت قد تلقح السحاب والأشجار، فهي لاقحة ملقِّحة، ولقحها: حملها الماء، وإلقاحها السحاب والشجر: عملها فيه»[2].

قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾

قال ابن جرير: «فأنزلنا من السماء مطرًا فأسقيناكم ذلك المطر لشرب أرضكم ومواشيكم»[3].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أي: أنزلناه لكم عذْبًا يُمكنكم أن تشربوا منه، ولو نشاء لجعلناه أجاجًا. كما ينبه اللَّه على ذلك في الآية الأخرى في سورة الواقعة، وهو قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[4] وفي قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾[5]»[6].

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ قال ابن جرير: «يقول: ولستم بخازني الماء الذي أنزلنا من السماء فأسقيناكموه، فتمنعوه مَن أَسْقيه، لأن ذلك بيدي وإليّ، أسقيه من أشاء، وأمنعه من أشاء»[7].

قال ابن كثير: «يحتمل أن المراد: وما أنتم له بحافظين؛ بل نحن ننزله ونحفظه عليكم، ونجعله معينا وينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٣٥٦-٣٥٧).
(٢) جامع البيان (١٤/ ٢٠).
(٣) جامع البيان (١٤/ ٢٢).
(٤) الواقعة: الآيات (٦٨-٧٠).
(٥) النحل: الآية (١٠).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٣١).
(٧) جامع البيان (١٤/ ٢٢).

من رحمته أنزله وجعله عذبا، وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك. ليبقى لهم في طول السنة، يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم»(١).

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في الريح؛ وأن منها ما يكون خيرا، ومنها ما يكون عذابًا

* عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: كان رسول اللَّه ﷺ إذا اشتدت الريح يقول: **«اللهم لَقَحًا لا عقيمًا»**(٢).

★ غريب الحديث:

لَقَحًا: بفتح اللام والقاف من باب تعب أي حاملا للماء، حيث تلقح السحاب، وهو أن تحمل الندى ثم تمجّه في السحاب، فإذا اجتمع في السحاب صار مطرًا.

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور»**(٣).

★ غريب الحديث:

الصبا: هي الريح الشرقية. قال ابن حجر: «يقال لها القَبول، بفتح القاف؛ لأنها تقابل باب الكعبة إذ مهبها من مشرق الشمس».

الدَّبور: هي الريح الغربية، وهي ضد الصبا.

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ إذا رأى مخيلة في السماء أقبل وأدبر ودخل وخرج وتغير وجهه، فإذا أمطرت السماء سُرّي عنه، فعرّفته عائشة ذلك فقال النبي ﷺ: **«وما أدري كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ**

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٣١).

(٢) أخرجه: البخاري في الأدب المفرد (٧١٨)، والطبراني في الكبير (٧/ ٣٧/ ٦٢٩٦)، وصححه ابن حبان (٣/ ٢٨٨/ ١٠٠٨) والحاكم (٤/ ٢٨٥) ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٣٥) وقال: «رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح غير المغيرة بن عبدالرحمن وهو ثقة». والمغيرة بن عبدالرحمن من رجال البخاري.

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٨)، والبخاري (٦/ ٤٦٣/ ٣٣٤٣)، ومسلم (٢/ ٦١٧/ ٩٠٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٦٩/ ١١٥٢٦) من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما.

أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾[١] الآية»[٢].

★ غريب الحديث:

مَخِيلة: سحابة فيها رعد وبرق يخيل إليه أنها ماطرة.

سُرِّي: أي: كشف عنه.

★ فوائد الحديث:

تضمنت هذه الأحاديث أن من الريح ما يكون لقِحًا يأتي بالخير والرحمة، ومنه ما يكون عقيمًا يأتي بالعذاب والهلاك؛ لذلك ينبغي الالتجاء إلى اللَّه عند اشتداد الريح، وسؤال اللَّه تعالى أن يجعلها ريحًا لقحًا تأتي بالخير، ولا يجعلها ريحًا عقيما تهلك الحرث والنسل.

وقد ثبت في حديث عائشة: كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به»[٣].

وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «الريح من روح اللَّه، تأتي بالرحمة، وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبوها، وسلوا اللَّه خيرها واستعيذوا باللَّه من شرها»[٤].

* * *

(١) الأحقاف: الآية (٢٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ١٦٧)، والبخاري (٦/ ٣٦٩/ ٣٢٠٦) واللفظ له، ومسلم (٢/ ٦١٦/ ٨٩٩)، والترمذي (٥/ ٣٥٦/ ٣٢٥٨)، والنسائي في الكبرى (١/ ٥٦٢/ ١٨٣١)، وابن ماجه (٢/ ١٢٨٠-١٢٨١/ ٣٨٩١) من طرق عن عائشة ﵂.

(٣) رواه مسلم (٨٩٩)(١٥).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٠) وأبو داود (٥/ ٣٢٨-٣٢٩/ ٥٠٩٧)، وابن ماجه (٢/ ١٢٢٨/ ٣٧٢٧)، وصححه ابن حبان (٣/ ٢٨٧/ ١٠٠٧) والحاكم على شرط الشيخين (٤/ ٢٨٥) ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝٢٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «هذه الآيات مع الآيات التي قبلها تضمنت العبرة والدلالة على قدرة اللَّه تعالى، وما يوجب توحيدَه وعبادَته، فمعنى هذه: وإنا لنحن نحيي من نشاء بإخراجه من العدم إلى وجود الحياة، وبرده عند البعث من مرقده ميتًا، ونميت بإزالة الحياة عمن كان حيًا، ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾؛ أي: لا يبقى شيء سوانا، وكل شيء هالك إلا وجهَه لا رب غيره»[(١)].

قال ابن جرير: «إنا لنحن نحيي من كان ميتا إذا أردنا ﴿وَنُمِيتُ﴾ من كان حيا إذا شئنا ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ يقول: ونحن نرث الأرض ومن عليها بأن نميت جميعهم، فلا يبقى حيّ سوانا إذا جاء ذلك الأجل»[(٢)].

قال الشنقيطي: «بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي يحيي ويميت، وأوضح ذلك في آيات كثيرة كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾[(٣)] وقوله تعالى: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾[(٤)] وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[(٥)] وبين في مواضع أخر أنه أحياهم مرتين وأماتهم مرتين كقوله: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾[(٦)] الآية. وقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[(٧)] والإماتة الأولى هي كونهم نُطفًا وعَلقًا ومُضغًا، والإماتة الثانية هي موتهم عند انقضاء آجالهم في الدنيا، والإحياءة الأولى نفخ الروح فيهم وإخراجهم أحياء من بطون أمهاتهم، والإحياءة الثانية بعثهم من قبورهم أحياء يوم القيامة»[(٨)].

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٣٥٧-٣٥٨).
(٢) جامع البيان (١٤/ ٢٣).
(٣) ق: الآية (٤٣).
(٤) البقرة: الآية (٢٥٨).
(٥) الدخان: الآية (٨).
(٦) غافر: الآية (١١).
(٧) البقرة: الآية (٢٨).
(٨) الأضواء (٢/ ٢٧٣).

قال الرازي: «وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ يفيد الحصر أي: لا قدرة على الإحياء ولا على الإماتة إلا لنا، وقوله: ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ معناه: أنه إذا مات جميع الخلائق؛ فحينئذ يزول مُلك كل أحد عند موته، ويكون اللَّه هو الباقي الحق المالك لكل المملوكات وحده، فكان هذا شبيهًا بالإرث، فكان وارثا من هذا الوجه»[(١)].

وقال الشنقيطي: «بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه الوارث، ولم يبين الشيء الذي يرثه، وبيّن في مواضع أخر أنه يرث الأرض ومن عليها كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[(٢)] وقوله: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ ومعنى ما يقول؛ أي: نرثه الذي يقول إنه يؤتاه يوم القيامة من المال والولد؛ كما ذكره اللَّه عنه في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[(٣)] ومعنى كونه يرث الأرض من عليها، أنه يبقى بعد فناء خلقه متصفًا بصفات الكمال والجلال، يفعل ما يشاء كيف يشاء»[(٤)].

* * *

(١) التفسير الكبير (١٩/ ١٨٦).
(٢) مريم: الآية (٤٠).
(٣) مريم: الآية (٧٧).
(٤) الأضواء (٢/ ٢٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «أخبر تعالى بإحاطة علمه بمن تقدم من الأمم، وبمن تأخر في الزمن من لدن أهبط آدم إلى الأرض إلى يوم القيامة، وأعلم أنه هو الحاشر لهم الجامع لعرض القيامة على تباعدهم في الأزمان والأقطار، وأن حكمته وعلمه يأتيان بهذا كله على أتم غاياته التي قدرها وأرادها.. بهذا سياق معنى الآية، وهو قول جمهور المفسرين»[1].

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم: معنى ذلك: ولقد علمنا من مضى من الأمم، فتقدّم هلاكهم، ومن قد خلق وهو حيّ، ومن لم يخلق بعدُ ممن سيخلق.. وقال آخرون: عنى بالمستقدمين الذين قد هلكوا، والمستأخرين: الأحياء الذين لم يهلِكوا.. وقال آخرون: بل معناه: ولقد علمنا المستقدمين في أوّل الخلق والمستأخرين في آخرهم.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولقد علمنا المستقدمين من الأمم، والمستأخرين من أمة محمد ﷺ.. وقال آخرون: بل معناه: ولقد علمنا المستقدمين منكم في الخير، والمستأخرين عنه.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: ولقد علمنا المستقدمين منكم في الصفوف في الصلاة، والمستأخرين فيها بسبب النساء.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال عندي في ذلك بالصحة قول من قال: معنى ذلك: ولقد علمنا الأموات منكم يا بني آدم فتقدّم موته، ولقد علمنا المستأخرين الذين استأخر موتهم ممن هو حيّ، ومن هو حادث منكم ممن لم يحدث بعدُ؛ لدلالة ما قبله من الكلام، وهو قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ وما بعده

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٣٥٨).

وهو قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ على أن ذلك كذلك، إذ كان بين هذين الخبرين، ولم يجر قبل ذلك من الكلام ما يدلّ على خلافه، ولا جاء بعد. وجائز أن تكون نزلت في شأن المستقدمين في الصفّ لشأن النساء والمستأخرين فيه لذلك، ثم يكون اللَّه ﷻ عمّ بالمعنى المراد منه جميع الخلق، فقال-جل ثناؤه- لهم: قد علمنا ما مضى من الخلق وأحصيناهم، وما كانوا يعملون، ومن هو حيّ منكم ومن هو حادث بعدكم أيها الناس، وأعمال جميعكم خيرها وشرّها، وأحصينا جميع ذلك ونحن نحشر جميعهم، فنجازي كلًّا بأعماله، إن خيرًا فخيرًا وإن شرًّا فشرًّا. فيكون ذلك تهديدًا ووعيدًا للمستأخرين في الصفوف لشأن النساء، ولكلّ من تعدّى حدّ اللَّه وعمل بغير ما أذن له به، ووعدًا لمن تقدّم في الصفوف لسبب النساء، وسارع إلى محبة اللَّه ورضوانه في أفعاله كلها»[١].

وقال الرازي: «واعلم أنه تعالى لما قال: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ أتبعه بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ تنبيهًا على أنه لا يخفى على اللَّه شيء من أحوالهم، فيدخل فيه علمه تعالى بتقدمهم وتأخرهم في الحدوث والوجود، وبتقدمهم وتأخرهم في أنواع الطاعات والخيرات، ولا ينبغي أن نخص الآية بحالة دون حالة»[٢].

قال القرطبي: «هذا يدل على فضل أول الوقت في الصلاة، وعلى فضل الصف الأول، قال النبي ﷺ: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا»[٣]. كما تدل هذه الآية على فضل الصف الأول في الصلاة؛ فكذلك تدل على فضل الصف الأول في القتال، فإن القيام في نحر العدو، وبيع العبد نفسه من اللَّه تعالى لا يوازيه عمل، فالتقدم إليه أفضل، ولا خلاف فيه، ولا خفاء به»[٤].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾

قال ابن جرير: «يعني بذلك-جل ثناؤه- وإن ربك يا محمد هو يجمع جميع الأوّلين والآخرين عنده يوم القيامة، أهل الطاعة منهم والمعصية، وكلّ أحد من

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٢٣-٢٦).
(٢) التفسير الكبير (١٩/ ١٨٧).
(٣) سيأتي تخريجه.
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٥).

خلقه، المستقدمين منهم والمستأخرين»[١].

قال الرازي: «وأما قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ فالمراد منه التنبيه على أن الحشر والنشر والبعث والقيامة أمر واجب، وقوله: ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ معناه: أن الحكمة تقتضي وجوب الحشر والنشر»[٢].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة
في أن التقدم إلى الصف الأول مندوب إليه

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**خير صفوف الرجال أولها، وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرها أولها**»[٣].

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**خير صفوف الرجال المقدم، وشرها المؤخر، وخير صفوف النساء المؤخر، وشرها المقدم**»[٤].

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «قوله: «**خير صفوف الرجال أولها**»: يعني: أكثرها أجرًا، وعلى ذلك فقوله: «وشرها آخرها» يعني: أقلها أجرًا؛ لا أن ذلك ذمّ لآخرها. فإنه يلزم أن تحرم الصلاة فيه، وليس كذلك بالاتفاق، وكذلك القول في صفوف النساء. وإنما كان ذلك لأن الصف الأول من صفوف الرجال يستحق بكمال الأوصاف، ويختص بكمال الضبط على الإمام والاقتداء والتبليغ، وكل ذلك معدوم في النساء، فاقتضى ذلك تأخيرهن فأما الصف الأول من صفوف النساء فإنما كان شرًّا من آخرها لما فيه من مقاربة أنفاس الرجال للنساء، فقد يُخاف أن تشوِّش المرأة على الرجل، والرجل على المرأة»[٥].

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٢٦-٢٧). (٢) التفسير الكبير (١٩/ ١٨٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٦)، ومسلم (١/ ٣٢٦/ ٤٤٠) واللفظ له، وأبو داود (١/ ٤٣٨/ ٦٧٨)، والترمذي (١/ ٤٣٥-٤٣٦/ ٢٢٤) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي (٢/ ٤٢٨-٤٢٩/ ٨١٩)، وابن ماجه (١/ ٣١٩/ ١٠٠٠).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٣)، وصححه ابن خزيمة (٣/ ٢٨/ ١٥٦٢) وابن حبان (٢/ ١٢٧-١٢٨/ ٤٠٢).

(٥) المفهم (٢/ ٦٧).

قال القاضي عياض: «قوله: «**وشر صفوف الرجال آخرها**»: أي: أقلها أجرًا، فهو بالإضافة إلى الأول ناقص، وقد يكون سماه شرًا لمخالفة أمره فيها ﷺ وتحذيرًا من فعل المنافقين بتأخرهم عنه وعن سماع ما يأتي به، ويكون شر صفوف النساء أولها لقربهن من الرجال وتحضيضًا على بعد أنفاسهن من أنفاسهم؛ ولهذا صار آخرها خيرها، ولما في ذلك من سترهن بمن تقدمهن»[1].

وقال النووي: «فالمراد بالحديث صفوف النساء اللواتي يصلين مع الرجال، وأما إذا صلّين متميزات لا مع الرجال فهن كالرجال؛ خير صفوفهن أولها وشرها آخرها، والمراد بشر الصفوف في الرجال والنساء أقلها ثوابًا وفضلًا، وأبعدها من مطلوب الشرع وخيرها بعكسه، وإنما فضل آخر صفوف النساء الحاضرات مع الرجال لبعدهن من مخالطة الرجال ورؤيتهم وتعلق القلب بهم عند رؤية حركاتهم وسماع كلامهم ونحو ذلك وذم أول صفوفهن لعكس ذلك والله أعلم»[2].

* عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الصف الأول لعلى مثل صف الملائكة، ولو تعلمون فضيلته لابتدرتموه**»[3].

★ **فوائد الحديث:**

قال محمود محمد خطاب السبكي: «قوله: «**وإن الصف الأول...**» أي: في القرب من الله تعالى والبعد من الشيطان على فضل وأجر مثل أجر صف الملائكة وفضله. فشبه الصف الأول في قربهم من الإمام بصف الملائكة في قربهم من رحمة الله تعالى. وهذه من مزايا الملائكة، فلا يقال: إنهم أكثر أجرًا وفضلًا من الآدميين»[4].

* عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله وملائكته يصلون**

---

(١) إكمال المعلم (٢/ ٣٥١).

(٢) شرح مسلم (٤/ ١٣٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ١٤٠)، وأبو داود (١/ ٣٧٥-٣٧٦/ ٥٥٤)، والنسائي (٢/ ٤٣٩-٤٤٠/ ٨٤٢)، وصححه ابن خزيمة (٢/ ٣٦٦-٣٦٧/ ١٤٧٦)، وابن حبان (٥/ ٤٠٥/ ٢٠٥٦) والحاكم (١/ ٢٤٧)، من طرق عن أبي إسحاق أنه أخبرهم عن عبدالله بن أبي بصير عن أبيّ، إلا النسائي فقد رواه عن عبدالله بن أبي بصير عن أبيه عن أبي، وعبدالله بن أبي بصير لا يعرف له راو غير أبي إسحاق السبيعي، وقد صرح أبو إسحاق بالسماع.

(٤) المنهل العذب (٤/ ٢٤٥).

على الصف الأول». وفي لفظ: «على الصفوف الأول»[(١)].

★ فوائد الحديث:

قال السبكي: «قوله: «إن اللَّه ﷻ وملائكته...» أي: إن اللَّه تعالى ينزل رحمته على عباده الذين يصلون في الصفوف الأول وكذا الملائكة تستغفر لهم، وكان الصف الأول أشرف؛ لأن من فيه قريبون من رحمة اللَّه تعالى، وسماع القراءة، وإرشاد الإمام»[(٢)].

* عن العرباض بن سارية ﵁ قال: «كان رسول اللَّه ﷺ يصلي على الصف الأول ثلاثًا، وعلى الثاني واحدة»[(٣)].

★ فوائد الحديث:

قال السندي: قوله: «يصلي على الصف الأول ثلاثًا» أي: يدعو لهم بالرحمة ويستغفر لهم ثلاث مرات كما فعل بالمحلقين والمقصرين. والظاهر أنه دعا لهم أعم من أن يكون بلفظ الصلاة أو غيره ويحتمل خصوص لفظ الصلاة أيضًا واللَّه أعلم»[(٤)].

قال المناوي: «أي: يطلب منه الغفر أي: الستر لذنوب أهل الصف الأول في الصلاة، وهو الذي يلي الإمام، ويكرره ثلاثًا من المرات اعتناءً بشأنهم، وللثاني مرة أي: ويستغفر للصف الثاني مرة واحدة؛ إشارة إلى أنهم دون الأول في الفضل وسكت عما دون ذلك من الصفوف؛ فكأنه كان لا يخصهم بالاستغفار تأديبًا لهم على تقصيرهم وتهاونهم في حيازة فضل ذينك الصفين»[(٥)].

* عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لو يعلم الناس ما في النداء

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٠٤)، وأبو داود (١/ ٤٣٢/ ٦٦٤)، والنسائي (٢/ ٤٢٥/ ٨١٠)، وابن ماجه (١/ ٣١٨-٣١٩/ ٩٩٧)، وصححه ابن خزيمة (٣/ ٢٤/ ١٥٥١)، وابن حبان (٥/ ٥٣٠-٥٣١/ ٢١٥٧).

(٢) المنهل العذب (٥/ ٥٥).

(٣) أخرجه: النسائي (٢/ ٤٢٧/ ٨١٦) واللفظ له، والبغوي (٣/ ٣٧٢/ ٨١٦)، والبيهقي (٣/ ١٠٢-١٠٣)، وصححه ابن حبان (٥/ ٥٣١/ ٢١٥٨).

وأخرجه: أحمد (٤/ ١٢٦)، وابن ماجه (١/ ٣١٨/ ٩٩٦)، وصححه ابن خزيمة (٣/ ٢٦-٢٧/ ١٥٥٨) والحاكم (١/ ٢١٤) ووافقه الذهبي.

(٤) حاشية السندي (٢/ ٤٢٧).

(٥) فيض القدير (٥/ ٢١٩).

والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ ابن رجب: «يعني لو تعلمون ما فيهما من الفضل والثواب ثم لا يجدون الوصل إليهما إلا بالاستهام عليهما -معناه: الإقراع- لاستهموا عليهما؛ تنافسًا فيهما ومشاحة في تحصيل فضلهما وأجرهما، وقد قيل: إن الضمير في قوله: «لاستهموا عليه» يعود إلى الصف الأول؛ لأنه أقرب المذكورين ولم يقل (عليهما)، والأظهر أنه يعود إلى النداء والصف الأول؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾[٢]. وقد دل الحديث على القرعة في التنافس في الصف الأول إذا استبق إليه اثنان وضاق عنهما، وتشاحا فيه؛ فإنه يقرع بينهما، وهذا مع تساويهما في الصفات»[٣].

قال الحافظ ابن عبدالبر: «وفي هذا الحديث أيضًا فضل النداء وهو الأذان، وفضل الصف الأول، وفضل البكور بالهاجرة إلى الصلاة في المسجد في الجمعة وغيرها، ولا أعلم خلافًا بين العلماء أن من بكر وانتظر الصلاة وإن لم يصلّ في الصف الأول؛ أفضل ممن تأخر ثم تخطى إلى الصف الأول، وفي هذا ما يوضح لك معنى فضل الصف الأول؛ أنه ورد من أجل البكور إليه والتقدم. والله أعلم»[٤].

قال النووي: «واعلم أن الصف الأول الممدوح الذي قد وردت الأحاديث بفضله والحث عليه هو الصف الذي يلي الإمام؛ سواء جاء صاحبه متقدمًا أو متأخرًا؛ وسواء تخلله مقصورة ونحوها أم لا. هذا هو الصحيح الذي يقتضيه ظواهر الأحاديث، وصرح به المحققون ونحوها فإن تخلل الذي يلي الإمام شيء فليس بأول، بل الأول ما لا يتخلله شيء وإن تأخر، وقيل: الصف الأول عبارة عن مجيء الإنسان إلى المسجد أولًا وإن صلى في صف متأخر، وهذان القولان غلط صريح، وإنما أذكره ومثله لأنبه على بطلانه لئلا يغتر به، والله أعلم»[٥].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٣)، والبخاري (٢/ ١٢٢/ ٦١٥)، ومسلم (١/ ٣٢٥/ ٤٣٧)، والترمذي (١/ ٤٣٧/ ٢٢٥)، والنسائي (١/ ٢٩٠-٢٩١/ ٥٣٩).

(٢) التوبة: الآية (٦٢).

(٣) فتح الباري لابن رجب (٥/ ٢٨٦-٢٨٨).

(٤) فتح البر (٦/ ٣٨٧).

(٥) شرح مسلم (٤/ ١٣٤).

قال الحافظ ابن حجر: «قال العلماء: في الحض على الصف الأول المسارعةُ إلى خلاص الذمة، والسبق لدخول المسجد، والقرب من الإمام، واستماع قراءته، والتعلم منه، والفتح عليه، والتبليغ عنه، والسلامة من اختراق المارة بين يديه، وسلامة البال من رؤية من يكون قدامه، وسلامة موضع سجوده من أذيال المصلين»[1].

* * *

(١) فتح الباري (٢/ ٢٦٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾

★ غريب الآية

صلصال: طين يابس له صلصلة؛ أي: صوت.

حمأ: الحَمَأُ والحَمْأَةُ: الطين الأسود. يقال: حَمَأْتُ البِئْرَ وأَحْمَأْتُها: إذا أَلْقَيْت فيها الحَمْأَة.

مسنون: أي: مصبوب. أصله من سَنَنْتُ الماءَ: إذا صَبَبْتُهُ. وقيل: معناه: متغير منتن. من قولك: سننت الحديد على المِسَنّ، أي الآلة إذا غَيَّرْتها بالحديد.

الجان: أي الجن.

السَّموم: الريح الحارة القاتلة. يقال: سَمّ يومُنا: إذا هبت فيه ريح السَّموم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال أبو حيان: «لما نبه تعالى على منتهى الخلق، وهو الحشر يوم القيامة إلى ما يستقرّون فيه؛ نبههم على مبدأ أصلهم آدم، وما جرى لعدوه إبليس من المحاورة مع اللَّه تعالى. وتقدم شيء من هذه القصة في أوائل البقرة عقب ذكر الإماتة والإحياء والرجوع إليه تعالى. وفي الأعراف بعد ذكر يوم القيامة، وذكر الموازين فيه. وفي الكهف بعد ذكر الحشر، وكذا في سورة ص بعد ذكر ما أعد من الجنة والنار لخلقه. فحيث ذكر منتهى هذا الخلق ذكر مبدأهم وقصته مع عدوه إبليس؛ ليحذّرهم من كيده، ولينظروا ما جرى له معه حتى أخرجه من الجنة مقر السعادة والراحة، إلى الأرض مقر التكليف والتعب، فيتحرزوا من كيده»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولقد خلقنا آدم وهو الإنسان من

(١) البحر المحيط (٥/ ٤٤٠).

صلصال. واختلف أهل التأويل في معنى الصلصال، فقال بعضهم: هو الطين اليابس لم تصبه نار، فإذا نقرته صَلَّ فسمعت له صلصلة.. وقال آخرون: الصلصال: المنتن، وكأنهم وجّهوا ذلك إلى أنه من قولهم: صلّ اللحم وأصلّ، إذا أنتن، يقال ذلك باللغتين كلتيهما: يفعل وأفعل.. والذي هو أولى بتأويل الآية؛ أن يكون الصلصال في هذا الموضع الذي له صوت من الصلصلة، وذلك أن اللَّه تعالى وصفه في موضع آخر فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾[1] فشبهه -تعالى ذكره- بأنه كان كالفخّار في يُبسه. ولو كان معناه في ذلك المُنتِن لم يشبهه بالفخّار، لأن الفخار ليس بمنتن فيشبّه به في النتن وغيره»[2].

قال ابن كثير: «والظاهر أنه كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[3] وعن مجاهد أيضا: الصلصال: المنتن، وتفسير الآية بالآية أولى»[4].

قال الشنقيطي: «اعلم أن اللَّه -جل وعلا- أوضح في كتابه أطوار هذا الطين الذي خلق منه آدم، فبين أنه أولًا تراب بقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[5] وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾[6] وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾[7] الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

ثم أشار إلى أن ذلك التراب بلّ، فصار طينًا يَعْلَق بالأيدي في مواضع أخر كقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾[8] وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾[9] وقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ﴾[10] إلى غير ذلك من الآيات. وبيّن أن ذلك الطين أسود، وأنه متغيّر بقوله هنا: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾. وبيّن أيضًا أنه يَبُس حتى صار صلصلًا؛ أي: تسمع له صلصلة مِن يُبسه بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ﴾

(١) الرحمن: الآية (١٤).
(٢) جامع البيان (١٤/ ٢٧-٢٨).
(٣) الرحمن: الآيتان (١٤و١٥).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٣٣).
(٥) آل عمران: الآية (٥٩).
(٦) الحج: الآية (٥).
(٧) غافر: الآية (٦٧).
(٨) الصافات: الآية (١١).
(٩) المؤمنون: الآية (١٢).
(١٠) السجدة: الآية (٧).

الآية. وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾. والعلم عند اللَّه تعالى»[١].

قال ابن كثير: «ومقصود الآية: التنبيه على شرف آدم ﷺ، وطيب عنصره، وطهارة محتِده»[٢].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾:

قال ابن جرير: «عنى بالجان ههنا إبليس أبا الجنّ. يقول -تعالى ذكره-: وإبليس خلقناه من قبل الإنسان من نار السَّموم.. واختلف أهل التأويل في معنى نار السَّموم فقال بعضهم: هي السموم الحارّة التي تقتل.. وقال آخرون: يعني بذلك: من لهب النار»[٣].

قال ابن عطية: «وأما إضافة نارٍ إلى السَّموم في هذه الآية؛ فيحتمل أن تكون النار أنواعًا، ويكون السَّموم أمرًا يختص بنوع منها؛ فتصح الإضافة حينئذ وإن لم يكن هذا، فيخرج هذا على قولهم: مسجد الجامع، ودار الآخرة على حذف المضاف»[٤].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في خلق آدم والجان

* عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»[٥].

★ فوائد الحديث:

قال المناوي: «قوله: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان» أبو الجن أو إبليس «من مارج من نار» أي: من نار مختلطة بهواء مشتعل، والمرج: الاختلاط، فهو من عنصرين: هواء ونار، كما أن آدم من عنصرين: تراب وماء عُجن به، فحدث له اسم الطين، كما حدث للجن اسم المارج. «وخلق آدم مما وصف لكم» بناء «وُصِفَ» للمفعول؛ أي: بما وصفه اللَّه لكم في مواضع من كتابه ففي بعضها

(١) الأضواء (٢/ ٢٧٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٣٤).
(٣) جامع البيان (١٤/ ٣٠).
(٤) المحرر الوجيز (٣/ ٣٥٩).
(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ١٥٣)، ومسلم (٤/ ٢٢٩٤/ ٢٩٩٦).

أنه خلقه من ماء، وفي بعضها: من تراب، وفي بعضها: من المركب منهما وهو الطين، وفي بعضها من صلصال وهو طين ضربته الشمس والريح حتى صار كالفخار. قال الغزالي: قد اجتمع في الفخار والنار والطين، والطين طبعه السكون، والنار طبعها الحركة، فلا يتصور نار مشتعلة تسكن بل لا تزال تتحرك بطبعها، وقد كلف المخلوق من النار أن يطمئن من حركته ساجدًا لما خلق من طين، فأبى واستكبر أن يسجد لآدم، فلا مطمع في سجوده لأولاده»[(١)].

قوله: «**خلق آدم مما وصف لكم**»: **قال القرطبي**: «أي: مما أعلمكم به؛ أي: من تراب صير طينًا ثم فخارًا كما أخبرنا به تعالى في غير موضع من كتابه، والفخار: الطين اليابس»[(٢)].

وقال القاري: «قوله: «**مما وصف لكم**»: على بناء المفعول؛ أي: مما بينه اللَّه لكم في قوله: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾[(٣)] وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾[(٤)] وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ وقوله: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾[(٥)]. ولعل كثرة ما ورد في حقه مع اشتهارها أوجبت الإبهام في قوله: «مما وصف لكم»»[(٦)].

* * *

(١) فيض القدير (٣/ ٤٥٠).
(٢) المفهم (٧/ ٣١٥).
(٣) آل عمران: الآية (٥٩).
(٤) الرحمن: الآية (١٤).
(٥) ص: الآية (٧١).
(٦) المرقاة (٩/ ٦٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له، وتشريفه إياه بأمره الملائكة بالسجود له. ويذكر تخلف إبليس عدوّه عن السجود له من بين سائر الملائكة، حسدًا وكفرًا، وعنادًا واستكبارًا، وافتخارًا بالباطل، ولهذا قال: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[1] وقوله: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2]»[3].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ بين في هذه الآية الكريمة أن إبليس أبى أن يسجد لآدم، وبيّن في مواضع أخر أنه تكبر عن امتثال أمر ربه كقوله في البقرة: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾[4] الآية. وقوله في ص: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[5] وأشار إلى ذلك هنا بقوله: «﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ بيّن تعالى في هذه الآية

(١) الأعراف: الآية (١٢).
(٢) الإسراء: الآية (٦٢).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٥٢).
(٤) البقرة: الآية (٣٤).
(٥) ص: الآية (٧٤).

الكريمة أنه سأل إبليس سؤال توبيخ وتقريع عن الموجب لامتناعه من السجود لآدم، الذي أمره به ربه -جل وعلا-، وبين أيضًا في الأعراف وص أنه وبّخه أيضًا بهذا السؤال؛ قال في الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[1] الآية. وقال في ص: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[2] الآية. وناداه باسمه إبليس في الحجر وص، ولم يناده به في الأعراف.

قوله تعالى: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ هذا القول الذي ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة عن إبليس لعنه الله؛ أنه لم يكن ليسجد لبشر مخلوق من الطين؛ مقصوده به أنه خير من آدم؛ لأن آدم خلق من الطين، وهو خلق من النار؛ كما يوضحه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[3]»[4].

* * *

(١) الأعراف: الآية (١٢).
(٢) ص: الآية (٧٥).
(٣) الأعراف: الآية (١٢).
(٤) أضواء البيان (٢/ ٢٧٥).

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى آمرًا لإبليس أمرًا كونيا لا يخالَف ولا يمانَع، بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملأ الأعلى، وإنه ﴿رَجِيمٌ﴾ أي: مرجوم. وإنه قد أتبعه لعنةً لا تزال متصلة به، لاحقةً له، متواترة عليه إلى يوم القيامة.. وإنه لما تحققَ الغضبَ الذي لا مَرَدَّ له؛ سأل من تمام حسده لآدم وذريته النَّظِرة إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث، وأنه أجيب إلى ذلك استدراجًا له وإمهالًا»(١).

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ بين تعالى في هذه الآية الكريمة؛ أنه أمر إبليس بالخروج من الجنة، مؤكِّدًا أنه رجيم، وبيّن في الأعراف أنه خروجُ هبوط، وأنه يخرج متصفًا بالصغار والذل والهوان بقوله: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾(٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ بيّن في هذه الآية الكريمة؛ أن اللعنة على إبليس إلى يوم الدين، وصرح في ص بأن لعنته -جل وعلا- على إبليس إلى يوم الدين بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾(٣)»(٤).

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٣٤-٥٣٥).

(٢) الأعراف: الآية (١٣).

(٣) ص: الآية (٧٨).

(٤) الأضواء (٢/ ٢٧٦).

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

٭ غريب الآية

أغويتني: أضللتني. والإغواء: خلاف الإرشاد. يقال: أغويته إذا حملته على الغي وهو الباطل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ قال بعضهم: أقسم بإغواء اللَّه له.

قلت: ويحتمل أنه بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ أي: لذرية آدم، عليه السلام ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أُحبِّب إليهم المعاصي وأرغِّبهم فيها، وأؤزهم إليها، وأزعجهم إزعاجًا، ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ أي: كما أغويتني ونذرتُ على ذلك، ﴿أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ كما قال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]»[2].

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة؛ أن إبليس أخبر أنه سيبذل جهده في إضلال بني آدم حتى يضل أكثرهم، وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ

---

(١) الإسراء: الآية (٦٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٥٣).

ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾(١) وقوله: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾(٢) الآية. وقوله: «﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٣) وهذا قاله إبليس قبل أن يقع؛ ظنًا منه أنه يتمكن من إضلال أكثر بني آدم، وقد بيّن تعالى أنه صدق ظنه هذا بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٤) وكل آية فيها ذكر إضلال إبليس لبني آدم بيّن فيها أن إبليس وجميع من تبعه كلهم في النار؛ كما قال هنا: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ الآية. وقال في الأعراف: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٥) وقال في سورة بني إسرائيل: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾(٦) وقال في ص: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٧).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الشيطان لما أوعد بأنه سيضل أكثر بني آدم؛ استثنى من ذلك عباد اللّٰه المخلصين معترفًا بأنه لا قدرة له على إضلالهم، ونظيره قوله في ص أيضًا: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾(٨) وعباد اللّٰه المخلصون هم المرادون بالاستثناء في قوله في بني إسرائيل: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٩) وقوله في سبأ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(١٠) وهم الذين احترز منهم بقوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾(١١) وبين تعالى في مواضع أخر أن الشيطان لا سلطان له على أولئك المخلصين؛ كقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ الآية. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾(١٢) الآية. وقوله: ﴿وَمَا

---

(١) الأعراف: الآيتان (١٦و١٧).
(٢) النساء: الآية (١١٨).
(٣) الإسراء: الآية (٦٢).
(٤) سبأ: الآية (٢٠).
(٥) الأعراف: الآية (١٨).
(٦) الإسراء: الآية (٦٣).
(٧) ص: الآيتان (٨٤و٨٥).
(٨) ص: الآيتان (٨٢و٨٣).
(٩) الإسراء: الآية (٦٢).
(١٠) سبأ: الآية (٢٠).
(١١) الأعراف: الآية (١٧).
(١٢) النحل: الآيتان (٩٩و١٠٠).

﴿كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾[١] الآيــــة. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾[٢][٣].

قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ **قال ابن كثير**: «أي: مرجعكم كلكم إليّ فأجازيكم بأعمالكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[٤]. وقيل: طريق الحق مرجِعُها إلى اللَّه تعالى، وإليه تنتهي. قاله مجاهد، والحسن، وقتادة، كما قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾[٥]..

وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي: الذين قدّرت لهم الهداية؛ فلا سبيل لك عليهم، ولا وصول لك إليهم، ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ استثناء منقطع.

وقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، كما قال عن القرآن: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾[٦].

ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب؛ ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ أي: قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه، لا محيد لهم عنه -أجارنا اللَّه منها- وكل يدخل من بابٍ بحسَب عمله، ويستقر في دَرَكٍ بقدر فعله»[٧].

قال صديق حسن خان: «والمعنى أن اللَّه تعالى يجزّئ أتباع إبليس سبعة أجزاء، فيدخل كل جزء وقسم دركة من النار، والسبب فيه أن مراتب الكفر والمعاصي مختلفة، فلذلك اختلفت مراتبهم في النار. قال الخطيب: تخصيص هذا العدد؛ لأن أهلها سبع فرق. وقيل: جعلت سبعة على وفق الأعضاء السبعة؛ من العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل؛ لأنها مصادر السيئات، فكانت مواردها الأبواب السبعة. ولما كانت هي بعينها مصادر الحسنات بشرط النية، والنية من أعمال القلب زادت الأعضاء واحدًا فجلعت أبواب الجنان ثمانية. انتهى.

أقول: الحكمة في تخصيص هذا العدد لا تنحصر فيما ذكر، بل الأولى

---

(١) سبأ: الآية (٢١).
(٢) إبراهيم: الآية (٢٢).
(٣) أضواء البيان (٢/ ٢٧٦-٢٧٧).
(٤) الفجر: الآية (١٤).
(٥) النحل: الآية (٩).
(٦) هود: الآية (١٧).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٣٥-٥٣٦).

تفويضها إلى جاعلها وهو اللَّه سبحانه، إلا أن يرِد خبر صحيح عن النبي ﷺ فيجب المصير إليه»(١).

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في عدد أبواب جهنم أعاذنا اللَّه منها

* عن عتبة بن عبدٍ السلمي رضي الله عنه -وكان من أصحاب النبي ﷺ- أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**القتلى ثلاثة: رجل مؤمن جاهد بنفسه وماله في سبيل اللَّه حتى إذا لقي العدو، قاتلهم حتى يُقتل، فذلك الشهيد المُمتحَن في خيمة اللَّه تحت عرشه، ولا يَفْضُلُهُ النبيون إلا بفضل درجة النبوة. ورجل مؤمن قَرَفَ على نفسه من الذنوب والخطايا، جاهد بنفسه وماله في سبيل اللَّه حتى إذا لقي العدو قاتل حتى قُتل، فتلك مصمصة مَحت ذنوبه وخطاياه، إن السيف محّاء للخطايا، وأُدخل من أي أبواب الجنة شاء، فإن لها ثمانية أبواب، ولجهنم سبعة أبواب، وبعضها أفضل من بعض. ورجل منافق، جاهد بنفسه وماله في سبيل اللَّه حتى إذا لقي العدو، قاتل حتى قُتل فذلك في النار، إن السيف لا يمحو النفاق**»(٢).

★ **غريب الحديث:**

قرف: يقال: قرف الذنب، واقترفه: إذا عمله، وقارف الذنب وغيره: إذا داناه ولاصقه.

★ **فوائد الحديث:**

في الحديث: أن لجهنم سبعة أبواب، كما أن للجنة ثمانية أبواب.

* عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ومنهم من تأخذه إلى حجزته ومنهم من تأخذه إلى عنقه**»(٣).

★ **غريب الحديث:**

حجزته: هي بضم الحاء وإسكان الجيم، وهي معقد الإزار والسراويل.

---

(١) فتح البيان (٧/ ١٧٢-١٧٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٨٥-١٨٦)، والطبراني في الكبير (١٧/ ١٢٥/ ٣١٠)، وابن حبان (١٠/ ٥١٩/ ٤٦٦٣). قال الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٩١): «رجال أحمد رجال الصحيح خلا المثنى الأملوكي وهو ثقة».

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ١٠، ١٨)، ومسلم (٤/ ٢١٨٥/ ٢٨٤٥).

★ **فوائد الحديث:**

أخرج هذا الحديث بمعناه ابن أبي حاتم في تفسيره مع ذكر قوله تعالى فيه: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ وذلك يدل على اختلاف المراتب في النار بحسب اختلاف مراتب العباد في الكفر والمعاصي، وتفاوتهم في الغي والضلال.

قال القرطبي: «وهذا الحديث أيضًا يدل على أن أهل النار يتفاوتون فيها، ويصح مثل هذا في الكفار كما قلناه في حديث أبي طالب. ويصح أن يكون ذلك فيمن يعذب من الموحدين، إلا أن اللَّه تعالى يميتهم إماتة كما صح في الحديث». اهـ[1].

قال القرطبي: «هذا الباب يدلك على أن كفر من كفر فقط؛ ليس ككفر من طغى وكفر وتمرد وعصى، ولا شك في أن الكفار في عذاب جهنم متفاوتون كما قد علم من الكتاب والسنة، ولأنا نعلم على القطع والثبات أنه ليس عذاب من قَتَل الأنبياء والمرسلين وفتك فيهم، وأفسد في الأرض وكفر؛ مساويًا لعذاب من كفر فقط وأحسن للأنبياء والمسلمين؛ ألا ترى أن أبا طالب كيف أخرجه النبي ﷺ إلى ضحضاح لنصرته إياه وذبه عنه وإحسانه إليه، ويصح أن يكون فيمن يعذب من الموحدين، إلا أن اللَّه تعالى يميتهم إماتة.. وذكر الفقيه أبو بكر بن برجان حديث مسلم في معنى قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[2]. قال: أرى -واللَّه أعلم- أن هؤلاء الموصوفين في هذه الآية والحديث أهلُ التوحيد؛ فإن الكافر لا تعاف النار منه شيئًا، وكما اشتمل في الدنيا على الكفر شملته النار في الآخرة؛ قال اللَّه تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أي: أن ما فوقهم ظلل لهم وما تحتهم ظلل لمن تحتهم»[3].

* * *

---

(١) المفهم (٧/ ١٨٩).

(٢) الأحقاف: الآية (١٩).

(٣) التذكرة (ص: ٤٠٩-٤١٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «ذكر تعالى ما أعد لأهل الجنة عقب ذكره ما أعدّ لأهل النار؛ ليظهر التباين»[١].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن الذين اتقوا اللَّه بطاعته، وخافوه فتجنبوا معاصيه؛ في جنات وعيون، يقال لهم: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ من عقاب اللَّه، أو أن تُسلبوا نعمة أنعمها اللَّه عليكم، وكرامة أكرمكم بها»[٢].

قال الشنقيطي: «بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن المتقين يوم القيامة في جنات وعيون، ويقال لهم يوم القيامة: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ﴾، وذكر في مواضع أخر صفات ثوابهم، وربما بين بعض تقواهم التي نالوا بها هذا الثواب الجزيل؛ كقوله في الذاريات: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[٣] وقوله في الدخان: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٤]، وقوله في الطور: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾[٥] وقوله في القمر: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ

---

(١) المحرر الوجيز (٣/ ٣٦٣).
(٢) جامع البيان (١٤/ ٣٦).
(٣) الذاريات: الآيات (١٥-١٩).
(٤) الدخان: الآيات (٥١-٥٧).
(٥) الطور: الآيات (١٧-٢٠).

مُّقْتَدِرِۭ﴾[1]، وقوله في المرسلات: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات»[3].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة
في ذكر بعض أسباب دخول الجنة بسلام

* عن عبدالله بن سلام ﷺ قال: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، انجفل الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله ﷺ، قدم رسول الله ﷺ. فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استَبَنْتُ وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: **يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام وصلوا والناس نيام، تدخلون الجنة بسلام**»[4].

★ غريب الحديث:

انجفل الناس إليه: أي: ذهبوا مسرعين إليه يقال: جفل وأجفل وانجفل.

استَبَنت وجه رسول الله ﷺ: عرفته وتبينته، نقول: استبان الشيء؛ أي: ظهر وتبين.

ليس بوجهِ كذّابٍ: بالإضافة، ويُنوَّن: بوجهٍ ذي كذبٍ؛ فإن الظاهر عنوان الباطن.

أفشوا السلام: أي: أظهروه وانشروه وأكثروه على من تعرفونه وعلى من لا تعرفونه من المسلمين. في رواية الإمام أحمد[5]: زيادة صلة الأرحام.

★ فوائد الحديث:

دخول الجنة الموعود به إجمالًا في الآية جاء في الحديث تفصيل بعض أسبابه، وهي: إفشاء السلام، وصلة الأرحام، وإطعام الطعام، والصلاة والناس نيام.

---

(١) القمر: الآيتان (٥٤و٥٥). (٢) المرسلات: الآيات (٤١-٤٣).
(٣) الأضواء (٢/ ٢٧٧-٢٧٨).
(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٥١)، والترمذي (٤/ ٥٦٢-٥٦٣/ ٢٤٨٥) وقال: «حديث صحيح»، وابن ماجه (١/ ٤٢٣/ ١٣٣٤)، والدارمي (١/ ٣٤٠-٣٤١)، والحاكم (٣/ ١٣) و(٤/ ١٦٠) وقال: «صحيح الإسناد» ووافقه الذهبي.
(٥) المسند (٣٩/ ٢٠١-٢٠٢).

«قوله: «تدخلوا الجنة بسلام» إذا فعلتم ذلك ودمتم عليه؛ شملتكم الرحمة، يقال لكم: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[1] آمنين، ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[2].

قال الزين العراقي: فيه أن هذه الأعمال موصلة إلى الجنة، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3]»[4].

* * *

(١) الزمر: الآية (٧٣).
(٢) الزخرف: الآية (٦٨).
(٣) الزخرف: الآية (٧٢).
(٤) فيض القدير (١/ ٥٥٢).

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾

★ غريب الآية

غل: الغِلّ: الحقد الذي ينغَل القلب. والغُلول: تدرّع الخيانة والعداوة.

سرر: جمع سرير. وهو ما يُجلس عليه، مأخوذ من السرور، لأنه مؤطئ أهل النعمة. جمعه: أسرة وسرر.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: أخذنا ما في صدور هؤلاء المتقين الذين وَصف صفتَهم من حقد وضغينة بعضهم لبعض»[1].

قال ابن عطية: «ذكر تعالى في هذه الآية أن ينزع الغل من قلوب أهل الجنة، ولم يذكر لذلك موطنًا، وجاء في بعض الحديث أن ذلك على الصراط، وجاء في بعضها أن ذلك على أبواب الجنة.. وجاء في بعض الأحاديث أن نزع الغل إنما يكون بعد استقرارهم في الجنة.. والذي يقال في هذا أن اللَّه ينزعه في موطن من قوم، وفي موطن من آخرين. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال اللَّه تعالى فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾»[2].

قال الشنقيطي: «بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه نزع ما في صدور أهل الجنة من الغل في حال كونهم إخوانًا، وبيّن هذا المعنى في الأعراف، وزاد أنهم تجري من تحتهم الأنهار في نعيم الجنة، وذلك في قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾[3] الآية.

(١) جامع البيان (١٤/ ٣٦).
(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٣٦٣-٣٦٤).
(٣) الأعراف: الآية (٤٣).

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ بين في هذه الآية الكريمة أن المتقين الذين هم أهل الجنة؛ يوم القيامة يكونون على سرر، وأنهم متقابلون ينظر بعضهم إلى وجه بعض، ووصف سررهم بصفات جميلة في غير هذا الموضع؛ منها: أنها منسوجة بقضبان الذهب، وهي الموضونة؛ قال في الواقعة: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾[1]، وقيل: الموضونة المصفوفة؛ كقوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾[2] الآية. ومنها: أنها مرفوعة؛ كقوله في الغاشية: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾[3] الآية. وقوله في الواقعة: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾[4]، وقوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾[5]. إلى غير ذلك من الآيات»[6].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة
في بيان الموطن الذي ينزع الله فيه الغل من قلوب أهل الجنة

* عن يزيد بن زريع ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ قال: حدثنا سعيد عن قتادة عن أبي المتوكل الناجي أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقصّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده؛ لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا»**[7].

★ غريب الحديث:

يخلص المؤمنون من النار: نجوا من السقوط فيها بعدما جازوا على الصراط[8].

(١) الواقعة: الآيات (١٣-١٦).
(٢) الطور: الآية (٢٠).
(٣) الغاشية: الآية (١٣).
(٤) الواقعة: الآية (٣٤).
(٥) الرحمن: الآية (٧٦).
(٦) الأضواء (٢/ ٢٧٨-٢٧٩).
(٧) أخرجه: أحمد (٣/ ١٣)، والبخاري (١١/ ٤٨١-٤٨٢/ ٦٥٣٥).
(٨) فتح الباري (١١/ ٢٩٩).

حبسوا على قنطرة: قال الحافظ: «الذي يظهر أنها طرف الصراط مما يلي الجنة . . . وأن الجنة وراء ذلك، فيمر عليه الناس حسب أعمالهم . . . »[١].

فَيُقْتَصُّ: على البناء للمجهول. وفي كتاب «المظالم»[٢]: «فيتقاصّون» يتفاعلون من القصاص، والمراد به تتبع ما بينهم من المظالم وإسقاط بعضها ببعض[٣].

هُذِّبوا ونُقّوا: بمعنى التميز والتخليص من التبعات. قال الحافظ: «خلصوا من الآثام بمقاصصة بعضها ببعض»[٤].

لَأحدهم أهدى بمنزله: والمعنى أن من دخل كانت معرفته بمنزله في الجنة كمعرفته بمنزله في الدنيا وأكثر.

★ فوائد الحديث:

دل الحديث على أن نزع الغل من صدور أهل الجنة وتهذيبهم يكون قبل دخول الجنة، عندما يحبسون على الجسر. كما دل على أن هذه التنقية والتطهير لا يكون إلا بالتقاصّ والتخلص من التبعات.

قال الشيخ العثيمين: «وهذا القصاص غير القصاص الأول الذي في عرصات القيامة؛ لأن هذا قصاص أخص؛ لأجل أن يذهب الغل والحقد والبغضاء التي في قلوب الناس، فيكون هذا بمنزلة التنقية والتطهير، وذلك لأن ما في القلوب لا يزول بمجرد القصاص.

فهذه القنطرة التي بين الجنة والنار لأجل تنقية ما في القلوب، حتى يدخلوا الجنة وليس في قلوبهم غل؛ كما قال اللّه تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.

قوله: «**فإذا هُذّبوا ونقّوا، أُذن لهم في دخول الجنة**». هكذا رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. إذا هذبوا مما في قلوبهم من العداوة والبغضاء ونقوا منها، فإنه يؤذن لهم في دخول الجنة»[٥].

---

(١) فتح الباري (١١-٥١٢).
(٢) (٢٤٤٠).
(٣) فتح الباري (٥/ ٩٦).
(٤) فتح الباري (٥/ ٩٦).
(٥) شرح الواسطية (٢/ ١٦٣-١٦٤).

قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: لا يمس هؤلاء المتقين الذين وَصف صفتهم في الجنات نَصَبٌ، يعني تَعَب، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ يقول: وما هم من الجنة ونعيمها وما أعطاهم اللَّه فيها بمخرجين، بل ذلك دائم أبدًا»(١).

قال الشوكاني: «قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب وإعياء لعدم وجود ما يتسبب عنه ذلك في الجنة؛ لأنها نعيم خالص، ولذّة محضة تحصل لهم بسهولة، وتوافيهم مطالبهم بلا كسب ولا جهد، بل بمجرد خطور شهوة الشيء بقلوبهم؛ يحصل ذلك الشيء عندهم صَفْوًا عفوًا ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أبدًا، وفي هذا الخلود الدائم وعلمهم به تمام اللذة وكمال النعيم؛ فإنّ علم من هو في نعمة ولذة بانقطاعها وعدمها بعد حين؛ موجب لتنغص نعيمه، وتكدر لذته»(٢).

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة لا يمسهم فيها نصب، وهو التعب والإعياء، وقوله: نصب؛ نكرة في سياق النفي فتعم كل نصب، فتدل الآية على سلامة أهل الجنة من جميع أنواع التعب والمشقة، وأكد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾(٣)؛ لأن اللغوب هو التعب والإعياء»(٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ بين تعالى في هذه الآية الكريمة؛ أن أهل الجنة لا يخرجون منها، وأكد نفي إخراجهم منها بالباء في قوله: ﴿بِمُخْرَجِينَ﴾، فهم دائمون في نعيمها أبدًا بلا انقطاع. وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٣٨).

(٢) فتح القدير (٤/ ١٨٩-١٩٠).

(٣) فاطر: الآية (٣٥).

(٤) سيأتي تخريجه قريبا.

حِوَلًا﴾[١] وقوله: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾[٢] وقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[٣] وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾[٤] إلى غير ذلك من الآيات»[٥].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في نفي النصب عن أهل الجنة

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أتى جبريل النبي ﷺ فقال: **يا رسول الله! هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب**»[٦].

★ غريب الحديث:

قَصَب: بفتح القاف والصاد؛ المراد به: لؤلؤة مجوّفة واسعة كالقصر المنيف.

الصّخب، بفتح الصاد: الصياح والمنازعة برفع الصوت.

النصب، بفتح الصاد والنون: التعب.

★ فوائد الحديث:

قال القاري: «قوله: «لا صخب» لا لنفي الجنس؛ أي: لا صياح، أو لا اختلاط صوت. «فيه» أي: في القصب المعبّر به عن القصر، وفي نسخة: «فيها» فالضمير راجع إلى الجنة، ويؤيده قوله: «ولا نصب» بفتحتين، قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[٧]»[٨].

وقال القرطبي: «أي: لا يصيبها ذلك؛ لأن الجنة منزهة عن ذلك، كما قال

---

(١) الكهف الآتان (١٠٧و١٠٨). (٢) الكهف: الآيتان (٢و٣).
(٣) هود: الآية (١٠٨). (٤) ص: الآية (٥٤).
(٥) الأضواء (٢/ ٢٧٩).
(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٠-٢٣١)، والبخاري (٧/ ١٦٧/ ٣٨٢٠) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٨٨٧/ ٢٤٣٢)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٩٤/ ٨٣٥٨). وفي الباب عن عائشة وابن أبي أوفى رضي الله عنهما.
(٧) فاطر: الآية (٣٥).
(٨) المرقاة (١٠/ ٥٥٥).

تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾. وقيل: معناه أن هذا البيت خالص لها، لا تُنازَع فيه فيصخب عليها فيه، وذلك من فضل اللَّه تعالى عليها، لا بنصبها في العبادة، ولا اجتهادها في ذلك»[١].

قال الطيبي: «فنفى عن البيت النصب والصخب؛ لأنه ما من بيت في الدنيا يسكنه قوم إلا كان بين أهله صخب وجَلَبة، وإلا كان في بنائه وإصلاحه نصب وتعب، فأخبر أن قصور الجنة خالية عن هذه الآفات.

أقول: يريد بالوجه الثاني أن بناء بيت الجنة حاصل بقوله: ﴿كُن﴾، ليس كأبنية الدنيا؛ فإنها يتسبب بناؤها بصخب ونصب، وكذا السكون فيها لا يخلو عنهما، وليس حكم بيت الجنة كذلك، بل أصحاب الجنة ﴿وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۞ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۞ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[٢]. واللَّه أعلم»[٣].

قال السهيلي: مناسبة نفي هاتين الصفتين -أعني المنازعة والتعب- أنه ﷺ لما دعا إلى الإسلام أجابت خديجة طوعًا فلم تحوجه إلى رفع صوت ولا منازعة ولا تعب في ذلك، بل أزالت عنه كل نصب، وآنسته من كل وحشة، وهوّنت عليه كل عسير، فناسب أن يكون منزلها الذي بشرها به ربها بالصفة المقابلة لفعلها»[٤].

* * *

---

(١) المفهم (٦/ ٣١٦).

(٢) يس: الآيات (٥٦-٥٨).

(٣) شرح الطيبي (١٢/ ٣٩٢٠-٣٩٢١).

(٤) فتح الباري (٧/ ١٣٨).

قوله تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ أخبر عبادي يا محمد، أني أنا الذي أستر على ذنوبهم إذا تابوا منها وأنابوا، بترك فضيحتهم بها وعقوبتهم عليها، الرحيم بهم أنْ أعذّبهم بعد توبتهم منها عليها، ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ يقول: وأخبرهم أيضا أن عذابي لمن أصرّ على معاصيّ وأقام عليها ولم يتب منها؛ هو العذاب الموجع الذي لا يشبهه عذاب. هذا من اللَّه تحذير لخلقه التقدم على معاصيه، وأمر منه لهم بالإنابة والتوبة»[(١)].

قال ابن كثير: «قد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة، وهي دالة على مقامَي الرجاء والخوف»[(٢)].

قال صديق حسن خان: «إن اللَّه سبحانه لما أمر رسوله أن يخبر عباده بهذه البشارة العظيمة؛ أمره بأن يذكر لهم شيئًا مما يتضمن التخويف والتحذير، حتى يجتمع الرجاء والخوف، ويتقابل التبشير والتحذير؛ ليكونوا راجين خائفين، فقال: ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ أي: الكثير الإيلام، وعند أنْ جمع اللَّه لعباده بين هذين الأمرين من التبشير والتحذير؛ صاروا في حالة وسطًا بين اليأس والرجاء، وخير الأمور أوسطها، وهي القيام على قدمي الرجاء والخوف، وبين حالتي الأنس والهيبة. وقيل: لو يعلم العبد قدر عفو اللَّه لما تورّع عن حرام، ولو يعلم قدر عذابه لما أقدم على ذنب»[(٣)].

قال القرطبي: «وهكذا ينبغي للإنسان أن يذكّر نفسه وغيره، فيُخوِّف ويرجّى،

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٣٨-٣٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٥٨).
(٣) فتح البيان (٧/ ١٧٧).

ويكون الخوف في الصحة أغلب عليه منه في المرض»[(١)].

قال الرازي: «وفي الآية لطائف:

إحداها: أنه أضاف العباد إلى نفسه بقوله: ﴿عِبَادِى﴾ وهذا تشريف عظيم. ألا ترى أنه لما أراد أن يشرف محمدًا ﷺ ليلة المعراج لم يزد على قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾[(٢)].

ثانيها: أنه لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التأكيد بألفاظ ثلاثة: أولها: قوله: ﴿أَنِّىٓ﴾. وثانيها: قوله: ﴿أَنَا﴾. وثالثها: إدخال حرف الألف واللام على قوله: ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾. ولما ذكر العذاب لم يقل: أني أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك؛ بل قال: ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾.

وثالثها: أنه أمر رسوله أن يبلغ إليهم هذا المعنى، فكأنه أشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة.

ورابعها: أنه لما قال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ﴾ كان معناه: نبىء كل من كان معترفًا بعبوديتي، وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع، فكذلك يدخل فيه المؤمن العاصي، وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى»[(٣)].

قال صديق حسن خان: «ثم أتبع ذلك بقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ليكون سماعها مرغبا في العبادة الموجبة للفوز بدرجة السعداء، ومحذرا عن المعصية الموجبة لاستحقاق دركات الأشقياء، وذكر هنا أربع قصص: قصة إبراهيم، ثم قصة لوط، ثم قصة شعيب، ثم قصة صالح.. وافتتح من ذلك بقصة إبراهيم ﷺ»[(٤)].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في الرجاء مع الخوف

* عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة؛ فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة،

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٢٤).
(٢) الإسراء: الآية (١).
(٣) التفسير الكبير (١٩/ ٢٠٤).
(٤) فتح البيان (٧/ ١٧٧-١٧٨).

ولو يعلم المسلم بكل الذي عند اللَّه من العذاب لم يأمن من النار»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «مطابقة الحديث أنه اشتمل على الوعد والوعيد المقتضيين للرجاء والخوف، فمن علم أن من صفات اللَّه تعالى الرحمة لمن أراد أن يرحمه، والانتقام ممن أراد أن ينتقم منه؛ لا يأمن انتقامه من يرجو رحمته، ولا ييأس من رحمته من يخاف انتقامه، وذلك باعث على مجانبة السيئة ولو كانت صغيرة، وملازمة الطاعة ولو كانت قليلة.

قيل: في الجملة الأولى نوع إشكال؛ فإن الجنة لم تخلق للكافر، ولا طمع له فيها، فغير مستبعد أن يطمع في الجنة من لا يعتقد كفر نفسه، فيشكل ترتب الجواب على ما قبله. وأجيب بأن هذه الكلمة سيقت لترغيب المؤمن في سعة رحمة اللَّه التي لو علمها الكافر الذي كتب عليه أنه يختم عليه أنه لا حظ له في الرحمة؛ لَتطاولَ إليها ولم ييأس منها، إما بإيمانه المشروط، وإما لقطع نظره عن الشرط مع تيقنه بأنه على الباطل واستمراره عليه عنادًا، وإذا كان ذلك حال الكافر؛ فكيف لا يطمع فيها المؤمن الذي هداه اللَّه للإيمان؟»[٢].

قال الكرماني: «والمقصود من الحديث أن الشخص ينبغي أن يكون بين الخوف والرجاء، يعني لا يكون مفرطًا في الرجاء بحيث يصير من الفرقة المرجئة، ولا مفرطًا في الخوف بحيث يصير من الوعيدية، بل يكون بينهما، قال تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[٣]»[٤].

قال الطيبي: «سياق الحديث في بيان صفتي القهر والرحمة لله تعالى، فكما أن صفات اللَّه تعالى غير متناهية، لا يبلغ كنه معرفتها أحد، كذلك عقوبته ورحمته، فلو فرض أن المؤمن وقف على كنه صفته القهارية؛ أظهر منها ما يُقنّط من ذلك الخلقَ طرًا، فلا يطمع بجنته أحد، هذا معنى وضع (أحد) موضع ضمير (المؤمن). ويجوز

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٤) والبخاري (١١/ ٣٦٣/ ٦٤٦٩)، ومسلم (٤/ ٢١٠٩/ ٢٧٥٥)، والترمذي (٥/ ٥١٣/ ٣٥٤٢).

(٢) فتح الباري (١١/ ٣٦٥).

(٣) الإسراء: الآية (٥٧).

(٤) شرح البخاري (٢٢/ ٢٢٧).

أن يراد بالمؤمن الجنس على سبيل الاستغراق، فالتقدير: أحد منه. ويجوز أن يكون المعنى على وجه آخر، وهو أن المؤمن قد اختص بأن يطمع بالجنة، فإذا انتفى الطمع منه، فقد انتفى عن الكل وكذلك الكافر مختص بالقنوط، فإذا انتفى القنوط عنه فقد انتفى عن الكل. قال المظهر: ورد الحديث في بيان الكثرة عقوبته ورحمته، كيلا يغتر مؤمن برحمته فيأمن عذابه، ولا ييأس كافر من رحمته»[1].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: خرج النبي ﷺ على رهط من أصحابه يضحكون ويتحدثون؛ فقال: «**والذي نفسي بيده، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**». ثم انصرف وأبكى القوم، وأوحى اللَّه ﷻ إليه: يا محمد! لِم تُقنط عبادي؟ فرجع النبي ﷺ فقال: «**أبشروا وسددوا وقاربوا**»[2].

★ **فوائد الحديث:**

قال المباركفوري: «قوله: «**لو تعلمون ما أعلم**» أي: من عقاب اللَّه للعصاة، وشدة المناقشة يوم الحساب «لضحكتم» جواب (لو). «**ولبكيتم كثيرًا**» أي: بكاءً كثيرًا أو زمانًا كثيرًا؛ أي: من خشية الله؛ ترجيحًا للخوف على الرجاء، وخوفًا من سوء الخاتمة»[3].

قال الحافظ: «والمراد بالعلم هنا ما يتعلق بعظمة اللَّه وانتقامه ممن يعصيه، والأهوال التي تقع عند النزع والموت وفي القبر ويوم القيامة، ومناسبة كثرة البكاء وقلة الضحك في هذا المقام واضحة. والمراد به التخويف... وعن الحسن البصري: من علم أن الموت مورده، والقيامة موعده، والوقوف بين يدي اللَّه تعالى مشهده، فحقه أن يطول في الدنيا حزنه»[4].

قال القرطبي: «من الناس من كان لا يضحك اهتمامًا بنفسه، وفساد حاله في اعتقاده؛ من شدة الخوف، وإن كان عبدًا صالحًا. قال ﷺ: «**واللَّه لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرًا**»... وكان الحسن البصري ﷺ ممن قد غلب

---

(١) شرح الطيبي (٦/ ١٨٦١).

(٢) أخرجه: البخاري في الأدب المفرد (٢٥٤)، وابن حبان (١/ ٣١٩/ ١١٣) وهو عند: أحمد (٢/ ٢٥٧)، والبخاري (١١/ ٦٤٣/ ٦٦٣٧)، والترمذي (٤/ ٤٨٢/ ٢٣١٣) دون ذكر قوله: «وأوحى اللَّه ﷻ إليه: يا محمد لم تقنط عبادي...».

(٣) تحفة الأحوذي (٦/ ٤٩٦).

(٤) فتح الباري (١١/ ٣٨٨).

عليه الحزن فكان لا يضحك. وكان ابن سيرين يضحك ويحتج على الحسن ويقول: اللَّه أضحك وأبكى. وكان الصحابة يضحكون؛ إلا أن الإكثار منه وملازمته حتى يغلب على صاحبه مذموم منهي عنه، وهو من فعل السفهاء والبطّالة... وأما البكاء من خوف اللَّه وعذابه وشدة عقابه فمحمود»(١).

قال فضل اللَّه الجيلاني: «قوله: «لم تقنط عبادي»: أي: إن اقتصارك في موعظتك على ما قلتَ؛ قد يحمل بعضهم على القنوط، وهو أضر من الغفلة التي كانوا فيها، فينبغي أن تزيد في كلامك لهم ما يصرف عنهم القنوط. فرجع صلى اللَّه عليه وآله وسلم إليهم، وامتثل أمر ربه فصرفهم عن القنوط بقوله: «أبشروا»، وحملهم على الاعتدال بقوله: «وسددوا» والتسديد هو لزوم الاستقامة، و«قاربوا» تأكيد للتسديد.

«أبشروا» يا أمة محمد، إن اللَّه رضي لكم القليل من العمل، ويعطي عليه الكثير من الأجر؛ أي: لا تفرطوا ظنًا بأن القليل من العمل لا يغني شيئًا، والكثير لا نستطيعه، وكذا لا تفرطوا فتجهدوا أنفسكم في العبادة، لئلا يفضي بكم ذلك إلى الملال فتتركوا العمل فتفرّطوا...

«قاربوا» أي: اطلبوا الصواب بين الإفراط والتفريط، وإن عجزتم عنه فاقربوا منه. وقيل: لا تبلغوا النهاية باستيعاب الأوقات كلها، بل اغتنموا أوقات نشاطكم، وهو أول النهار وآخره وبعض الليل، وارحموا أنفسكم فيما بينهما كيلا ينقطع بكم؛ تبلغوا مقصدكم»(٢).

* * *

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢١٧).

(٢) فضل اللَّه الصمد (١/ ٣٤٧).

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾

★غريب الآية

وجلون: خائفون وفزعون. يقال: وجِل يَوْجَلُ ويَيْجَلُ، إذا خاف.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «ذكر تعالى في هذه الآية أن ضيف إبراهيم ﷺ بشروه بالولد بعد الكبر. وبإنجاء المؤمنين من قوم لوط من العذاب، وأخبروه أيضًا بأنه تعالى سيعذب الكفار من قوم لوط بعذاب الاستئصال، وكل ذلك يقوي ما ذكره من أنه غفور رحيم للمؤمنين، وأن عذابه عذاب أليم في حق الكفار»[١].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: خبّرهم يا محمد عن قصة ضيف إبراهيم، والضيف يطلق على الواحد والجمع، كالزَّوْر، والسَّفْر»[٢].

قال الشنقيطي: «قوله: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ بين في مواضع أخر أن ضيف إبراهيم المذكورين في هذه الآية أنهم ملائكة كقوله في هود: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾[٣] كما تقدم، وقوله: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾[٤]»[٥].

قوله: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾

قال ابن جرير: «يقول: فقال الضيف لإبراهيم سلامًا، ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ يقول: قال إبراهيم: إنا منكم خائفون»[٦].

---

(١) التفسير الكبير (١٩/ ٢٠٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٥٨).
(٣) هود: الآية (٦٩).
(٤) الذاريات: الآيتان (٣١و٣٢).
(٥) الأضواء (٢/ ٢٧٩).
(٦) جامع البيان (١٤/ ٣٩).

وقال الشنقيطي: «لم يبين تعالى في هذه الآية الكريمة؛ هل ردّ إبراهيم السلام على الملائكة أو لا؛ لأنه لم يذكر هنا رده السلام عليهم، وإنما قال عنه إنه قال لهم: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ وبين في هود والذاريات أنه رد عليهم السلام بقوله في هود: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾[1] وقوله في الذاريات: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾[2] وبين أن الوجل المذكور هنا هو الخوف؛ لقوله في القصة بعينها في هود: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾[3] وقوله في الذاريات: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾[4]»[5].

قال ابن كثير: «وقد ذكر سبب خوفه منهم لَمّا رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه لهم ضيافة، وهو العجل السمين والحنيذ»[6].

قوله: ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾

قال ابن كثير: «أي: لا تخف، وبشروه بغلام عليم، وهو إسحاق عليه السلام؛ كما تقدم في سورة هود»[7].

قال الشنقيطي: «ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن أولئك الضيف الذين هم ملائكة بشروا إبراهيم بغلام موصوف بالعلم، ونظير ذلك قوله تعالى أيضًا في الذاريات: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ وهذا الغلام بيّن تعالى أنه هو إسحاق كما يوضح ذلك قوله في الذاريات: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾[8]؛ لأن كونها أقبلت في صرّة؛ أي: صيحة وضجة، وصكت وجهها؛ أي: لطمته قائلة إنها عجوز عقيم؛ يدل على أن الولد المذكور هي أمه كما لا يخفى، ويزيده إيضاحًا تصريحه تعالى ببشارتها هي بأنها تلده مصرحًا باسمه واسم ولده يعقوب؛ وذلك في قوله تعالى في هود في القصة بعينها: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ

---

(١) هود: الآية (٦٩).
(٢) الذاريات: الآيتان (٢٥و٢٦).
(٣) هود: الآية (٧٠).
(٤) الذاريات: الآية (٢٨).
(٥) الأضواء (٢/ ٢٨٠).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٥٨).
(٧) المصدر المتقدم (٤/ ٤٥٨).
(٨) الذاريات: الآيات (٢٨-٣٠).

إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾[١]
وأما الغلام الذي بشر به إبراهيم الموصوف بالحلم المذكور في الصافات في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾[٢] الآية. فهو إسماعيل»[٣].

* * *

(١) هود: الآيتان (٧١و٧٢).

(٢) الصافات: الآيات (٩٩-١٠٢).

(٣) الأضواء (٢/ ٢٨٠).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾

★غريب الآية

القانطين: جمع قانط. والقنوط: اليأس من الخير.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول تعالى: قال إبراهيم للملائكة الذين بشَّروه بغلام عليم ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ يقول: فبأي شيء تبشرون»[(١)].

قال الشنقيطي: «بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن نبيه إبراهيم قال إنه وقتَ البشرى بإسحاق مسّه الكبَر. وصرح في هود بأن امرأته أيضًا قالت: إنه شيخ كبير في قوله عنها: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾[(٢)] كما صرح عنها هي أنها وقت البشرى عجوز كبيرة السن؛ وذلك كقوله في هود: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾[(٣)] الآية. وقوله في الذاريات: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾[(٤)]. وبين في موضع آخر عن نبيه إبراهيم؛ أنه وقت هبة اللَّه له ولده إسماعيل؛ أنه كبير السن أيضًا؛ وذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[(٥)].

قوله تعالى: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ الظاهر أن استفهام نبي اللَّه إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام للملائكة بقوله: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ استفهام تعجب من كمال قدرة اللَّه تعالى، ويدل لذلك أنه تعالى ذكر أن ما وقع له وقع نظيره لامرأته حيث قالت: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾، وقد بين تعالى أن ذلك الاستفهام لعجبها من ذلك الأمر الخارق

---

(١) الآيات جامع البيان (١٤/ ٤٠).
(٢) هود: الآية (٧٢).
(٣) هود: الآية (٧٢).
(٤) الذاريات: الآية (٢٩).
(٥) إبراهيم: الآية (٣٩).

للعادة في قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾(١) الآية. ويدل له أيضًا وقوع مثله من نبي اللَّه زكريا عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، لأنه لما قال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ﴾(٢) وقوله: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ﴾(٣)؛ عجب من كمال قدرة اللَّه تعالى فقال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾(٤)»(٥).

قوله: ﴿قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾:

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال ضيف إبراهيم له: بشرناك بحقّ يقين، وعِلم منَّا بأن اللَّه قد وهب لك غلاما عليما، فلا تكن من الذين يقنطون من فضل اللَّه فييأسون منه، ولكن أبشر بما بشرناك به واقبل البشرى..

وقوله: ﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ٥٦﴾ يقول -تعالى ذكره-: قال إبراهيم للضيف: ومن ييأس من رحمة اللَّه إلا القوم الذين قد أخطأوا سبيل الصواب، وتركوا قصد السبيل في تركهم رجاء اللَّه، ولا يخيب من رجاه، فضلّوا بذلك عن دين الله»(٦).

قال أبو حيان: «قوله: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ﴾ رد عليهم، وأن المحاورة في البشارة لا تدل على القنوط، بل ذلك على سبيل الاستبعاد لما جرت به العادة. وفي ذلك إشارة إلى أنّ هبة الولد على الكبر من رحمة اللَّه، إذ يشد عضد والده به، ويؤازره حالة كونه لا يستقل، ويرث منه علمه ودينه»(٧).

قال الشنقيطي: «بين تعالى في هذه الآية الكريمة؛ أن نبيه إبراهيم قال للملائكة: إنه لا يقنط من رحمة اللَّه -جل وعلا- إلا الضالون عن طريق الحق، وبين أن هذا المعنى قاله أيضًا يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم لبنيه في قوله: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾(٨) قال أبو حيان في البحر المحيط في تفسيره: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا

(١) هود: الآية (٧٣).
(٢) آل عمران: الآية (٣٨).
(٣) آل عمران: الآية (٣٩).
(٤) آل عمران: الآية (٤٠).
(٥) الأضواء (٢/ ٢٨١-٢٨٢).
(٦) جامع البيان (١٤/ ٤٠).
(٧) البحر (٥/ ٤٤٧).
(٨) يوسف: الآية (٨٧).

يَاْيْئَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ الآية. وروح اللَّه رحمته: فرجه وتنفيسه»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة الدالة على أن القنوط من رحمة اللَّه من الكبائر

* عن ابن مسعود ﷺ قال: «**أكبر الكبائر الإشراك باللَّه والأمن من مكر اللَّه والقنوط من رحمة اللَّه واليأس من روح الله**»(٢).

* عن ابن عباس ﷺ أن رجلًا قال: يا رسول اللَّه ما الكبائر؟ قال: «**الشرك باللَّه والإياس من روح اللَّه والقنوط من رحمة الله**»(٣).

★ **فوائد الحديثين:**

قوله: «والقنوط من رحمة الله»: قال الشيخ سليمان بن عبد الله: «قال أبو السعادات: هو أشد اليأس من الشيء. قلت: فعلى هذا يكون الفرق بينه وبين اليأس، كالفرق بين الاستغاثة والدعاء، فيكون القنوط من اليأس، وظاهر القرآن أن اليأس أشدّ؛ لأنه حكم لأهله بالكفر، ولأهل القنوط بالضلال، وفيه التنبيه على الجمع بين الرجاء والخوف، فإذا خاف فلا يقنط ولا ييأس»(٤).

قوله: «اليأس من روح الله»: أي: قطع الرجاء والأمل من اللَّه فيما يرومه ويقصده. قال تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْئَسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْئَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(٥). وذلك إساءة ظن بكرم اللَّه ورحمته وجوده ومغفرته(٦).

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وللقنوط من رحمة اللَّه واليأس من روحه سببان محذوران:

---

(١) الأضواء (٢/ ٣٨٣).

(٢) رواه عبدالرزاق (١٠/ ٤٥٩-٤٦٠/ ١٩٧٠١)، وابن جرير (٨/ ٢٤٢-٢٤٣ شاكر)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٥٦/ ٨٧٨٣) من طرق عنه. قال الهيثمي في المجمع (١/ ١٠٤): «إسناده صحيح».

(٣) أخرجه البزار (الكشف ١/ ٧١/ ١٠٦)، والطبراني في الأوسط وابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٢/ ١٤٧). قال الهيثمي (١/ ١٠٤): «رواه البزار والطبراني ورجاله موثقون».

(٤) تيسير العزيز الحميد (٥٢٦).

(٥) يوسف: الآية (٨٧).

(٦) تيسير العزيز الحميد (ص: ٥٢٥).

أحدهما: أن يسرف العبد على نفسه ويتجرأ على المحارم، فيصر عليها ويصمم على الإقامة على المعصية، ويقطع طمعه من رحمة اللَّه لأجل أنه مقيم على الأسباب التي تمنع الرحمة، فلا يزال كذلك حتى يصير له هذا وصفًا وخلقًا لازمًا. وهذا غاية ما يريده الشيطان من العبد. ومتى وصل إلى هذا الحد لم يُرج له خير إلا بتوبة نصوح، وإقلاع قوي.

الثاني: أن يقوى خوف العبد بما جنت يداه من الجرائم ويضعف علمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة، ويظن بجهله أن اللَّه لا يغفر له ولا يرحمه ولو تاب وأناب، وتضعف إرادته فييأس من الرحمة، وهذا من المحاذير الضارة الناشئة من ضعف علم العبد بربه، وما له من الحقوق، ومن ضعف النفس وعجزها ومهانتها»[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وينبغي للمؤمن أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا، فأيهما غلب هلك صاحبه. نص عليه الإمام أحمد؛ لأن من غلب خوفه وقع في نوع من اليأس، ومن غلب رجاؤه وقع في نوع من الأمن من مكر الله»[(٢)].

قال الشيخ عبدالرحمن بن حسن: «وفيه التنبيه على أن الأمن من مكر اللَّه من أعظم الذنوب، وأنه ينافي كمال التوحيد، كما أن القنوط من رحمة اللَّه كذلك، وذلك يرشد إلى أن المؤمن يسير إلى اللَّه بين الخوف والرجاء، كما دل على ذلك الكتاب والسنة، وأرشد إليه سلف الأمة»[(٣)].

* * *

---

(١) القول السديد (ص: ٩٣-٩٥).

(٢) الفتاوى الكبرى (٤/ ٤٤٣).

(٣) فتح المجيد (ص: ٤٣٢).

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

★ غريب الآية

خطبكم: الخطب: الأمر الجليل.

مجرمين: جمع مجرم. وهو المنقطع عن الحق إلى الباطل.

الغابرين: أي الباقين في الهلاك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال إبراهيم للملائكة: فما شأنكم ما أمرُكم أيها المرسلون؟ قالت الملائكة له: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يقول: إلى قوم قد اكتسبوا الكفر بالله، ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾: يقول: إلا أتباع لوط على ما هو عليه من الدِّين، فإنا لن نهلكهم بل ننجيهم من العذاب الذي أمرنا أن نعذّب به قوم لوط، سوى امرأة لوط قدّرنا إنها من الغابرين: يقول: قضى الله فيها إنها لمن الباقين، ثم هي مُهلَكة بَعدُ»[1].

وقال الشنقيطي: «أشار في هذه الآية الكريمة؛ إلى أن المراد بهؤلاء المجرمين قوم لوط، الذين أرسل إليهم فكذبوه، ووجْه إشارته تعالى لذلك؛ استثناء لوط وأهله غير امرأته في قوله: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ الآية. وصرح بأنهم قوم لوط بقوله في هود في القصة بعينها: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾[2] الآية. وصرح في الذاريات بأنهم أرسلوا إلى هؤلاء القوم المجرمين ليرسلوا عليهم حجارة من طين؛ في قوله: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٤١).

(٢) هود: الآية (٧٠).

مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾[1] وصرح في العنكبوت أنهم قالوا: إنهم مهلكوهم بسبب ظلمهم، ومنزلون عليهم رجزًا من السماء بسبب فسقهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾[2] الآيـة، وقـولـه: ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[3].

وقوله: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بيّن في هذه الآية الكريمة أنه استثنى آل لوط من ذلك العذاب النازل بقومه، وأوضح هذا المعنى في آيات أخر كما تقدم في هود في قوله: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ﴾[4] الآية. وقوله في العنكبوت: ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ الآية. وقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[5] وقـولـه: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾[6] الآية. وقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾[7] إلى غير ذلك من الآيات. وما ذكر في هذه الآية الكريمة من استثناء امرأته من أهله الناجين في قوله: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا ۙ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾؛ أوضحه في هذه الآيات التي ذكرنا آنفًا ونحوها من الآيات. وبين في الذاريات أنه أنجى من كان في قوم لوط من المؤمنين، وأنهم لم يكن فيهم من المسلمين إلا بيت واحد وهم آل لوط؛ وذلك في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[8]»[9].

وقال الرازي: «حكى تعالى عن الملائكة أنهم قالوا: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ وإنما اقتصروا على هذا القدر لعلم إبراهيم ﷺ بأن الملائكة إذا أرسلوا إلى المجرمين؛ كان ذلك لإهلاكهم واستئصالهم. وأيضًا فقولهم: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يدل على أن المراد بذلك الإرسالِ إهلاك القوم»[10].

---

(١) الذاريات: الآيتان (٣٢و٣٣).
(٢) العنكبوت: الآيتان (٣١و٣٢).
(٣) العنكبوت: الآيتان (٣٣و٣٤).
(٤) هود: الآية (٨١).
(٥) الأعراف: الآية (٨٣).
(٦) الشعراء: الآيتان (١٧٠و١٧١).
(٧) النمل: الآية (٥٧).
(٨) الذاريات: الآيتان (٣٥و٣٦).
(٩) الأضواء (٢/ ٢٨٣-٢٨٤).
(١٠) التفسير الكبير (١٩/ ٢٠٨).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٦١ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٦٢ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٦٣ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٦٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فلما أتى رسل الله آل لوط أنكرهم لوط فلم يعرفهم، وقال لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾: أي: نُنْكركم لا نعرفكم، فقالت له الرسل: بل نحن رسل الله، جئناك بما كان فيه قومك يشُكّون أنه نازل بهم من عذاب الله على كفرهم به..

﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: قال الرسل للوط: وجئناك بالحق اليقين من عند الله، وذلك الحقّ هو العذاب الذي عذب الله به قوم لوط. وقد ذكرتُ خبرهم وقصصهم في سورة هود وغيرها حين بعث الله رسله ليعذّبهم به.

وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ يقولون: إنا لصادقون فيما أخبرناك به يا لوط من أن الله مهلك قومك»[١].

قال الشنقيطي: «بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن لوطًا -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- لما جاءه الملائكة المرسلون لإهلاك قومه؛ قال لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾. وصرح في مواضع أخر أنه حصلت له مساءة بمجيئهم، وأنه ضاق ذرعًا بذلك؛ كقوله في هود: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾[٢] وقوله في العنكبوت: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾[٣]، وذكر تعالى في الذاريات: ﴿سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾[٤] وقوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ قيل: معناه أنهم غير معروفين، والنكرة ضد المعرفة. وقيل: إنه رآهم في صفة

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٤١-٤٢).
(٢) هود: الآية (٧٧).
(٣) العنكبوت: الآية (٣٣).
(٤) الذاريات: الآية (٢٥).

شباب حسان الوجوه، فخاف أن يفعل بهم قومه فاحشة اللواط فقال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾. وقال الزمخشري في الكشاف: منكَرون أي تنكرهم نفسي، وتفر منهم، فأخاف أن تطرقوني بشرّ، بدليل قوله: ﴿بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الآية. ويدل لهذا الوجه أنه بين في هود أن سبب إنكار إبراهيم لهم عدم أكلهم من لحم العجل الذي قدمه إليهم، وذلك في قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾[1] لأن من استضاف وامتنع من الأكل خيف منه الشرّ»[2].

* * *

---

(١) هود: الآية (٧٠).

(٢) الأضواء (٢/ ٢٨٥).

قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾

★ **غريب الآية**

أسر: الإسراء: السير ليلا. يقال: سَرَى وأَسْرَى لغتان.

قطع من الليل: أي قطعة منه.

أدبارهم: الأدبار: جمع دُبُر. وهو جهة الخلف. وضدها: القدام.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن رسله أنهم قالوا للوط: فأسر بأهلك ببقية من الليل، واتبع يا لوط أدبار أهلِك الذين تسري بهم، وكن من ورائهم، وسر خلفهم وهم أمامك، ولا يلتفت منكم وراءه أحد، وامضوا حيث يأمركم الله»(١).

قال ابن كثير: «يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يَسري بأهله بعد مضي جانب من الليل، وأن يكون لوط عليه السلام يمشي وراءهم ليكون أحفظ لهم. وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغَزاة بما كان يكون ساقةً، يُزجي الضعيف، ويحمل المنقطع.

وقوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم، وذروهم فيما حل بهم من العذاب والنكال، ﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ كأنه كان معهم من يهديهم السبيل»(٢).

قوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ قال ابن جرير:

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٤٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٤١-٥٤٢).

«يقول -تعالى ذكره-: وفرغنا إلى لوط من ذلك الأمر، وأوحينا أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين؛ يقول: إن آخِر قومك وأوّلهم مجذوذٌ ومُستأصَلٌ صباحَ ليلتهم»(١).

قال ابن كثير: «﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: تقدمنا إليه في هذا ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ أي: وقت: الصباح؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾(٢)»(٣).

* * *

(١) جامع البيان (١٤/ ٤٢).
(٢) هود: الآية (٨١).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٦٠).

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾

★ **غريب الآية**

تفضحون: الفضيحة: ما يُسْتَحَى من إظهاره، ويلزم من ظهوره العار. يقال: فَضَحَ الصّبحُ: إذا ظهر ضوءه.

لعمرك: العُمْرُ والعَمْرُ، بفتح العين وضمها: الحياةُ. والمعنى: قسم بحياة النبي ﷺ؛ أي: وحياتك.

سكرتهم: السكرة: الضلالة والغواية.

يعمهون: يترددون في حيرتهم؛ أي: ليسوا على بصيرة مما هم فيه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: وجاء أهل مدينة سدوم وهم قوم لوط لما سمعوا أن ضيفا قد ضاف لوطا، مستبشرين بنزولهم مدينتهم؛ طمعًا منهم في ركوب الفاحشة»[١].

قال الشنقيطي: «سبب استبشار قوم لوط أنهم ظنوا الملائكة شبابًا من بني آدم، فحدثتهم أنفسهم بأن يفعلوا بهم فاحشة اللواط؛ كما يشير لذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾[٢] الآية. وقوله: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[٣] إلى غير ذلك من الآيات»[٤].

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٤٣).
(٢) القمر: الآية (٣٧).
(٣) هود: الآية (٧٨).
(٤) الأضواء (٢/ ٢٨٦).

قوله: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾:

قال ابن جرير: «قال لوط لقومه: إن هؤلاء الذين جئتموهم تريدون منهم الفاحشة ضيفي، وحقّ على الرجل إكرام ضيفه، فلا تفضحون أيها القوم في ضيفي، وأكرموني في تَرككم التعرّض لهم بالمكروه، وقوله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ يقول: وخافوا اللَّه فيّ وفي أنفسكم أن يحلّ بكم عقابه ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾ يقول: ولا تذلوني ولا تهينوني فيهم بالتعرض لهم بالمكروه»[1].

قال ابن كثير: «وهذا قاله لهم قبل أن يعلم بأنهم رسل اللَّه كما قال في سياق سورة هود، وأما ههنا فتقدم ذِكرُ أنهم رسل اللَّه، وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجته لهم. ولكن الواو لا تقتضي الترتيب، ولا سيما إذا دل دليل على خلافه، فقالوا له مجيبين: ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: أو ما نهيناك أن تضيف أحدًا؟ فأرشدهم إلى نسائهم، وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة. وقد تقدم أيضا القول في ذلك بما أغنى عن إعادته.

هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم، وما قد أحاط بهم من البلاء، وماذا يُصبّحهم من العذاب المستقر؛ ولهذا قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات اللَّه وسلامه عليه، وفي هذا تشريف عظيم، ومقام رفيع، وجاه عريض»[2].

قال ابن القيم: «﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ أكثر المفسرين من السلف والخلف -بل لا يعرف عن السلف فيه نزاع- أن هذا قسم من اللَّه بحياة رسوله ﷺ، وهذا من أعظم فضائله أن يقسم الرب ﷻ بحياته، وهذه مزية لا تعرف لغيره، ولم يوافق الزمخشري على ذلك؛ فصرف القسم إلى أنه بحياة لوط، وأنه من قول الملائكة؛ فقال: هو على إرادة القول؛ أي: قالت الملائكة للوط -عليه الصلاة والسلام-: لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون. وليس في اللفظ ما يدل على واحد من الأمرين، بل ظاهر اللفظ وسياقه إنما يدل على ما فهمه السلف، لا أهل التعطيل والاعتزال. قال ابن عباس ﵄: لعمرك؛ أي: وحياتك. قال: وما أقسم اللَّه

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٤٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٦٠).

تعالى بحياة نبي غيره، والعمر واحد، إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإثبات الأخف، لكثرة دوران الحلف على ألسنتهم. وأيضا؛ فإن العمر حياة مخصوصة؛ فهو عمر شريف عظيم، أهلٌ أن يقسم به، لمزيته على كل عمر من أعمار بني آدم. ولا ريب أن عمره وحياته ﷺ من أعظم النعم والآيات، فهو أهل أن يقسم به، والقسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات.

وقوله تعالى: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي: يتحيّرون، وإنما وصف اللَّه سبحانه وتعالى اللوطية بالسكرى؛ لأن سكرة العشق مثل سكرة الخمرة، كما قال القائل:

سكران سكرَ هوىً وسكرَ مُدامَة[1] ومتى إفاقةُ مَن به سكران»[2]

قال صديق حسن خان: «قد كره كثير من العلماء القسم بغير اللَّه سبحانه، وجاءت بذلك الأحاديث الصحيحة في النهي عن القسم بغير اللَّه، فليس لعباده أن يقسموا بغيره، وهو سبحانه يقسم بما شاء من مخلوقاته، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[3]»[4].

* * *

(١) المُدام والمُدامة الخمر. انظر اللسان مادة (دوم).

(٢) التبيان (٢٥٥).

(٣) الأنبياء: الآية (٢٣).

(٤) فتح البيان (٧/ ١٨٦).

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

★ غريب الآية

مشرقين: أشرق القوم: ساروا في ساعة شروق الشمس.

سجّيل: حجارة كالمدر. قيل: إنه معرّب.

المتوسمين: المعتبرين. مِن توسم الأمور إذا تبينها. والوَسْمُ: العلامة الدالة على الشيء. ووَسَمْتُ الشيءَ وَسْمًا؛ أي: أثرت فيه بِسِمَة. قال ابن رواحة في رسول الله ﷺ:

إني توسمتُ فيك الخيرَ أعرفه ... واللَّه يعلم أني ثابت البصر

أي: تعرفت فيك الخير.

أقوال المفسرين في تاويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فأخذتهم صاعقة العذاب -وهي الصيحة- مشرقين: يقول: إذ أشرقوا، ومعناه: إذ أشرقت الشمس، ونصب مشرقين ومصبحين على الحال؛ بمعنى: إذ أصبحوا، وإذ أشرقوا، يقال منه: صيح بهم، إذا هلكوا. . ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فجعلنا عالي أرضهم سافلها، وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل»[1].

قال الرازي: «واعلم أن الآية تدل على أنه تعالى عذبهم بثلاثة أنواع من العذاب: أحدها: الصيحة الهائلة المنكرة. وثانيها: أنه جعل عاليها سافلها. وثالثها: أنه أمطر عليهم حجارة من سجيل، وكل هذه الأحوال قد مر تفسيرها في

(١) جامع البيان (١٤/ ٤٤).

سورة هود»[١].

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾:

قال ابن جرير: «يقول إن في الذي فعلنا بقوم لوط من إهلاكهم، وأحللنا بهم من العذاب؛ لَعَلامات ودلالات للمتفرّسين المعتبرين بعلامات اللَّه، وعبره على عواقب أمور أهل معاصيه والكفر به. وإنما يعني -تعالى ذكره- بذلك قوم نبيّ اللَّه ﷺ من قريش، يقول: فلِقومك يا محمد في قوم لوط وما حلّ بهم من عذاب اللَّه حين كذّبوا رسولهم، وتمادوا في غيهم وضلالهم؛ معتَبَرٌ»[٢].

قال الشنقيطي: «بين تعالى في هذه الآية الكريمة؛ أن فيما أوقع من النكال بقوم لوط آيات للمتأملين في ذلك، تحصل لهم بها الموعظة والاعتبار والخوف من معصية اللَّه أن ينزل بهم مثل ذلك العذاب، الذي أنزل بقوم لوط لما عصوه وكذبوا رسوله. وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله في العنكبوت: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٣] وقوله في الذاريات: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[٤] وقوله هنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ وقوله في الشعراء بعد ذكر قصة قوم لوط: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٥] الآية، كما صرح بمثل ذلك في إهلاك قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب في الشعراء»[٦].

قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾:

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإن هذه المدينة مدينة سَدُوم، لبطريق واضح مقيم يراها المجتاز بها لا خفاء بها، ولا يبرح مكانها، فيجهل ذو لبّ أمرها وغِبَّ[٧] معصية اللَّه، والكفر به»[٨].

قال الشنقيطي: «بين تعالى في هذه الآية الكريمة؛ أن ديار قوم لوط وآثار تدمير اللَّه لها بسبيل مقيم؛ أي: بطريق ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعد، يمر بها أهل الحجاز في ذهابهم إلى الشام، والمراد أن آثار تدمير اللَّه لهم التي تشاهدون في

---

(١) التفسير الكبير (١٩/ ٢١٣).
(٢) جامع البيان (١٤/ ٤٥).
(٣) العنكبوت: الآية (٣٥).
(٤) الذاريات: الآية (٣٧).
(٥) الشعراء: الآية (٨).
(٦) الأضواء (٢/ ٢٨٦).
(٧) غِبّ الشيء عاقبته.
(٨) جامع البيان (١٤/ ٤٧).

أسفاركم؛ فيها لكم عبرة ومزدجر يوجب عليكم الحذر من أن تفعلوا كفعلهم، لئلا ينزل اللَّه بكم مثل ما أنزل بهم، وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[١] وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾[٢]. وقوله فيها وفي ديار أصحاب الأيكة: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾. إلى غير ذلك من الآيات»[٣].

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾:

قال ابن جرير: «إن في صنيعنا بقوم لوط ما صنعنا بهم لعلامة ودلالة بينة لمن آمن باللَّه على انتقامه من أهل الكفر به، وإنقاذه من عذابه إذا نزل بقوم أهل الإيمان به منهم»[٤].

فصل في ما تضمنته هذه القصة من العبر

قال السعدي: «وفي هذه القصة من العبر: عنايته تعالى بخليله إبراهيم؛ فإن لوطًا ﷺ من أتباعه، وممن آمن به، فكأنه تلميذ له، فحين أراد اللَّه إهلاك قوم لوط حين استحقوا ذلك، أمر رسله أن يمروا على إبراهيم ﷺ كي يبشروه بالولد، ويخبروه بما بعثوا له، حتى إنه جادلهم ﷺ في إهلاكهم حتى أقنعوه، فطابت نفسه.

وكذلك لوط ﷺ، لما كانوا أهل وطنه، فربما أخذته الرقة عليهم والرأفة بهم، قدَّر اللَّه من الأسباب ما به يشتد غيظه وحنقه عليهم، حتى استبطأ إهلاكهم لما قيل له: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[٥]. ومنها: أن اللَّه تعالى إذا أراد أن يهلك قرية ازداد شرهم وطغيانهم، فإذا انتهى أوقع بهم من العقوبات ما يستحقونه»[٦].

* * *

---

(١) الصافات: الآيتان (١٣٧و١٣٨).
(٢) محمد ﷺ: الآية (١٠).
(٣) الأضواء (٢/ ٢٨٧-٢٨٨).
(٤) جامع البيان (١٤/ ٤٧).
(٥) هود: الآية (٨١).
(٦) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ۝٧٩﴾

★ **غريب الآية**

الأيكة: الشجرة الملتفة. جمعها: أَيْكٌ. قال أمية:

كَبُكا الحَمام على فروع الأيك في الطير الجوانح

إمام: الإمام: الطريق، لأن سالكه يتبعه. والإمام في اللغة: المتقدم الذي يتبعه غيره.

مبين: أي واضح.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن هذه هي القصة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة. فأولها: قصة آدم وإبليس. وثانيها: قصة إبراهيم ولوط. وثالثها: هذه القصة، وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب عليه السلام، كانوا أصحاب غياض[1] فكذبوا شعيبًا فأهلكهم اللَّه تعالى بعذاب يوم الظلة، وقد ذكر اللَّه تعالى قصتهم في سورة الشعراء»[2].

قال ابن كثير: «وكان ظلمهم بشركهم باللَّه وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان. فانتقم اللَّه منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة، وقد كانوا قريبًا من قوم لوط، بَعْدَهم في الزمان، ومسامتين لهم في المكان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: طريق مبين.

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: طريق ظاهر؛ ولهذا لما أنذر شعيب قومه

---

(١) واحد غَيْضة: وهي الأجَمَة والشَّجرُ الملتَفّ.

(٢) التفسير الكبير (١٩/ ٢١٣).

قال في نذارته إياهم: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾[(١)](٢).

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية أن أصحاب الأيكة كانوا ظالمين، وأنه -جل وعلا- انتقم منهم بسبب ظلمهم، وأوضح هذه القصة في مواضع أخر كقوله في الشعراء: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[(٣)] فبين في هذه الآية أن ظلمهم هو تكذيب رسولهم، وتطفيفهم في الكيل، وبخسهم الناس أشياءهم، وأن انتقامه منهم بعذاب يوم الظلة، وبين أنّه عذاب يوم عظيم، والظُّلة سحابة أظلتهم فأضرمها الله عليهم نارًا فأحرقتهم. والعلم عند الله تعالى»[(٤)].

* * *

(١) هود: الآية (٨٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٤٤).

(٣) الشعراء: الآيات (١٧٦-١٩٠).

(٤) أضواء البيان (٢/ ٢٨٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

★ غريب الآية

الحِجر: اسم واد كانت تسكنه ثمود. وأصله: المنع. ومنه سمي العقلُ حجرًا، لأنه يمنع صاحبه من الجهل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «هذه هي القصة الرابعة وهي قصة صالح»[١].

قال ابن كثير: «أصحاب الحجر هم ثمود الذين كذبوا صالحا نبيهم، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين؛ ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين»[٢].

قال الشنقيطي: «بيّن تعالى تكذيب ثمود لنبيه صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾[٣] الآيات. وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾[٤] وقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾[٥] وقوله: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٦] إلى غير ذلك من الآيات. وإنما قال إنهم كذبوا المرسلين، مع أن الذي كذبوه هو صالح وحده؛ لأن دعوة جميع الرسل واحدة، وهي تحقيق معنى (لا إله إلا الله)، كما بينه تعالى بأدلة عمومية وخصوصية. قال معممًا لجميعهم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا

---

(١) التفسير الكبير (١٩/ ٢١٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٤٦٢).
(٣) الشعراء: الآيتان (١٤١و١٤٢).
(٤) الشمس: الآية (١٤).
(٥) القمر: الآيتان (٢٣و٢٤).
(٦) الأعراف: الآية (٧٧).

نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[1] الآية. وقال: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾[2] وقال: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال في تخصيص الرسل بأسمائهم: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[4] وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ﴾[5] وقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾[6] إلى غير ذلك من الآيات.

فإذا حققتَ أن دعوة الرسل واحدة؛ عرفت أن من كذب واحدًا منهم فقد كذب جميعهم، ولذا صرح تعالى بأن من كفر ببعضهم فهو كافر حقًا؛ قال: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[7] وبين أنه لا تصح التفرقة بينهم بقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾[8] وقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾[9] ووعد الأجر على عدم التفرقة بينهم في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ﴾[10]»[11].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾:

قال ابن كثير: «ذكر تعالى أنهم آتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء فكانت تسرح في بلادهم، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم. فلما عَتَوا وعقروها قال لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾[12] وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾[13]»[14].

---

(١) الأنبياء: الآية (٢٥).
(٢) النحل: الآية (٣٦).
(٣) الزخرف: الآية (٤٥).
(٤) الأعراف: الآية (٥٩).
(٥) الأعراف: الآية (٦٥).
(٦) الأعراف: الآية (٨٥).
(٧) النساء: الآيتان (١٥٠و١٥١).
(٨) البقرة: الآية (١٣٦).
(٩) البقرة: الآية (٢٨٥).
(١٠) النساء: الآية (١٥٢).
(١١) الأضواء (٢/ ٢٨٩-٢٩٠).
(١٢) هود: الآية (٦٥).
(١٣) فصلت: الآية (١٧).
(١٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٤٥).

قال الشنقيطي: «اعلم أن مما يبين قوله هنا: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ قوله: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[1] وقوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾[2] الآية. وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾[3] الآية. وقوله: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾[4] وقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾[5] إلى غير ذلك من الآيات.

وبين إعراض قوم صالح عن تلك الآيات في مواضع كثيرة. كقوله: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[6] وقوله: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ﴾[7] الآية. وقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾[8] الآية. وقوله: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾[9]. وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ﴾[10]. وقوله: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[11]. إلى غير ذلك من الآيات»[12].

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾

قال ابن كثير: «أي من غير خوف ولا احتياج إليها، بل أشرًا وبطرًا وعبثًا، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بِوَادي الحِجْر، الذي مرّ به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك، فقَنَّع رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم»[13]»[14].

---

(١) الشعراء: الآيتان (١٥٤و١٥٥).
(٢) الأعراف: الآية (٧٣).
(٣) الإسراء: الآية (٥٩).
(٤) القمر: الآية (٢٧).
(٥) هود: الآية (٦٤).
(٦) الأعراف: الآية (٧٧).
(٧) هود: الآية (٦٥).
(٨) الشمس: الآيات (١١-١٤).
(٩) القمر: الآية (٢٩).
(١٠) الإسراء: الآية (٥٩).
(١١) الشعراء: الآيتان (١٥٣و١٥٤).
(١٢) الأضواء (٢/ ٣١١-٣١٢).
(١٣) سيأتي تخريجه قريبا.
(١٤) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٤٥).

وقال أبو حيان: «﴿ءَامِنِينَ﴾ قيل: من الانهدام. وقيل: من حوادث الدنيا. وقيل: من الموت لاغترارهم بطول الأعمار. وقيل: من نقب اللصوص، ومن الأعداء. وقيل: من عذاب اللّٰه، يحسبون أنّ الجبال تحميهم منه. قال ابن عطية: وأصح ما يظهر في ذلك أنهم كانوا يأمنون عواقب الآخرة، فكانوا لا يعملون بحسبها، بل كانوا يعملون بحسب الأمن منها»(١).

وقال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة؛ أن أصحاب الحجر وهم ثمود قوم صالح؛ كانوا آمنين في أوطانهم، وكانوا ينحتون الجبال بيوتًا. وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾(٣) الآية. وقوله: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾(٤) أي قطعوا الصخر بنحته بيوتًا»(٥).

قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾:

قال ابن كثير: «أي: وقت الصباح من اليوم الرابع، ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ أي: ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضَنُّوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها لئلا تضيق عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال، ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك»(٦).

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في مرور النبي عليه الصلاة والسلام بالحجر ديار ثمود، ونهيه عن الدخول عليهم

* عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول اللّٰه ﷺ قال لأصحاب الحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم إلا أن تكونوا باكين؛ فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن

(١) البحر (٥/ ٤٥١).
(٢) الشعراء: الآيات (١٤٦-١٤٩).
(٣) الأعراف: الآية (٧٤).
(٤) الفجر: الآية (٩).
(٥) الأضواء (٢/ ٣١٢).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٤٥).

يصيبكم مثل ما أصابهم»[١].

* عن ابن عمر: أن رسول اللَّه ﷺ نزل عام تبوك بالحِجر عند بيوت ثمر ثمود، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فنصبوا القدور. وعجنوا الدقيق، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**أكفئوا القدور، واعلفوا العجين الإبل**». ثم ارتحل، حتى نزل في الموضع الذي كانت تشرب منه الناقة، وقال: «**لا تدخلوا على هؤلاء القوم الذين عذبوا، فيصيبكم مثل ما أصابهم**»[٢].

⋆ فوائد الحديثين:

قال القرطبي: «يستفاد منه كراهة دخول أمثال تلك المواضع... فإن كان ولا بد من دخولها فعلى الصفة التي أرشد إليها النبي ﷺ من الاعتبار والخوف والإسراع... كما أن فيه دليلًا على بغض أهل الفساد، وذم ديارهم وآثارهم، هذا وإن كان التحقيق أن الجمادات غير مؤاخذات لكن المَقرونَ بالمحبوب محبوب والمقْرون بالمبغوض مبغوض؛ كما قال كُثَيِّر:

أُحِبُّ بِحُبِّها السُّودانَ حتى ... أُحِبَّ لِحُبِّها سُودَ الكِلاب

وقال آخر:

أمرّ على الديارِ ديارِ ليلى ... أُقبِّل ذا الجِدارَ وذا الجِدارا

وما حُبّ الديار شَغَفْنَ قلبي ... ولكنْ حُبّ مَن سَكَن الديارا»[٣].

وقال أيضًا: «فحق المار بموضع المُعاقَبين أن يُحدِّد النظر والاعتبار، ويكثر من الاستغفار، ويخاف من نقمة العزيز الغفار، وأن لا يطيل اللبث في تلك الدار»[٤].

قال النووي: «وفيه الحث على المراقبة عند المرور بديار الظالمين، ومواضع

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٩)، والبخاري (٨/ ٤٨٥/ ٤٧٠٢)، ومسلم (٤/ ٢٢٨٥-٢٢٨٦/ ٢٩٨٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٣/ ١١٢٧٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١١٧)، وابن حبان (١٤/ ٨٣/ ٦٢٠٣) واللفظ له. قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٥/ ١٠-١١): «وهذا الحديث إسناده على شرط الصحيحين من هذا الوجه ولم يخرجوه وإنما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس بن عياض أبي ضمرة عن عبيد اللَّه بن عمر عن نافع عن ابن عمر به».

(٣) المفهم (٧/ ٣٥٤-٣٥٥).

(٤) المفهم (٧/ ٣٥٤).

العذاب، ومثله الإسراع في وادي مُحسِّر؛ لأن أصحاب الفيل هلكوا هناك، فينبغي للمار في مثل هذه المواضع المراقبة والخوف والبكاء والاعتبار بهم وبمصارعهم، وأن يستعيذ بالله من ذلك»(١).

قال شيخ الإسلام: «فنهى عن عبور ديارهم إلا على الخوف المانع من العذاب. وهكذا السنة في مقارنة الظالمين والزناة وأهل البدع والفجور وسائر المعاصي، لا ينبغي لأحد أن يقارنهم ولا يخالطهم إلا على وجه يسلم به من عذاب الله ﷻ، وأقل ذلك أن يكون منكرًا لظلمهم، ماقتًا لهم، شانئًا ما هم فيه بحسب الإمكان. قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾(٢) الآية. وما ذكره عن يوسف الصدّيق وعمله على خزائن الأرض لصاحب مصر لقوم كفار. وذلك أن مقارنة الفجار إنما يفعلها المؤمن في موضعين:

أحدهما: أن يكون مكرَهًا عليه.

والثاني: أن يكون في ذلك مصلحة دينية راجحة على مفسدة المقارنة، أو أن يكون في تركها مفسدة راجحة في دينه، ويدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصل المصلحة الراجحة باحتمال المفسدة المرجوحة، وفي الحقيقة فالمكره هو من يدفع الفساد الحاصل باحتمال أدناهما، وهو الأمر الذي أكره عليه. قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾(٣)»(٤).

قال الحافظ: «قوله: «لا يصيبكم» بالرفع على أن (لا) نافية والمعنى: لئلا يصيبكم. ويجوز الجزم على أنها ناهية وهو أوجَه، وهو نهي بمعنى الخبر. وللمصنف في أحاديث الأنبياء: «أن يصيبكم» أي: خشية أن يصيبكم، ووجه هذه الخشية أن البكاء يبعثه على التفكر والاعتبار، فكأنه أمرهم بالتفكر في أحوال توجب البكاء من تقدير الله تعالى على أولئك بالكفر مع تمكينه لهم في الأرض، وإمهالهم مدة طويلة، ثم إيقاع نقمته بهم وشدة عذابه، وهو سبحانه مقلب القلوب،

(١) شرح مسلم (١٨/ ٨٦-٨٧).
(٢) التحريم: الآية (١١).
(٣) النحل: الآية (١٠٦).
(٤) مجموع الفتاوى (١٥/ ٣٢٤-٣٢٥).

فلا يأمن أن تكون عاقبته إلى مثل ذلك. والتفكر أيضًا في مقابلة أولئك نعمة اللَّه بالكفر وإهمالهم إعمال عقولهم فيما يوجب الإيمان به والطاعة له، فمن مر عليهم ولم يتفكر فيما يوجب البكاء اعتبارًا بأحوالهم فقد شابههم في الإهمال، ودل على قساوة قلبه، وعدم خشوعه، فلا يأمن أن يجره ذلك إلى العمل بمثل أعمالهم فيصيبه ما أصابهم، وبهذا يندفع اعتراض من قال: كيف يصيب عذاب الظالمين من ليس بظالم؟ لأنه بهذا التقرير لا يأمن أن يصير ظالمًا فيعذب بظلمه.

وفي الحديث الحث على المراقبة، والزجر عن السكنى في ديار المعذبين، والإسراع عند المرور بها، وقد أشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾[(١)]»[(٢)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإذا كانت الشريعة قد جاءت بالنهي عن مشاركة الكفار في المكان الذي حلّ بهم فيه العقاب؛ فكيف بمشاركتهم في الأعمال التي يعملونها واستحقوا بها العذاب؟

فإنه إذا قيل: هذا العمل الذي يعملونه لو تجرد عن مشابهتهم لم يكن محرمًا، ونحن لا نقصد التشبه بهم فيه؛ فنفس الدخول إلى المكان ليس بمعصية لو تجرد عن كونه أثرهم. ونحن لا نقصد التشبه بهم، بل المشاركة في العمل أقرب إلى اقتضاء العذاب من الدخول إلى الديار. فإن جميع ما يعملونه مما ليس من أعمال المسلمين السابقين: إما كفر، وإما معصية، وإما شعار كفر، أو شعار معصية، وإما مظنة للكفر والمعصية، وإما أن يخاف أن يجر إلى المعصية. وما أحسب أحدًا ينازع في جميع هذا. ولئن نازع فيه فلا يمكنه أن ينازع في أن المخالفة فيه أقرب إلى المخالفة في الكفر والمعصية، وأن حصول هذه المصلحة في الأعمال أقرب من حصولها في المكان.

ألا ترى أن متابعة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في أعمالهم أنفع وأولى من متابعتهم في مساكنهم ورؤية آثارهم؟»[(٣)].

وأما النهي عن الصلاة في هذه الأرض فقد مضى الكلام عليه في سورة الأعراف

---

(١) إبراهيم: الآية (٤٥).
(٢) فتح الباري (١/ ٦٩٨-٦٩٩).
(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (ص: ٨٢).

عند قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾[(١)].

وأما النهي عن الصلاة في أرض بابل، فقد روى أبو داود[(٢)] من حديث علي رضي الله عنه أنه قال: إن حبيبي النبي ﷺ: نهاني أن أصلي في المقبرة ونهاني أن أصلي في أرض بابل فإنها ملعونة.

وهذا الحديث ذكره البخاري تعليقًا بصيغة التمريض وبهذا قال الحافظ[(٣)] وفي إسناده ضعف، وضعفه أيضًا الشيخ الألباني في ضعيف سنن أبي داود[(٤)] وعلته الانقطاع بين أبي صالح الغفاري واسمه سعيد بن عبد الرحمن وبين علي رضي الله عنه.

ولهذا قال الخطابي: «إسناد هذا الحديث فيه مقال، ولا أعلم أحدًا من العلماء حرم الصلاة في أرض بابل»[(٥)].

* * *

(١) الأعراف: الآية (٧٣).
(٢) (١/ ٣٢٨/ ٤٩٠).
(٣) فتح الباري (١/ ٦٩٨).
(٤) (٩/ ١٧٠).
(٥) معالم السنن (١/ ٢٦٧).

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما خلقنا الخلائق كلها سماءها وأرضَها، ما فيهما وما بينهما، يعني بقوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ مما في أطباق ذلك ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ يقول: إلا بالعدل والإنصاف، لا بالظلم والجور، وإنما يعني -تعالى ذكره- بذلك: أنه لم يظلم أحدا من الأمم التي اقتصّ قَصَصَهَا في هذه السورة، وقصص إهلاكه إياها بما فعل به من تعجيل النقمة له على كفره به، فيعذّبه ويهلكه بغير استحقاق؛ لأنه لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما بالظلم والجور، ولكنه خلق ذلك بالحق والعدل»[1].

قال الشنقيطي: «ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق. أي ليدل بذلك على أنه المستحق لأن يعبد وحده، وأنه يكلف الخلق ويجازيهم على أعمالهم.

فدلت الآية على أنه لم يخلق الخلق عبثًا ولا لعبًا ولا باطلًا. وقد أوضح ذلك في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[2]، وقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[3] وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[4] الآية. وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾[5]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا

(١) جامع البيان (١٤/ ٥٠).
(٢) ص: الآية (٢٧).
(٣) آل عمران: الآية (١٩١).
(٤) الدخان: الآيتان (٣٨و٣٩).
(٥) المؤمنون: الآيتان (١١٥و١١٦).

فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴿٣١﴾﴾[1]، وقوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾[2]، إلى غير ذلك من الآيات»[3].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ﴾

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ وإن الساعة، وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة لجائية»[4].

قال الشنقيطي: «ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الساعة آتية، وأكد ذلك بحرف التوكيد الذي هو (إنَّ) وبلام الابتداء التي تزحلقها إن المكسورة عن المبتدأ إلى الخبر؛ وذلك يدل على أمرين:

أحدهما: إتيان الساعة لا محالة.

والثاني: أن إتيانها أنكره الكفار؛ لأن تعدد التوكيد يدل على إنكار الخبر، كما تقرر في فن المعاني.

وأوضح هذين الأمرين في آيات أخر؛ فبين أن الساعة آتية لا محالة في مواضع كثيرة؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾[5]، وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾[6]، وقوله: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴿١﴾ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا﴾[7]، الآية، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ﴾[8] الآية. وقوله: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾[9]، وقوله: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾[10]، وقوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾[11]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جدًا.

وبين -جل وعلا- إنكار الكفار لها في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

---

(١) النجم: الآية (٣١).
(٢) القيامة: الآيتان (٣٦و٣٧).
(٣) الأضواء (٢/ ٣١٢-٣١٣).
(٤) جامع البيان (١٤/ ٥١).
(٥) طه: الآية (١٥).
(٦) الحج: الآية (٧).
(٧) الحج: الآيتان (١و٢).
(٨) الجاثية: الآية (٣٢).
(٩) الروم: الآية (١٢).
(١٠) الروم: الآية (٥٥).
(١١) الأعراف: الآية (١٨٧).

﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[(١)] وقوله: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾[(٢)] وقوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾[(٣)]. والآيات بمثل ذلك كثيرة»[(٤)].

قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾

قال ابن جرير: «يقول: فأعرض عنهم إعراضًا جميلًا، واعف عنهم عفوًا حسنًا»[(٥)].

قال الشنقيطي: «أمر اللَّه -جل وعلا- نبيه -عليه الصلاة والسلام- في هذه الآية الكريمة أن يصفح عمن أساء الصفح الجميل؛ أي: بالحلم والإغضاء. وقال علي وابن عباس: الصفح الجميل: الرضا بغير عتاب. وأمره ﷺ يشمل حكمُه الأمة؛ لأنه قدوتهم والمشرّع لهم.

وبين تعالى ذلك المعنى في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[(٦)] وقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[(٧)]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[(٨)]، وقوله: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾[(٩)] الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

وقال بعض العلماء: هذا الأمر بالصفح منسوخ بآيات السيف. وقيل: هو غير منسوخ. والمراد به حسن المخالقة، وهي المعاملة بحسن الخلق»[(١٠)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن ربك هو الذي خلقهم وخلق كلّ شيء، وهو عالم بهم وبتدبيرهم، وما يأتون من الأفعال»[(١١)].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تقرير للمعاد، وأنه تعالى قادر

---

(١) سبأ: الآية (٣).
(٢) التغابن: الآية (٧).
(٣) الدخان: الآيتان (٣٤و٣٥).
(٤) الأضواء (٢/ ١١٣).
(٥) جامع البيان (١٤/ ٥١).
(٦) الزخرف: الآية (٨٩).
(٧) الفرقان: الآية (٦٣).
(٨) القصص: الآية (٥٥).
(٩) البقرة: الآية (١٠٩).
(١٠) الأضواء (٢/ ٣١٣-٣١٤).
(١١) جامع البيان (١٤/ ٥١).

على إقامة الساعة؛ فإنه الخلاق الذي لا يعجزه خلق ما يشاء، وهو العليم بما تمزّق من الأجساد، وتفرق في سائر أقطار الأرض، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أنه هو الخلاق العليم. والخلاق والعليم: كلاهما صيغة مبالغة. والآية تشير إلى أنه لا يمكن أن يتصف الخلاق بكونه خلاقًا إلا وهو عليم بكل شيء، لا يخفى عليه شيء، إذ الجاهل بالشيء لا يمكنه أن يخلقه.

وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[(٣)]، وقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[(٤)]، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[(٥)]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾[(٦)]، وقوله تعالى مجيبًا للكفار لما أنكروا البعث وقالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾[(٧)] مبينًا أن العالِم بما تمزق في الأرض من أجسادهم قادر على إحيائهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾[(٨)]. إلى غير ذلك من الآيات»[(٩)].

* * *

(١) يس: الآيات (٨١-٨٣).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٤٦).
(٣) يس: الآية (٧٩).
(٤) الملك: الآية (١٤).
(٥) البقرة: الآية (٢٩).
(٦) الطلاق: الآية (١٢).
(٧) ق: الآية (٣).
(٨) ق: الآية (٤).
(٩) الأضواء (٢/ ٣١٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما صبّره على أذى قومه، وأمره بأن يصفح الصفح الجميل؛ أتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التي خص اللَّه تعالى محمدًا ﷺ بها؛ لأن الإنسان إذا تذكر كثرة نعم اللَّه عليه سهل عليه الصفح والتجاوز»[1].

قال السعدي: «وإذا كان اللَّه قد أعطاه القرآن العظيم مع السبع المثاني؛ كان قد أعطاه أفضل ما يتنافس فيه المتنافسون، وأعظم ما فرح به المؤمنون، ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2]»[3].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة أن السبع المثاني هي فاتحة الكتاب

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ خرج على أبيّ بن كعب، فقال رسول اللَّه ﷺ: يا أبيّ! وهو يصلي، فالتفت أبيّ ولم يجبه، وصلى أبيّ فخفّف، ثم انصرف إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول اللَّه، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**وعليك السلام. ما منعك يا أبي أن تجيبني إذ دعوتك؟**» فقال: يا رسول اللَّه إني كنت في الصلاة، قال: «**أفلم تجد فيما أوحي إليّ أن** ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[4]؟» قال: بلى، ولا أعود إن شاء اللَّه. قال: «**تحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها؟**» قال: نعم يا رسول اللَّه، قال رسول اللَّه ﷺ: «**كيف تقرأ في الصلاة؟**» قال: فقرأ أم القرآن، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**والذي نفسي بيده ما أنزلت في التوراة**

---
(١) التفسير الكبير (١٩/ ٢١٦).
(٢) يونس: الآية (٥٨).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ١٧٨).
(٤) الأنفال: الآية (٢٤).

ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، وإنها سبع من المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته»[١].

* عن أبي سعيد بن المعلى ﷺ قال: «مر بي النبي ﷺ وأنا أصلي فدعاني، فلم آته حتى صليت، ثم أتيت فقال: ما منعك أن تأتي؟ فقلت: كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾[٢]؟ ثم قال: ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟ فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكّرته فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣] هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»[٤].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم»[٥].

★ **فوائد الأحاديث:**

هذه الأحاديث تدخل في التفسير المسند في تأويل قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ أن السبع المثاني فاتحة الكتاب. وقد روي عن ابن عباس أنها السبع الطُّوَل: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وبراءة. وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير؛ لأنها تُثنى فيها حدود القرآن والفرائض.

والقول الأول -أعني كونها الفاتحة- هو الصحيح في تأويل الآية كما نص على ذلك الحافظ ابن عبد البر[٦].

وقد ثبت عن ابن عباس أيضًا كما في مصنف عبدالرزاق أنه فسر السبع المثاني

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤١٢-٤١٣) والترمذي (٥/ ١٤٣/ ٢٨٧٥) واللفظ له، وقال: حسن صحيح. والنسائي (٢/ ٤٧٧/ ٩١٣) مختصرًا.

(٢) الأنفال: الآية (٢٤). (٣) الفاتحة: الآية (٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٥٠)، والبخاري (٨/ ٤٨٦/ ٤٧٠٣)، وأبو داود (٢/ ١٥٠/ ١٤٥٨)، والنسائي (٢/ ٤٧٦-٤٧٧/ ٩١٢)، وابن ماجه (٢/ ١٢٤٤/ ٣٧٨٥).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٤٨)، والبخاري (٨/ ٤٨٦/ ٤٧٠٤)، وأبو داود (٢/ ١٤٩-١٥٠/ ١٤٥٧)، والترمذي (٥/ ٢٧٧/ ٣١٢٤).

(٦) فتح البر (٤/ ٦٦٣).

بالفاتحة. وهذا أثبت عنه كما قال ابن عبدالبر.

ورجح ابن جرير أيضًا كونها فاتحة الكتاب لصحة الخبر بذلك عن رسول اللَّه ﷺ واحتج بحديث أبي هريرة وأبي سعيد بن المعلى[١].

وهو ترجيح القرطبي أيضًا حيث يقول -بعد ما سرد الأقوال الواردة في ذلك- قال: «والصحيح الأول -وهو القول بأنها الفاتحة- لأنه نص، وقد قدمنا في الفاتحة أنه ليس في تسميتها بالمثاني ما يمنع من تسمية غيرها بذلك، إلا أنه إذا ورد عن النبي ﷺ وثبت عنه نص في شيء لا يحتمل التأويل كان الوقوف عنده»[٢].

قال الشنقيطي: «اعلم أن النبي ﷺ بين في الحديث الصحيح: أن المراد بالسبع المثاني والقرآن العظيم في هذه الآية الكريمة، هو فاتحة الكتاب. ففاتحة الكتاب مبينة للمراد بالسبع المثاني والقرآن العظيم، وإنما بينت ذلك بإيضاح النبي ﷺ لذلك في الحديث الصحيح. ثم ذكر حديث أبي سعيد بن المعلى، ثم قال: «فهذا نص صحيح من النبي ﷺ أن المراد بالسبع المثاني والقرآن العظيم: فاتحة الكتاب، وبه تعلم أن قول من قال: إنها السبع الطوال، غير صحيح، إذ لا كلام لأحد معه ﷺ، ومما يدل على عدم صحة ذلك القول: أن آية الحجر هذه مكية، وأن السبع الطوال ما أنزلت إلا بالمدينة، والعلم عند اللَّه تعالى.

وقيل لها: «مثاني»؛ لأنها تثنى قراءتها في الصلاة. وقيل لها: «سبع»؛ لأنها سبع آيات. وقيل لها «القرآن العظيم» لأنها هي أعظم سورة؛ كما ثبت عن النبي ﷺ في الحديث الصحيح المذكور آنفًا.

وإنما عطف القرآن على السبع المثاني مع أن المراد بهما واحد، وهو الفاتحة، لما علم في اللغة العربية: من أن الشيء الواحد إذا ذكر بصفتين مختلفتين جاز عطف إحداهما على الأخرى تنزيلًا لتغاير الصفات منزلة تغاير الذوات؛ ومنه قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾[٣]، وقول الشاعر:

إلى الملِك القَرْم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم»[٤].

---

(١) تفسير ابن جرير (١٤/ ٥٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٣٧).

(٣) الأعلى: الآيات (١-٤).

(٤) أضواء البيان (٢/ ٣١٤-٣١٥).

قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه لما عرّف رسوله عظم نعمه عليه فيما يتعلق بالدين، وهو أنه آتاه سبعًا من المثاني والقرآن العظيم؛ نهاه عن الرغبة في الدنيا فحظر عليه أن يمد عينيه إليها رغبة فيها»[1].

قال أبو حيان: «لما ذكر تعالى ما أنعم به على رسوله ﷺ من إتيانه ما آتاه؛ نهاه. وقد قلنا: إنّ النهي لا يقتضي الملابسة ولا المقاربة عن طموح عينه إلى شيء من متاع الدنيا، وهذا وإن كان خطابًا للرسول ﷺ فالمعنى: نهى أمته عن ذلك؛ لأنّ من أوتي القرآن شغله النظر فيه، وامتثال تكاليفه، وفهم معانيه، عن الاشتغال بزهرة الدنيا، ومدُّ العين للشيء إنما هو لاستحسانه وإيثاره»[2].

قال الشنقيطي: «لما بين تعالى أنه آتى النبي ﷺ السبع المثاني والقرآن العظيم، وذلك أكبر نصيب، وأعظم حظ عند الله تعالى، نهاه أن يمد عينيه إلى متاع الحياة الدنيا الذي متع به الكفار؛ لأن من أعطاه ربه -جل وعلا- النصيب الأكبر والحظ الأوفر، لا ينبغي له أن ينظر إلى النصيب الأحقر الأخس، ولا سيما إذا كان صاحبه إنما أعطيه لأجل الفتنة والاختبار. وأوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله في طه: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[3] والمراد بالأزواج هنا: الأصناف من الذين

(١) التفسير الكبير (١٩/ ٢١٩).
(٢) البحر (٥/ ٤٥٢-٤٥٣).
(٣) طه: الآيات (١٣٠-١٣٢).

متعهم اللَّه بالدنيا»(١).

قال القرطبي: «هذه الآية تقتضي الزجر عن التشوف إلى متاع الدنيا على الدوام، وإقبال العبد على عبادة مولاه»(٢).

قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ قال أبو حيان: «نهاه تعالى عن الحزن عليهم إن لم يؤمنوا، وكان كثير الشفقة على من بعث إليه، وادًّا أن يؤمنوا باللَّه كلُّهم، فكان يلحقه الحزن عليهم. نهاه تعالى عن الحزن عمن لم يؤمن»(٣).

قال الشنقيطي: «الصحيح في معنى الآية الكريمة: أن اللَّه نهى نبيه ﷺ عن الحزن على الكفار إذا امتنعوا من قبول الإسلام. ويدل لذلك كثرة ورود هذا المعنى في القرآن العظيم. كقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾(٤)، وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾(٥)، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(٦)، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾(٧)، وقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(٨) إلى غير ذلك من الآيات.

والمعنى: قد بلّغتَ ولست مسؤولًا عن شقاوتهم إذا امتنعوا من الإيمان، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، فلا تحزن عليهم إذا كانوا أشقياء»(٩).

قوله: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ وأَلِن لمن آمن بك، واتبعك واتبع كلامك، وقرِّبهم منك، ولا تجف بهم، ولا تَغْلُظ عليهم، يأمره -تعالى ذكره- بالرفق بالمؤمنين. والجناحان من بني آدم: جنباه، والجناحان: الناحيتان، ومنه

(١) الأضواء (٢/ ٣١٥-٣١٦).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٣٨).
(٣) البحر (٥/ ٤٥٣).
(٤) النحل: الآية (١٢٧).
(٥) فاطر: الآية (٨).
(٦) الشعراء: الآية (٣).
(٧) الكهف: الآية (٦).
(٨) المائدة: الآية (٦٨).
(٩) الأضواء (٢/ ٣١٦).

قول اللَّه -تعالى ذكره-: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾[(١)] قيل: معناه: إلى ناحيتك وجنبك»[(٢)].

قال الشنقيطي: «أمر اللَّه نبيه في هذه الآية بخفض جناحه للمؤمنين، وخفض الجناح كناية عن لين الجانب والتواضع، ومنه قول الشاعر:

وأنت الشهير بخفض الجناح فلا تك في رفعه أجدلا

وبين هذا المعنى في مواضع أخر. كقوله في الشعراء: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٣)]، وكقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾[(٤)] إلى غير ذلك من الآيات.

ويفهم من دليل خطاب الآية الكريمة -أعني مفهوم مخالفتها- أن غير المؤمنين لا يخفض لهم الجناح، بل يعاملون بالشدة والغلظة.

وقد بين تعالى هذا المفهوم في مواضع أخر. كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾[(٥)]، وقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾[(٦)] وقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[(٧)]»[(٨)].

* * *

(١) القصص: الآية (٣٢).
(٢) جامع البيان (١٤/ ٦١).
(٣) الشعراء: الآية (٢١٥).
(٤) آل عمران: الآية (١٥٩).
(٥) التوبة: الآية (٧٣).
(٦) الفتح: الآية (٢٩).
(٧) المائدة: الآية (٥٤).
(٨) الأضواء (٢/ ٣١٦-٣١٧).

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٩ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾

★ **غريب الآية**

عضين: أي: أقسامًا وأجزاء متفرقة. يقال: عَضَّيتُ الشيء: إذا فرقته وبَعَّضْته. والتعضية: التفريق والتجزئة. قال رؤبة: وليس دينُ اللهِ بالمُعَضَّى؛ أي: بالمُقَسَّمِ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: وقل يا محمد للمشركين: إني أنا النذير الذي قد أبان إنذاره لكم من البلاء والعقاب أن ينزل بكم من اللَّه على تماديكم في غيكم. ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ يقول: مِثل الذي أنزل اللَّه تعالى من البلاء والعقاب على الذين اقتسموا القرآن فجعلوه عضين.

ثم اختلف أهل التأويل في الذين عنوا بقوله: ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ فقال بعضهم: عنى به اليهود والنصارى؛ وقال: كان اقتسامهم أنهم اقتسموا القرآن وعضَوْه، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه..

وقال آخرون: ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ أهل الكتاب ولكنهم سموا المقتسمين؛ لأن بعضهم قال استهزاء بالقرآن: هذه السورة لي، وقال بعضهم: هذه لي..

وقال آخرون: هم أهل الكتاب، ولكنهم قيل لهم: المقتسمون؛ لاقتسامهم كتبهم، وتفريقهم ذلك بإيمان بعضهم ببعضها، وكفره ببعض، وكفر آخرين بما آمن به غيرهم، وإيمانهم بما كفر به الآخرون..

وقال آخرون: عنى به رهطًا من كفار قريش بأعيانهم..

وقال آخرون: عنى به رهطًا من قوم صالح الذين تقاسموا على تبييت صالح وأهله..

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن اللَّه تعالى أمر نبيه ﷺ أن يُعلِم

قومه الذين عضَّوْا القرآن ففرّقوه، أنه نذير لهم من سخط اللَّه تعالى وعقوبته، أن يَحُلّ بهم على كفرهم ربهم، وتكذيبهم نبيهم، ما حلّ بالمقتسمين من قبلهم ومنهم، وجائز أن يكون عني بالمقتسمين: أهل الكتابين: التوراة والإنجيل؛ لأنهم اقتسموا كتاب اللَّه، فأقرّت اليهود ببعض التوراة وكذبت ببعضها، وكذبت بالإنجيل والفرقان، وأقرت النصارى ببعض الإنجيل وكذبت ببعضه وبالفرقان. وجائز أن يكون عُنِي بذلك: المشركون من قريش، لأنهم اقتسموا القرآن، فسماه بعضهم شعرًا، وبعضٌ كهانة، وبعضٌ أساطيرَ الأوّلين. وجائز أن يكون عُنِيَ به الفريقان، وممكن أن يكون عني به المقتسمون على صالح من قومه، فإذ لم يكن في التنزيل دلالة على أنه عُني به أحد الفرق الثلاثة دون الآخرين، ولا في خبر عن الرسول ﷺ، ولا في فطرة عقل، وكان ظاهر الآية محتملا ما وصفتُ؛ وجب أن يكون مقتضيا بأن كلّ من اقتسم كتابًا لله بتكذيب بعض وتصديق بعض، واقتسم على معصية اللَّه ممن حلّ به عاجل نقمة اللَّه في الدار الدنيا قبل نزول هذه الآية، فداخل في ذلك؛ لأنهم لأشكالهم من أهل الكفر باللَّه كانوا عبرة، وللمتعظين منهم عظة.

واختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ فقال بعضهم: معناه: الذين جعلوا القرآن فرقًا مفترقة. .

وقال آخرون: بل هي جمع عِضَة، جُمِعت عِضين، كما جمعت البُرّة بُرِين، والعِزَة عِزِين، فإذا وُجِّه ذلك إلى هذا التأويل كان أصل الكلام عِضَهَة، ذهبت هاؤها الأصلية، كما نقصوا الهاء من الشَّفَة وأصلها شَفَهَة، ومن الشاة، وأصلها شاهة، يدل على أن ذلك الأصلُ تصغيرهم الشفة: شُفَيْهة، والشاة: شُوَيْهة، فيردّون الهاءَ التي تسقط في غير حال التصغير إليها في حال التصغير، يقال منه: عَضَهْتُ الرجل أعضَهُه عَضْهًا. إذا بَهَتَّه، وقذفته ببُهتان، وكأن تأويل من تأوّل ذلك كذلك: الذين عَضَهوا القرآن، فقالوا: هو سِحْر، أو هو شعر، نحو القول الذي ذكرناه عن قتادة.

وقد قال جماعة من أهل التأويل: إنه إنما عَنَى بالعَضْه في هذا الموضع، نسبتهم إياه إلى أنه سِحْر خاصة دون غيره من معاني الذم. .

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن اللَّه -تعالى ذكره- أمر نبيه ﷺ أن يُعْلِم قومًا عَضَهُوا القرآن؛ أنه لهم نذير من عقوبة تنزل بهم بِعَضْهِهِمْ إياه؛ مثل ما

أنزل بالمقتسمين، وكان عَضْهُهُم إياه: قَذْفهُموه بالباطل، وقيلهم إنه شعر وسحر، وما أشبه ذلك.

وإنما قلنا إن ذلك أولى التأويلات به لدلالة ما قبله من ابتداء السورة وما بعده، وذلك قوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ على صحة ما قلنا، وإنه إنما عُنِيَ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ مشركي قومه، وإذ كان ذلك كذلك، فمعلوم أنه لم يكن في مشركي قومه من يؤمن ببعض القرآن ويكفر ببعض، بل إنما كان قومه في أمره على أحد معنيين: إما مؤمن بجميعه، وإما كافر بجميعه. وإذ كان ذلك كذلك، فالصحيح من القول في معنى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ قول الذين زعموا أنهم عَضَهوه، فقال بعضهم: هو سحر، وقال بعضهم: هو شعر، وقال بعضهم: هو كهانة، وما أشبه ذلك من القول. أو عَضَّوه ففرقوه، بنحو ذلك من القول، وإذا كان ذلك معناه احتمل قوله ﴿عِضِينَ﴾، أن يكون جمع: عِضة، واحتمل أن يكون جمع عُضْو، لأن معنى التعضية: التفريق، كما تُعَضّى الجَزُور والشاة، فتفرق أعضاء. والعَضْه: البَهْت، ورميه بالباطل من القول، فهما متقاربان في المعنى»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إنذار النبي ﷺ أمته، وحرصه على نجاتها

* عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «**إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومًا فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاءَ! فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق**»[(٢)].

★ **غريب الحديث:**

النذير العريان: قال النووي: قال العلماء: أصله أن الرجل إذا أراد إنذار قومه

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٦١-٦٦).

(٢) أخرجه: البخاري (١٣/ ٣١١/ ٧٢٨٣)، ومسلم (٤/ ١٧٨٨-١٧٨٩/ ٢٢٨٣).

وإعلامهم بما يوجب المخافة نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيدًا منهم ليخبرهم بما دهمهم، وأكثر ما يفعل هذا ربيئة القوم وهو طليعتهم ورقيبهم، قالوا: وإنما يفعل ذلك لأنه أبين للناظر وأغرب وأشنع منظرًا، فهو أبلغ في استحثاثهم في التأهب للعدو، وقيل: معناه: أنا النذير الذي أدركني جيش العدو فأخذ ثيابي فأنا أنذركم عريانًا.

أدلجوا: ساروا من أول الليل، أو ساروا الليل كله.

صبّحهم: أتاهم صباحًا، هذا أصله ثم كثر استعماله حتى استعمل فيمن طرق بغتة في أي وقت كان.

اجتاحهم: استأصلهم. من جُحتُ الشيء أجوحه: إذا استأصلته.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «هذا ضرب مثل لحاله في الإنذار ولأحوال السامعين لإنذاره، فإنه أنذرهم بما علمه من عقاب اللَّه وبما يتخوف عليهم من فجأته فمن صدقه نجا، ومن أعرض عنه هلك»[1].

قال الطيبي: «شبه ذاته -عليه الصلاة والسلام- بالرجل، وما بعثه اللَّه من إنذار القوم بعذاب اللَّه القريب بإنذار الرجل قومه: بالجيش المصبح، وشبه من أطاعه من أمته ومن عصاه بمن كذب الرجل في إنذاره وصدقه. وفي قول الرجل: أنا النذير إلى آخره أنواع من التأكيد، أحدها بعيني؛ لأن الرؤية لا يكون إلا بها. وثانيها: قوله: «وأنا»، وثالثها: «العريان»؛ فإنه دل على بلوغ النهاية في قرب العدو، وفي ذلك تنبيه على أنه الذي يختص في إنذاره بالصدق، والذي لا شبهة فيه، وهو الذي يحرص جدًّا على خلاص قومه من الهلاك. قال في القرينة الأولى: فأطاعني، وقابله في الثانية: بكذب؛ ليؤذن بأن الإطاعة مسبوقة بالتصديق، ويشعر أن التكذيب مستتبع للعصيان، كأنه جمع في كل من الفقرتين بين المعنيين وإلى المعنيين أشار بقوله عليه الصلاة والسلام: «من أطاعني» إلى آخره. وأتبع قوله: «اجتاحهم». قوله: «أهلكهم» إعلامًا بأنه أهلكهم عن آخرهم، فلم يبق منهم أحد.

---

(١) المفهم (٦/ ٨٥).

وفي ذكر العينين إرشاد منه ﷺ تَحقُّق عنده جميع ما أخبر عنه تحقق من رأى شيئًا بعينه لا يعتريه وهم ولا يخالطه شك»[١].

وفي معنى (النذير العريان) **يقول الطيبي**: «هذا مثل سائر يضرب لشدة الأمر، ودنو المحذور، وبراءة المحذر عن التهمة، وأصله أن الرجل إذا رأى العدو قد هجم على قومه وأراد أن يفاجئهم وكان يخشى لحقوهم عند لحوقه تجرد عن ثوبه وجعله على رأس خشبة وصاح، ليأخذوا حذرهم، ويستعدوا قبل لحوقهم»[٢].

قال الحافظ: «وفيه إشارة إلى أن الإنسان إلى النذير أحوج منه إلى البشير؛ لأن جبلته مائلة إلى الحظ العاجل دون الحظ الآجل. وفي الحديث ما كان فيه ﷺ من الرأفة والرحمة والحرص على نجاة الأمة كما قال تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٣]»[٤].

* * *

(١) أفاده الطيبي عن الأشرف (٢/ ٦١٢-٦١٣).

(٢) شرح الطيبي (٢/ ٦١٢).

(٣) التوبة: الآية (١٢٨).

(٤) فتح الباري (١١/ ٣٨٦).

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: فوربك يا محمد لنسألنّ هؤلاء الذين جعلوا القرآن في الدنيا عِضين؛ في الآخرة عما كانوا يعملون في الدنيا، فيما أمرناهم به، وفيما بعثناك به إليهم من آي كتابي الذي أنزلته إليهم، وفيما دعوناهم إليه من الإقرار به ومن توحيدي والبراءة من الأنداد والأوثان»[(١)].

قال ابن عطية: «﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾ إلى آخر الآية؛ ضمير عام، ووعيد محض، يأخذ كل أحد منه بحسب جرمه وعصيانه، فالكافر يسأل عن لا إله إلا اللَّه، وعن الرسل، وعن كفره وقصده به، والمؤمن العاصي يسأل عن تضييعه، والإمام عن رعيته، وكل مكلف عما كُلف القيام به. وفي هذا المعنى أحاديث»[(٢)].

قال القرطبي: «والآية بعمومها تدل على سؤال الجميع، ومحاسبتهم كافرهم ومؤمنهم، إلا من دخل الجنة بغير حساب.. فإن قيل: وهل يسأل الكافر ويحاسب؟ قلنا: فيه خلاف.. والذي يظهر سؤاله؛ للآية، وقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾[(٣)] وقوله: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾[(٤)].

فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[(٥)] وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾[(٦)]، وقال: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾[(٧)]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[(٨)].

قلنا: القيامة مواطن، فموطن يكون فيه سؤال وكلام، وموطن لا يكون ذلك فيه. قال عكرمة: القيامة مواطن، يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها. وقال ابن

(١) جامع البيان (١٤/ ٦٦-٦٧).
(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٣٧٥).
(٣) الصافات: الآية (٢٤).
(٤) الغاشية: الآيتان (٢٥و٢٦).
(٥) القصص: الآية (٧٨).
(٦) الرحمن: الآية (٣٩).
(٧) الآية (١٧٤) في البقرة، و(٧٧) في آل عمران.
(٨) المطففين: الآية (١٥).

عباس: لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام، هل عملتم كذا وكذا؟ لأن اللَّه عالم بكل شيء؛ ولكن يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ، فيقول لهم: لم عصيتم القرآن؟ وما حجتكم فيه؟.. وقيل: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني: المؤمنين المكلفين، بيانه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾(١). والقول بالعموم أولى كما ذكر. واللَّه أعلم»(٢).

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في إطلاق العمل على الإيمان

* عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ سئل: أي العمل أفضل؟ فقال: «**إيمان باللَّه ورسوله**». قيل: ثم ماذا؟ قال: «**الجهاد في سبيل اللَّه**». قيل: ثم ماذا؟ قال: «**حج مبرور**»(٣).

★ غريب الحديث:

حج مبرور: أي: مقبول. ومنه بَرَّ حجُّك. وقيل: المبرور: الذي لا يخالطه إثم. وقيل: الذي لا رياء فيه.

★ فوائد الحديث:

ترجم البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذا الحديث في كتاب الإيمان من صحيحه بقوله: «باب من قال: إن الإيمان هوالعمل، لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٤) وقال عدة من أهل العلم في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ عن قول: لا إله إلا اللَّه، وقال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾(٥)».

قال الحافظ: «مطابقة الآيات والحديث لما ترجم له بالاستدلال بالمجموع على المجموع؛ لأن كل واحد منها دالّ بمفرده على بعض الدعوى.. وقوله: ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ خاص بعمل اللسان على ما نقله المؤلف.. وقوله: في الحديث:

(١) التكاثر: الآية (٨).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٤٠-٤١).
(٣) أخرجه: البخاري (١/ ١٠٥/ ٢٦)، ومسلم (١/ ٨٨/ ٨٣)، والنسائي (٨/ ٤٦٩/ ٥٠٠٠) مختصرًا.
(٤) الزخرف: الآية (٧٢). (٥) الصافات: الآية (٦١).

«إيمان بالله» في جواب: «أي العمل أفضل؟» دالّ على أن الاعتقاد والنطق من جملة الأعمال»[١].

وقال أيضًا: «﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إلى آخره؛ قال النووي: معناه عن أعمالهم كلها؛ أي: التي يتعلق بها التكليف، وتخصيص ذلك بالتوحيد دعوى بلا دليل. قلت: لتخصيصهم وجه من جهة التعميم في قوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ بعد أن تقدم ذكر الكفار إلى قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيدخل فيه المسلم والكافر؛ فإن الكافر مخاطب بالتوحيد بلا خلاف، بخلاف باقي الأعمال ففيها الخلاف، فمن قال: إنهم مخاطبون يقول: إنهم مسؤولون عن الأعمال كلها، ومن قال: إنهم غير مخاطبين يقول: إنما يُسألون عن التوحيد فقط، فالسؤال عن التوحيد متفق عليه. فهذا هو دليل التخصيص، فحمل الآية عليه أولى، بخلاف الحمل على جميع الأعمال لما فيه من الاختلاف»[٢].

قال الحافظ ابن رجب: «وأما حديث أبي هريرة، فهو يدل على أن الإيمان بالله ورسوله عمل؛ لأنه جعله أفضل الأعمال، والإيمان بالله ورسوله؛ الظاهر أنه إنما يُراد به الشهادتان مع التصديق بهما؛ ولهذا ورد في حديث: «بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله»[٣] وفي رواية ذكر «الإيمان بالله ورسوله»[٤] بدل «الشهادتين»؛ فدل على أن المراد بهما واحد؛ ولهذا عطف في حديث أبي هريرة على هذا الإيمان «الجهاد» ثم «الحج»، وهما مما يدخل في اسم الإيمان المطلق؛ لكن الإيمان بالله أخصّ من الإيمان المطلق، فالظاهر أنه إنما يُراد بهما الشهادتان مع التصديق بهما، فإذا سمى الشهادتين عملًا دل على أن قول اللسان عمل.

وقد كان طائفة من المرجئة يقولون: الإيمان قول وعمل -موافقة لأهل الحديث-، ثم يفسرون العمل بالقول ويقولون: هو عمل اللسان»[٥].

---

(١) فتح الباري (١/ ١٠٥-١٠٦).
(٢) المصدر السابق (١/ ١٠٦).
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ١٢٠) والبخاري (١/ ٦٧-٦٨/ ٨) ومسلم (١/ ٤٥/ ١٦) والنسائي (٨/ ٤٨١-٤٨٢/ ٥٠١٦).
(٤) أخرجه البخاري معلقًا (٨/ ٢٣٢/ ٤٥١٤).
(٥) فتح الباري لابن رجب (١/ ١٢٢).

قال النووي: «وأما قوله ﷺ وقد سئل: أي الأعمال أفضل؟ فقال: «**إيمان بالله ورسوله**»؛ ففيه تصريح بأن العمل يطلق على الإيمان، والمراد به والله أعلم الإيمان الذي يدخل به في ملة الإسلام، وهو التصديق بقلبه والنطق بالشهادتين، فالتصديق عمل القلب والنطق عمل اللسان، ولا يدخل في الإيمان ههنا الأعمال بسائر الجوارح، كالصوم والصلاة والحج والجهاد وغيرها لكونه جعل قسمًا للجهاد والحج، ولقوله ﷺ: «**إيمان بالله ورسوله**» ولا يقال هذا في الأعمال، ولا يمنع هذا من تسمية الأعمال المذكورة إيمانًا، فقد قدمنا دلائله. والله أعلم»[١].

* * *

(١) شرح مسلم (٢/ ٦٨).

قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

★ غريب الآية

اصدع: اجهر وأظهر. وأصل الصدع: الفرْق والفصْل. وكأن المراد: فَرِّقْ بين الحق والباطل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فامض وافرُق»[١].

قال الزمخشري: «﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فاجهر به وأظهره، يقال: صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارًا، كقولك: صرّح بها، من الصديع وهو الفجر، والصدع في الزجاجة: الإبانة. وقيل: ﴿فَاصْدَعْ﴾ فافرُق بين الحق والباطل بما تؤمر، والمعنى بما تؤمر به من الشرائع»[٢].

وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه ﷺ: بلّغ قومك ما أُرسلتَ به، واكفف عن حرب المشركين بالله وقتالهم. وذلك قبل أن يفرض عليه جهادهم، ثم نَسَخَ ذلك بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾[٣]»[٤].

قال الشنقيطي: «في هذه الآية قولان معروفان للعلماء: أحدهما أن معنى ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لا تبال بتكذيبهم واستهزائهم، ولا يصعب عليك ذلك. فالله حافظك منهم.

والآية على هذا التأويل معناها: فاصدع بما تؤمر أي: بلّغ رسالة ربك، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: لا تبال بهم ولا تخشهم. وهذا المعنى كقوله

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٦٧).
(٢) الكشاف (٢/ ٣٩٩).
(٣) التوبة: الآية (٥).
(٤) جامع البيان (١٤/ ٦٩).

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾(١).

الوجه الثاني -وهو الظاهر في معنى الآية-: أنه كان في أول الأمر مأمورًا بالإعراض عن المشركين، ثم نسخ ذلك بآيات السيف. ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٢)، وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾(٣)، وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾(٤) وقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾(٥). إلى غير ذلك من الآيات»(٦).

وقوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾:

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: إنا كفيناك المستهزئين يا محمد، الذين يستهزئون بك ويسخرون منك، فاصدع بأمر اللَّه، ولا تخف شيئا سوى اللَّه، فإن اللَّه كافيك مَن ناصَبك وآذاك كما كفاك المستهزئين. وكان رؤساء المستهزئين قوما من قريش معروفين»(٧).

وقال الشنقيطي: «بين تعالى في هذه الآية أنه كفى نبيه ﷺ المستهزئين، الذين كانوا يستهزئون به وهم قوم من قريش. وذكر في مواضع أخر أنه كفاه غيرهم. كقوله في أهل الكتاب: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ﴾(٨) الآية. وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ﴾(٩). إلى غير ذلك من الآيات»(١٠).

قال الرازي: «واعلم أن المفسرين اختلفوا في عدد هؤلاء المستهزئين، وفي أسمائهم، وفي كيفية طريق استهزائهم، ولا حاجة إلى شيء منها، والقدر المعلوم أنهم طبقة لهم قوة وشوكة ورياسة؛ لأن أمثالهم هم الذين يقدرون على إظهار مثل هذه السفاهة مع مثل رسول اللَّه ﷺ في علو قدره وعظيم منصبه، ودل القرآن على أن

---

(١) المائدة: الآية (٦٧).
(٢) الأنعام: الآية (١٠٦).
(٣) السجدة: الآية (٣٠).
(٤) النجم: الآية (٢٩).
(٥) الأحزاب: الآية (٤٨).
(٦) الأضواء (٢/ ٣٢٠-٣٢١).
(٧) جامع البيان (١٤/ ٦٩).
(٨) البقرة: الآية (١٣٧).
(٩) الزمر: الآية (٣٦).
(١٠) الأضواء (٢/ ٣٢١).

اللَّه تعالى أفناهم وأبادهم وأزال كيدهم. واللَّه أعلم»[١].

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾:

قال ابن جرير: «وعيد من اللَّه -تعالى ذكره- وتهديد للمستهزئين، الذين أخبر نبيه ﷺ أنه قد كفاه أمرهم بقوله -تعالى ذكره-: إنا كفيناك يا محمد الساخرين منك، الجاعلين مع اللَّه شريكًا في عبادته، فسوف يعلمون ما يلقون من عذاب اللَّه عند مصيرهم إليه في القيامة، وما يَحُلّ بهم من البلاء»[٢].

قال القاسمي: «وفي الآية وعيد شديد لمن جعل معه تعالى معبودًا آخر»[٣].

* * *

(١) التفسير الكبير (١٩/ ٢٢٥).
(٢) جامع البيان (١٤/ ٧٣).
(٣) محاسن التأويل (١٠/ ٧٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ولقد نعلم يا محمد أنك يضيق صدرك بما يقول هؤلاء المشركون من قومك؛ من تكذيبهم إياك، واستهزائهم بك وبما جئتهم به، وأن ذلك يحرجك»[١].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة؛ أنه يعلم أن نبيه ﷺ يضيق صدره بما يقول الكفار فيه؛ من الطعن والتكذيب، والطعن في القرآن. وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر؛ كقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾[٢]، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾[٣]، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[٤] وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٥]. إلى غير ذلك من الآيات»[٦].

قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ **قال ابن جرير**: «يقول: فافزع فيما نابك من أمر تكرهه منهم إلى الشكر لله والثناء عليه والصلاة؛ يكفك اللّه من ذلك ما أهمّك. وهذا نحو الخبر الذي رُوي عن رسول اللّه ﷺ «أنه كان إذا حَزَبَه أمر فزع إلى الصلاة»»[٧].

قال القرطبي: «﴿فَسَبِّحْ﴾ أي: فافزع إلى الصلاة، فهي غاية التسبيح ونهاية التقديس. وذلك تفسير لقوله: ﴿وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ ولا خفاء أن غاية القرب في الصلاة حال السجود، كما قال عليه السلام: **«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد،**

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٧٣).
(٢) الأنعام: الآية (٣٣).
(٣) هود: الآية (١٢).
(٤) الكهف: الآية (٦).
(٥) الشعراء: الآية (٣).
(٦) الأضواء (٢/ ٣٢١).
(٧) جامع البيان (١٤/ ٧٣).

فأخلصوا الدعاء»[1]. ولذلك خص السجود بالذكر»[2].

قال الشنقيطي: «أمر -جل وعلا- نبيه في هذه الآية بأمرين: أحدهما: قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، والثاني: قوله: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

وقد كرر تعالى في كتابه الأمر بالشيئين المذكورين في هذه الآية الكريمة، كقوله في الأول: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾[3]، وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[4]، وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾[5]. والآيات بمثلها كثيرة»[6].

وقال أيضًا: «واعلم أن ترتيبه -جل وعلا- الأمر بالتسبيح والسجود على ضيق صدره ﷺ بسبب ما يقولون له من السوء؛ دليل على أن الصلاة والتسبيح سبب لزوال ذلك المكروه، ولذا كان ﷺ إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة. وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[7]»[8].

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في الفزع إلى الصلاة عند اشتداد الأمور، وأنها تكفي الإنسان ما أهمّه

* عن حذيفة ﷺ قال: «كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة»[9].

★ **غريب الحديث:**

حزبه أمر: نابه واشتدّ عليه أو ضغطه[10].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «وأما الصلاة فشأنها في تفريح القلب وتقويته، وشرحه وابتهاجه

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢١) ومسلم (١/ ٣٥٠/ ٤٨٢) وأبو داود (١/ ٥٤٥/ ٨٧٥) والنسائي (١/ ٥٧٦/ ١١٣٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٤٢).

(٣) النصر: الآية (٣).

(٤) طه: الآية (١٣٠).

(٥) غافر: الآية (٥٥).

(٦) الأضواء (٢/ ٣٢١).

(٧) البقرة: الآية (٤٥).

(٨) المصدر نفسه (٢/ ٣٢١).

(٩) رواه: أحمد (٥/ ٣٨٨)، وابن جرير (١/ ٢٦٠) واللفظ له، وأبو داود (٢/ ٧٨/ ١٣١٩).

(١٠) القاموس (ص: ٩٤).

ولذته أكبر شأن، وفيها من اتصال القلب والروح بالله، وقربه والتنعم بذكره، والابتهاج بمناجاته، والوقوف بين يديه، واستعمال جميع البدن وقواه وآلاته في عبوديته، وإعطاء كل عضو حظه منها، واشتغاله عن التعلق بالخلق وملابستهم ومحاوراتهم، وانجذاب قوى قلبه وجوارحه إلى ربه وفاطره، وراحته من عدوه حالة الصلاة ما صارت به من أكبر الأدوية والمفرحات والأغذية التي لا تلائم إلا القلوب الصحيحة. وأما القلوب العليلة، فهي كالأبدان لا تناسبها إلا الأغذية الفاضلة.

فالصلاة من أكبر العون على تحصيل مصالح الدنيا والآخرة، ودفع مفاسد الدنيا والآخرة، وهي منهاة عن الإثم، ودافعة لأدواء القلوب، ومَطردة للداء عن الجسد، ومُنوّرة للقلب، ومُبيّضة للوجه، ومنشّطة للجوارح والنفس، وجالبة للرزق، ودافعة للظلم، وناصرة للمظلوم، وقامعة لأخلاط الشهوات، وحافظة للنعمة، ودافعة للنقمة، ومُنزلة للرحمة، وكاشفة للغمة»[١].

* عن نعيم بن همار قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يقول الله ﷻ: يا بن آدم لا تعجزني من أربع ركعات في أول نهارك أكفك آخره**»[٢].

⋆ فوائد الحديث:

قال الطيبي: «قوله: «**أكفك آخره**» قال المظهر: أي: شغلك وحوائجك وأدفع عنك ما تكرهه بعد صلاتك إلى آخر النهار. وأقول: لعل الأنسب أن يقال: المعنى: يا بن آدم فرغ بالك أول النهار واشتغل بعبادتي حتى أفرغ بالك في آخر النهار بقضاء حوائجك ودفع المضار عنك»[٣].

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٢٠٩-٢١٠).

(٢) أخرجه: أخرجه: أحمد (٥/ ٢٨٦)، وأبو داود (٢/ ٦٣/ ١٢٨٩)، والنسائي في الكبرى (١/ ١٧٧/ ٤٦٧)، وصحح إسناده النووي في المجموع (٣/ ٤٩٠).

(٣) شرح الطيبي على المشكاة (٤/ ١٢٤١).

قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «أمر -جل وعلا- نبيه بأن يعبد ربه؛ أي: يتقرّب له على وجه الذل والخضوع والمحبة؛ بما أمر أن يتقرب له به من جميع الطاعات على الوجه المشروع. وجُل القرآن في تحقيق هذا الأمر الذي هو حظ الإثبات من لا إله إلا اللَّه، مع حظ النفي منها، وقد بيّن القرآن أن هذا لا ينفع إلا مع تحقيق وجود الثاني من كلمة التوحيد، الذي هو حظ النفي منها؛ وهو خلع جميع المعبودات سوى اللَّه تعالى في جميع أنواع العبادات. قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾[1]، وقال: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾[2]، وقال: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾[3]، وقال: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾[4]، وقال: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾[5]. والآيات بمثل ذلك كثيرة جدًّا»[6].

قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ **قال ابن جرير**: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: واعبد ربك حتى يأتيك الموت الذي أنت موقن به»[7].

قال الشنقيطي: «ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾[8] وهو الموت»[9].

قال ابن عطية: «وليس اليقين من أسماء الموت، وإنما العلم به يقين لا يمتري فيه عاقل، فسماه هنا يقينًا تجوزًا؛ أي: يأتيك الأمر اليقين علمه ووقوعه، وهذه الغاية معناها مدة حياتك»[10].

---

(١) هود: الآية (١٢٣).
(٢) مريم: الآية (٦٥).
(٣) النساء: الآية (٣٦).
(٤) البقرة: الآية (٢٥٦).
(٥) يوسف: الآية (١٠٦).
(٦) الأضواء (٢/ ٣٢٣).
(٧) جامع البيان (١٤/ ٧٤).
(٨) المدثر: الآيات (٤٣-٤٧).
(٩) الأضواء (٢/ ٣٢٤).
(١٠) المحرر الوجيز (٣/ ٣٧٦).

قال أبو حيان: «وحكمة التغيية باليقين، وهو الموت أنه يقتضي ديمومة العبادة ما دام حيًا، بخلاف الاقتصار على الأمر بالعبادة غير مغيًا لأنه يكون مطلقًا، فيكون مطيعًا بالمرة الواحدة، والمقصود أن لا يفارق العبادة حتى يموت»(١).

قال ابن كثير: «ويستدل من هذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ على أن العبادة كالصلاة ونحوها؛ واجبةٌ على الإنسان ما دام عقله ثابتًا، فيصلي بحسب حاله، كما ثبت في صحيح البخاري، عن عمران بن حصين، رضي الله عنهما، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**صَلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جَنْب**»(٢).

ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم. وهذا كفر وضلال وجهل؛ فإن الأنبياء عليهم السلام، كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس باللَّه وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة. وإنما المراد باليقين ههنا الموت، كما قدمناه. ولله الحمد والمنة، والحمد لله على الهداية، وعليه الاستعانة والتوكل، وهو المسؤول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها، فإنه جواد كريم وحسبنا اللَّه ونعم الوكيل»(٣).

ماورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير اليقين بالموت

* عن خارجة بن زيد بن ثابت: أن أم العلاء -امرأة من الأنصار بايعت النبي ﷺ- أخبرته أنه اقتسم المهاجرون قرعة، فطار لنا عثمان بن مظعون فأنزلناه في أبياتنا، فوجع وجعه الذي توفي فيه، فلما توفي وغسل وكفن في أثوابه دخل رسول اللَّه ﷺ، فقلت: رحمة اللَّه عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك اللَّه فقال النبي ﷺ: «**وما يدريك أن اللَّه قد أكرمه؟**» فقلت: بأبي أنت يا رسول اللَّه، فمن يكرمه الله؟

---

(١) البحر (٥/ ٤٥٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٢٦) والبخاري (٢/ ٧٤٧/ ١١١٧) وأبو داود (١/ ٥٨٥/ ٩٥٢) والترمذي (٢/ ٢٠٨/ ٣٧٢) وابن ماجه (١/ ٣٨٦/ ١٢٢٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٥٤).

فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير، والله ما أدري -وأنا رسول الله- ما يفعل بي». قالت: فوالله لا أزكي أحدًا بعده أبدًا[١].

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من خير معاش الناس لهم، رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعة أو فزعة، طار عليه يبتغي القتل والموت مظانه أو رجل في غنيمة في رأس شعفة من هذه الشعف. أو بطن واد من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة. ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير»[٢].

★ غريب الحديث:

يطير على متنه: أي: يسارع على ظهره.

هيعة: هي الصوت عند حضور العدو، وهي بفتح الهاء وإسكان الياء.

فزعة: والفزعة، بإسكان الزاي: النهوض إلى العدو.

يبتغي القتل مظانه: أي: يطلبه في مواطنه التي يرجى فيها لشدة رغبته في الشهادة.

الشعف: بفتح الشين والعين: أعلى الجبل.

★ فوائد الحديثين:

هذان الحديثان سيقا لبيان معنى اليقين الوارد في الآية وأن المراد به الموت..

قال الشنقيطي تعليقا على حديث خارجة: هذا الحديث الصحيح يدل على أن اليقين الموت وقول من قال: إن المراد باليقين انكشاف الحقيقة، وتيقن الواقع لا ينافي ما ذكرنا، لأن الإنسان إذا جاءه الموت ظهرت له الحقيقة يقينًا. ولقد أجاد التهامي في قوله:

والعيش نوم والمنية يقظة … والمرء بينهما خيال ساري»[٣].

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٣٦)، والبخاري (٣/ ١٤٧/ ١٢٤٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٤٣)، ومسلم (٣/ ١٥٠٣-١٥٠٤/ ١٨٨٩)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٥٧/ ٨٨٣٠)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٦/ ٣٩٧٧).

(٣) الأضواء (٢/ ٣٢٤).

فهرس الموضوعات

سورة الرعد

سورة إبراهيم

سورة الحجر

* * *